البحث عن مستقبل لاعنفي

وعد سلام لأجل أنفسنا وعائلاتنا وعالمنا

مايكل ن. ناغلَر

ترجمة: غياث جازي

عنوان الكتاب: البحث عن مستقبل لاعنفي
تأليف: مايكل ن. ناغلر
ترجمة: غياث جازي
مراجعة وإخراج: هفال يوسف
تصميم الغلاف: دارين أحمد

الطبعة الأولى، 2009

معابر للنشر والتوزيع
سوريا، دمشق
ص. ب: 5866
هاتف: 00963-11-3312257
بريد إلكتروني: maaber@scs-net.org

البحث عن مستقبل لاعنفي

مقدمة

بقلم الأستاذ ندرة اليازجي

قرأت كتاب "The Search For A Nonviolence future" الذي تُرجم إلى اللغة العربية بعنوان "البحث عن مستقبل لاعنفي". وعلى نحوٍ موازٍ ومتساوق ومتوافق في المبدأ والتحليل، قرأتُ الكتب السبعة التالية:

1- Coming to our Senses – Morris Berman
2- Recovering the Soul – Larry Dossey M.D.
3- The Future of Man – P.T. De charelin
4- The Future Evolution of Man – Sri Aurolindo
5- The Turning Point – Fritjoff Capra
6- The Living Company – Dudly Young
7- Man in Search of a Soul – C.G. Young

تأملت ما جاء في هذه الكتب بوعي، وأدركت أنها تطرح موضوع أزمة الإنسان المعاصر، وموضوع التقنية العدوانية ومصير الإنسان؛ أي مستقبل الإنسان ومستقبل المجتمعات البشرية على بساط البحث، وتدعو إلى تحقيق مستقبل يخلو من الإشراطات المجسدة بالعنف.

من جانبي أشكر صديقي أكرم إنطاكي الذي سعى إلى ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية، وطلب مني أن أضع مقدمة لهذه الترجمة.

يهدف هذا البحث إلى معالجة قضية التقنية العدوانية وعلاقتها بمأساة الإنسان المعاصر المنفعل بعقلٍ متدنٍ أو تحتي يعاني من عصاب، ويبرر العنف، ويسوّغ كل أنواع الإدانة والإدانة المضادة، والاعتداء في سبيل إعلاء شأن معتقده أو موقفه الفكري المحتجز ضمن نطاق مركزية الأنا الفردية أو مركزية الأنا التجمعية.

والحق إن الإنسان المعاصر يعاني من انفعال نفسي شديد، يُحتمل أنه بلغ حدّه الأقصى في العصاب، وأدى إلى فقدان التوازن الداخلي، والتكامل المتبادل للوظائف النفسية التي تتميز بها الشخصية الواعية، المحبة والمتعاطفة التي تسعى إلى تحقيق توافق مع السلام الداخلي والسلام الخارجي في الحياة الإنسانية والاجتماعية.

في نهاية عشرينات القرن العشرين، وهي الفترة الواقعة بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية مروراً بالأزمة الاقتصادية الخانقة التي حدثت خلال ثلاثينات ذلك القرن، شاهدي ألكسي كارِل، العالم والفيلسوف الرائع، ببصيرته الرؤوية، الأزمة أو الأزمات التي يتعرض لها الإنسان في عالم بدأ يفقد

عقلانيته. وقد عبّر ألكسي كارِل عن موقفه العلمي وبصيرته الروحية ومنطقه العقلي في العبارة الشّعبية التالية: "لقد فلت زنبرك العقل". وفي أواسط القرن العشرين، تحدث كارل غوستاف يونغ عن الإنسان الذي يبحث عن روحه التي أضاعها في زحمة الأحداث المأساوية.. هذا الإنسان الذي يعاني من عدم توازن أقطاب نفسه المتقابلة بسبب الإشراطات العديدة التي تجزئه إلى نطاقات متصارعة تكاد تبلغ عتبة الفصام، وتقيده بانفعالات المنطقة اللاشعورية المكبوتة أو المكبوحة التي تتعرض للانفجار وللانفعال المرضي في كيانه المضطرب.

هكذا بدأ الإنسان يعاني من إحباط فردي وجماعي نتج عن عدم ثقته بالمستقبل وبدأ، نتيجة لهذا الإحباط، يبحث عن خلاص.

في هذا الوضع القلق، سيطر العقل التحتيّ، أي العقل المنفعل، وفقد الفعالية التي يتميّز بها العقل المنطقي والعلمي، وتغاضى عن الهدف الغائي الذي يحث العقل المستنير والمتسامي إلى الوعي والحكمة، الأمر الذي جعل العقل المتدني، أي العقل الذي يحيا ضمن نطاق الحواس الخمس، والذي فقد توازنه، يحتل مرتبة الهيمنة والسيادة الزائفة على القوى والمقوّمات والإمكانات المهيأة لتطوير الجنس البشري والسموّ به إلى حالة أو وضع أو مستوى تنشط فيه جميع القدرات والطاقات والمواهب الفاعلة لتحقيق أنسنة عليا.

في هذا الوسط الذي برزت فيه سيادة العقل المتدنيّ، أي التحتيّ المنفعل بمركزية الأنا، فقدت البشرية أملها في تحقيق مستقبل زاهر تتألق فيه السعادة، ويحفل بالرفاهية والازدهار، والتعاون المشترك بين أبناء وبنات الإنسان. وبالفعل، ظهرت اتجاهات أو تيارات فكرية انفعالية دعت إلى العبث واللاجدوى وانعدام القيمة والمعنى في الوجود، وانتهت إلى إحساس دفين باليأس.

في هذا الوسط المضطرب، ظهرت تيارات فكرية تتميز بالحكمة والوعي والمحبة أخذت تنبّه القائمين على إدارة شؤون العالم إلى مغبّة التوغّل أكثر فأكثر في متاهات مضللة جديدة، ودعت إلى إعادة النظر في الطروحات الفكرية السابقة وإلى إحداث تقويم جديد للأوضاع المحلية والعالمية. لقد دعت إلى استقبال ألف ثالثة ينبثق فيها فجر جديد تتألق فيه شمس تضيء بأنوار السلام، والأخوة، والمحبة والازدهار.

في سبيل التعبير الواضح والتحليل المُجدي لما يعاني منه أبناء هذا القرن الجديد، المعبّر عنه بالألف الثالثة، سعيتُ إلى الإجابة عن أسئلة ثمانية طُرحت علي على نحو حوار. وقد تمثلت هذه الأسئلة، التي طرحها علي صديقي، في معرفة السبب أو الأسباب التي أدت إلى سيطرة العقل المتدنّي أو التحتيّ الذي يلجأ إلى العنف القائم على التقنية العدوانية والتبرير الذي يقدمه هذا العقل المنفعل بإشراطاته لتسويغ دفاعه عن معتقده، أياً كان هذا المعتقد و العقيدة، ومقاومة الآخر، وعدم الاعتراف به أو القبول به، أو محاولة القضاء عليه.

1- أراد صديقي، في سؤاله الأول، أن يعرف ما إن كان العلم مسؤولاً عن المآسي التي تعاني منها الإنسانية في الوقت الحاضر.

سأل صديقي – كثيراً ما أتساءل، وأنا أتعرّض لمخاض حيرة داخلية، ما إن كان العلم السبب المؤدي، على نحو مباشر أو غير مباشر، إلى المآسي التي يعاني منها أبناء وبنات الإنسان، أو إن كان الإنسان المسؤول الأول والأخير عن هذه المآسي في هذا العصر وفي العصور السابقة، وأعني هذه المآسي التي تشير إلى انعدام الوعي، وغياب معرفة الغاية من الوجود. وفي سبيل الوضوح، أرجو أن تعرّف العلم من وجهة نظر منطقية وعملية وغائية.

أجبتُ صديقي – لما كان الإنسان كائناً يبحث عن حقيقة المعرفة، ويسعى إلى الكشف عن الكمون الماثل في عمقه، وفي عمق الطبيعة والكون، فقد تدرّجت عملية تطور المعرفة العلمية من مجرّد تلمّس الحقيقة عبر الإدراك الحسّي انطلاقاً إلى معرفة القوانين والمبادئ التي على أساسها توجد الطبيعة وتحيا وتتحرّك، وتنمو وتتطور، وإلى معرفة المبادئ العقلية التي تعتمد المنطق الصاعد بأحكامه وقضاياه، والمتصلة بإحكام في ترابط حلقاتها، والمتجاوزة للانفعال الذي يطيح بملكة العقل وفعاليته. وبالفعل، ندرك أن العلم قد تقدم كثيراً في مضمار المعرفة.

لما كان العلم قد اتّجه، في بداية مغامرته التجريبية والمُختبرة، إلى معرفة الوجود الخارجي، فقد تساءل الإنسان، منذ فجر وجوده، عن حقيقة أو سر التفكير، وجوهر العقل وطبيعة النفس، وسعى إلى التوغل في عمق المقولات المتصلة بنظرية المعرفة. وبالإضافة إلى هذا التساؤل، سعى الإنسان إلى معرفة القضايا والأحكام المرتبطة بظاهرات الوجود النفسية كالنوم، واليقظة، والحلم، والنوم بدون حلم، والانتباه، والاهتمام، والعاطفة، والشعور، والإحساس، والتصوّر، والتخيّل، والتذكّر... إلخ. واهتم بدراسة القضايا والأحكام المتصلة بالعقل المنطقي الذي يصعد مستويات الحياة الداخلية، والسلسلة المتماسكة بإحكام والعائدة للعقل المنعتق من انفعالات مركزية الأنا، ويحيا مطمئناً في تكامل وحدة الهوية النفسيّة وتوازن وظائفها وأقطابها المتقابلة.

لما كان الإنسان يحيا في وسط وجود مادي، متحرك وديناميكي يتطلب التناغم معه والعمل بانسجام، وفق مقتضياته، فقد وجّه عقله إلى حل أموره وثيقة الصلة بوجوده الخارجي وبالأمور الضرورية الممثلة بالحاجات الملحّة والمتعلّقة بمعيشته، الأمر الذي أدى إلى معالجة العالم الخارجي بالعقل العملي الذي تطور إلى عقل منطقي وعلمي قادر على التجريد.

يشير تاريخ المعرفة الإنسانية إلى أن العقل العملي قد تطور إلى عقل منطقي وعلمي يبحث عن القوانين والمبادئ التي يستنبطها من ذاته، وتمده بالقدرة على تطوير معرفته إلى مستويات أعلى تزداد عمقاً واتساعاً على الدوام.

2– أراد صديقي، في سؤاله الثاني، أن يعرف ما إن كانت النتائج الخاصة عن تطوير العقل العملي إلى عقل منطقي وعقلي قد انتهت إلى الخير أم إلى الشر.

سأل صديقي: ذكرتَ في حديثك أن العقل العملي أدّى إلى تحقيق العقل المنطقي والعقل العلمي، وقد أدى هذا العقل العلمي، بدوره، إلى تطوير المعرفة الإنسانية، وإذا كان الأمر كذلك، فلا بدّ من توضيح

الخلاصة أو النّهاية القصوى التي بلغها العقل العلمي لنعلم إن كانت قد انتهت إلى خير تجني البشرية ثماره أم إلى شر تعاني منه.

أجبت صديقي: أستطيع، وقد ألممت على نحو وجيز إلى موضوع المعرفة المتطورة على نحو دائم، أن أصنّفها في نمطين للعقل:

أ- النمط الأول هو العقل العلمي النظري والمجرد والذي يعتمده العلماء النظريون لمعرفة القوانين والمبادئ التي بموجبها يحيا العالم ويوجد ويتحرك. وفي هذه المعرفة العلمية النظرية، يبذل العقل جهداً كبيراً لحل الرموز التي تصله على نحو شيفرة كونية، وصياغة الفرضيات التي تصبح نظريات تتحول، بدورها من جديد، إلى فرضيات لتعود إلى نظريات تخضع للتجربة والاختبار، وذلك لكي يتابع العقل العلمي النظري مسيرته التطويرية هادفاً إلى تحقيق المزيد من المعرفة، على نحو يقين، أو احتمال يقين، أو حقيقة أولية تهيئ القاعدة المناسبة والملائمة لتقدم علمي متطور على الدوام.

ب- النمط الثاني: يشير هذا النمط إلى العقل التقني، وأعني العقل الذي يسعى العلم النظري إلى تطبيقه عبر تقنية سهلة تخدم الإنسان الذي يستعملها ويستفيد منها في عالم الواقع. والحق إن هذه التقنية تتجه إلى طريقين مختلفين أو متناقضين:

أولاً- الطريق الإيجابي المؤدي إلى الخير: يشير هذا الطريق إلى التقنية السهلة التي تهيئ للإنسان بكل ما يحتاجه من فائدة ونفع نتيجة لتطوير أدوات المعرفة، النظرية منها والتطبيقية، وتحسين معيشته على نحوٍ يؤدي إلى ازدهار الحياة الإنسانية، وتوطيد السعادة والرفاه والرخاء. وعلى سبيل المثال، أذكر الجرّار والطائرة المدنية.

ثانياً – الطريق السلبي المؤدي إلى الشر: يشير هذا الطريق إلى التقنية العدوانية التي تؤدي إلى تدمير الحضارة الإنسانية وتوريط البشرية في مآزق مأساوية تسود فيها الأزمات النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسة والمذهبية التي تضع حداً للسعادة والطمأنينة، وتعرقل سبل الأمان والمحبة والسلام. وفي هذا الواقع المؤلم، تبلغ فضيلة الاعتراف بالآخر والقبول الكامل به نهايتها، وتسيطر الكراهية وأنواع التعصب العرقي والعقائدي، ويسود سوء الفهم، وتهيمن الانفعالات المَرَضيَّة، أي الهستيرية والفصامية التي تختلق الشعارات التي تُلقي بظلام صلابتها وقسوتها على عقول الناس وعواطفهم، وتحرفها إلى تخيّلات وهمية لا تمتُّ إلى الحقيقة بصلة. وعلى سبيل المثال، أذكر الدبابة والطائرة الحربية وأنواع الأسلحة المدمرة.

3- أراد صديقي، في سؤاله الثالث، أن يعرف النتائج الحاصلة عن نمطَي العقل.

سأل صديقي: أسمح لنفسي، وقد بلغتَ هذا المستوى من التوضيح، أن أسأل: ما هي النتائج الحاصلة عن المنهج العلمي النظري والمنهج العلمي التقني؟

أجبتُ صديقي: تشير الدراسات الدقيقة والمعمقة للنتائج الحاصلة عن العقل التقني العدواني إلى استبعاد العقل المنطقي والعلمي وإقصائه عن نطاق مقولة المعرفة من أجل المعرفة، أو المعرفة من أجل

ازدهار الحياة البشرية، وتوطيد السعادة، والأمان، والطمأنينة والرفاهية، والمحبة والسلام. وبالإضافة إلى ذلك، تشير هذه النتائج إلى سيطرة العقل المتدني أو المنفعل، واستغلاله للتقنية العدوانية لتوطيد انفعالاته العديدة المشروطة والناجمة عن عدم معرفة الغاية الأسمى لمعنى وقيمة وجود الإنسان.

في هذا السياق، يمكنني أن أؤكد وجود مستوى للعقل يُدعى العقل التحتي أو العقل المتدني. وإنَّ ذِكْر هذا المصطلح يشير إلى غياب العقل، وأقصد العقل الذي يُخفق في تحقيق عقلانيته، أي مبادئه التي يستنبطها من ذاته على نحو معلومات ومبادئ طبيعية وكونية مكنونة في صلب تكوينه. ولقد أشار العلماء والباحثون إلى أن العقل المكوِّن يستمد مبادئه من معرفة جوهرية مكنونة فيه على نحو وجود بالقوة، أو يستمدها، كما يذكر بعضهم، من تفاعله مع المبادئ أو القوانين المكنونة في الطبيعة والكون.

لذا، كانت الأزمات المأساوية حصائل ناتجة عن التقنية العدوانية الناتجة، بدورها، عن سيطرة العقل التحتي أو المتدني، واستغلاله لهذه التقنية المرعبة والمدمّرة، وإخضاع هذه التقنية لانفعال مركزية الأنا الفردية والأنا التجمّعية المجسّدتين بالتعصب أو التصلب الناتج عن الاعتقاد بامتلاك الحقيقة المطلقة والحق إن هذا العقل المنفعل بإطلاقية حقيقة معتقده الإيديولوجي أو المذهبي يلجأ إلى أكثر التقنيات تدميراً لتسويغ أو تبرير معتقده. وهكذا، لم يعد الدفاع عن الحقيقة يعتمد على المنطق المتسامي أو على العقلانية الواعية والروحانية المثلى بقدر ما أصبح يعتمد على التقنية العدوانية المسوِّغة للكراهية الدفينة المعبَّر عنها بأبشع أنواع الصراع والعنف والفساد والتدمير.

4 – أراد صديقي، في سؤاله الرابع، أن يعرف ما إن كان العقل التحتي أو المتدنّي قد سبّب، وما زال يسبب، الأزمات والحروب التي ذكرها المؤرخون.

سأل صديقي: هدفتَ، في بحثك عن نمطَي العقل، إلى التأكيد على اعتبار العقل المتدني أو التحتي السبب الرئيس والمباشر في الأزمات وأنواع الصراع التي عانت منها البشرية في الماضي، وتعاني منها في الوقت الحاضر. هل ينطبق ما تذكره على الأزمات التي تحدثَتْ عنها كتبُ التاريخ؟

أجبت صديقي: عندما تأملت ما جاء في بحوث بعض المنظورات الاجتماعية والتاريخية والسياسية المصطبغة بلون فكري أو عقائدي معيّن، أدركتُ أن مسيرة التاريخ الإنساني تنقسم إلى نطاقين:

أولاً – نطاق يشير إلى تاريخ المعرفة والحكمة والوعي، وهو التاريخ الذي يتجلّى فيه العقل المنطقي أي العقل العارف والعلمي الذي يبحث في المبادئ، ويحلل الأحداث، ويسعى إلى معرفة الأسباب بوعي ومحبة ومعرفة، وإلى تحقيق مكنونات معلوماته على مستوى الطبيعة والإنسان والكون، وذلك في سبيل تحقيق المجتمع الفاضل القائم على المعرفة والوعي والحرية والسعادة والرفاهية، والاعتراف بالآخر والقبول به، وتأسيس هذه المعرفة المختبرة في التجربة أو التجارب التي يجريها العقل العلمي النظري المتطور إلى معرفة أسمى لبلوغ المستوى اللائق الذي يؤكد وجود إنسانية أسمى تجعل من أبناء وبنات الإنسان أسرة واحدة تتنوع مبادئها ووجهات نظرها. ومن جانبي، جعلتُ هذا النطاقَ التاريخي طريقي إلى المعرفة

والوعي وإجلال الحياة، وغايتي التي تهديني إلى محبة الجنس البشري بمعزل عن اللون أو العنصر أو العقيدة.

ثانياً – نطاق يشير إلى تاريخ العقل المنفعل بمركزية الأنا، أي التاريخ الذي ساد فيه، ولا يزال يسود، الظلام الذي خيّم، ومازال يخيّم، على العقل الباحث عن المعرفة والحقيقة، وسيطرت فيه الأنانية والجهل الذي أدّى إلى بروز الشر كقوة سلبيّة، وهيمنت فيه الإشراطات والانفعالات والعقائد المذهبية والعقائدية المتصلبة التي انحرفت عن جوهر مبدئها، وانتهت إلى صراع الإنسان مع نفسه، وإلى صراعه مع غيره الممثل بالمجتمع، وإلى صراع المجتمع مع ذاته المنقسمة، على نحو فصام، مع الفئات المتنافسة والمتنازعة، وإلى صراع المجتمعات البشرية مع بعضها، الأمر الذي أدى إلى الحروب الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وسفك الدماء، وإلقاء البشرية في أحضان التعاسة واليأس وحرمان أبناء وبنات الإنسان من نعمة الوجود الأرضي، واستغلال المتسلطين لذوي العقول المتدنية التي خضعت للشعارات البرّاقة والزائفة، واستسلمت للأقوال والعبارات السفسطائية البليغة التي أخرجتها عن نطاق الوعي، الأمر الذي جعل هيغل يتحدث عن السلام بوصفه هدنة بين حربين، وجعل هيراقليطس يتحدث عن الحرب بوصفها العلة الأولى والرئيسة لكل شيء.

علمتُ أن الأزمات، السياسية منها والإيديولوجية والاقتصادية والمذهبية والعقائدية بأنواعها، هي حصيلة العقل المتدنّي الذي حرفها عن مسارها الصحيح، وسعى إلى تطوير واستغلال التقنية العدوانية على نحو هوس سياسي أو عقائدي أو مذهبي، وهدف إلى السيطرة والتدمير باسم ألف ألف ادعاء زائف للحرية والمثال والمبدأ، وأقحم الحقيقة السامية المطلقة في خضم الدفاع عن هذه الحقيقة التي يزعم أنه يمتلكها.

5 – أراد صديقي، في سؤاله الخامس، أن يفهم ما كنتُ قد نوهت عنه سابقاً عن العلاقة القائمة بين مركزية الأرض ومركزية الأنا.

سأل صديقي: في عبارات عديدة أتيتَ على ذكرها في مؤلفاتك، تحدثَّتْ عن فرضية مركزية الأرض، وأحدثت علاقة وثيقة بينها وبين مركزية الأنا الفردية ومركزية الأنا التجمعية القائمة في صلب العصبية والتعصب والعنف. أرجو أن توضّح مضمون هذه العلاقة في سياق بحثك عن نمطَي العقل ونمطَي التقنية، والسبب الذي دعاك إلى افتراضها تسويفاً أو تبريراً خطيراً يؤدي إلى اختلاق الأزمات.

جواب: تقبَّل العقلُ المنفعلُ بهذه المركزية، أي مركزية الأرض في النظام الشخصي، محدوديةَ هذه الفرضية لدرجة أنه رفضَ كلَّ مبدأ يناقضها أو يقلل من شأنها لأسباب عقائدية وخلاصية وأخروية معينة، وحارب هذا العقل المتدني المنفعل كل خروج عن نطاقها باسم العقيدة. والحق إن هذه الفرضية المزعومة لم تجعل من الأرض مركزاً للنظام الشمسي فحسب، بل جعلَت الوجودَ في أبعاده ومستوياته اللامحدودة، عوالمَ تدور حول هذه المركزية العقائدية. والحق إن هذه الفرضية، التي لم تتضمن في حقيقة عقلية وتحليل منطقي متماسك في أحكامه، أدت إلى إخضاع العوالم الأخرى العديدة على نحوٍ تؤكد العقيدة

الضمنية لمركزية الأرض بوصفها الوجود الحقيقي والواقعي الممكن والضروري. وبالفعل، أدت هذه الفرضية، بصورة أو بأخرى، إلى سيادة العقل التحتيّ وانفعاله بمركزية وجوده، وتفضيل هذه المركزية على سائر الوجودات أو المستويات أو العوالم، ولمّا كان هذا المعتقد قد وحّد هذه المركزية مع المركزية الفردية والمركزية التجمعية العقائدية، فقد عمد أنصارها إلى الدفاع بشراسة وعنف عنها، وبرروا كل أنواع العنف، كالقتل والتدمير، في سبيل الدفاع عن هذا المعتقد المزعوم.

عندما تأملتُ مضمون هذه الفرضية التي أخذت بها العقائد التي ترتكس إلى العقل المنفعل بصلابة تبريره أو تسويفه، والسبب أو الأسباب التي دعت إلى الأخذ بها واعتناقها على نحو عقيدة ثابتة وحقيقة مطلقة، أدركتُ أن خطرها يبلغ الحد الذي بلغته خطورة مركزية الأنا الفردية ومركزية الأنا التجمّعية.

تنطوي مركزية الأنا الفردية ضمن نطاق الأنا التجمّعية لأنها تجعل هذه الأخيرة مركزاً للوجود الأرضي والمكان اللائق، بالدرجة الأولى، لتحقيق هذا الوجود.

ومع ذلك، تنتهي هذه المركزية إلى الإحساس بهلع أو خوف أو قلق أو شك ليسيطر عليها. ونتيجة لهذا الرعب من احتمال اللاوجود أو من النهاية المفجعة التي تنتظر الأنا بعد أمدٍ معيّن، حسب ما تزعم، تسعى هذه الأنا إلى الحفاظ على ذاتها بسبل وطرق عديدة تتمثل في اعتقاد يجعلها تركن إلى السلامة والطمأنينة المزعومة عبر الحفاظ الذي ينتهي إلى إعلاء شأن الأنا المركزية المجسّدة بالعقيدة أو العقائد التي تدَّعي الدفاعَ عن الحقيقة السامية المطلقة على كوكب الأرض، الأمرُ الذي يجعلها ترتكس إلى العنف والتدمير. وعندئذ، تسعى هذه الأنا الماثلة في مركزية العقيدة التجمّعية، إلى فرض سيطرتها على العقائد الأخرى، وإلى احتكار كل ما يمكن أو يوطّد مركزيتها كفئة مختارة أو كفئة مفضّلة، أو تدافع عن ذاتها وتقاوم قانون المحبة والانسجام والتعاطف الذي هو قانون الطبيعة والإنسان والكون، الأمر الذي يعني سيطرة العنف، الذي يحرف كل تقدم علمي أو سمو عقلي يدعو إلى الطمأنينة الحقيقية، لصالحها على نحو ما دعاه فرويد "مكانيزم الدفاع والمقاومة" الذي يُسقط العدوانيةَ على الآخرين، وينتهي بالإدانة، والهجوم، والقتل والتدمير، أي تدمير الآخرين. وفي هذه الحالة، يتحول العلم، بمفهومه المعرفي، إلى أداة خطيرة، هي تقنية عدوانية تخدم المصلحة الأنانية لمركزية الفرد ومركزية التجمّع التي تدّعي مسؤولية الدفاع عن الحقيقة.

يتفاقم وضع مركزية الأنا الفردية عندما تطرح معنى وجودها وقيمته على المستوى التجمّعي. هذا، لأن مركزية الأنا تدرك أن وجودها الفردي معرّض للزوال أو الخطر، ولا يعد كافياً للحفاظ على ذاتها. ولهذا السبب، تسعى إلى إحداث تكتل أو تجمّع طبقي أو فئوي مع مركزية الأنات الأخرى للحفاظ على وجودها عبر ما يدعوه فرويد "مكانيزم الدفاع والمقاومة والموت للآخر". ولمّا كان التجمّع الماثل في العقيدة، أو في الفئة، لا يتصل من قريب أو بعيد بمفهوم الاجتماعية التي تشير إلى إنسانية الإنسان، فإنه يؤدي إلى تشكل فئوي أو عقائدي لكي تطمئن مركزية الأنا، الفردية والتجمّعية، إلى أنها تحافظ على سلامتها نتيجة لتكتّلها أو تجمّعها الكمّي مع الأنات الأخرى المتوافقة معها، وتزعم أنها تحقق أو تنفّذ إرادة عُلويّة ما

ورائية. وفي هذه الحالة، تتشكل الفئات والتجمّعات التي تسعى إلى الحفاظ على وجودها المُفترض. ولما كانت الأنا التجمّعية مجرّد تصلّب لمركزية الأنا الفردية أو مجرد تأكيد على أفضليتها واختيارها، فإن القضية تستدعي النزاع والصراع على نحو ما دعوته مكانيزم المقاومة، أي مقاومة الآخر، والدفاع، أي حقها المزعوم، ورفض الآخر نتيجة لمفهوم الدفاع والمقاومة. وعندئذ، ينحرف العالم، في خيره الكلّي، أي في إيجابه الكلّي إلى تقنية عدوانية تختلقها المركزية التجمّعية، عبر عقائدها العديدة، وتستدعي التطرّف إلى العنف في أبعاده ومعالمه العديدة.

6 – أراد صديقي، في سؤاله السادس، أن يتبيّن موقفي الفكري من مفهوم السيادة، أي سيادة الإنسان على الطبيعة وسيادته على الآخر.

سأل صديقي: في منظورك الذي تتحدث فيه عن المساوئ الناجمة عن سيطرة العقل المتدني أو التحتي، واستغلاله للطبيعة، على نحو استنزاف مواردها وخيراتها، وللإنسان على نحو عدم اعتراف بالآخر والسعي إلى تدميره؛ كيف تفسّر الاعتقاد السائد بأن الإنسان هو سيد الطبيعة والكائنات غير الإنسانية؟ أرجو أن تشتمل الإجابة على توضيح منطقي لمفهوم السيادة.

أجبت صديقي: يعتقد بعضهم أن الإنسان سيد الطبيعة والكائنات الأخرى، والكائن الذي يسمح لنفسه أن يتصرّف كما يشاء في علاقته معها. ولما كان الإنسان يعتقد بأنه الحلقة الأخيرة لعملية التطور أو لعملية الظهور على مسرح الوجود الأرضي، فقد نصّب نفسه سيداً قادراً، على نحو تفويضي، على الانتفاع والاستفادة من كل ما يهبه عالم الطبيعة المادية وعالم الحيوان والنبات والطير، الأمرُ الذي يؤدي إلى تسخير الطبيعة واستنزاف ثرواتها واستغلال الكائنات الأخرى. ولمّا كانت مركزية الأنا الفردية ومركزية الأنا التجمّعية تسعى إلى الحفاظ على ذاتها بشتّى الوسائل، فقد أساءت فهم هذه السيادة وهذه المركزية. ولما كانت المركزية تشير، في حقيقة جوهرها، إلى تركيز الوجود المادي في كائن هو الإنسان، فإن السيادة تشير، بدورها، إلى معرفة هذه المركزية المؤدية إلى معرفة هذا الوجود، وتطويرها إلى مستوى أعلى في سلّم الوعي، ودراسة الممالك التحتية، وفهم حقيقة وجودها ومساعدتها ومحبتها، ودراسة الطبيعة، على نحو تجربة واختبار، وفهم قوانينها التي هي قوانينه، وذلك لكي يزداد الإنسان معرفة وحكمة ومحبة لقوانين وجوده وقوانين الطبيعة ليدرك أنها واحدة في جوهرها. لذا، كانت السيادة الزائفة على الطبيعة مماثلة للسيادة الزائفة على الإنسان.

في هذا السياق، تشير السيادة إلى الامتياز بالمعرفة، والعلم، والحكمة، والوعي والمحبة ليكون الإنسان، بالدرجة الأولى، سيد نفسه ومحبّاً لها، ومحققاً لشمولية كيانه. وعلى غير ذلك، لا تتصل السيادة، من قريب أو بعيد، بالتسلط أو السيطرة، أو بتسخير الطبيعة واستغلالها أو استنزاف طاقاتها، واستعباد الكائنات الإنسانية والحيوانية لصالح مركزية الأنا. والحق إن الإنسان لا يستطيع أن يدّعي بأنّه يسيطر على نفسه، وذلك لكي لا ينقسم على نفسه أو يتجزأ على نحو فصام. وعلى غير ذلك، يسعى الإنسان إلى إحداث تكامل في كيانه واستبعاد أي شرخ في هذا الكيان. وعلى المستوى الإنساني، يعد

الإنسان الواعي سيداً في حقل معرفته وتكامله وتوازنه، تماماً كما يعد الجاهل عبداً في حقل انعدام المعرفة. وهكذا، يتميّز الإنسان العارف بالسيادة الواعية والمحبة، ويتميز الجاهل بالتسلّط الذي يشير إلى السيادة الزائفة.

في هذا المنظور، يصبح كل إنسان واع وعارف ومحب سيداً لكل إنسان، ليكون جميع الناس العارفين والواعين سادة بعضهم في نطاق علومهم ومعارفهم. لذا، كانت السيادة دليلاً على تحقيق العلم الذي يختبره الإنسان وهو يدرس الطبيعة والكون الذين يصبحان، بدورهما، سيدين له لكونهما يُمدانه بالمعرفة. وفي هذا السياق، تتصالح مركزية الأنا الطبيعية مع الكائنات الإنسانية، وتتكامل معها في اتحاد ضمني ومحبة فائقة، وتتوافق غايات الإنسان وتنسجم معها على نحوٍ يؤكد سيادة المعرفة التي ترفع الوجود المادي والوجود الإنساني إلى المستوى العلمي المُختبر نتيجة لتفاعل الإنسان مع الطبيعة والكون في محبة وتناغم مادي وروحي.

يؤسفني أن أقول: إن الإنسان، الذي يعتمد المركزية المطلقة، يجعل من السيادة مفهوماً تسلطياً وتحكمياً للإنسان واستغلالياً للطبيعة، ويسعى إلى بسط هذه المركزية الأنانية والسيادة الزائفة إلى الإنسان الآخر. فعلى مستوى الأنا الفردية المركزية، تسيطر الفردية العدوانية. وعلى مستوى المركزية التجمّعية، تتطلّب النزعات العدوانية حتى ولو كان التجمّع قائماً على مستوى الفئة الصغيرة، كالعائلة، أو على مستوى الفئة الكبيرة، كالطبقة أو الطائفة أو المذهب. وهكذا، تستدعي سيادة الأنا الزائفة على الإنسان، على المستوى الفردي أو التجمّعي، العنف الذي يرتكس، باسم العقيدة السياسية أو الاقتصادية أو المذهبية بمفهومها الاستعلائي، إلى التقنية العدوانية لمجرد الاعتقاد بأنها تحافظ على الذات الفردية والذات التجمّعية التي عزلت ذاتها عن الآخرين، وأدانتهم على نحو تفضيل أو اختيار. وهكذا، يبلغ المفهوم الزائف للسيادة نطاق الفوضى، وبلبلة المفاهيم والقيم على النحو الذي يعجز فيه الإنسان عن معرفة الحقيقة أو التمييز بين ما يدّعي أو يزعم بأنه خير أو شر. وهكذا، تطغى شرور الإدانة والإدانة المضادة، ويعيش الناس في داخل محيط العنف.

لما كانت مركزية الأنا الفردية ومركزية الأنا التجمّعية تحرفان إيجابية العلم إلى سلبية، وإيجابية السعادة إلى سلبيتها، فإنهما تحرفان العلم من التقنية الناعمة والمفيدة – الجرَّار والطائرة المدنية – إلى تقنية العدوانية – الدبّابة والطائرة الحربية. ولما كان السلْب يشير إلى تجريد العلم من إيجابيته الممثلة بالقيم والمفاهيم السامية التي يتميّز بها، فإن مركزية الأنا الفردية والتجمّعية تسعى إلى التسلّح بسلبيّة هذه المفاهيم والقيم التي تجعلها تعتقد، على نحو خاطئ، بأنها الوسيلة الوحيدة الممكنة والصالحة للحفاظ على وجودها الأناني. إنها تلجأ إلى العنف الكامن في العقيدة لدى ارتكاسها إلى التقنية العدوانية لتبرير أو تسويغ معتقدها الماورائي أو الخلاصي، أو السياسي، أو الاقتصادي، أو الإيديولوجي.

هكذا، نعلم أن العقل المتدنّي أو التحتيّ، الذي هو خروج عن مبادئ العقل العملي والمنطقي العلمي الذي هو عقل متطور إلى غايات أسمى، مسؤول عن تبنّي التقنية العدوانية لأنه، كما يزعم، السبيل

الوحيد للحفاظ على مركزيته الفردية والتجمّعية. وهكذا، يدافع العقل التحتيّ عن معتقده الانفعالي الذي جعل منه حقيقة مطلقة يمتلكها وحده دون سواه، عبر أسلحة التدمير والموقف المتطلب المجسّد بالعنف... تلك هي الأزمة الإنسانية التي يثير أمنها العلم بوصفه اختباراً تجريبياً للمعرفة النظرية، والحكمة، والوعي الكامن في جوهر الوجود.

7 – أراد صديقي، في سؤاله السابع، أن يستوضح السبب الأهم الذي يسوغه العقل المنفعل بعقيدته كتبرير لموقفه العدواني من الآخر.

سأل صديقي: أحب، وقد بلغتَ هذا المستوى من توضيح الأسباب الانفعالية التي يعتمدها العقل التحتيّ، الذي يتبنّى التقنية العدوانية، للدفاع عن معتقده، أيّاً كان معتقده، أن تحدّثني عن السبب الانفعالي الرئيس الذي يسوّغه هذا العقل المتدنّي كتبرير أو تسويغ لموقفه العدواني من الآخر.

أجبت صديقي: في مقدمة هذا البحث، ألمحت إلى الآثار النفسية المرضيّة الناجمة عن إحساس دفين بمأساة الإحباط الذي عانى فيه الإنسان عبر حربين عالميتين في القرن الماضي. فقد تفاقمت أعراض الأمراض النفسية، وتمثلت آثار هذه المعاناة النفسية المأساوية في شعور ضمني أو داخلي بالقلق، وعدم الثقة بتحقيق الطمأنينة والسلام. والحق إن الإنسان بدأ يبحث عن "خلاص" ينقذه من معاناته المأساوية. وهكذا لم يعد الإنسان، وهو يجتاز عتبة النصف الثاني من القرن العشرين، واثقاً من حلول زمان مقبل تسوده المحبة، والإخاء والازدهار. ومع ذلك، تأمّل إنسانُ القرن العشرين آفاق المستقبل ليتخيّل انبثاق فجر مشرق في بدايات القرن الواحد والعشرين، أي ما يُعرف بالألف الثالثة. لقد رأى هذا الإنسان المتألم والمحبط إمكانية أو احتمال انبثاق فجر جديد تضيء في فضائه شمس تملأ أرجاء المعمورة. وقد أطلق بعض علماء النفس المتفائلين على انبثاق هذا الفجر وهذه الإضاءة مصطلح "التحوّل النفسي والروحي" الذي سيحدث على مستوى الفرد، الذي يتنازل عن مركزيته، وعلى مستوى الجماعة التي تتنازل عن مركزيتها. هكذا، توقع الناس، أو بعضهم حضور هذا التحوّل الذي سيطرأ في بدايات القرن الواحد والعشرين. لكن الواقع يشير إلى أن الآمال المعقودة على هذا التحوّل لم تخلُ من شعور مكبوح أو مكبوت بالمأساة أو المعاناة. لقد حملت هذه الآمال في أحشائها بذور المآسي والآلام السلبية التي تراكمت في منطقة اللاوعي المكبوت. وبقدر ما كان الشعور بالمأساة حاداً وشديداً ومسيطراً، نفذ اليأس، بالقدر ذاته، إلى هذه "الرؤيا الخلاصية" المقبلة، الأمر الذي حوّلها إلى "نبوءة خلاصية" إسكاثولوجية أو أخروية.

هكذا، رأت فئات عديدة من الناس هذا التحوّل "رؤيا خلاصية – أخروية" مشحونة باليأس. ومع ذلك، لم تكن هذه "الرؤيا الخلاصية – الأخروية" نتيجة منطقية لازمة للأحداث الدامية والأزمات المأساوية التي عانت منها البشرية. هذا، لأن الدراسة المعمقة للأزمات تشير إلى أن هذه "الرؤيا الخلاصية – الأخروية" مضمونة في ثنايا وغلافات العقائد النبوئية التي أخذت بها جماعات عديدة كانت، وما زالت، تعتقد بأنها الفئات المخوّلة بتحقيق هذا التحوّل الذي ستنتج عنه هذه "الرؤيا الخلاصية – الأخروية". لقد خضعت هذه الفئات لمركزية أناها الفردية والتجمّعية. وهكذا، سعى كل تجمّع أو فئة إلى تنفيذ ما تضمّن في أسفار

رؤياها النبوئية المتصلة بالخلاص الإسكاثولوجي. وبالتالي، لم تدرك هذه التجمعات أن تحقيق أو تنفيذ هذه الرؤيا الخلاصية الخاصة بها وبسائر الناس لا يتم إلا بالمحبة والوعي والحكمة.

8 – أراد صديقي، في سؤاله الثامن، أن أحدثه عن مفهوم المصير.

سأل صديقي: أرى أنك تؤكد على وجود أزمة عالمية تتجسد في العنف، وتُعد نتيجة سيادة أو سيطرة العقل التحتي الذي يلجأ إلى التقنية العدوانية مفترضاً أو زاعماً أنه يدافع عن معتقد اقتصادي أو سياسي أو إيديولوجي أو مذهبي، ألحق به امتلاكه الحقيقة المطلقة. وإذا كان الإنسان المعاصر يعاني من أزمة مأساوية وإحباط سبّبهما لنفسه، فما يمكن أن يكون مصيره؟ وهل يمكن أن نقول: إن قدراً محتّماً فُرض على الإنسان، الذي يخرج عن نطاق وعيه، من كيان خارجي ليكون مصيراً مأساوياً له؟ أرجو أن توضح موقفك الفكري من مفهوم القدر والمصير.

أجبت صديقي: أعتقد أن مصير العالم والرؤيا الخلاصية يتحققان في عالم تتوافق فيه الحكمة والعلم. لذا، تشير سيطرة العقل المتدنّي، الذي يعتمد على التقنية العدوانية، إلى كارثة كبرى سوف تحل بالبشرية. ويشير استبعاده للحكمة والوعي والمحبة إلى تعاظم نتائج هذه الكارثة. ولمّا كان التخلّي عن الحكمة والوعي يزداد بازدياد العنف المجسّد في التقنية العدوانية التي يعتمدها العقل المنفعل ويضمّها إلى معتقده كوسيلة خلاص، فإن الكارثة تزداد بزيادة هذه التقنية العدوانية. وبالتالي، يبلغ العالم حافة الانهيار.

في هذا السياق، أتساءل: كيف أتصور العالم؟ كيف أتمثله؟ كيف أعترف به؟ كيف أجعله مسكناً للراحة والطمأنينة والغبطة؟ كيف أتفاعل معه ليكون مصيري ومصيره واحداً؟ كيف أجعله عالماً خالياً من العنف، والكراهية، والاستغلال والتسلّط؟

أعترف بهذا العالم لأني أحبه، وأتفاعل معه لأسمو به، وأجلّه لأن كياني وكيانه واحد. وفي هذه الوحدة الكيانية، تتألق الثنائية في بهاء التكامل، وتتآلف التعددية والتنوع في ضياء الوحدة المتوازنة.

عندما أدرك هذه الحقيقة، أعلم أن العالم الأرضي مكان يستحق الحياة، ويمتلئ بالمعنى والقيمة والوعي، ويتألق بالمحبة، فكما أن المنظار أداة مراقبة الكواكب والنجوم النائية، كذلك العالم الأرضي يمثل حقل تجربة كونية واختبار للوعي الكوني. وفي هذه التجربة يكمن واجب الإنسان، وتتحقق عظمته التي تستدعي طاقته للفعل في نطاق تحويل السلْب الكامن في المادة إلى إيجاب يتحول، من خلاله، السلب إلى طاقة فاعلة للخير، وإلى قدرة فاعلة لتحويل العنف، أو تقليصه، إلى سلام وغبطة.

وبالفعل، لا يمكنني أن أتحدث عن مفهوم المصير إلا في علاقته بمفهوم القدر. وفي الوقت ذاته، أسعى إلى بحث مفهوم القدر في علاقته بمفهوم الحرية.

في هذا المنظور، يعد مفهوم الحرية قوة فاعلة في كيان الإنسان ترفعه إلى مستوى أعلى في مستويات الوعي وتنقذه من الإشراطات والقيود التي تحرّض العقل المتدنّي على التصلّب، والتعصّب، والدفاع عن هذه الإشراطات التي يعتبرها حقائق مطلقة، وتجعل منه عبداً يخضع للحتمية وللقدر بمفهومه السلبي.

في هذه الحرية التي هي انعتاق من عبودية الإشراطات، يصبح الإنسان كياناً تتسامى إنسانيته بفعل حرية هي وعي ملازم لجوهر وجوده. في هذه الحرية المتسامية إلى الوعي، ينتهي العنف والجهل.

هكذا، أستطيع أن أعلن أن القدر، بمفهومه السلبي، خروج عن نطاق الوعي، يحتّم، في خروجه هذا، نتائج مأساوية تلزم الإنسان على القيام بفعل واع يتمثل بالحرية، ليحقق المفهوم الإيجابي الكامن في الفعل الناتج عن الإرادة الحرة الواعية. وهكذا، يتمثل قدر الإنسان في الوعي الذي يتجاوز جميع الإشراطات المجسّدة بالجهل والعنف والشر.

إذن، فالقدر، بمفهومه الإيجابي، طاقة فاعلة في الإنسان، تهدف إلى الانعتاق والخلاص الحقيقي من إشراطاته العديدة، ودافع يحثه على القيام بفعل مبدع يتألق في حرية العقل، ووعي الحقيقة والواقع. وهكذا، لا يُعد القدر حتمية تُلقى على الإنسان من وجود قائم خارج وجوده، بل هو حتمية ألقاها الإنسان على نفسه، وأمر صادر من كيانه إلى ذاته لكي يتحرر بإرادة واعية تسعى إلى التحقيق.

على هذا الأساس، يتمثل القدر بقوة تدفع إلى الأمام، ولا تسمح للفرد أو للمجتمع أن يعيش في الماضي الذي حتّم عليه المعاناة، وألقى على كتفيه مسؤولية الانعتاق من إشراطات ذلك الماضي.

في هذا السياق، يمكنني أن أشبه القدر بمهماز يحث الفرد أو المجتمع للانطلاق إلى الأمام. وعلى غير ذلك، يظل القدر قيداً أو عبودية للمجتمع أو للفرد الذي يقبع في زوايا ومتاهات الماضي الحافلة بالأخطاء المتراكمة والمترسّبة في اللاوعي الجماعي.

وبالمثل، تشير كلمة مصير إلى استمرار الفعل الإنساني الديناميكي والفعّال. والحق إن المصير لا يعني بلوغ حدّ اللارجوع عن نهاية مأساوية أو شبه مأساوية، أو استسلامية، أو ناجحة على نحو مؤقت ما لم يكن متصلاً بالمفهوم السلبي للقدر والحتمية.

في المفهوم الإيجابي للقدر والمصير يكمن الوعي والحكمة والمحبة والحرية.

وفي الوعي والحكمة والمحبة والحرية، يكمن الأمل بتحقيق أنسنةٍ عليا متفوقة وسامية تبهت فيها مركزية الأنا الفردية ومركزية الأنا التجمّعية، أو تضمحل، ويتألق السلام في ضياء الغبطة.

في هذا النطاق، يتحقق الأمل بمستقبلٍ خالٍ من العنف.

تمهيد

قبل ثلاثة أشهر تقريباً من أحداث الحادي عشر من أيلول المُروِّعة، حضرتُ مناقشة عامة في حَرَم الجامعة التي أُدرِّس فيها، والتي نُظِّمت من أجل افتتاح نقاش حول إحياء الرئيس الأمريكي الجديد جورج دبليو بوش لبرنامج "حرب النجوم"، السياسة الدفاعية الصاروخية القائمة على استخدام الفضاء مجالاً لها. كان أول المتحدثين ممثلاً عن مختبرات لاورنس ليفرمور Lawrence Livermore، وهو أحد مرفقي تسهيل التسلح النووي القومي، حيث ثمّة، بالطبع، دعم مالي للترويج لمثل هذه المشاريع. لكن كان هناك أيضاً تيار تحتي جارف يُنذِر بخطرها وسط العلماء النوويين الذين تشرّفتُ بالحديث معهم خلال الحرب الباردة عندما شاركتْ مجموعة منا، أساتذة مثلي، سوية مع علماء دين وعلماء تسليح حربي، في طاولة مستديرة استمرت لعدة سنوات على فترات متقطعة، وكانت واحدة من أكثر حلقات تبادل الآراء المُرضِية ثقافياً خلال حياتي المهنية، لكنني في هذه الليلة صُدِمتُ.

لقد استحوذ المتحدث على مشاعر مستمعيه بالكامل، وهو عالِم واسع الاطلاع ذو نزعة خطابية. وكان السؤال الأول الذي أُثير للمناقشة: هل من أثر للتكنولوجيا؟ فردّ بازدراء: "طبعاً. التكنولوجيا تترك أثراً دوماً". (هممم... هل سبق لأي من الموجودين استخدام الكومبيوتر؟ فكّرتُ) ثم ساءت الأمور، حيث تابع المتحدث: "نحن (الولايات المتحدة) لدينا أموال طائلة، ويمكننا عمل الكثير مما نريد عمله، وليس بمقدور أحد إيقافنا". وسأوفّر عليكم بقية ما قِيل. لقد كان عرض غطرسة هو الأكثر جلافة وسوقية مما يمكن أن أتذكر رؤيته أمام جمهور جامعة. لقد تصرّف، بل وبدا أشبه بموسوليني الذي سبق لي أن رأيته في أفلام الأخبار عندما كنتُ طفلاً. ثم بلغ ذروة حديثه، حين قال متبجّحاً: "أهلاً وسهلاً بالعصر الأمريكي المقبل، وإذا كنتم لا تحبونه؛ فربما عليكم أن تنتظروا مئة سنة أخرى من أجل عصر قادم".

في تلك اللحظة جفِلتُ خوفاً؛ فمن مكان ما عميق في ذهني خاطبت فكرة نفسها بصوت لم يكن صوتي على الغالب: "يا إلهي، إننا في طريقنا نحو الهلاك"، ومرّ من أمام عيني الداخلية صورة مارد جبار يمسك بخناق الأرض.

بعد ثلاثة أشهر، كنت أجلس متشبثاً بالمقعد الذي أمامي في حافلة مغلقة تقوم برحلة يومية إلى مكان عملي. كان لدى أحد زملائي الركاب راديو محمول، وراح يتمتم بأن الأبراج سقطت. وحين غادرنا الحافلة وقفنا مصدومين على الرصيف أمام مكتبي، كان تعليق نويل: "لن يعود العالم هو ذاته مطلقاً"، وقد كان مُحقّاً تماماً.

لكنه، من جانب آخر، كان مخطئاً تماماً كذلك؛ فالعالم ما زال كما كان سابقاً، وسيبقى هو نفسه على الدوام، وهذا ما جعل عالِماً مصنَّفاً بأنه ذو درجة رفيعة لا يفهم ذلك. فالعنف يولِّد العنف دوماً،

والعنف الذي يُولِّده يُولِّد المزيد من العنف. وأولئك الذين دخلوا تلك الدائرة لن ينجوا من عواقبها بسهولة؛ فلا بد، إذاً، من وجود سبيل آخر.

لذلك، كنتُ راضياً جداً من الاستقبال الحماسي لهذا الكتاب ومن فرصة كتابة تمهيد لهذه الترجمة بعد الحادي عشر من أيلول. ولكن لم تكن هناك الكثير من المراجع التي كنت بحاجة إليها؛ فالبحث عن مستقبل لاعنفي ليس بالتأكيد أقل إلحاحاً الآن وقد اقتحمَنا العنف الراهن عنوة وبوحشية بالغة. كتب الشاعر ثيودور رويثك: "في زمن العتمة، تبدأ العيون بالرؤية". الكثير من الناس كانوا يشعرون بخواء الحضارة الحديثة القاصم، أما الآن فحتى أولئك الذين كانوا راضين عن ذلك الواقع بدأوا يدركون أن إيجاد حلّ لذلك الخواء لم يعد ترفاً، وذلك بسبب إفلاس النزعة المادية. إننا ننجرّ إلى دوّامة العنف، وحين نعي ما يجري لنا، تخترق البلادة إرادتنا، الواحد تلو الآخر. اليأس ليس استراتيجية ناجحة على الإطلاق، لكن اليأس المُفضي إلى فقدان الأمل بوسعه أن يجبرنا غالباً على إيجاد استراتيجية، وهذا ما يحدث في كافة أنحاء العالم.

في هذا الأسبوع، برز مثال في إصدار "نيويوركر" التذكاري حول الحادي عشر من أيلول؛ فقد كتب ديفيد ريمنك وهندريك هرتزبيرغ: "إنه أسبوع تغمره العاطفة، لكن ليست العاطفة وحدها؛ فمنذ البداية فرض الحادي عشر من أيلول أيضاً تحليلاً خاضعاً لسلسلة من الأسئلة التي بقيت بعيدة جداً عن الحلّ"[1]. أوافق كلياً على ذلك، ولكن هل حصل هذا التحليل؟ هل سألنا أنفسنا لماذا هُوجمت بلادنا بهذا القدر من الوحشية، وما الذي علينا فعله الآن لحماية أنفسنا من مثل هذا العنف؟

أحد الأسباب التي جعلتني أخاف وأنا أستمع إلى عالِم المختبر هو معرفتي بأن أناساً في موقعه قريبون من سياسة البيت الأبيض، ويعكسون مزاج الدوائر الرسمية. وكما يعرف معظمنا الآن فإن كلمة "غطرسة" مطروقة في الكثير من الأحيان على لسان المعلّقين خارج الولايات المتحدة، وداخلها أحياناً، حين يقصدون وصف إدارة بوش الثاني. وأي شخص لديه إلمام بالتاريخ، أو يتفكّر مليّاً بدينامية العلاقات الإنسانية من خلال تجربته الخاصة، يعرف ما لم يكن يعرفه ذلك العالِم الذكي: بأن لا الأموال الطائلة، ولا الترسانة الهائلة من الأسلحة، تجلب الأمن لشخص، أو لأمة تعاظمت غطرستها، وتتجاهل حقوق الآخرين في ضمان سعادتهم الخاصة. فالعنف أياً كان شكله . والغطرسة هي بالتأكيد إحدى هذه الأشكال . يُولِّد العنف: اختر العنف وقُلْ على الأمن السلام.

جعلت أحداث السنة الماضية الكثير منا يتآلف مع تعابير اللغة الاصطلاحية الهجينة للسي آي إي: مثل "الضربة الارتجاعية" (blowback)[2]. فعمانوئيل نورييغا في بنما وطالبان وأسامة بن لادن نفسه وصدام حسين، أجل! صدام حسين، كلهم كانوا مدعومين بقوة ومُموَّلين من قبل السي آي إي.

---

[1] - The Talk of the Town, New Yorker, September 16, 2002, 32.

[2] . مصطلح من ابتكار وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، يشير إلى العواقب السلبية غير المقصودة الناجمة عن العمليات الخارجية والتي يتم إخفاؤها عمداً عن الرأي العام الأمريكي . المترجم.

فالسي آي إي و/أو أجهزة "أمنية" أخرى ارتأت أنّ من المناسب إعلاء نفوذ هؤلاء الرجال العنيفين من أجل القيام بأعمال كانوا يعتقدون أنها مفيدة للولايات المتحدة، الأمر الذي أدى لجعل هؤلاء الناس يحولون عنفهم نحونا. ورغم ذلك، فإن هذا النوع من الضربات الارتجاعية هو جزء واحد فقط من صورة أكبر بكثير، كالغطرسة الخطِرة لزميلي العالِم. فالضربة الارتجاعية هي المكان الذي يستنفذ فيه المنطق الذي لا يرحم للعنف نفسه بطريقة مكشوفة للجميع لكي يروا – إن كان بوسعهم ذلك. فالحقيقة هي أنّ أيّ عنف يؤدي إلى ضربة ارتجاعية، وليس فقط العنف الذي تقدم له الحكومات دعماً مُقنّعاً. وربما ستجد أن أكثر الأمثلة سطوعاً في هذا الكتاب هو ما يتعلق بالنزاع العلني الأول مع العراق في العام 1991.

ما هو الردّ الأكثر شيوعاً للناس الذين شاهدوا كارثة مركز التجارة العالمي، سواء كبثٍّ حيٍ أو كبث مُعادٍ على التلفزيون؟ إن كنتَ تذكر، كان الردّ: "اعتقدت أنني أشاهد فيلماً". فعلى الفور، ربطوا ما شاهدوه في الحياة الواقعية مع موضوع خيال فني أكثر شيوعاً كانوا قد اختاروه وأحاطوا أنفسهم به: كارثة، دماء، جثث، انفجارات . يا لها من تسلية. لقد خلّف الشابان ديلون كليبولد وإيريك هاريس وراءهما شريط فيديو بينما كانا متوجهين لارتكاب المجزرة في مدرستهما العليا في مدينة كولومبيا. وقد كشفا في ذلك الشريط عن حلمهما باختطاف طائرة تجارية وحرث نيويورك بها: "قتل أكبر عدد من الناس يمكننا قتلهم". ما قام به الإرهابيون في الحادي عشر من أيلول كان شنيعاً، لكن إن كنا صادقين فليس بوسعنا القول أنه لا يُعقَل. لا يمكننا قول ذلك لأننا خلقنا ثقافة أصبحنا نفكر بها طوال الوقت، وخصوصاً شبابنا، ثقافة "ترفع فيها من شأن العنف بشتى الطرق المُتاحة"، كما قال أحد زملائي ذات يوم.

هذا ويمكننا أن نرى في بعض الحالات صلة مباشرة بين العنف وبين فقدان الأمن، كما هي الحال اليوم مع دعم حكومتنا الأعمى لإسرائيل، وفي حالات أخرى، كالحالات التي ذُكِرتْ للتو، حيث يكون الأمر مجرد صدى إيحائي يخاطب حدسنا. لكن علينا أن ندرك أن أي شكل من أشكال العنف يضعف من أمننا وسعادتنا. فإذا أردنا التحرّر من الإرهاب علينا أن نسأل أنفسنا، وبشكل منتظم، أي متى نختار العنف، وهل من خيار بديل؟ هذا هو جدول أعمال هذا الكتاب.

لأني محارب قديم،

وأعارض العنف بكل أشكاله.

لست فخوراً بتأدّية الخدمة العسكرية.

كما أني تعلّمتُ من أخطائي،

والآخرون تعلموا أيضاً.

وأملي هو أن نذهب معاً إلى موقع الحادي عشر من أيلول

كي نتذكر خسائرنا،

كي نرفض ثقافة العنف والعسكرانية،

كي نخلق حركة دائمة للعدالة والسلام

من أجلنا جميعاً (التأكيد من عندي)[3]

كأحد أول التعابير عن تحولها، قالت كريستال كيير، التي كتبت النص أعلاه مؤخراً: "لقد أطفأتُ تلفازي للمرة الأخيرة".

قد يبدو هذا غير مترابط وغير ضروري؟ كلا، إنه أساسي ولا غنى عنه لأنّ الحياة الإنسانية تجري وفق دينامية من الرفق ومن الوحشية، من التعاطف ومن التغريب، من الاحترام ومن التجريد من الإنسانية (أو، كباحث سأقتبَس عنه لاحقاً، من الديمقراطية ومن العنف)؛ فهاتان القوتان تقرّران حصيلة كل تفاعل إنساني. ألم نلاحظ غالباً كيف أنّ النزاعات، وخصوصاً تلك التي تجري بيننا وبين أحد المقرّبين منا، والتي تبدو ربما بأنها حول قضايا جوهرية من هذا النوع أو ذاك، هي في الحقيقة حول مشاعر مخدوشة وغرور مُعتمِل في النفس؟ وحين نتجاهل هذه الحقيقة البسيطة نجد أنفسنا واقعين في شتى أنواع المشاكل . على سبيل المثال، نكون غير قادرين على رؤية لماذا كلما ننفق المزيد على التسلح كلما ازاد عدد الدول التي تبادلنا التهديد، وازدادت تضحيتنا بحرياتنا الديمقراطية، وتضاءل شعورنا بالأمن. وفي الحقيقة نحن كذلك؛ فالأمن ليس شأن كلاب شمّ القنابل أو الأقمار الصناعية التجسسية. إنه شأن تعلّم كيف نعيش، وبالتالي لا نعود نحتاج لإزاحة الآخرين عن الطريق لكي نفسح مجالاً لسعادتنا. إنه شأن بناء ما دعاه مارتن لوثر كينغ "الجماعة المحِبّة".

كان الحادي عشر من أيلول نداءً للاستيقاظ. هذا ما ذكّرنا به الكاتبان في النيويوركر: ريمنيك وهرتزبيرغ، لكن الاستيقاظ أثبت أنه أكثر صعوبة بكثير من مغادرة الفراش في صباح بارد، وأكثر مشقّة بكثير من التوجّه إلى الحرب. أذكر ملصقاً إعلانياً في سان فرانسيسكو منذ بضع سنوات يحمل صورة جذابة لقطعة حلوى وعبارة "قم، واضغط على زرّ المنبه مرة ثانية". والحقيقة أنّ حياةً من التساهل مع الذات إنما هي ضرب من النوم؛ فلا يعود الإشباع اللانهائي للجسد تحقيقاً لحلم يربطنا السعي إليه بشكل أوثق بنظام اقتصادي حذَّر منه غاندي منذ قرن تقريباً، ويقوم على "مضاعفة الاحتياجات"، ما يعني أنه محكوم عليه بالإخفاق. واليقظة هي في أن ندرك أننا لسنا آلات للّذة، وأن هناك معنىً روحياً للحياة يمكنه وحده أن يجعلنا سعداء.

لقد قتلَتْ الحربُ على أفغانستان من الأبرياء، بقدر ما يمكننا إحصاؤه، أكثر مما فعلت أحداث الحادي عشر من أيلول، وشتّت ما تبقى من عناصر تنظيم القاعدة في كافة أنحاء العالم، مما جعل تحديد مواقعهم أمراً بالغ الصعوبة، وصبّت الزيت على نار الكراهية التي شرعنتهم. فوفقاً لنيويورك تايمز اليوم، بلغ "الغضب على الولايات المتحدة، المُضمَّن في الاعتقاد بأن إدارة بوش تقدّم دعماً لا محدوداً لإسرائيل على حساب الفلسطينيين، مستوىً لا نظير له في كافة أرجاء العالم العربي، تبعاً للمحللين والدبلوماسيين في المنطقة...؛ فأكثر من كل الفترات السابقة لمعاداة الأمريكانية في المنطقة، يتخلل

[3] – كريستال كاير، 27، عضوة في حركة أوليمبيا للسلام والعدالة، (OMJP)

الغضب كل طبقات المجتمع، وخاصةً أوساط المثقفين، مشوباً بخيبة أمل من قياداتهم المستظِّلة منذ زمن طويل بالدعم الأمريكي" [4]. والاحتلال الكارثي للعراق جعل هذه الأمور تسوء أكثر فأكثر. ونحن نحلم إذا كنا نعتقد أنّ هذا النوع من الفعالية سيجعلنا آمنين؛ فكابوس الحرب ليس ردّاً على نداء صحوة العقل.

في مجرى الحدث، أدّى النداء وظيفته كمفترق طرق حاد على طريق قدر أمريكا. حيث سلكت أقلية ضئيلة من الأمريكيين، وكل قادتها الحاليين تقريباً، درب الانتقام، الذي هو ردّ قاسٍ من ابتكارها. أما الآخرون، الذين تزايدت أعدادهم بعد الصدمة الأولية، فقد ذهبوا في طريق آخر تماماً، حيث حاولوا الوصول إلى الأمريكيين العرب، وفكروا باستهلاكهم الخاص للوقود: قال أحد زملائي: "هذه هي مساهمتي في الحرب على الإرهاب: لقد اشتريت مركبة من نوع پريوس Prius"[5]. كما كثّفوا جهودهم لخلق أشكال من السلام، وثقافة للسلام، كتلك التي ستجري مناقشتها في الصفحات اللاحقة.

وطبقاً لدراسة أجراها پول راي وشيري أندرسن، فإن عشرات الملايين من الأمريكيين يتشاركون الآن في البصيرة الجوهرية التي ذكرتُها للتو، وهي أن العامل الحاسم في الحياة الإنسانية ليس الاقتصاد بل دينامية الرفق أو ما يشابهها[6]. لقد استعدّ المزيد والمزيد من هؤلاء الناس للعمل على العيش وفقاً لذلك. والمثال على الاقتصاد البديل، الذي لامستُه في نهاية هذا الكتاب، هو مجرد ومضة من التجارب الاجتماعية التي تحصل في هذا الحقل وفي حقول أخرى، حسبما يمكننا أن نرى الآن على صفحات المجلة الفصلية "نعم" (Yes) [7] (أنظر المصادر).

في الوقت نفسه، ومع أن الأمة ككل تتحرك في الاتجاه المعاكس، فإننا نرى عسكرة لا يتصورها عقل في هذا البلد؛ فقضم الحريات المدنية يعود بنا إلى العهد المكارثي إن لم يكن إلى ما هو أبعد، والتلاعب بالحقيقة والعبث بحقوق الإنسان أمرٌ جدير بميلوسيفيتش. وقانون "باتريوت" الأمريكي[8]، الذي تبناه الكونغرس على عجل ووقّعه كقانون بعد ستة أسابيع على الهجمات الإرهابية، قلب القوانين لصالح الحكومة في 350 دائرة تابعة، من ضمنها 40 قسم إداري اتحادي، ونحن مُقبلون ربما على مواجهة.

ثمة طرق عديدة يمكن أن تؤدي بهذا التوتر إلى كارثة، وثمة طريقة واحدة لتجنب ذلك. إذ يمكن للقوى الرجعية، التي تقتات من هستيريا "الأمن"، أن تسحق هذه التجارب الاجتماعية الواعِدة، تاركة الولايات المتحدة قلعة محاصَرة وسط عالم معادٍ. كما أن التوتر بين هذه التجمعات يمكن أن يمزق البلد إلى أشلاء وبقسوة أشدّ مما فعلته حرب فيتنام.

---

[4] - جين بيرليز، النيويورك تايمز، 11 أيلول، وقد أضافت، وهي تكتب تقريرها من القاهرة، "يقولون إن قرار الرئيس بوش باستعمال القوة ضد العراق، يعقد المشكلة، وهذا ما عبر عنه كتخوف واضح في مصر والأردن الحلفاء الأساسيين لواشنطن في المنطقة.

[5] – سيارة من نوع تويوتا تعمل على الكهرباء والغاز بدلاً من الوقود بهدف التقليل من الإنبعاثات الناتجة عنه. المترجم

[6] - Paul H. Ray and Sherry Ruth Anderson, The Cultural Creative: How 50 Million People Are Changing the World (New York, Three Rivers, 2001)

[7] – مجلة فصلية تصدر عن "شبكة المستقبل الإيجابي" (PFN) تدعو إلى التغيير العميق لتجنب انهيار المجتمع . المترجم.

[8] . صدر ردّاً على أحداث الحادي عشر من أيلول، بحجة اعتراض وعرقلة الأعمال الإرهابية. وهو يمنح السلطات صلاحيات واسعة في المراقبة والتحقيق. ويُعدّ واحداً من أهم الأخطار التي تهدد الحريات المدنية والتقاليد الديمقراطية في تاريخ الولايات المتحدة . المترجم.

لكن اكتشاف اللاعنف بوسعه أن ينقذنا. ومساهمة هذا الكتاب ترمي إلى جعل الإمكانيات الواسعة غير المُكتشَفة لتلك القوة (اللاعنف) أكثر وضوحاً وأكثر فهماً وسهولة. ونحن، جميعاً، بحاجة إلى فهمها أكثر من ذي قبل. فالبعض منا، ممن يؤكدون على أن العنف لم يخدم البلد جيداً، ما زالوا يحطّون من قدره باعتباره مخالفاً للوطنية، وصورة منافية للعقل، والذين يؤكدون على النجاحات الهائلة للاعنف في ميادين العدالة الاجتماعية والتحرر، ويحاولون إظهار كيف يمكن لهذه الدروس أن تُطبَّق على الإرهاب، ما زالوا يفهموا خطأً، وبشكل مأساوي، كطوباويين وسُذَّج. فقد أخبرني – أنا نفسي – عدد من الأشخاص بأن مشاعري ستكون مختلفة لو أني فقدتُ أحد أفراد عائلتي في الهجمات، لكنهم على خطأ.

أُكرِّس هذا التمهيد لابنة عمي سيلفيتا، التي أُصيب زوجها تشيك بذبحة قلبية وتوفي على أثرها بعد أن عادت إلى المنزل في تلك الليلة متأخرة ومترنّحة من عملها في الطابق الأول في مركز التجارة العالمي.

مقدمة

عام 1971، وفي سهل شاسع وقاحل بعيد عن أي مكان، غرس لوغاري كاستريلون حلمه. فبعيداً في شرق منطقة منعزلة (في كولومبيا)، وعلى بُعد 16 ساعة من أقرب مدينة، أوجد لوغاري مع مجموعة من أتباعه المثاليين ما بات يُعرف الآن بـ"غاڤيوتاس" كمجتمع مزدهر ومكتف ذاتياً وقابل للحياة ونموذجي من أوجه كثيرة . اجتماعياً وبيئياً واقتصادياً . وهذا ما دعا الروائي الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز إلى تلقيب لوغاري بـ"مخترع العالم".[9] وفي "غافيوتاس" (التي سُمِّيت على اسم طيور النوارس النهرية القريبة، *لاس غافيوتاس*) صِبْيةٌ يزعقون وهم يتدافعون أعلى وأسفل على ما تبدو وكأنها أراجيح، لكن فيها حداً إضافياً لرضائهم، حيث أنهم يضخّون المياه لنظام الري وهم يلعبون. وسقف قاعة الموسيقى المقوّس والمصنوع من الفولاذ المقاوم للصدأ هو أيضاً سخّان ماء بالغ الفعالية؛ ففي الواقع تزوّد المجمِّعات الشمسية، التي هي من تصميم غافيوتاسياني الخاص، بالطاقة الحرارية عشرات الآلاف من الأبنية في بوغوتا وفي كافة أنحاء كولومبيا.

وبفضل البحث الدؤوب والاجتهاد والبصيرة، اكتشف الغافيوتاسيون بأن نوعاً معيناً من الصنوبر الكاريبي، الذي ينبت بشكل جيد في الأكوادور القريبة، يمكن استنباته في إيلانوس القاحلة. فقاموا بنقل شتلات من هذا الصنوبر وزرعوها واعتنوا بها بصبر. واليوم هناك الملايين من أشجار الصنوبر هذه تُزيّن . وتغيّر . النظام البيئي المحلي. لقد كانت مفاجأة كبيرة للجميع أن الأمطار الاستوائية قد أنبتت هذه الأشجار في تربة غابة بدائية وغنية بتنوعها، ولسنا نعرف كم حقبة انتظرت قبل توفّر الشروط الملائمة لكي تزهر مجدداً.[10]

سيكون هذا الكتاب حول تجديدٍ – إن تمكنا من تحقيقه – يشبه معجزة أشجار الصنوبر في غافيوتاس، لأنه سوف يستدعي – مثلها – تلك القوى القابعة تحت التربة الرقيقة لحضارتنا اللامشخّصة، حضارة "الحدّ الأدنى"، الميّالة إلى العنف، حيث بهت المعنى الإنساني وتبعثرت الروابط الإنسانية كذرات غبار. وكما هو الحال مع الغابة غير المتوقعة لغافيوتاس، ليس من الضروري خلق بذور هذا التجديد لأنها تنتظر هناك في قلب تربة وجودنا الخاص . تنتظرنا من أجل خلق شروط إيقاظها. لأنها بدائية مثلها مثل غابة الأمطار الاستوائية المتجددة النمو في غافيوتاس. وسأبين أنها أكثر فطرية – فيما يتعلق بالحالة الإنسانية – من عالم العلاقات العنيفة الذي أحطنا أنفسنا به في هذا العصر الصناعي. ومجدداً

[9] - Weisman, Alan. 1998. *Gaviotas: A Village to Reinvent the World.* White River Junction, Vermont: Chelsea Green. Back cover.

[10] - Ibid., 14, 175f.

كغابة الأمطار الاستوائية المدهشة في غافيوتاس، ليس من الضروري أن نعرف مقدّماً ما الذي سيكون عليه شكل التجديد الذي نأمل إنجازه، أو لنقل ليس بالضبط تماماً على الأقل. فما يجب أن نكون واضحين تماماً بشأنه هو كيفية خلق الشروط الملائمة، ومن ثم سيكون بوسعنا أن ندع الطبيعة . في هذه الحالة الطبيعة البشرية . تتكفّل بالباقي.

بدأ تجديدي الخاص في خريف عام 1966، حيث كانت تجري محاولات تجديد عديدة في تلك الأيام: بيركلي، كاليفورنيا. كان ذلك عندما قابلت معلمي الروحي "سري إيكناث إيسوورن" الذي كان قد داوم للتو في الجامعة لكي يدرس شكلاً من التأمل كان قد طوره بنفسه فيما كان يُعرَف حينذاك بغرفة التأمل العائدة لبناء اتحاد الطلبة.

كنتُ أدرّس الأدب الكلاسيكي والأدب المقارن في بيركلي . المهنة التي أعشقها بجنون. كانت لدي عائلة وطفلان ملائكيان، وكنت أسكن في منزل صغير ومريح يطلّ على شارع بالقرب من منتزه عابق برائحة أشجار الأُكالِبتوس، وتربطه ممرات ملتوية يؤدي أحدها إلى بحيرة جميلة إلى حدّ الكمال يمكن الغطس فيها مساءً بعد يوم كاليفورني قائظ في الجامعة. كنت أعتقد أنني في قمة السعادة في هذا العالم، ولكن إلى أين كان هذا العالم يأخذني؟

ذات يوم، ومنذ بضع سنوات، كنت أقف في غرفة الجلوس في شقتي في بيركلي أرنو إلى ابنتي المولودة حديثاً، حين سمعت عبر المذياع خبراً يتحدث عن "سترونتيوم 90" المنبعث في الجو نتيجة اختبار قنبلة ذرية، وعن أنه يُسمّم المطر الربيعي، وبالتالي يضيف إلى مخزون الحليب مقداراً غير معروف وغير مرئي من السمّ الخادع. في تلك اللحظة، أدركتُ من أعماق وجودي أنّ علينا "إيقاف الآلة"، كما سيقول ماريو سافيو لاحقاً من خلال "حركة حرية التعبير". لكن كيف؟ في حينه كان كثير من الأشخاص الذين من عمري والمتحررين من الوهم قد "انسحبوا" ورحلوا إلى الهند (أو على الأقل إلى نيو مكسيكو) لاكتشاف سبيل ما بعيداً عن النزعة المادية المستبدة والثقيلة الوطأة لثقافة معادية للحياة على نحو عجيب. ولحسن الحظّ كان كل ما علي القيام به هو السير من مكتبي إلى بناء اتحاد الطلبة.

يوماً ما، سأكتب قصة لقائي بـ" سري إيكناث إيسوورن" وكل ما عناه لي، وللعديد من الآخرين أيضاً. أما الآن، فما يهم هو كيف تحوّل جزء معين من حياتي من الإحباط الحزين إلى الفعل المبدع. لقد كرهتُ العنفَ بقدر ما أمكنني التذكر؛ ففي ذلك الوقت الذي قدِمتُ فيه إلى بيركلي، ترددت على مسامعي خطابات "نصير للسلام" من حركة الحقوق المدنية. كنتُ قد سمعتُ بغاندي طبعاً، ولكن، كمعظم الأمريكيين، لم أكن أعرف عنه إلا القليل. إذ إني، بعد بضعة أيام من عيد ميلادي الحادي عشر، شاهدت على غلاف مجلة "Life" مشهد حرق جثة المهاتما وأسى النائحين العميق، ما ترك لدي انطباعاً بارزاً حول الآخرة، بل وحتى المعجزات، شعوراً لم يبدده لاحقاً ما سمعته حول هذا الرجل وثقافته . صيامه وزهده. لقد أعجبتني إنجازاته لكنها بدت لي وكأنها أكثر من إنسانية. كنت أشعر أنه ربما كان رجلاً عظيماً، بينما أنا لست كذلك، وهكذا كانت الحال.

لكن عندما بدأ "سري إيسوورن" في سرد ذكرياته الخاصة عن غاندي في أحاديثه الملهمة، مُسلّطاً الضوء، بتمهّل ومن زوايا عدة، على من كان غاندي حقاً، انبثقت صورة جديدة كلياً. بدأتُ أرى أن غاندي كان أكثر عظمة . وحتى أكثر صلة بحياتي الخاصة . مما كنت أتخيّل.

كان هذا، طبعاً، أحد التغييرات العديدة فحسب لكنه لم يكن التغيير الأعمق الذي أحدثَتْه تلك المحادثاتُ المبكرة. لأن "سري إيسوورن" كان يوضح لي، شيئاً فشيئاً، بأن الكرب العاطفي الذي كنت أمرّ به لم يكن أمراً استثنائياً خاصاً بي، والأكثر أهمية من هذا هو أنّ له علاجاً. لأن استيائي السياسي . مع كل شدّته العاطفية . كان في الحقيقة روحياً ويمكن أن يأخذ اتجاهاً ذا مغزى أكبر. وبترافق خبرةٍ مع الصبر والالتزام غير المحدود ألهمني "سري إيسوورن" (كان أحياناً يهزأ من أن الأحرف الأولى من اسمه ترمز إلى "الحماس اللانهائي") بأن أجعل من التأمل ركناً أساسياً في حياتي. وبقيمه ورحمته ورؤيته المترافقة مع تجربته الشخصية العائدة لنشأته في هند غاندي، مكّنني مِن إدراكِ مَن كان المهاتما ومِن الإحساس بالمعنى العملي لتراثه.

وما حدث كان أني، وبمجرد أن وضعت قدمي على "السلَّم" (مفردة تخصصية أكاديمية تعني مسار التثبيت في منصب تعليمي)[11]، وبدلاً من البدء في محاولة وضعها على موقع مختلف – وهو أمر يصعب نوعاً ما القيام به مع سلَّم أنت واقف عليه – بدأتُ، بعد هذا اللقاء بقليل، بتدريس مقرري حول اللاعنف وغاندي. وقد نما هذا من خلال فيض من المقالات، كانت بداية دراساتي حول السلام في بيركلي، وحول هذا الكتاب . السيرة. والأكثر أهمية هو أنّ هذا التعليم تطور من خلال العديد من الصداقات المديدة مع شباب استثنائيين تلقوا هذا المقرر لأكثر من ربع قرن تقريباً. وحدَه الشخص الذي حضرَ هذا المقرَّر ربما يكون في وسعه أن يقدّر كم جذبني هؤلاء الطلاب بحماسهم وتحدّوني بذكائهم، وفوق ذلك ألهموني من خلال مطالبتهم بعالم أفضل.

قادتني تلك الخلفية وهذه القناعة إلى كتابة هذا الكتاب؛ فبعد عدة عقود على اكتشاف اللاعنف، لم يعد لدي أدنى شك بأننا نستطيع أن نُخرِج إلى النور مجتمعاً مُحباً يتجاوز الأزمة العالمية التي نمر بها. أما ما يمكن أن يكون عليه مثل هذا المستقبل فمن الصعب تحديده تماماً حتى الآن، وربما لسنا بحاجة إلى اكتشافه بالتمام في هذه المرحلة، ماعدا أمرين مؤكدين: أولها هو أنه، مثل "معجزة" غافيوتاس، سيتطلب الكثير من العمل، ومعظم المعجزات تتطلّب ذلك. هنا ربما تبدو زراعة مليون شجرة أسهل مقارنةً. وثانيها، هنا يقدم لنا الغافيوتاسيون مثالاً يتجاوز المجازية، هو أننا مثلهم نعرف أنه رغم واقع كون نتائج جهودنا ما زالت متخفيةً وراء سديم مستقبل غير مؤكد إلاّ أنّ علينا، إذا كنا نريد هذا المستقبل حقاً، القيام باختيار صائب وحيد مشابه جداً لذلك الاختيار الوحيد الذي أظهر غافيوتاس إلى الوجود: اختيار العمل البنَّاء الذي (يواجه) ويتجاوز السلبية الهائلة السائدة. لقد اختار باولو لوغاري

[11] . إن مسار التثبيت الأكاديمي الأمريكي الشمالي هو شكل من المهنة المستمرة المكفولة في مؤسسة أكاديمية تمنح الأساتذة حق عدم التعرّض للطرد التعسّفي.

إيلانوسَ الجرداءَ و"إذا كان بوسعنا فعل مثل ما فعل في كولومبيا... فبوسع الناس فعله في أي مكان"،[12] ما يعني أنه بالروح نفسها يمكن أن نختار صناعةَ حياة أمن وحيوية حتى في قلب البوسنة والهرسك، وربما خصوصاً هناك حيث تبدو ثقافة العنف مهيمنة. أنا لستُ دونكيشوتياً، لكن عدداً مذهلاً من المشاريع التي سنتفحّصها في الصفحات التالية أدّت إلى نتائج جيدة تجاوزت ما كان يتوقعه الفاعلون. ففي أغلب الأحيان، لم تكن النجاحات الأفضل والأكثر ديمومة هي تماماً للمشاريع التي كانوا ينوون القيام بها، وفي الحقيقة فشل أحياناً ما كانوا ينوون القيام به. لكنهم، في كل حال، قاموا بعمل واحد صائب: لقد اختاروا الإقناع والاستيعاب بدلاً من القوة والكراهية والهيمنة. وكذلك بوسعنا نحن أن نفعل.

[12] - Ibid., 33. للمزيد من المعلومات راجع, see http://freindsofgaviotas.org/about.htm

الفصل الأول

أسئلة صعبة وأجوبة صعبة

كل الأنظمة الطبيعية والإنسانية الرئيسية هي اليوم في أزمة أو في حالة تغيّر. وتتراوح مؤشرات هذا التغيّر من انهيار الثروة السمكية حول العالم، واستنزاف غابات المطر، وانحدار مصداقية الحكومات، وتفاقم عدم المساواة بين الأغنياء والفقراء، والأزمة في معنى الخواء والإحساس به المتأتّي من المغالاة في التوكيد على ازدياد الاستهلاك المادي.
نشرة شبكة المستقبل الإيجابي

«إن البليَّةَ لا تخرج من التراب والشقاوة لا تنْبتُ من الأرض ولكنَّ الإنسانَ مولود للمشقة كما أنَّ الجوارحَ لارتفاع الجَناح.» (سفر أيوب 5 : 6 . 7)

أبرزت الصفحة الأولى من (نيويورك تايمز)، إصدار يوم الأحد 17 آب 1997، صورة امرأة حزينة، اسمها ليندا ريد، وهي تضع باقة زهور على شاهدة قبر ابنها الذي شنق نفسه وهو في عمر السابعة عشرة. وكان المراهق السادس من تلك الجالية التي تشنق نفسها، في تلك السنة. لماذا؟ تحدثت المقالة المُصاغة بشكل جيد، واصفةً حالات الانتحار في هذه المنطقة من جنوب بوسطن، عن مشاعر الكبرياء لدى الجالية، والتي تضغط بثقلها الشديد على الشباب، وعن التوترات العرقية، وعن قلّة الفرص الاقتصادية، وعن كل الأمور التي ندركها جيداً لكنها بالكاد تفسّر سبب إقدام شاب في بلاد مثل بلادنا على وضع حدّ لحياته. لابد أن التفسير الصائب يمتدّ إلى ما هو أعمق من كبرياء الجالية ومن الفرص الاقتصادية. ففي عام 1998 ذكر كبير الأطباء في وزارة الصحة أن الأطفال في سن 10 . 14 أكثر عرضة لوضع حدّ لحياتهم بنسبة الضعفين مما لو كانوا في الخامسة عشرة. ما السبب؟ حيث الإحساس بأن كل هذا الحديث عن كبرياء الجالية وما شابه مجرد ستار من الدخان، ويقتبس الكاتب في النهاية عن كاهن محلي أنه: "ما من أجوبة حقاً".

أنا أرفضُ القبول بهذا. أرفضُ تصديق عدم وجود أجوبة عن استرخاص الحياة وتزايد العنف ضدها. رجالات ونساء دولة يُغتالون لصغائر الاختلافات؛ شابان يقتلان والديهما من أجل الحصول على أموالهما؛ قتلٌ وانتحارٌ يضعان حداً لحياة شخصية مشهورة وزوجته في منزلهما الفخم، وقد كانا على ما يبدو سعيدين لسنوات؛ نساء يُتاجَر بهن كسلع رخيصة؛ مراهق يُقتَل في الشارع من أجل حذائه الرياضي . لماذا؟ ربما من السهل القول بأنه ليست هناك من أجوبة، لكن هذا غير مقبول. وإذا لم تكن لدينا أجوبة عن مثل هذه المسألة الأساسية، مثل: لماذا لا نستطيع أن نعيش بسلام مع بعضنا بعضاً، وغالباً لا نستطيع الاستمرار في العيش على الإطلاق، فربما نحن نطرح الأسئلة الخاطئة.

من ناحية، واضح تماماً أن هذا ما نفعله فحسب. فالعنف "يُنقل" إلينا كل يوم عبر وسائل الإعلام باندفاع، وبصخب تفصيلي فارغ من المعنى: "أُصيب جو إكس، وهو في السادسة والعشرين من عمره، بثلاثة أعيرة نارية من مسدس 9 ملم بِيع الثلاثاء الماضي بثلاثة وعشرين دولاراً". أو: "كانت نسبة القتل هذا الشهر في دايتون أخفض بـ 1،8% من الشهر الماضي". كما يُنقَل إلينا، بتكرار وجدّية، "الأسباب" التافهة التي يقدّمها لنا الباقون على قيد الحياة، والمنفعلون بارتباك، أولئك الذين بالكاد يدركون ما الذي يجري حولهم، وليس من حدّ لمثل تلك الأمور المنافية للعقل وللإهانة الصريحة للطبيعة البشرية. حيث ماذا بوسعنا أن ندعو اليوم تلك الدعوة القضائية العابثة، فقد قالت زوجة جيمس أوليفر هيبرتي، الذي ارتكب مجزرة في مطعم ماكدونالد في سان إيسيدرو وراح ضحيتها 12 شخصاً، أن ما أصاب زوجها من هيجان قاتل مردَّه المقدار المفرط من MSG (غلوتاميتات أحادي الصوديوم) الموجود في شطائر الهامبرغر التي تُباع في المطعم. إن الطريقة التي تُنقل بها الأحداث العنيفة (وهذا جزء كبير للغاية مما نقرأه ونفكر فيه اليوم) تُتفِّه هذه الأحداثَ عملياً وعلى الدوام. إنها تُقدَّم لنا كمثل وابلٍ من التفاصيل العَرَضية، وغالباً على شكل إحصائيات باردة. إننا لا نفكر بتاتاً بشأن العنف ذاته، بسبب استغراقنا في تفصيل مثير ما أو آخر، في فصل ما عنيف أو آخر.

وبالتالي، فالأسئلة الصائبة ليست: لماذا يحوّل الطلاب الشبان الصغار مدارسهم إلى ساحات حرب؟ أو: لماذا هناك الآن تزايد في جرائم الكراهية ضد مِثليّي الجنس في فلوريدا؟ أو كيف يمكن إغلاق الحدود للحيلولة دون المتاجرة بالبشر؟ الأسئلة هي:

- ما هو العنف؟
- لماذا يستفحل سوءاً؟
- كيف نضع حدّاً له؟

محرّكات التغيير

لوقت طويل كان لدينا ميل لإنكار العنف. لكن هناك إشارات على أن هذا الميل يضعُف. وفي معرِض تناول حنة آرندت للدور الهائل الذي لعبه العنف عبر التاريخ بالحسبان، كتبتْ حنة آرندت في دراستها الكلاسيكية "حول العنف" في العام 1969: "من المفاجئ إلى حدّ ما كم كان نادراً، ولاعتبارات خاصة، أن نولي العنف اهتماماً"[13]. لأنها كانت تعكس حقيقة أن وعياً جديداً بدأ يبزغ، حيث بات الكثيرون يشعرون أن الوقت قد حان لتجاوز الإنكار ومواجهة القضية الآن وبشكل مباشر. لقد لاحظ غاندي منذ نصف قرن أن العالم "مريض إلى حد الموت نتيجة إراقة الدماء"[14]، وفي الوقت نفسه تقريباً،

[13] - Arendt, Hannah. *On Violence*. New York: Harcourt, Brace & World, 1969, p.6.
[14] - CWMG, Vol. 53, p. 354 (*Harijan* 4/14/46, p. 90).

أبدى الفيلسوف الفرنسي جاك إلول ملاحظته للتفطّن إلى أن عصرنا "ليس مطلقاً عصر العنف، وإنما هو عصر وعي العنف"[15].

بعبارات أخرى، ما يميّز زمننا حقيقةً ليس كونه مُتخماً بالعنف . كانت هناك أزمنة كهذه من قبل . بل أننا نواجه تحدّياً قد لا يكون مسبوقاً للتعامل مع العنف. والحقيقة أن وسائل الإعلام لم تتمكن من اختيار وقتٍ أسوأ لكي تجعل العنف يبدو تافهاً وغير قابل للإدراك لأنها بذلك تُلحِق الضرر بالحضارة الإنسانية على نحو استثنائي.

تُشبه مجابهة العنف، إلى حدّ ما، الالتفات لمواجهة ضوء مُبهِر يعكس كل أنواع الصور والظلال الفاتنة التي أمامنا (أجل، لقد كنتُ مُتأثِّراً بأفلاطون). لأنه من الصعب التحديق في ذلك الوهج لكننا، حين نُفلِح، نجد وكأننا نمرّ عبر نوع من مرآة "أليس"؛ فنشعر بغتةً بأننا مثل شخصية ذلك الملصق الإعلاني الشعبي من الستينيات الذي يُقحِم رأسه في كون آخر برمّته . أو ذاك المحكوم الذي يحدّق بكآبة عبر القضبان إلى رقعة صغيرة من السماء في حين أن كل ما خلف باب زنزانته مُتسع على مداه.

إنه عالم فسيح جداً: الضوء قد يبدو مزعجاً في بادئ الأمر، لكن عندما نواجهه تتراءى المشاكل التي بدت عصية على الحل مقترنة بكل أنواع الحلول . حلول ذات آثار جانبية جيدة وغير متوقعة، عوضاً عن الحلول ذات الآثار السيئة.

تتّسم الطريقة السائدة في التعامل مع العنف بميل مرعب إلى خلق المزيد من المشكلات بدلاً من إيجاد حلول لها. فعلى سبيل المثال، تسعى في الولايات المتحدة إلى وضع حدّ لإحضار الشباب الأسلحة إلى المدرسة عن طريق تركيب أجهزة كشف المعادن. من المؤكد أن هذا الإجراء يُقلّل من عدد الأسلحة المجلوبة إلى المدارس لكنه، من جهة أخرى، يُضعِف معنويات الطلاب لأنه يعني عدم الثقة بهم. كما أنه يُكثِّف من إثارة "لعبة" تهريب الأسلحة إلى المدرسة. والأهم من كل ذلك هو أنه يُطبّع العنف؛ فهو يلثم الصدمة. كيف أمكننا السماح لموقف مثل هذا بأن يحدث، حيث يمتلك الشباب عموماً أسلحة أقل بكثير مما يحملونها في المدرسة؟ ومن دون هذه الصدمة، أين كان لدينا الحافز للتصرف؟ أين الدافع لمواجهة المعضلة الحقيقية: العنف، والتي أحد مظاهرها فحسب حمل الأسلحة في المدرسة؟

التحرك نحو الحقيقة

لقد عرّفتُ وسائلَ الإعلام بأنها مصدر رئيسي لمشكلتنا، وأنا ماضٍ في التعريف لسبب بسيط ووحيد وهو أنها الحيّز الأكثر فاعلية لإحداث التغيير. على أية حال، وبكل أمانة، لا يمكن أن نلقي بكل اللوم على وسائل الإعلام. فحين قالت حنة آرندت أنه "مفاجئ نوعاً ما أن العنف لم يُولَ اهتماماً خاصاً قبل الآن"، فإنها كانت تُلَمّح علمياً إلى أنّ لدينا ميلاً طبيعياً لتجنب التفكير بالعنف بشكل مباشر، وهذا

[15] - ELLUL, JACQUES. *CONTRE LES VIOLENTS*. VIENNA: LE CENTURION, 1972, P.7.

مفهوم، لأننا حينئذٍ سنفكر بما له علاقة بالجانب الأكثر سلبية في الطبيعة الإنسانية، أي بالجانب الأكثر سلبية في طبيعتنا نحن أنفسنا. وأنا لا أحب هذا أكثر مما تحبه أنت. لكن رغم ذلك لا بد من القيام به، ولكن ليس على نحو مدمِّر. وهذا يعني أنّ بإمكاننا إمعان النظر في أعماق الطبيعة البشرية . في أعماق طبيعتنا أنفسنا . بطريقة متوازنة، في مُطالعة ما هو صالح، بالإضافة إلى ما هو مُثبِط لعزيمتنا. واليوم، حين نؤكد على ذلك الجانب الظليل للإنسانية فمن الأفضل ربما أن يكون "التوكيد" معتدلاً جداً بسبب استحواذ الحاضر القبيح والعنيف علينا، حيث يبدو أن ثقافتنا هي التي تجعلنا جاهلين أكثر فأكثر بمكانتنا الإنسانية. لذا، دعوني أطرح بجلاء وباقتباس مقتطف من عصر مضى، أعني القرن الرابع عشر، لأن ذلك لم يكن حقيقياً في النهاية:

تحتك وخارجك يقع الكون المخلوق بكامله.
أجل، حتى الشمس والقمر والنجوم مثبّتة فوقك، وساطعة في القبة الزرقاء.
ومع ذلك لا يمكن مقارنتها بسُموِّك المُمجَّد ككائن بشري.[16]

يبدو من الخيال تقريباً، بالنسبة لنا، أن يتمكّن كاتب ما عملياً من وصف الإنسانية بهذه العبارات المتوهِّجة، لكنه كان سيبدو خيالياً تماماً بالنسبة إليه إنْ صوَّرنا أنفسَنا كـ" قتلة بالفطرة"[17]: خيالي تماماً وأكثر خطراً بكثير.

إن هاجسنا بالسلبية، الذي نسلِّم به جدلاً على نحو مُفارق، يجعل من شبه المستحيل فهم الجانب السلبي الذي فينا؛ فقد حال بيننا وبين تركيز تفكيرنا في أسباب العنف تلك التي تكمن فينا، عن طريق خلق شعور بأن أسباب العنف تكمن في داخلنا فحسب. لذلك، حين نضيء نورنا وسط الظلمة، فإنه من الضروري مراقبة بذور التغيّر والتجدّد التي فينا من خلال التأكيد، سويةً، على العمى والدوافع والنزوات التي تجعلنا عنيفين؛ فالمتناقضات يمكن أن تكون نفسها على نحو غريب.

ذات يوم، وبينما كنتُ أعبر ميدان سپرول Sproul، الذي كان مشهوراً في الستينيات كمسرح لحركة التعبير عن الرأي، شاهدتُ رهطاً من الطلاب يوزعون أوراقاً صغيرة حول كشك تمّت إقامته بعجالة. وهذا ليس بالأمر الغريب بالنسبة لجامعة بيركلي في كاليفورنيا. كان من الواضح أنهم مهتاجون (لا غرابة في ذلك أيضاً). اقتربتُ لكي أقرأ لافتتهم الكبيرة المكتوبة بخط اليد: جرائم الكراهية ضد الآسيويين في ارتفاع. لقد صُدِمتُ وتأذيتُ؛ ففي بيركلي الكثير جداً من طلابي وأصدقائي وزملائي هم من الآسيويين، لذلك شعرتُ بأن الأمر يمسني شخصياً، بعيداً تماماً عن حقيقة أن هذا النوع من الأمور لا يجب أن يحدث لا في بيركلي ولا في أي مكان آخر في هذا القرن. بيد أنّي تعلّمتُ أمراً على مرّ

[16] - Johnston, William, translator. *The Cloud of Unknowing*. New York: Image, Doubleday, 1973, p. 129.

[17] . اسم فيلم أمريكي لأوليفر ستون عُرِض مؤخراً.

السنين: إن أردتُ القيام بفعلٍ ذو فعالية وديمومة، فعليّ أن أضبط ردود أفعالي الأولية، وأن أتراجع خطوة إلى الوراء محاولاً رؤية الصورة الأكبر. ولكي أكون أكثر دقة، كان عليّ أن أتراجع ثلاث خطوات في هذه الحالة. وكما لو كانت يداي مغلولتين بسلسلة في أعماق مياه عكرة، وكان عليّ أن أتحول بتفكيري من: جرائم الكراهية ضد الآسيويين إلى جرائم الكراهية إلى الكراهية بحد ذاتها. لأن الكراهية هي المعضلة الرئيسية؛ فكلما ازدادت الكراهيةُ عبَّرَتْ عن نفسها بشكلٍ ما، وستكون بعض هذه الأشكال غير قانونية . جرائم، بعبارة أخرى . وبعضها سيكون موجَّهاً ضد الآسيويين. لكن السبب الضمني لجرائم الكراهية ضد الآسيويين . في بيركلي أو في أي مكان آخر . لا علاقة له بالآسيويين أو حتى بالتمييز العنصري، ذلك أن الكراهية في ارتفاع. قد تكون اليوم موجهة نحو الآسيويين، وغداً نحو اليهود والسود والمشرّدين ومِثليي الجنس والسحاقيات، وبالأمس كانوا الشيوعيين، لكنْ نظراً لأن هؤلاء جميعاً مجرد أهداف لكراهية بعض الناس، فإن محاولة التعامل مع كل مجموعة من الضحايا على حدة يشبه محاولة معالجة تسرّب واحد كل مرة في نظام صدئٍ لضخّ للمياه. هل قطع المياه سيكون أكثر فاعلية أم أنه يجب تعديل تلك الصورة؟ لأن الكراهية هي المدّ الذي يرفع كل المراكب: لن نحصل على الكثير إن حاولنا إنقاذ المراكب، أو حتى مجموع المراكب دفعة واحدة، بل نحتاج إلى طريقة لخفض مستوى المدّ.

كتب جون بيرتون، السكرتير السابق في شعبة الشؤون الخارجية الأسترالية والباحث المشهور في النزاعات الآن: "بقدر ما تتنطّع السلطات لمعالجة مشاكل معينة كمشاكل منفصلة، بقدر ما لا تكون هناك ديمومة لعلاج أيّ منها". لسنا ذاهبين فحسب إلى اشتباكات بين مجموعات، بل إلى صدام هائل بين الأنظمة التي بنيناها وبين الحاجات الإنسانية التي تفترض مخاطبتها.[18]

أولاً، وقبل كل شيء، إن مشكلة محاولة إيقاف التسرب في كل مرة لا جدوى منها على الإطلاق في حلّ المشكلات الأخرى. هل تقدّم ندوةٌ نهضةً في الوعي؟ أو، إن كنتَ تريد حقاً أن تكون واسع الخيال، فربما توفر المزيد من إجراءات "الأمن" للآسيويين؟ ربما تلاحظ بعض الانخفاض في جرائم الكراهية ضد الآسيويين (وسأجادل لاحقاً بأن هذا حتى ليس مضموناً)، لكن ماذا عن جرائم الكراهية ضد السود والسحاقيات والقوقازيين؟ وماذا عن عراك الشوارع؟ وماذا عن الحرب؟

ومن جهة أخرى، إذا أمكنك، بطريقة ما، أن تقوم بفعل من شأنه ضبط الكراهية، فإن كل مظاهر الكراهية سوف تنحسر بالدرجة ذاتها. وقد يكون التأثير على جرائم الكراهية المحددة أقل وضوحاً في بادئ الأمر لأنها ستكون غير مباشرة، لكن على المدى الطويل سيُعوَّل عليها أكثر بكثير. فأنت، ببساطة، لا تستطيع القيام بجرائم كراهية ضد الآسيويين ما لم تكن تختزن الكراهية. وعموماً، من الواضح تماماً أن السبب الوحيد لتكرارها هو أننا حالما نواجَه بعنف ذي طبيعة خاصة . الشاهد على ذلك هو ردّ فعلي الأول على الكشك . فإن ما يجذب كل انتباهنا هو التفاصيل. وحالات الطوارئ محفِّزات كبيرة، لكنها

[18] - Burton, John W. *Violence Explained: the sources of conflict, violence and crime and their prevention*. Manchester: University of Manchester Press, 1997, p. 10.

تخلق جواً فظيعاً لحلّ حقيقي للمشكلات. فمن أجل حلّ المشكلات نحتاج إلى امتلاك القليل من ضبط النفس، والقليل من البُعد، والكثير من الصبر. نحتاج إلى أن نرى، على سبيل المثال، أن المشكلة ليست الكراهية الموجَّهة ضد المجموعة (أ) أو (ب)، وإنما هي الكراهية بحدّ ذاتها.

بينما كنتُ عائداً إلى مكتبي صدف أن وجدت شخصية مشهورة من بيركلي يخطب في جمهرة من المتفرجين بصوت ميّزتُه تماماً؛ فهو من النوع الذي يجعلك تجفل حتى قبل أن تستمع إلى ما يقول. لست متأكداً من مشكلته أو لماذا اختار الحضور إلى الحرم الجامعي، لكنه كان بالغ الغضب ويهاجم الناس لساعات بصوت أجش وبمرارة. كان يُدعى شعبياً **رجل الكراهية**. وقد تملكني شعور غريب بأنني ربما الشخص الوحيد الذي يلاحظ هذا الترابط.

العلم والاكتشاف مصادفةً Serendipity [19]

قد يبدو الأمر بسيطاً، لكن بمجرد ما نشق طريقنا إلى أسفل السلسلة، من جرائم الكراهية ضد الآسيويين إلى جرائم الكراهية إلى الكراهية . وليس من السهل القيام بهذا حين نكون واقعين في شرك موقف مفعم بالكره . فإننا نكون قد تجاوزنا سؤال لماذا هذا النوع من الجرائم؟ بل نكون قد بدأنا الطريق لحلّه. وحالما نركّز التفكير على السبب العاطفي، نبدأ في تلمس إجراء براغماتي يمكّننا من تطبيقه من خلال ما يستلزم من تغييرات ضرورية ذات علاقة بكل أشكال العنف؛ فنظراً لأن الكراهية هي السبب المُبطَّن للعنف، ليس بمقدورنا معالجة المعضلة إن لم تكن لدينا طريقة لتحويل الكراهية إلى منحى ما آخر. وثمة دليل على أن هذه الحيلة قد لا تكون مستحيلة بقدر ما تبدو عليه.

في تجربة لافتة نُشرت بدايةً منذ فترة قريبة في صحيفة *Journal of Abnormal Social Psychology*، وأُجريت على تلاميذ مدارس من نفس العمر، حيث قُسِّموا إلى مجموعتين، وتم حثّ المجموعة الأولى على أن تكون عدوانية، والأخرى على أن تكون متعاونة. في غضون بضعة أسابيع صاروا يتصرفون بشكل مختلف تماماً. ومن ثم جُمعِت المجموعتان وأُخضِع أعضاؤهما إلى إجراء مُحبِط حاد: جلسوا في غرفة كبيرة ولطيفة تحتوي على جهاز إسقاط ضوئي تحيط به عدة علب من الأفلام. ومن أجل تحسين الإجراء، وُزِّعت على الأطفال قطع حلوى طُلِب إليهم عدم تناولها مباشرة. وأُطفئت الأنوار في الغرفة وبدأ عرض الفلم الأول. ودون سابق إنذار من قبل القائمين على التجربة، أُضيئت الأنوار فجأة، وأُطفئ العارض الضوئي، وصودِرت قطع الحلوى، وأُعيد الأطفال إلى قاعاتهم الدراسية. العلم شاق! لكن القضية كانت ذات أهمية . كي نرى إن كان سيُعاق التدريب التعاوني في ظل مثل سوء معاملة غير مستحقَّة كهذه. وقد صُوِّرت نتائج الاختبار حسب الأصول عبر الزجاج الأحادي الرؤية لقاعات الدروس، فكانت بالغة الدلالة. فقد كان سلوك الأطفال الذين تلقّوا تدريباً عدوانياً مسبقاً جهنمياً؛

[19] . السَّرنديبية (عن أسطورة أمراء سرنديب الثلاثة): تعني موهبة اكتشاف ما هو نفيس مصادفة . المترجم.

فتفجّر إحباطهم عموماً في مشاجرات ومجادلات وأذى متعمد أكثر من ذي قبل، وهذا لم يكن مدعاة للاستغراب. لكن المفاجأة الحقيقية كانت أنّ الأطفال الذين شُجِعوا بشكل منظّم على التعاون مع بعضهم البعض كانوا أكثر تعاوناً من ذي قبل. فعلى نحو جلي، لم يحمهم تدريبهم التعاوني من الإحباط فحسب، بل سمح لهم بالتعالي عليه. لقد كانوا قادرين على تحويل السلبية المنفلتة في داخلهم إلى قنوات بنّاءة. فالتوتر النفسي على ما يبدو ليس صالحاً ولا طالحاً بحدّ ذاته، إذ يمكن التفكير فيه كطاقة خام بوسعها أن تصبح مدمرة أو نافعة حين نجعلها تتدفق عبر قنوات عدوانية أو متعاونة. السلام يمكن أن يكون مسألة تدريب بسيطة.

وكما تكون قد خمّنتَ من علب الأفلام والعارض الضوئي، فإن هذه الدراسة، التي قام بها جويل داڤيتز، نُشرِت منذ أكثر من خمسين عاماً، وفي ذروة الحرب الباردة[20]. في حينه، كان الكثير من المعلقين السياسيين يقولون إننا لو قمنا بذلك في تلك السنة، 1952، لأمكننا تجنب الكثير من الأمور. وربما يُعتَقد آنذاك أنّ التساؤل حول ما إذا كان بوسع (أو ليس بوسع) الكائنات البشرية التدرّب لكي تتخلص من دوافعها العدوانية، سيحتل مكان الصدارة. بيد أن دراسة دافيتز أُهمِلت عموماً. وكان هذا في أوج سيادة نظرية "العدوان الفطري"؛ ففي ذلك الوقت كان يعتقد أن العدوانية الإنسانية مُبَرمَجة بيولوجياً وأنه ليس هناك ما يمكن فعله حيالها. وهي فكرة لم تعد ذات موثوقية كبيرة الآن (لكن الإعلام الجماهيري والجمهور بشكل عام ما زال يعتقد بها على نحو غير نقدي) لكنها كانت على وشك أنْ تخترق الجمهورَ من خلال سلسلة من المنشورات العلمية الزائفة التي كتبها روبرت آردري ("الأولوية الإقليمية" ستبرز في العام 1966) وريموند دارت وآخرون. لقد أصبحت ذروة هذا "العلم" الحسّي خلفنا الآن، وأصبحنا أحراراً في أن نتصوّر أن هناك في الحقيقة ربما طرقاً لتحويل الكراهية والطاقات السلبية الأخرى إلى مجارٍ أخرى، ذلك أن الطبيعة البشرية، كما يوحي الاختبار، تتضمن العلاج كما تتضمن أسباب النزعة العنيفة التي تغمرنا.

لم يتوقف مسار العلم منذ عام 1952، ونحن على معرفة أكبر فيما يتعلق بالتعاون. وأصبح التدريب على الوساطة صناعة نامية على سبيل المثال، لكن مضامين دراسة داڤيتز لا تزال بعيدة عن الإدراك بالكامل. فالدراسة بذاتها معروفة في أوساط علماء النفس ذوي التوجهات السلمية، لكن مضامينها لم تُستكشَف على نحو منظّم رغم أهميتها الكامنة. فالنزعة التشاؤمية بشأن الطبيعة البشرية ما زالت هي المعيار في أوساط الرأي العام، وأخشى أن تكون ما زالت كذلك في العلم السائد (رغم ملامح التغيير). فالناس يدرسون ويتحدثون ويستكشفون الجانب الظليل لطبيعتنا، وعلينا التعمق في النظر لكي نجد الجانب الآخر الذي نحتاجه حقاً.

[20]- Davitz, Joel R. "The Effects of Previous Training on Postfrustration Behavior," *Journal of Abnormal Social Psychology* 47 (1952) pp. 309-315.

بحثاً عن الوقاية

إن كنت ترغب حقاً في العدالة من أجل جماعتك الخاصة، أو أية جماعة تتماثل معها، عليك أن تخطو إلى الوراء في رؤيتك وعواطفك، ليس بغرض التقليل من الاهتمام بل لإعطاء نفسك حيّزاً عاطفياً موجَّهاً بشكل أفضل. هذا ما علينا جميعاً فعله إذا شئنا أن نبصر حياة آمنة من خطر العنف، حتى لو كنا أقليات تعيش في مجتمع مريح. فسواء كنا نشطاء أثار غضبهم شكل من أشكال اللاعدالة، أم كنا نرغب فحسب في الدخول إلى مخزن دون أن نتعرّض للسلب، علينا تغيير طريقتنا في التفكير. علينا إبطاء ردود أفعالنا الأولية . ليس عبر فقداننا لكثافة المشاعر المتعلقة بالمشكلة بل، على العكس، لكي نحوّل تلك المشاعر الثمينة من الخوف أو الرعب أو الاستياء إلى عزم. وبمقدار ما يكون بوسعنا رؤية الأسباب الخفية، بمقدار ما يكون بوسعنا أن نحدد الحل الوحيد الدائم والحقيقي.

بيد أنه ثمة نقطة ذات أهمية، وقد بدأتُ بالإشارة إليها للتو: لماذا ننتظر أن نتعرّض إلى السلب، أو إلى أن يبدأ أناس ذوو مواقف شنيعة في إهانتنا؟ من الواضح أنّ أطناناً من الأفعال الأكثر فاعلية يجب عملها وتتعلق بجذور المشكلة بدلاً من الانصراف عنها، أفعال يجب القيام بها بثبات بدلاً من أن نؤخذ على حين غرة في كل مرة تكون فيها هناك حادثة عنفية. بوسعنا فعل هذا في اللحظة التي نحوِّل فيها ردة فعل من الطريقة التي تدعونا إليها وسائل الإعلام إلى ردّ فعل وفعل يدافع عن فكر يقول بأن ما يجري خطأ، وهذا يحصل في اللحظة التي نخطو فيها إلى الوراء بعيداً عن الأذى والغضب المتعلق بما يحدث لنا شخصياً، ونبدأ بالتفكير حول اللاإنسانية بحد ذاتها.

في صيف عام 1998، قُتِلت مديرة مدرسة ومعلِّمة متقانية، الأخت ثيوديليند شرِك، بالرصاص في جنوب أفريقيا في ما بدا وكأنه حادثة سرقة بينما كانت تقود سيارتها لكي تُقِلّ ابنة أختها. ورغم أنّ لمقاطعة كوازولوناتال تاريخاً طويلاً من العنف السياسي، إلا أن حادثة القتل هذه كانت صادمة. فقد قال رئيس وزراء المقاطعة بِن نغوبين: "كانت الأخت ثيوديليند متقانية في أداء واجباتها التعليمية والدينية". ثم أضاف ملاحظةً ارتفعت فوق الجلبة حول السؤال: لماذا هي، وحول كون هذه الجريمة غير مقبولة، وقدّم عمق بصيرة مفيداً لنا جميعاً: "يبقى العنف عنفاً بصرف النظر عن الدافع".[21]

وهذا يبيّن بالضبط كيف علينا أن نفكّر بالعنف لكي نعالجه. وهذا التفكير يقودنا إلى بصيرة فعالة؛ فأي عمل نقوم به لتخفيض العنف في أي مكان سيكون له أثر ذو علاقة بالعنف في كل مكان.

لقد أيّد البحث العلمي عمق بصيرة نغوبين. فإحدى الأوراق التي قُدّمت أمام الجمعية البريطانية لعلم النفس أظهرَتْ أنَّ حالاتِ القلق والاكتئاب التي نقع فيها والناتجة عن ترقُّب هذه الأخبار . أو أشكالاً مختلفة من "التسلية" التي ترسم للطبيعة البشرية الصورة نفسها القابضة للصدر . تؤثر في الطريقة التي نرى فيها كل الأشياء. من الواضح أن السلبية التي تواكبنا . من أي مصدر أخبار أو خيال . *تنزع إلى*

[21] - NGUBANE, BEN. AP WIRE REPORT, JULY 27, 1998.

تعزيز إطار عقلي سلبي من المحتمل أن تكمن في أحداث وأفكار وذكريات سلبية تُنزع عنها الإيجابية وتُهملها"[22] (التأكيد من عندي).

ومن الواضح أن ذلك يمكن أن يؤدي إلى حلقة مفرغة . ومن الواضح، في الحقيقة، أنه قد فعل. ثمة الكثير من سقط المتاع السيئ في العالم، وبرؤيته عن قرب، بعيداً عن نسبيتها، نصل إلى توقع أن تكون الأمور هكذا. وعندما تكون توقعاتنا سلبية، فإن الحياة تنجزها بيُسر. فالتوقعات السلبية تحجب إمكاناتنا الإيجابية التي نحتاجها لحلّ مشكلات من مثل العنف.

من المنطقي، إذن، أنه لكي نشهد صوراً إيجابية يجب أن يكون لدينا فعل معاكس، بمعنى أن نجعل الأمور تبدو أفضل بمقدار ما نرى بأن العنف يجعلها أسوأ. لكننا لا نفكر البتة في استكشاف الجانب المضيء للمبدأ. حيث يمكن أن يكون على المسار نفسه مثلاً خبر حديث عن "التعلم العاطفي" (هو تعبير راهن لنوع من التدريب التعاوني كان دافيتز يتحدث عنه منذ خمسين عاماً)، بعنوان "درس اليوم: كبح العواطف العنيفة لدى الأطفال".[23] لكن، على سبيل المناقشة فحسب، ماذا لو وضعنا عنواناً لمقالة "درس اليوم: إطلاق العنان لعواطف الأطفال الحنونة"؟ هذا أمر غير وارد لكنه في الواقع أكثر صحّة. وكما رأينا في اختبار دافيتز، فإن دافع الشباب الطبيعي للتعاون يَشغَل بعضاً من الطاقة التي يمكن بطريقة أخرى أن تغذّي عدوانيتهم.

عرضتُ مؤخراً لطلابي فيلماً وثائقياً حول الآثار الكارثية للنزعة الاستعمارية. وقد أظهر الفيلم بجودة بالغة المفارقة بين ما حدث في الهند وبين ما حدث في مناطق استعمارية أخرى، وفي المقام الأول في أفريقيا. وأوضح الفيلم كيف أن الهند تبقى، رغم العديد من مشاكلها، البلد الديمقراطي الأكثر كثافة بالسكان على وجه الأرض، والذي يتمتع بعلاقات متكافئة مع القوة الاستعمارية السابقة، على عكس البلدان التي تجعلنا نجفل اليوم، كالصومال ورواندا وليبيريا والكونغو وغانا والجزائر. وللغرابة، لم يُذكر السبب، حيث لم يتجرّأ صانعو الفيلم على أن يقولوا أنّ اللاعنف أدّى إلى نتيجة في حين أدّى العنف إلى نتيجة أخرى. في ختام هذا الكتاب سوف ترى لماذا تجرأتُ أنا على قول ذلك تحديداً.

بوصفه صحفياً، كتب دانييل شور مؤخراً: "التلفزيون يمجد العنف، ويشجّع على العنف... فبتبسيطه للقضايا الكبرى يدفنها، وبتمويه الخط بين الخيال والواقع يدفع بالواقع خارجاً".[24] لكن إذا كان التلفزيون ووسائل الإعلام الأخرى تمجّد العنف والسلبية وتشجّع عليهما وتبسّطهما، فإننا لسنا ملزمين بالسير خلفها. فعندما يغرقوننا بالتفاصيل: ما عيار المسدس، أين مكان الجرح، وما هو الدافع، إن كان هناك أي دافع . يمكننا القول لأنفسنا: "هذا عنف. لننسَ كل شيء آخر ولنكتشف ما هو الخطأ الحاصل!"

---

[22] - British Psychological Society: Sobel and Ornstein. "Bad News on TV is Bad News All Around," *Mental Medicine Update,* IV.1, (1995), p.1.

[23] - Curbing violent emotions: Goleman, Joel. "Today's Lesson: Curbing Kids' Violent Emotions," *San Francisco Chronicle,* March 5, 1992, pp. D3, D6.

[24] - Schorr, Daniel. "TV Violence: What We Know But Ignore." *Christian Science Monitor.* September 7, 1993, p.19.

حين يغدو بوسعنا تجاوز التفاصيل إلى العمق فسنرى فعلياً بارقاتِ أمل. وفيما يلي بعض الأمثلة:

القوة هي القوة

في مشاركة لها في تغطية الألفية المسيحية الثانية، نشرَت مجلة "تايم" لمحاتٍ عن مئة شخصية رئيسية تركت، برأي المحررين، بصماتها على ذلك القرن. لم يكن الأمر مُلهماً؛ فما فعلوه بغاندي كان سيئاً بصورة فظيعة، لكنهم نجحوا في رواية قصة مثيرة عن نيلسون مانديلا[25]. فبينما كان مانديلا الشاب يخطو على رصيف الميناء مع حمولة مركب من السجناء الآخرين في جزيرة "روبن" السيئة الصيت، حيث قضى عدة سنوات من حياته، كان الحراس يصرخون "هُك! هُك!" في محاولة لسوق القادمين الجدد مثل قطيع ماشية، لإجبارهم على الهرولة إلى السجن وإخضاعهم إلى إذلالات أخرى، لكن مانديلا وأحد أصدقائه رفضا وبقيا يسيران بهدوء رغم تهديدات الحراس: "هل تريد أن أقتلك؟" ومن الداخل تقدم رئيس الحراس النقيب جيريك مانادياً مانديلا: "يا فتى"؛ فأجاب مانديلا جيريك الجافل بهدوء: "أنظر، يجب أن أحذرك. سآخذك إلى أعلى سلطة وستكون جديراً بالازدراء كزُغْبة حين أنتهي منك"[26] وبشكل لا يُصدّق، تراجع جيريك، كما ذكرت الـ"تايم".

لكن هل هذا أمر لا يصدق تماماً؟ ألا يستسلم المُتنمّرون عادة عندما يُواجَهون بمقاومة غير متوقعة؟ لقد شاهدنا جميعاً مثل هذه الأمثلة، وفي الفصول التالية لن نرى بعض الأمثلة الأخرى فحسب، بل سنبدأ في استنباط تفسيرها العلمي.

لنتتبّع ما فات كُتّاب "تايم" من دور رئيسي. بعد ربع قرن أصبح مانديلا أول رئيس لدولة جنوب أفريقيا الحرة. وكما يتذكّر معظمنا، توقّف أثناء خطاب تنصيبه، والتفت إلى خصمه اللدود ف. دبليو دي كلارك، وتناول يده قائلاً: "أنا فخور بأن أصافحك، من أجل أن نمضي معاً إلى الأمام.. دعنا نعمل معاً لإنهاء التفرقة"[27].

ما الصلة بين هذين الحدثين؟ لن نتمكن مطلقاً من رؤية هذه الصلة إنْ فكَّرْنا أنَّ هناك في كل صراع "رابح" و"خاسر". هل ربح دي كلارك أم خسر حين قام مانديلا بإيماءته التصالحية. هذا تساؤل سخيف. وماذا عن مانديلا؟ ربما لا يكون قد أحبّ دي كلارك كشخص، لكنه استعمل قوة شخصيته للتغلب على كرهه الشخصي، ويمكننا بوضوح تتبّع الرابط بين قوته كسجين في جزيرة "روبن" وقوته كرئيس في جوهانسبورغ. فالقدرة على مواجهة شخص مُتنمِّر، والقدرة على مسامحته . وقوة الشخصية في

[25] - Brink, Andre. "*Time* Magazine's 100 Leaders & Revolutionaries of the 20th Century." *Time* 151, no. 14 (1998), pp.188-190.

[26] - Here I am drawing on Meer, Fatima, *Higher than Hope: the authorized biography of Nelson Mandela*. New York: Harper & Row. (1990), pp. 218ff.

[27] - Daniszewski, John, "Mandela, de Klerk debate," AP story in the *Santa Rosa Press Democrat*, April 15, 1984, p. A5.

الترفّع عن الغضب، حتى وإن كان هذا الغضب مُبرَّراً بالكامل . أمران مترابطان على نحو وثيق. فهاتان الميزتان ليس بإمكانهما التعايش فحسب، بل تفسِّران بعضهما البعض أيضاً: لأن القوة هي القوة.

ونحن نفتقد إلى كلاّنية هذا الترابط إذا ما فكرنا بـ"القوة" على أنها تعني القدرة على السيطرة والهيمنة فحسب. وكمقابل لمثال مانديلا العظيم، غالباً ما كان غاندي يقرّ بأخطائه على الملأ، ويبدو أنه كان يستمتع بذلك، مما كان يثير ذعر زملائه. فذات مرة انتاب أخته القلق على ما بدا لها وكأنه اعتراف ضارّ على وجه الخصوص؛ فقال: "أخبر الأخت أنّ اعتراف المرء بخطئه ليست هزيمة، لأن الاعتراف بالخطأ نصر بحدّ ذاته"[28]

ويمكننا الآن المضي خطوة إلى الأمام. فحقيقة أن القوة الفعلية تعني أكثر بكثير من اكتساب سلطة على الآخر يمكن أن تفسِّر التحوّلات الغريبة للأشخاص الغاضبين العنيفين التي تبرز على نحو غير متوقع في حوليّات السلام. فحين أصبح داعية الفصل العنصري جورج والاس حاكمَ "ألاباما" حافظ على ما وعد به في حملته الانتخابية، وحرفياً "وقف على باب مبنى المدرسة" لمنع الطلاب السود من دخول جامعة ألاباما في حزيران عام 1963، جاعلاً من نفسه رمزاً قومياً للمواجهة في قضية الفصل العنصري. لكن بمرور الزمن، حدث على ما يبدو شيء ما استدعى انقشاع ضباب الكراهية عن ذهنه. ففي 11 آذار عام 1995، حضر احتفال سيلما . مونتغومري Selma-to-Montgomry [29] للحقوق المدنية لكي يعتذر للمحتفلين، سوداً وبيضاً، الذين كانت قوات ولايته قد ضربتهم بالهراوات وفتحت خراطيم المياه عليهم قبل ثلاثين سنة مضت. كانت تلك شجاعة، فقد سلك طريقاً تحدّى فيها ماضي البلاد بالكامل حين أبصر الأمور بطريقة مختلفة؛ فمن رمز للفصل العنصري إلى رمز للمصالحة على غلاف مجلة "لايف". فلا عجب أنّ غاندي كان يردّد غالباً أن هناك أمل في أنْ يصبح شخص عنيف لاعنفياً، أما الشخص الجبان فلا. ففي المنطق اللاعنفي يكون الأمر مفهوماً بالكامل؛ فما نراه هو نفسه الشجاعة والقوة، لكن في وضعية استخدام أفضل.

يمكننا أيضاً ربط هذين الحدثين في حياة مانديلا، أي المواجهة وسماحة النفس، بقيادته المؤثِّرة، وقدرته على إدارة دفّة دولة جديدة كانت قد انبثقت للتو من قلب شروط مريعة ترافقها توترات مرعبة مازالت عالقة. هل الشخص الذي يسامح أعداءه علناً قائد جيد؟ طبعاً. فهو سيكون ميالاً إلى امتلاك وسائل خلاقة لتحقيق النظام، الذي ستُتاح لنا فرصة استكشافه لاحقاً (خصوصاً في الفصلين الخامس والسادس). أما الآن، فلنتفكر في أحد الأحداث اللاعنفية الذي أُسيئ فهمه . وهذه المرة ليس من قبل الصحافة فحسب.

---

[28] - CWMG, Vol. 75, 1999, p. 409.

[29] . في أوائل العام 1965، خطط مارتن لوثر كينغ الابن ومؤتمر القيادة المسيحية الجنوبية (SCLC) لمسيرة انطلقت من مدينة سيلما في ولاية ألاباما باتجاه مونتغومري عاصمة الولاية للمطالبة بإلغاء التمييز بين الناخبين في الولاية. فتعرضت المسيرة للهجوم بالهراوات والغاز المسيل للدموع من قبل الشرطة. وتمثّلت النتيجة المباشرة لهذه المسيرة التاريخية بتوقيع الرئيس جونسون مشروع قانون الحقوق الانتخابية في آب 1965 ليصبح قانوناً . المترجم.

في آب 1991، أحبطت انتفاضة شعبية انقلاباً كان من شأنه أن يُرجِع روسيا إلى الحقبة الستالينية. وقد وصفت مجلة ليبرالية ذات شأن الحدث كالتالي: "فشل الانقلاب. انهار النظام. ولمرّة واحدة كان العالم محظوظاً".[30] لكن المقاومة الشعبية الناجحة لانقلاب آب لم تكن "محظوظة"، بل كانت نتيجة أفعال مدروسة نفذها مقاومون لاعنفيون شجعان من المجتمع المدني كانوا يدرسون بشكل منظّم ولشهور تكتيكات لاعنفية، جزئياً من خلال ورشات عمل أدارها مدربون أمريكيون مجرّبون (أحد أصدقائي أدار ما معدّله ورشتي عمل يومياً في كافة أنحاء روسيا في ذلك الصيف). كل هذا كان مجهولاً كلياً للصحافة. وقد كتب معترِضُ الضمير ألكسندر برونوزين بعد فترة قصيرة على الانقلاب: "لم يكن انقلاب آب حدثاً مفاجئاً. المفاجأة الحقيقية كانت سرعة إسقاطه و'السلاح' الذي انتصر اليوم كان الدفاع اللاعنفي المدعوم اجتماعياً"[31]

سأتحدث أكثر لاحقاً عن هذا الشكل الرائع من الدفاع (في الفصلين الرابع والثامن)، وما يمكن أن يعنيه بالنسبة لغالبيتنا التي ليس من المحتمل أن تشارك في مقاومة "سلطة الشعب". وما أودّ التأكيد عليه الآن هو أن نجاح المقاومة السريعة للانقلاب، الذي بدا متعذّر التفسير و"محظوظاً" جداً بالنسبة لوسائل الإعلام والجمهور العام . ولدي قليل من الشك، فيما يتعلق بالقيادة السياسية . لم يكن محظوظاً ولا متعذر التفسير، وإنما كان نتيجة عمل دؤوب وتضحية حيث اتبعت قواعد اللعبة وكان التنبؤ مثالياً. فحين تدرك أن كل شخص سيستجيب للمحبة أو للكراهية حين يُعرَضان عليه، تكون في طريقك لفهم هذا "اللغز".

لم يكن زميلي وصديقي سيرجي بليخانوف، الذي كان آنذاك نائباً لمدير المعهد السوفييتي للدراسات الأمريكية والكندية، في موسكو في ذلك اليوم الحاسم الذي أُحبِط فيه الانقلاب. وبعد سنة سمعته يصف ما كابده عندما شاهد الصور التلفزيونية المتلاحقة للكرملين، المطوَّق بالجدران الكالحة والمصفّحات، ومبنى البرلمان الروسي برخامه الأبيض وزجاجه، الذي لا يحرسه سوى أناس عُزَّل: إنها صورة أسطورية تقريباً لسلطة مدنية تتعرّض لهجوم عنفي. مازلت أذكر العاطفة الهادئة في صوته التي استحوذت على الباحثين الدوليين المتجمعين حوله. قال: "وماذا لديك ضدهم؟ ما الذي يمكن أن تستخدمه ضد تلك الدبابات وناقلات الجنود المصفّحة؟ – لا شيء. لا شيء سوى الروح والإحساس بالشرعية واستعداد البعض للمخاطرة بحياتهم". آمل أن لا تكون السخرية المرهفة قد فاتت زملائي؛ لأن الـ"لا شيء" هذه هي الوصفة الكلاسيكية للاعنف الناجح: الروح، والإحساس بالشرعية (أي أن قضية المرء عادلة)، والاستعداد للتضحية . إذا تطلّب الأمر أن يضحي المرء بحياته. تلك هي بالضبط الأمور الثلاثة التي تجعل مقاومة نظام جائر ناجحة. وافتقادك لهذا يعني ألاَّ تكون قادراً على توضيح ما هي القوى التي كانت فاعلة في مواجهة انقلاب آب 1991، وأسباب انتصار الشعب.

[30] - Remnick, David. "Dumb Luck: Bush's Cold War," *The New Yorker*, Jan 25, 1993, p.105.
[31] - E-mail from Peacemedia section of Peacenet conference on September 28, 1991.

السر المكشوف

في ذاك الجانب من الستار الحديدي كانت هناك بلاد تُدعى يوغوسلافيا، حيث يعيش أناس من ثقافات وانتماءات عرقية مختلفة جنباً إلى جنب. ورغم التوترات فيما بينهم كانوا يعملون معاً، ويذهبون إلى المدارس معاً، ويتشاجرون، ويتزاوجون. وقد دام هذا الوضع قروناً. ثم ذات يوم، عندما سقط غطاء سيطرة الدولة الاشتراكية المركزية، تشظّت المجموعات الثقافية الرئيسية الثلاث (هي ليست مجموعات عرقية). وكانت النتيجة أكثر ما مرّت به أوروبا من عنف مروّع، ومحتمل في أي مكان آخر، منذ الحرب العالمية الثانية. وقد تساءل الكثيرون: "لماذا؟ كيف يمكنهم حشر الناس في سيارات الماشية من جديد؟". وكالمعتاد، كان هناك أولئك الذين قالوا "لا جواب". واستشهد آخرون بـ"التاريخ"، كما لو أنّ ذكريات المعركة الشهيرة في العام 1389 كان لزاماً أن يُثأر لها، رغم أن الناس الذين قاتلوا في حينه قد ماتوا منذ خمسمائة سنة...

لكن في كل هذا، أطلّ أحد العوامل الشائعة المبتذلة: السلطة السامة للدعاية. فلدى السكان السلاف الشماليين في الدول الأخرى من أوروبا الشرقية الشيوعية سابقاً (في هنغاريا ورومانيا) نما شكّ عارم حيال ما كانوا يشاهدونه على شاشات التلفزيون الرسمية أو ما كانوا يقرأونه في الصحف التي تشرف عليها الحكومة. ولسبب ما خمد هذا النوع من الشك في يوغوسلافيا، إن كان قد وُجِد في الأصل. فالناس هنا كانوا يصدقون دائماً، ومازالوا يصدقون، ما يشاهدونه أو يسمعونه في التلفزيون[32]. واستمر الخوف في تقسيمهم؛ الخوف الذي عمّ وسائل الإعلام بواسطة السياسيين الباحثين عن البقاء في السلطة.

بشكل ما، ليس هذا بالأمر الجديد، إذ نعلم جميعاً أنّ "الصحافة الصفراء" هي التي أقحمت الولايات المتحدة في نزاع مع إسبانيا عام 1898. آنذاك كانت الصحافة ورقية بشكل رئيسي، أما الآن فهناك التلفزيون (وفي حالة رواندا، الراديو). لكن الفرق بين *آنذاك* و *الآن* ليس فرقاً تكنولوجياً فحسب: إنه فرق "جذور" نصف قرن من الانعزال والعنف، ومن السمّ العقلي المتراكم الذي يجعلنا جميعاً أكثر انفعالاً واكتئاباً وعرضة للردّ بعنف مهما كانت حدود الخطأ بين الأعراق أو بين المجموعات الفرعية الثقافية في مجتمع كان قابلاً للحياة سابقاً، أو بين سيارتين على طريق سريع مزدحم. وتشير دراسة لندن التي استشهدتُ بها قبلاً إلى هذا التأثير، وكذلك الكلمات الحكيمة لدانييل شور، وكلمات تلميذ المدرسة ذي الاثنتي عشرة سنة في سانتا روزا، كاليفورنيا: لو لم يكن هناك عنف على شاشة التلفزيون لكان هناك عدد أقل من الناس الذين يلجأون إلى العنف في الشارع. وأعتقدُ أيضاً أن أناساً أقل كانوا سيتعرّضون للقتل والخطف وأموراً أخرى[33].

---

[32] - BRITISH INDEPENDENT TV JOURNALIST GABY RADO ON LOCATION, QUOTED IN THE *WASHINGTON SPECTATOR*, FEBRUARY 1ST, 1994, P. 2.

[33] - This quote and the next from a Sonoma County school newsletter called *Kid Konnection*, July, 1994, p. 21.

بالتأكيد سيكون الوضع هكذا؛ فهو ببساطة "عنف في الداخل يقابله عنف في الخارج"، وهي نتيجة جليّة للعلم وللفطرة السليمة ولتجاربنا الشخصية الخاصة التي، مع ذلك، ترغب بعض الدوائر في اعتبارها مثار جدل، لكنها ليست كذلك. فإذا أبرزنا العنف سيكون لدينا المزيد من العنف، وإذا أكّدنا على المال والجشع سيكون هناك المزيد من جرائم السرقة، وبعبارات طفل حكيم آخر عمره اثنتا عشرة سنة: "يتلقّى الناس الكثير من الأفكار عن الجنس [على شاشات التلفزيون] ويعتقدون أن ذلك أمرٌ جيد، وبالنتيجة يغتصبون الناس". وقد أشار عدد من الكتَّاب مؤخراً إلى أنّ ألعاب الفيديو ذاتها التي تُستخدَم في الجيش، والتي تُستخدم لإعداد الجنود من أجل القتال، يلعب بها شبابنا، على سبيل المثال: الشباب الذين خلّفوا لنا إحدى أكثر الذكريات إيلاماً في أمريكا، هي مذبحة ثانوية كولومبيا حيث قام شابان بإطلاق نارٍ عشوائي فقتلوا 12 من زملائهم ومدرّساً بالإضافة إلى جرح 24 آخرين قبل انتحارهما[34].

يبدو من الغباء المطبق أن نفعل هذا بأنفسنا حيث بوسع المرء أن يفهم المرارة الكامنة وراء كلمات الكاتب الأمريكي ويندل بيري: "الفرضية دائماً هي أن نُطلِق الشياطين أولاً بشكل عام، ومن ثم، بطريقة ما، نصبح أذكياء بما يكفي للسيطرة عليها. هذه ليست طفولية، ولا حتى "ضعفاً إنسانياً"، بل هي نوع من الحماقة البالغة. وربما لن نستطيع التغلب عليها وإنقاذ أنفسنا حتى نستعيد حسّنا السليم وندعوها شرّاً."[35]

إن كان هذا مُجدياً، فلتدعُها شراً، لكن كن حذراً: هناك عالم شاسع من الاختلاف بين اعتبار شيء ما شراً واعتبار شخص ما شريراً. الاستراتيجية الأولى تحشد المصادر ضد المشكلة، أما الثانية فتعيد فقط تدوير العلّة الأولية للعنف، التي هي إرادة مريضة، واستياء، وضعف في التفاعل العاطفي، وكراهية في نهاية المطاف.

عندما "حاك" أعضاء مجموعة الاتصال الأوروبية مجتمعين "سلاماً" من أجل بقايا يوغوسلافيا في العام 1998، لم يتخذوا أية ترتيبات تخصّ إعادة النظر في التعليم، وبشكل لا يُصدَّق، لم يُولِ أحد الانتباه إلى المحطات التلفزيونية الحكومية التي استمرت في بثّ الكراهية التي شرعت الأبواب للعنف. فكما أخبرني بكآبة أحد زملائي في موقع الأحداث: "تتواصل تغذية معظم الناس بجرعات ثابتة من النزعة القومية والدعاية والكراهية وأنصاف الحقائق والأحكام المسبقة". بعد ذلك على الفور اندلعت الحرب في كوسوفو.

عندما نرى شخصاً ما يثير الكراهية بتعمّد بهذه الطريقة، لا بد أن نشعر أنّ الأذى من ذلك عميق جداً إلى حدّ أننا لا يهدأ لنا بال إذا لم نفعل شيئاً ما بشأنه، لكن دعوته بالـ"شرير" أمر يتطلّب الحذر. فحيثما يكون هناك شر لا بد أن يكون هناك فاعل للشر: شخص ما مغاير وخطِر.

---

[34]- see Grossman, Lt. Col. Dave, and Gloria Degaetano. *Stop Teaching Our Kids to Kill: A Call to Action Against TV, Movie and Video Game Violence* . New York: Random House, 1999, and Kara Platoni, "The Pentagon Goes to the Video Arcade," *The Progressive*, July, 1999, p. 27.

[35] - Berry, Wendell. *Standing by Words*. San Francisco: North Point, 1983, p. 65.

عموماً، أفضّلُ الاعتقاد بأننا نطلق العنان لهذه الشياطين من خلال نوع من الخطأ المأساوي، نوع من رؤية متعامية (يسميها بيري "حماقة بالغة"). وما زال الأمر غير مكتمل تماماً لكنها مقاربة أكثر عملية، كما سنرى في الفصل الثاني.

غاية الحياة

لقد عتّمت وسائل الإعلام تماماً، ولأسباب خاصة بها، على الدينامية البسيطة للعنف مما اقتضى منا القول بأنه ليس هناك أي جواب. لكن هناك جواب، وقد قمنا بمعاينة جزء منه للتو. فقد خلقنا نحن، بشكل جماعي، مثل هذا المناخ من العنف والسلبية الذي يبدو أن الحياة لا يستحقها . حياتنا وحياة الآخرين. وفي الوقت ذاته يبقى العنف "مثيراً" على الأقل، ويمنحنا شعوراً زائفاً بالمعنى. والانتحار يتفق مع هذه الصورة باعتباره عنفاً موجَّهاً ضد النفس، أو أنه يجعل بعض شبابنا منعزلين إلى درجة أن يصبحوا هم أنفسهم "آخراً" بالنسبة لأنفسهم؟ بأية حال، هي ظاهرة الانتحار لدى المراهقين التي تجبرنا على التراجع إلى الخلف للنظر إلى كامل الصورة. لذلك دعوني أصوغها ببساطة قدر الإمكان.

للحياة غاية. وبوسع الحيوانات العيش دون اكتشاف هذا الأمر، لكن البشر لا يستطيعون ذلك. ففي مجرى التاريخ ترتحل حضارات في انحراف حاد، وتفتتن بما هو هامشي، فتفقد رؤيتها لما تعيش من أجله. وحين يحدث هذا . ويبدو أنه يحدث دورياً . لا يعود بوسع الثقافة برمتها رؤية وجهتها. يحدث ذلك عندما تفقد الحياة غايتها (أو يبدو ذلك)، ويبدأ الأفراد، الواقعين في قبضة التآكل الذي ربما لا يكونون قادرين على التأقلم معه، في الانسحاب من الحياة نفسها. وبالتالي نرى مراهقين ينتحرون كما لو أنّ الأمر بدعة، ونرى أطباء يساعدون الناس على إنهاء حياتهم بدلاً من مساعدتهم على العيش، ونرى العودة لعقوبة الموت . أي كل الأعراض لما دعاه البابا "حضارة الموت الموجَّه". وهو في الحقيقة، ليس موتاً موجَّهاً بذاته، وإنما هو موت موجَّه بالإهمال. فعندما لا تقدَّم لنا الحياة على أنها غاية بذاتها يتخذ الموت والعنف شكل إغراء رهيب. أجل، وكما صاغ ذلك كاتب كلاسيكي هندي قديم: "أولئك الذين ينجذبون إلى الجانب الظليل من الحياة يمضون إلى ظلمة عمياء"[36]. فأن تعبث مع الجانب المظلم للطبيعة البشرية يعني أن تنتهي إلى العنف دون أن تعي السبب.

لذا، فالعنف الذي نراه اليوم مرتبط على نحو وثيق بـ"أزمة المعنى" المقتبسة عن عبارة لشبكة المستقبل الإيجابي في عنوان هذا الفصل. لقد أُدرِجت كعرَض، وسوف أجادل أنّ أزمة المعنى تنتمي إلى مرحلة مركزية. فإذا كان البشر لا يعرفون إلى أين تقودهم رحلة الحياة، فلماذا ينبغي عليهم أن يكونوا متحمّسين للاستمرار بها؟ بمقدور المراهقين أن يكونوا مباشرين جداً، وهنا ما قاله أحدهم عندما أيّد الرئيس كلينتون حملة تربوية حول مخاطر الدخان ونصح بالعدول عن التدخين: "برأيي، الكثير من الشباب الذين

[36] - Isha Upanishad, verse 12 (my translation).

يدخّنون ويقولون إنهم لا يعرفون السبب يختارون الموت لا شعورياً. وبالتالي فإن القول لهم مراراً وتكراراً أن التدخين سيقتلهم ليس هو الجواب ... إذا كان الرئيس جدّياً... فليشرع في إيجاد طرق تساعدهم على تصوّر المستقبل[37]."

عندما ينهي شاب حياته، أو يُقتل شخصٌ على طريق كاليفورنيا السريع؛ عندما تُعتَبر الرشاوى بديلاً للعدالة؛ عندما ينقلب رجل على عائلته، أو يجري بلد تفجيرات نووية، فذلك ليس بسبب المال أو الغيرة أو حركة السير. إنه، أساساً، لأن الحياة فقدت معناها بالنسبة لهم . ليس بوسعهم "تصوّر" مستقبل له أيّ أمل أو غاية. يمكن للمال ولكل تلك العوامل الأخرى أن تعجّل في حدوث العنف، لكن فقط في أوساط الناس الذين، شعورياً أو بطريقة أخرى، فقدت الحياة معناها بالنسبة لهم، أو بدقة أكثر، الذين فقدوا رؤية قيمة الحياة التي لا تُقدَّر بثمن، والتي دعاها فيلسوف يوناني "المعنى الذي لا ينضب".[38]

منذ عهد قريب، كانت هناك نشرة إخبارية جامعية حول اختراق رائع حقاً في علم الوراثة الجزيئي. لقد كان زملائي قادرين على "تصوير" الموقع ذاته على الخلية حيث تتبدّل الجينات وميضاً وخفوتاً، وحيث يُطلَب من DNA الانطلاق لإنتاج RNA الرسول للبدء بصنع جزء من متعضٍ. وبينما كنتُ أواصل القراءة، مندهشاً من مدى ما وصلنا إليه منذ مهمتي المحددة القصيرة في المدرسة الطبية (لا يهم أبداً منذ متى كان ذلك!)، بدأت أحاسيسي الأدبية في قرع أجراس إنذار خافتة. فتوقفتُ وأخذتُ شيئاً بعين الاعتبار: في هذه المقالة القصيرة، حوالي ستمئة كلمة، ظهرت "آلة" ثلاث عشرة مرة. وهذا ما يُدعى في الدوائر الأدبية "النص الفرعي": فحتى حين يخبرنا الكاتب عن إنجاز إنساني عظيم، يكون يخبرنا أيضاً، في ذلك الدفق القوي من الإيحاء، أن ذلك جرى وفق المعنى الحرفي لكلماتنا: "أنت آلة، أنت آلة، أنت آلة..."[39]. وهذا ما يدعى التجريد من الإنسانية، والمُعترَف به اليوم في الدراسات السلمية على أنه أصل شتّى أشكال العنف.

أشار هيوستن سميث مؤخراً إلى أنه "بالنسبة إلى ثقافتنا إجمالاً، لن يحدث ما هو رئيسي إلى أن نكتشف من نحن؛ فحقيقة المسألة هي أننا اليوم لا نملك مفتاحاً لحلّ مشكلة من نحن، وليست هناك وجهة نظر متماسكة للطبيعة البشرية في الغرب اليوم."[40]

"من نحن" سؤال سيحوم في خلفية كل مناقشة في هذا الكتاب. هل نحن مخلوقات مادية منفصلة . في هذه الحالة، من الصعب أن نرى كيف يمكن ألاّ نكون مُدانين في أمور كالمنافسة والنزاع . أم أننا

---

[37] - Rich'ard Magee, quoted in *Youth Outlook* (YO) for September 11-15, 1995, p. 6.

[38] - Heraclitus, fragment B 45: "You will never reach the limits of the soul [or, life principle], travel as far as you will by any road: so deep is its meaning" (my translation).

أي كما قال هيراكليتوس في المقطع 45: "لن تصل أبداً لحدود الروح (أو مبدأ الحياة)، مهما سافرت وعلى أي طريق: لأن معناها لا متناه من حيث عمقه. (ترجمتي)

[39]- Sanders, Robert, "Berkeley, LBNL Scientists Snap First 3-D Pictures of the 'Heart' of the Genetic Transcription Machine," *Berkeleyan*, January 19-25, 2000, 3.

[40] - Quoted in Glazer, Steven. *The Heart of Learning.* New York: Jeremy P. Tarcher/Putnam, (1999), p. 218.

مترابطون على نحو لا مرئي عبر ما دعاه المهاتما غاندي "وحدة القلب" التي تكمن خلف كل ما هو حقيقي، وتتجاوز اختلافات الجسد والثقافة والمُحبّبات والمكروهات والإيديولوجيات والأديان والأزياء؟ في الحالة الأخيرة، ربما يكون للحياة معنى خفيّ عميق رغم كل شيء. وفي هذه الحالة، ما زال أمامنا الكثير لنتعلمه.

لا ينشأ الجانب المظلم للعلم الحديث . ولسوء الحظ هناك جانب مظلم في العلم الحديث . من العلم بحدّ ذاته، وبدرجة أقل من أيٍّ من حقائق الطبيعة. إنه ينشأ من الطريقة التي نختار فيها، على نحو غير واعٍ، المعطيات العلمية لدعم الانطباع بأننا مجرد آلات بيولوجية في كونٍ ماديّ لا مغزى له، والذي يعزّز الإحساس المُقلِق لدى الكثيرين بأن الحياة مُجرَّدة من الغاية. فللعلم كل الحقّ في قَصْر انتباهه على الطبيعيات، أي على العالم الخارجي، وليس له حقّ القول، عندما يقوم بذلك، إنه قد قدّم لنا كامل القصة.

عندما يتحدث العلماء، أو بعضهم، عن "الأساس البيولوجي للعنف"، فإنهم ينحرفون عن عمق التفكير. فالعلم، كما يزاولونه على الأقل، يمكنه دراسة متناولات الفضاء الخارجي الواسعة بلا نهاية، لكن لا يمكنه دراسة الأبعاد الداخلية للكائن البشري على نحو مُرْضٍ. وكمحصلة، في مجرى الزمن، ينتهي الذين يتحوّلون إلى العلم بحثاً عن أجوبتهم حول الحياة إلى الشعور بأنهم لا يملكون مثل تلك الأبعاد، ويشعرون بالخواء. فالإرادة الإنسانية والنبل والجمال وغرض الحياة الطاغي هي كلها من صنف الأمور التي لا يدرسها العلماء والتي لا يُعتقَد نوعاً ما، في نهاية المطاف، أنها موجودة بلا تبرير تماماً.

ويصبح هذا الدافع نحو الاختزالية ضمن العلم مُغالى فيه في عقول اللاعلماء، وخصوصاً عندما يتم تضخيمه إلى حدّ كبير من قبل وسائل الإعلام. فـ"اكتشافات" التقارير الإعلامية الجديدة في الحتمية المادية بمعدل حوالي جين يومياً: جين البدانة، التفضيل الجنسي، الذكاء، الرغبة الجنسية، وفيما إذا كنتَ تحب زبدة الفول السوداني . التي اكتشفوا للتو أن جيناً أو هرموناً ما "يسبّبها". ليس من عالم مسؤول بوسعه الادِّعاء فعلياً أنّ الإمكان تتبّع أثر ما هو بتعقيد ودقّة الغضب أو الشهوات عندما يتّخذ جين أو هرمون ما وضعاً معيناً، لكننا كجمهور عام نُستثنى من مثل هذه الدقة. فنصل إلى الشعور بأننا لا نملك إرادة، وأن ليست هناك دراما خلاص مستمرة للكائن البشري، وأننا بدون معنى أو اتجاه، وبالتالي، كما قال ديستويفسكي في "الأبله"، نموت من اليأس: "الشرط الجوهري الأول للوجود الإنساني هو أن على الإنسان دوماً أن يكون قادراً على الانحناء أمام شيء ما لا نهائي في عظمته. فإذا كان الناس محرومين من العظيم اللانهائي، فلن يستمروا في العيش وسيموتون من اليأس."[41] وقد كان مراهقو جنوب بوسطن الستة أمثلة على ذلك، وهناك اليوم الكثير الكثير منهم.

[41] - Dostoevsky, Fyodor. *The Possessed (a.k.a. The Devils)*. New York: The Heritage Press, 1959, p. 571. Though this sentiment is put in the mouth of an unlikely character, there is no doubt Dostoevsky himself subscribed to it.

ورغم أن هذه المشاعر قد نقلت على لسان شخص ذو طبع غير مسحب، ما من شك في أن دوستويفسكي موافق عليها.

عندما تصبح عائلة ما، كمحصلة لمجتمع، "مختلَّة وظيفياً" (هذا تعبير لطيف نظراً للمأساة)، يشبُّ أطفال ينقصهم الأمان واحترام الذات، ويكونون فريسة سهلة لما دعته شبكة المستقبل الإيجابي "أزمة المعنى وإحساس بالخواء الذي يستحضر مغالاة في التوكيد على الاستهلاك المادي" مما تمرّ به حضارتنا. إنهم يجدون صعوبة قصوى في تبيّن معنى الحياة، أو في الاعتقاد بأن ثمة معنى، ويبدأون بـ"الموت من اليأس" بألف طريقة . حتى وإن لم يشاهدوا جهاز تلفزيون مطلقاً.

عندما أفكر بالعالم الجديد لوسائل الإعلام، أتذكر أمراً أشار إليه مؤخراً موظف خدمات اجتماعية بخصوص رعاية الطفولة: "ليست لدينا فكرة كم هو مدمّر الوضع الذي خلقناه. إنها تجربة اجتماعية بمقياس كبير وبدون أدوات ضبط عملياً"[42].

لكن هذا الكتاب هو عن الحلول، وليس عن المشكلات فقط. وبعض القصص التي رويتها، والتي سأرويها، هي حقاً حول أناس عاديين ينجزون في طريقهم ما وصفه ديستويفسكي في مُؤلَّفه العظيم . أناس يرتفعون باتجاه "العظيم اللامتناهي" عبر الاستجابة العاقلة للخير. لقد لمّحنا للتو أنه لا يوجد جواب واحد بل جوابين عن السؤال القائل: ماذا يمكن العمل لصون الشباب من اليأس من حياتهم؟ بوسعنا إيجاد طرق لخفض العنف وإيجاد إحساس جديد بالغاية. وكما بدأنا نرى، فإن هذين المشروعين الكبيرين على صلة وثيقة فيما بينهما.

[42] - Conniff, Dorothy. “Day care: a grand and troubling social experiment,” *Utne Reader* (from *The Progressive*), May/June, 1993, p. 67.

الفصل الثاني

أمل في أزمنة مظلمة

«أنا أُقرُّ بوجود الطاقة التدميرية، لكنها زائلة وعقيمة دوماً أمام الإبداعي الذي هو الدائم. فإذا كان للطاقة التدميرية اليد الطولى، فستنهش كل الروابط المقدسة . الحب بين الأبوين والطفل، الأخ والأخت، السيد والتابع، الحاكم والمحكوم» (م. ك. غاندي)

«يكفي أن يعبس الرأي العام في وجه العنف حتى يفقد كل قوته» (ليف تولستوي)

حين بدأت هذه الكتابة، توجّه مئات الشباب من أمريكا الشمالية وأوروبا وأمكنة أخرى إلى أمريكا الوسطى وغيرها من المناطق لحماية العاملين في مجال حقوق الإنسان المهددين بوجودهم. وما زال عمل هؤلاء الشباب مجهولاً على نطاق واسع للجمهور الأمريكي، كما تصمت وسائل الإعلام صمتاً مُطبقاً على هذه التجربة الرائعة. ومع ذلك، إنهم موجودون هناك.

كارين ريد واحدة من هؤلاء الشباب. ففي العام 1989، كانت كارين وأربعة من المتطوعين الدوليين يعملون ضمن مجموعة تُدعى **ألوية السلام الدولية** (PBI) عندما وقعوا على حين غرّة في قبضة الحرس القومي السلفادوري. كان ثلاثة مواطنين إسبان من بين الخمسة، فأُبعِدوا على الفور، تاركين كارين الكندية وصديقتها مارسيلا رودريغويز الكولومبية لمواجهة القادم من الأمور. ولحسن الحظ توفّر وقت لكارين للاتصال بالقنصل الكندي وتنبيه متطوع آخر في مجموعة (PBI) صدف أن اتصل في اللحظة المناسبة. كان هذا مبعثاً للراحة إلى حدّ ما، مثلما كانت الكياسة . في البداية . من الجنود؛ فلا أحد من الفريق كان قد تعرّض للاعتقال من قبل (حتى هذا التاريخ، لم يُقتَل أي متطوع دولي في أمريكا الوسطى رغم العنف الهائل الذي يشمل كامل البلاد). سمعت مارسيلا من غرفة أخرى الجنود يصفونهما بالـ"إرهابيتين من الكنيسة الأسقفية البروتستانتية"[43]. ولم ترتفع معنويات الامرأتين، ومحتجزين آخرين معهما، عندما حمّلوهم في شاحنة وساقوهم معصوبي الأعين إلى ثكنة عسكرية، حيث خضعوا لتحقيق استمر خمس ساعات حول صلتهم المزعومة برجال العصابات (FMLN)، بينما كانت أصوات التعذيب ونشيج الضحايا يأتي من الغرف المجاورة. كانت كارين تعرف أن (PBI) ستُنذر سريعاً شبكتها عبر

[43] - Mahoney, L. and Eguren L. *Unarmed Bodyguards: International Accompaniment for the Protection of Human Rights*. West Hartford, CN: Kumarian, (1997), p. 176. I am also drawing on verbal reports from several PBI workers (the story was well known in PBI circles before Mahoney and Eguren's important book appeared).
أعتمد هنا أيضاً على تقارير شفهية نقلت عن عدة عاملين في ألوية السلام الدولية (وهذه القصة معروفة لديهم حتى قبل أن يتحدث عنها ماهوني وأيجورن في كتابهما الهام.

العالم بشأن الاعتقالات لكنها كانت تعرف أيضاً أن الوقت كان قصيراً . لم يكن هناك ما ينمّ عما سيحدث في تلك الثكنة إن لم يخرجهم أحد ما قبل حلول الظلام.

وفي الواقع، نشّطت (PBI) شبكتها العالمية، فأُرسِلت مئات الفاكسات إلى السفارتين الكندية والكولومبية، واتصالات هاتفية ورسائل إلكترونية إلى ممثليهم للحثّ على إطلاق سراح كارين ومارسيلا فوراً. لكن هذا كله لم يلقَ أي استجابة على الإطلاق من السفارة الكولومبية، لكن كندا مارست ضغطاً رسمياً على الحكومة السلفادورية، ولمّحت بصورة لا تقبل الشك إلى أنّ علاقاتها التجارية الواسعة مع السلفادور يمكن أن تتعرّض للاهتزاز إن لم يُخلَ سبيل كارين على الفور. مهما كان ما أُنجِز، ولأي شخص كان، فقد كان عملاً مسؤولاً. وهكذا وجدت كارين نفسها تعبر ساحة الثكنة بعد بضع ساعات وبانتظارها موظف في السفارة: لقد أصبحت امرأة حرّة. لكن عندما أزال الجنود العصابة عن عينيها داخل الثكنة، اختلست نظرة إلى مارسيلا ووجهها إلى الجدار: "صورة كاملة للتجريد من الإنسانية"[44]. وبقدر ما كانت كارين سعيدة لكونها على قيد الحياة، إلا أن شيئاً ما انقبض فيها. إنه شعور فظيع؛ فاعتذرت إلى المسؤول الكندي الساخط الذي كان قد تجشّم عناء السفر من سان سلفادور لكي يصل إليها، واستدارت عائدة إلى الثكنة، غير عارفة بما سيحدث لها هناك، لكنها كانت تعلم أنه لا يمكن أن يكون هناك ما هو أسوأ من التخلّي عن صديق بأمسّ الحاجة إلى المساعدة.

بُوغت الجنود، وشعروا بالسخط؛ فقاموا بتقييدها من جديد. وفي الغرفة المجاورة كان أحد الجنود يضرب رأس مارسيلا بالجدار ويقول إن "عاهرة بيضاء" كانت غبية بما يكفي لأن تعود إلى هنا، "والآن سترين المعاملة التي يستحقّها الإرهابي!". لم يعد الرجال لطفاء، لكن بادرة كارين تركت أثراً غريباً في نفوسهم. لقد تحدثوا إليها مُكرَهين، وهي حاولت أن توضّح لهم السبب الذي جعلها تعود: "أنتم تعرفون ماذا يعني أن تُفصَل عن رفيق" – أثّر فيهم ذلك. وبعد وقت قصير، أُفرِج عن كارين ومارسيلا، وخرجت الامرأتان معاً تحت النجوم، يداً بيد.

القصة تتحدث عن نفسها، ولكن لا ضير من توضيح ما تعني. لقد قامت كارين بما غيّر عقول بعض الجنود غير المتعاطفين والمجرّدين من إنسانيتهم إلى حد ما. ما معنى ذلك؟ وهل هو أمر يمكننا تعلمه من أجل ممارسته؟ إنه كما لو أنّ هشاشة حالها وضع بين يديها نوعاً من القوة التي صنعت معجزة صغيرة، بالرغم من أنّ كارين لم تكن قد أخذتها بالحسبان. فعندما رجعت إلى ذلك المكان الجهنمي لم تكن قد فكرت في كيفية ردّ فعل الجنود – كانت تعرف فقط أنه لا يمكنها التخلي عن صديق.

---

[44] - I am drawing on verbal reports from several PBI workers. The story was well known in PBI circles before Mahoney and Eguren's book.

أعتمد هنا أيضاً على تقارير شفهية نقلت عن عدة عاملين في ألوية السلام الدولية (وهذه القصة معروفة لديهم حتى قبل أن يتحدث عنها ماهوني وأيجورن في كتابهما الهام.

حوادث مثل هذه (وهي ليست نادرة) لا تُذكَر عملياً في وسائل الإعلام السائدة على الإطلاق، ولا ما كان يفعله المتطوعون الدوليون في أمريكا الوسطى والخليل وهاييتي وسري لانكا وإيرلندا الشمالية، إلخ. فالحقيقة هي أن طريقتنا المعتادة في التفكير بشأن الصراع لا تقدّم تفسيراً جاهزاً لمثل هذه الحادثة. فعندما، وإذا، تحولنا ضد العنف، تصبح لدينا لصاقات صادّة تشجعنا على "ممارسة أفعال شفقة عشوائية وأفعال جمال فارغة المعنى". لكن شيء ما يتواصل هنا، وهو ليس عشوائياً ولا فارغاً من المعنى. ثمة نوع من المنطق لحوادث كهذه، ونحن لا نألفه ببساطة.

على أية حال، وفي حقل البحث السلمي الناشئ، بدأ الناس في تجميع ديناميات مثل هذه الحوادث. أحد الباحثين الأوائل في مجال السلام في القرن العشرين، هو كينيث بولدينغ، حين اقتربت نهاية مهنته الموسوعية الثقافية، طوّر نموذجاً بدا وكأنه يوضح الموقف بصورة جيدة جداً. وبولدينغ، الكويكري[45] والاقتصادي البارز والشاعر الذي كان ذات مرة رئيساً للأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم الرفيعة المستوى التي ساهمت مساهمة هائلة في بحوث السلام، كتب حين قارب نهاية حياته كتاباً دعاه **ثلاثة أوجه للقوة.**[46] فنحن، كما جادل، لا نعمل بطريقة الجزرة والعصا فقط: نحن نجعل الأمور تعمل بثلاثة أنواع مختلفة من محاولات إقناع نمارسها على من حولنا. وقد دعاها *القوة التهديدية*: "افعل ما أريده وإلا سأفعل ما لا تريده"، و*القوة التبادلية*: "أعطني ما أريده وسأعطيك ما تريده"، *والقوة التكاملية* (التي سأعيد صياغتها على النحو التالي: "سأفعل ما أعتقده صائباً وجديراً بالثقة، وسننتهي في النهاية إلى أن نصبح أكثر قرباً").

وكل الأنواع الثلاثة تلعب دورها الخاص في سلسلة الأحداث المترابطة التي نأخذها بعين الاعتبار . وقد سارع بولدينغ مضيفاً أنّ مثل هذا الخليط يشبه سير الحياة الواقعية عادة. ومن الواضح تماماً أن الجنود السلفادوريين كانوا يستخدمون فقط القوة التهديدية. وقد اعتمدت الحكومة الكندية أيضاً على قوة تهديدية من نفس النوع، لكنها اعتمدت أكثر على القوة التبادلية نظراً إلى أنها لمّحت إلى انسحابها من المعاهدات التجارية ما لم تحصل على ما تريد (فبالإضافة إلى التجارة الاقتصادية، كان هناك وسيط تبادل غير ملحوظ من احترام وشرعية متضمن دون شك أيضاً). لكن كارين استخدمت النوع الثالث، وهو شكل غير مألوف يدعى بالقوة التكاملية. ولا داعي لأن نتفاجأ كثيراً إذا كنا مرتبكين في تفسير كيفية عمل هذه القوة. فكما أشار بولدينغ: "القوة التهديدية خصوصاً هي محط اهتمام العلماء السياسيين، والقوة الاقتصادية من اهتمام الاقتصاديين... [لكن] يبدو من دراسة القوة التكاملية أنها لا تنتمي إلى فرع خاص من فروع المعرفة".[47]

---

[45] . (Quaker): أحد المنتمين إلى طائفة **الأصحاب** (الكويكرز) الذين يدعون إلى التقشّف في الملبس وفي الطقوس الخارجية ويناهضون الحرب . المترجم.

[46] - Boulding, Kenneth E. Three Faces of Power. Newbury Park, CA: Sage, 1989. The following quote is on p. 10.

[47] - Ibid, p.10.

فلنباشر في منظومتنا الخاصة مبتدئين بهذا الإقرار: إنّ إحدى أقوى حاجات الحيوان البشري هي التكامل والترحيب والتجمّع والصُّحبة. ففي كتابها *البحث في الطبيعة البشرية*، أشارت صديقتي وزميلتي البيولوجية ماري كلارك إلى أن جميع الكائنات البشرية تكافح من أجل ثلاثة أمور تتجاوز الغذاء واللباس والمأوى وهي:

1. الترابط (بمعنى القبول غير المشروط من قبل الكائنات البشرية الأخرى).
2. الاستقلالية (أو حرية السلوك الفردي).
3. المغزى (بمعنى إحساس بالغاية في الحياة).

وأعتقد أنّ كلارك فعلت حسناً بوضع الترابط في المقام الأول. ما صاغه ويليام بلاك بشكل جميل في *زواج الفردوس والجحيم حين قال*: "الطائر عش، العنكبوت شبكة، الإنسان صداقة"[48]. لدى كل شخص هذه الحاجة، بل حتى الأشكال "الدنيا" من الحياة تُبدي ميلاً جارفاً نحو تشكيل تجمّعات، مثلما يُدرك جيداً علماء الحياة. في الحقيقة، وقبل فترة طويلة من توثيق علماء النوع الحديثين هذا الدافع، جعله القديس أوغستينوس أساساً لنظرية السلام التي طورها في عمله الكلاسيكي البارز *مدينة الله*. وفي المقطع التالي، وحسب معرفتي كانت هذه هي المرة الأولى في الحضارة الغربية التي يكون فيها السلام موضوعاً أكثر منه مجرّد إشارة عابرة، فقد لاحظ أوغستين أنّه "حتى الحيوانات تشكّل عائلات ومجتمعات من النوع نفسه لكنه على درجة أكبر لدى الإنسان؛ *فبحسب القوانين ذاتها لطبيعته* يبدو، إذا جاز التعبير، أنه مُجبَر على العلاقة، وبحسب أوضاعه، على السلام مع كل إنسان."[49] (التوكيد من عندي)

عن طريق قانون الطبيعة هذا امتلك فعل مثل فعل كارين قوة. لقد أزالت الغشاوة عن أعين الجنود فيما يتعلق بإنسانية مارسيلا من جهة، ووفرت لهم فرصة الإفلات من حالاتهم العدوانية الخاصة من جهة ثانية. وبسبب هذا القانون تُحرِّكنا دائماً قصص المصالحة، وخاصةً حين تأتي بعد عزلة مريرة. فكِّر في الحاكم السابق جورج والاس وهو يتوصل إلى إعادة تشريع مسيرة الحقوق المدنية من سيلما إلى مونتغومري ليعتذر عن نزعته العنصرية السابقة. أو، في وقت أبكر نوعاً ما، صورة غلاف التايم للبابا يوحنا بولس الثاني وهو يمسك بيد محمد علي آغا، الرجل الذي حاول اغتياله قبل سنتين. من قد لا تهزّه مشاهد كهذه؟ فرغم أنّ الجنس البشري يرتكب أفعال كراهية مؤثِّرة وشيطنة للآخر، ما زالت هناك، على ما يبدو، حاجة أساسية في داخلنا من أجل التجمّع، ومن أجل تكامل قائم على إنسانيتنا المشتركة. بوسعنا كبح هذه الحاجة لكننا لا نستطيع القضاء عليها كلّياً. اللاعنف هو علم مناشدة تلك الحاجة.

لأنّ الكائن البشري، حسبما سمّاه أرسطو، "حيوان اجتماعي" يلتمس الصحبة مع الكائنات البشرية الأخرى رغماً عنه. لهذا السبب يكون السجن الانفرادي أسوأ شكل من أشكال العقاب حتى بالنسبة لأقل

[48] - Erdman, David V., editor. The Poetry and Prose of William Blake. Garden City, NY: Doubleday, 1970, p. 36. Mary E. Clark, *The Search for Human Nature*. London: Routledge, 2002, pp. 58-59.
[49]- *City of God* XIX.12, my translation.

الناس اجتماعية. ولهذا، بالمقابل، يمكن لأيّ كان يمتلك الشجاعة أن يقدِّم لخصومه مخرجاً من نزاعاتهم، وأن يجد نفسه مستخدِماً قوة غير متوقعة.

ما العنف؟

يمكن تحليل نموذج "الوجوه الثلاثة" إلى إحدى قوتين متعارضتين يمكننا ببساطة أكثر أن ندعوهما، تقليدياً: العنف واللاعنف. وللقيام بذلك علينا استحضار كلمات لا تقلّ وضوحاً عن الكريستال.

تتحدَّر كلمة "عنف Violence" من الجذر Violare في اللغة اللاتينية الكلاسيكية. وفي ذلك إفادة، لأن الإيتيمولوجيات[50] (الاشتقاقات) غالباً ما تتيح لنا التمعّن في زمن كانت فيه بعض الأمور مفهومة على نحو أكثر فطرية مما هي الآن. وتعني Violare "يُكرِه بالقوة"، وفي المرحلة الكلاسيكية أصبحت تعني "يؤذي، يُهين، ينتهك حرمة، يُدنِّس".[51] ومثل كل الكلمات ذات الأهمية، أخذت كلمة "عنف" معانٍ مجازية متّسعة. فنحن نتحدث عن "عاصفة عنيفة، أو نقول "تعرّضتُ سيارتي لصدمة عنيفة عندما وقعت في أخدود"، لكن ليس هذا هو العنف الذي يهمّنا في هذا الكتاب. فحتى السلوك الضاري للحيوانات ليس حقاً ذلك النوع من العنف؛ فربما يكون الأسد قاسياً على حَمَل، لكن تلك هي إحدى الطرق التي تجري بها الطبيعة. فالأسد لا "يُهين" أو "ينتهك حرمة" أو "يغتصب" الحمل، إذ إنّ دوافعه الغريزية هي التي تدفعه للقتل، وهذا ليس خياراً ولا يدعو للشفقة، وليست هناك من مدارك تتُجِلُّ الرابطة بينه وبين الحمل كمخلوقات حيّة؛ فالحيوانات تمتلك نطاقاً واسعاً من العواطف لكن السخط المُبرَّر أخلاقياً ليس من بينها، بقدر ما بوسعنا أن نقول.

العنف الذي أقصده ظاهرة بشرية. فنحن نكون عنيفين عندما نُلحِق الأذى بأيّ شخص آخر أو، بدقّة أكثر، بأيّ جزء من محيط الحياة المترابط (البيوسفير). وإذا رفعنا ذلك الإحساس بالترابط المقدّس الذي يؤذيه العنف إلى أسمى درجة، حينها يمكننا القول، مع المقاتل في المقاومة الفرنسية جاك لوسيران: "الله هو الحياة، وكل ما يفعله العنف في هذه الحياة معادٍ لله".[52] فالحيوانات تتنافس فيما بينها، وتفترس بعضها بعضاً، لكنها تقوم بذلك بطريقة متوازنة ومتناغمة ومنظمة على نحو غامض، ويمكن أن تستمر بصورة غير محدودة . ما يعني باختصار، قابلية إطالة البقاء. لكنّ البشر ليسوا كذلك؛ فعندما نفترس بعضنا البعض يحدث شيء ما مروِّع، فقد أدت الاستباحة إلى دمار مجتمعات برمتها. بهذا المعنى، يكون التعدي على نظام الأشياء هو وحده الذي يجعل البشر عنفيين أو لاعنفيين.

والآن، يجب أيضاً تحديد مفهوم العنف، بوصفه أذى، بطريقتين. الأولى تقول إنّ إيذاء شخص لشخصٍ، أو لشيءٍ، بالصدفة ليس عنفاً حتى بالنسبة للكائنات البشرية. والقانون يقرّ ذلك. حيث يمكن أن

---

[50] . Etymology: علم دراسة جذور الكلمات وتأريخها . المترجم.

[51] - *Violare:* Lewis, Charleton, and Short, Charles. A Latin Dictionary. Oxford: Oxford University Press, 1962, under *violare.*

[52] - Lusseyran, Jacques. *And There Was Light.* New York: Parabola, 1987, p. 178.

يؤذي أحد الأشخاص شخصاً آخر بصور غير متعمّدة، وأن يبقوا أصدقاء . وهذا يحدث طوال الوقت. لكن أن يتسبّب أحد الأشخاص بأذى لشخص آخر عن قصد، فسيكون على أحدهما أو كليهما القيام بما من شأنه محو ذلك الأذى. وهذا العمل، على فكرة، هو جزء من العملية اللاعنفية. الطريقة الثانية، تترتّب على إدراكنا بأنّ العنف يمزّق نسيج الحياة، فالعنف الحقيقي لا يكمن في الفعل وإنما في النيّة على الإيذاء ذاتها، وهذا هو بالضبط معنى الكلمة السنسكريتية بشأن العنف، himsa، وهنا يجب علينا الغوص بإيجاز في علم اللغة، من أجل توضيح نقطة أساسية. إنّ كلمة Himsa (حيث يشير حرف "m" إلى صوت نفي كما "dans" في اللغة الفرنسية) تتحدّر من الجذر "han" (بمعنى يضرب، يذبح)، ويُعتقَد أنّ كلمة himsa هي شكل خاص لذلك الجذر. وربما هي مما يدعوه اللغويون التمنّي الاشتقاقي؛ فهي لا تعني الفعل وإنما تعني الرغبة في، أو النيّة على القيام بهذا الفعل، الذي هو في حالتنا الأذى. فعقل القدماء واقعي تماماً حيث جاء: *قد سمعتم أنه قيل للأولين: "لا تقتل"؛ فإن من قتل يستوجب القتل، أما أنا فأقول: إنّ كل من غضب على أخيه يستوجب الدينونة".*[53] في الحقيقة، نحن نؤيد لفظياً فقط واقعية العقل هذه: ألم تُعلن منظمة الأمم المتحدة للعلوم والتربية والثقافة (UNESCO) أن "الحرب تبدأ في عقول البشر"؟ ومع ذلك، تعلّمنا النقطة الأساسية استخدام تلك الحكمة الراسخة، وهكذا لا تعود مجرد بدهية تزخرف بعض المستندات الطنانة، بل تغدو مُمارَسة حقاً.

وبالتالي، يبرز كل العنف في العقل. وللسبب ذاته، يمكن للأذى الذي يسببّه العنف أن يكون نفسياً أو روحياً بالإضافة إلى كونه مادياً وجسدياً، وهذا ما يقرّبنا من جديد من الكلمة اللاتينية "يُدنِّس، يهين". هناك ما هو جيد وما هو سيئ في هذا الإدراك. سيئ لأنّ من المُقلق أن نعي أنّ بوسعنا أن نكون عنيفين في حين أننا ساكنون فحسب، أن نضمر أفكاراً سيئة دون أن نؤذي أحداً جسدياً. هذا ليس مريحاً على وجه الخصوص لكن، مع ذلك، من الأفضل أن نكون واعين له إن كان حقيقياً.

إنّ أغلب مقاربات العنف التي نأخذ بها حالياً في الولايات المتحدة فاشلة. ومعظمها، حتى ولو نجح في احتواء المشكلة هنا، يزيد الأمور سوءاً هناك. إنّ نظرتنا إلى الجريمة أدخلت المزيد من الناس السجن (في حين بالكاد تمسّ بنسبة الجرائم في الشوارع)؛ وتبدو نظرتنا إلى السلام العالمي وكأنها تقود إلى سلسلة غير منتهية من الحروب؛ فـ"الحرب على المخدرات" و"الحرب على الإرهاب" هي حالات مُكلِفة وعنيفة. لذا من المريح جداً أن نجد أنفسنا وجهاً لوجه مع المنبع الحقيقي للمشكلة، حتى إذا ثبت في النهاية أننا ننظر إلى مرآة.

والقول بأنّ العنف يبرز في العقل يخالف القول بأنّ كل العنف له علاقة بإرادتنا الواعية. فهناك نوع من العنف نرتكبه دون أدنى وعي، وفي الحقيقة الكثير مما كان علينا أن ندعوه عنفاً لا يبرز من أية حالة عدائية محسوسة، وإنما من الرغبة السلبية، أو حتى اللاواعية، في استغلال الآخرين. هل القميص

[53] - (Mt. 5.21f)

الأنيق الذي أرتديه آتٍ من مصنع يتمتّع بكل متطلبات الراحة في ويسكونسن، أم من معمل معرّق[54] في تايلند؟ هل ذلك الرجل المشرَّد هو ثمن نجاح شركتي أم ثمن الإنفاق العسكري لبلادي؟ هل دُمِّرت غابات الأمطار الاستوائية في بعض الأمكنة لتوفير الغذاء الذي أنظر إليه الآن في صحني؟ وما هو مقدار مساهمتي في غسل الأموال والفساد عندما أحتسي قهوتي اليومية في المقهى؟ لأن الاستغلال القائم على نظام اجتماعي يُدعى عنفاً هيكلياً، وهو مصطلح ندين به إلى باحث عظيم آخر في السلام يدعى يوهان غالتونغ. ورغم أن العنف الهيكلي واسع الانتشار جداً اليوم بسبب الأسلوب الذي تعمل به الأنظمة الاقتصادية الحديثة، فمن المحتمل أنه وُجِد حالما نُظِّمت الكائنات البشرية في إطار مجتمعات معقدة. فعندما عرَّف البوذا الشخص اللاعنفي منذ قرون مضت استخدم العبارة الصائبة Na hante, na hanyate (هو أو هي من لا يقتل ولا يتسبّب في القتل". هو أو هي من لا يتعاون بصورة واعية مع أي نظام يؤذي الحياة.)

على أية حال، حتى في حالة العنف الذي لا ندركه تكون القضية الأساسية هي النيّة. فهناك قول مأثور باللغة اللاتينية: Quad ultimum est in excutione, primum est in intentione, "ما يتبدّى في النهاية للعيان كفعل كان في البداية مجرد نيّة".

إنّ الأطفال الذين يشبّون في عالم قائم جزئياً على العنف الهيكلي قد يستغرقون وقتاً طويلاً لإدراكه، وإلى أن يدركوا ذلك ربما يستفيدون بلا دراية من الآخرين: ولن يدعوهم أحد عنيفين بسبب هذا. فقط عندما يواصلون الاستفادة ببهجة، وبعدما يصبحون مدركين للأمر، يمكن تسميتهم، إلى حدّ ما، بالعنيفين، وقد يكون هذا هو أحد الأسباب التي تجعل الناس يقاومون تعلّم ما له علاقة بالعنف. وسيكون من التضليل تسمية المشاركة غير المتعمدة في نظام خاطئ عنفاً، وبعبارة أخرى، يختلف الوعي المقموع عن الوعي الذي لم يكن قد بزغ إلى حينه.

تكمن هذه الاعتبارات ضمن التعريف المفيد جداً للعنف الذي وصلنا من غالتونغ: "العنف هو إهانة يمكن تجنبها بالقياس إلى الحاجات الإنسانية"[55]. هذا التعريف يُبقي، في المشهد، العنف المخفي أو "الهيكلي" الذي كنت قد وصفته للتو، عنفٌ يشقّ طريقه عملياً في مؤسسات كل المجتمعات المعروفة. لكنه يوحي أيضاً بأمر ما بالغ الأهمية حول ذلك النوع أو أي نوع من العنف؛ فعبارة "يمكن تجنبه" توحي بأنّ الحياة يمكن أن تُعاش بدون مثل هذه الإهانات، وأنه يمكن تجنب كل أشكال العنف في عالم مثالي. وهذا صنف من الإيمان يتشارك فيه كل المعتقدين بإمكانية لاعنف واسع الانتشار في كل العصور، ولا يشمل زمننا الخاص. الأحداث تجري، والصراع حتمي، والنزاعات ستظهر بصورة عادية، لكن لا شيء

---

[54] . مؤسسة صناعية صغيرة تستخدم العمال بأجور رخيصة في شروط غير صحية . المترجم.

[55] - Galtung, Johan. "Violence, Peace, and Peace Research," *Journal of Peace Research*, Vol.6: No.3 (1969) pp. 168ff. Galtung restated this definition several times elsewhere, with minor changes.

وقد أعاد غالتونغ هذا التعريف عدة مرات، وإن بأشكال مختلفة قليلاً.

من هذا يسبب عنفاً بالضرورة؛ فالصراعات والنزاعات يمكن حلّها على نحو خلاق دون عنف لأن العنف شرّ لا ضرورة له.

هنا أيضاً يمكن لنموذج القوة التكاملية أن يكون مفيداً. فعلى المستوى العميق، من يرتكب العنف الحقيقي، أي من يغذّي نية إيذاء شخص آخر يعاني من جرّاء النية ذاتها دون الاهتمام مطلقاً بعواقب أي عمل قد ينتج عنها. كلّنا سمعنا عن اضطرابات الإجهاد ما بعد الصدمة (PTSD)، ولكن هناك مفهوم آخر يدرسه علماء النفس يُسمى ارتكاب إجهاد صادم حتّي (PITS)، بمعنى الأذى الذي نخلقه لأنفسنا عندما نؤذي الآخرين، حتى في وضع "شرعي" كالحرب.[56] العنف يقطع كلا الطريقين؛ فإذا تمزقت شبكة العلاقات بين طرفين سيشعر كلاهما بالتمزّق (وفي الحقيقة، سيشعر به كل واحد في الشبكة بإحساس أكثر بعداً). ما يعني أنّ العنف هو قضية علماء النفس قبل أن يصبح قضية المشرّعين أو الباحثين في علم الجريمة. ومرة ثانية كان القديس أوغستين هو من أدرك طبيعة العقل كما فعل ربما بضعة رجال آخرون في العالم الغربي، وصاغه بشكل جميل حين قال: *"تصوّر أنّ شخصاً ما يفكّر بأنّ عدوه يمكن أن يعامله بنفس القدر من الأذى العدواني الذي يضمره له!"*[57]

يمكن أن يُقدِّر كثير من الناس اليوم هذا المبدأ من خلال برهان طبي شامل على ما تفعله الكراهية بصحتنا، عندما نصبح عاجزين على الغفران.[58] وبأي تعريف ذي مغزى، فإن العنف ظاهرة تصرخ طالبةً تصحيحها، وتتعلق بما لا يمكن للكائنات البشرية في عالم مثالي أن تفعله ببعضها، أو بالبيئة أو أي من قاطنيها الأحياء. والأكثر أهمية هو أنّ من المحتمل تماماً أن يتوقفوا عن مارسته إذا ما استطعنا بطريقة ما جعلهم يدركون أنهم يلحقون الأذى بأنفسهم وبضحاياهم. أبقِ هذه الفكرة في خلفية ذهنك لأنها المفتاح إلى طريقة جديدة كلياً للتعامل مع العنف – إنها المفتاح إلى عالم جديد نسعى إليه.

ثلاثة منظورات

في كافة أنحاء العالم تشتبك مجموعات غاضبة في صراع مرير لأنها غير قادرة على التواصل، وخصوصاً حول قضايا مثل المثلية الجنسية أو الإجهاض. إنها لا تستطيع التواصل لأنّ إحدى المجموعات تنظر إلى القضية من خلال إطار أو نموذج سياسي بينما الأخرى تفكر فيها من خلال إطار ديني أو أخلاقي.

---

[56] - Rachel M. Macnair. *Perpetration-Induced Traumatic Stress.* Westport, CN: Praeger, 2002. Also her *The Psychology of Peace*. Westport, CN: Praeger, 2003. See also the documentary by Patricia Foulkrod, *Ground Truth*, on PITS among Iraq veterans.

[57] - *CONFESSIONS* I.XVIII; MY TRANSLATION

[58] - For some bibliography, see Worthington, Everett, editor. *Dimensions of Forgiveness: Psychological Research and Theological Perspectives*. Radnor, PA: Templeton Foundation Press, 1998, and McCullough, Michael E., Kenneth I. Pargament, and Carl E. Thoresen, editors. *Forgiveness: Theory, Research, and Practise*. New York: Guilford Press, 2000.

وما نحن بحاجة إليه هو منطق يختلف كلياً، أو لنقل نافذة أو إطار مرجعي مختلف، نفكر بهذه المشكلات من خلاله، أو بمشكلة العنف بحدّ ذاته. وسأوجز ثلاثة من تلك المنظورات، أو "العدسات" (إن استخدامنا مصطلح هوارد زِهر في كتابه الهامّ الصادر عام 1990، *عدسات متغيّرة*): واحدة هي الأكثر شيوعاً من حيث الاستخدام؛ وواحدة أفضل وهي تدخل حيّز الاستخدام؛ وواحدة أعتقدُ، أنا على الأقل، أنّ علينا استخدامها.

النموذج الأخلاقي

إن الطريقة التي يفكر بها معظمنا في العنف اليوم هي من خلال النموذج الأخلاقي؛ فنحن نميل إلى التفكير بالعنف كخطيئة (لأنه ينتهك قوانين **الله**) أو كجريمة (لأنه ينتهك قوانين المجتمع أو الجنس البشري). ولسوء الحظ، لم يعد لدينا مفهوم مُتّفَق عليه عموماً حول ما تعنينه "الخطيئة" أو حتى "الجريمة": كيف نحدّد ما هو "الأخلاقي" بالنسبة للبعض منا الذين لا يزالون يستعملون هذا التعبير؟

في الثقافة الحديثة، التي تهيمن عليها التكنولوجيا والنزعة المادية، يبدو أن العلاقات الإنسانية تنزلق أكثر فأكثر نحو حالة من المنافسة المحض؛ حيث يتم التفكير أكثر فأكثر في تفاعلات متبادلة من خلال إطار الربح / الخسارة. في حين أنّ تعريف ما هو قانوني يصبح، بصورة متزايدة، مسألة مفاوضات بين المحامين، ويضعف بشكل مطّرد مفهومنا المُتّفَق عليه للقانون الطبيعي. وتُحال سلطة تقرير ما هو خطأ وما هو صواب تدريجياً إلى المؤسسات المتخصّصة، تاركة معظمنا، من غير الأخصّائيين، دون حافز يدفعنا للتفكير بأنفسنا. ولوسائل الإعلام تأثير سيئ في هذه العملية المؤسفة. فبقدر ما تكون وسائل الإعلام مهتمة، غالباً ما تُفسَّر العملية القانونية، مثلها مثل العملية السياسية، كصراع على السلطة بين المشاركين، وبشكل ثانوي كعملية ترفيهية تقدَّم للجمهور.

إنّ للنظر إلى العنف باعتباره خطيئة أو جريمة، في حين أن كلّ من الجريمة والخطيئة أصبحتا مفهومين غامضين يكمنان في برج عاجي، تأثيراً بالغ الأسف على تفكيرنا يذكّرنا بوصف جاك إلول لعصرنا بأنه العصر الذي بدأنا ندرك فيه العنف بطريقة جديدة. لدينا الآن فرصة لا نظير لها لاتخاذ خطوة عظيمة إلى الأمام في الثقافة الإنسانية، وذلك باستغلال هذا الوعي الجديد المتعلق بالتعامل مع العنف أخيراً. لكن، بدلاً من ذلك، حدث العكس تقريباً، وبات العنف شيئاً نريده. قالت المجلة النقدية "كرونيكل" في 6 حزيران 1997: "للقصة المثيرة الجديدة التي اخترقت الأرض في مسارح Bay Area كل المزايا الحديثة". فما هي تلك المزايا؟ إنها "العنف والحجم والحماقة" . (أي) كل تلك الأمور الخيّرة. وفي حين أنّ هذه المجلة كانت ربما ساخرة جزئياً، فإنك إذا تحقّقت في أي مخزن لأشرطة الفيديو أو على رفوف مكتبة عامة لوجدت أن "العنف" يعني الآن "الإثارة"، وأن الإحساس بالصواب والخطأ قد تلاشى. فما النفع من دعوة العنف شرّاً لا ضرورة له، وهو كذلك فعلاً، إن لم يكن بمقدور أحد أن يذكر مصطلح

الشر إلاّ كمصطلح تقني تتضمنه *بعض* المفردات الدينية والتخصصية لأناس يملكون وحدهم سلطة تعريفه؟

كما أنّ استخدام النموذج الأخلاقي كنافذة على العنف يمكن أن يزيد طبيعة العنف حدّة بدلاً من أن يحجبها، وهنا تصبح المشاكل المطروحة أكثر خطورة. ونظراً لأنه ما زالت لدينا استجابة عاطفية قوية تجاه العنف (وهذا بحدّ ذاته أمر جيد)، فإنّ وصف شخص أو مجموعة ما بـ"العنيف/ة" يمكن أن يجلب لها أقوى مشاعر الكراهية والسخط المُبرَّرة أخلاقياً. أما الخطوة التالية فهي أن نختمهم بلصاقات استقطابية، مثل "مُدنَّس" أو "مُذنِب"، الأمر الذي يجعلنا ننسى سريعاً أنّ هؤلاء الناس كائنات بشرية رغم كل شيء. هذا يُدعى إلقاء المسؤولية على الآخرين، ورغم أنه يمكن أن يبرز كردّة فعل غير مُفكَّر فيها تجاه العنف، فإنه بحدّ ذاته، وهذا ما يدعو إلى السخرية، شكل خطير من العنف. فليس مصادفة أن مصمّمي المحرقة استخدموا عن عمد صور قذارة ودنس لوضع ضحاياهم المقصودين بمنأى عن التعاطف الإنساني، وقد كان لهم الكثير من المقلِّدين. إنّ إلقاء المسؤولية على الآخرين، كشكل خطير من أشكال العنف، هو فقط، وبحدّ ذاته، خطوة واحدة مقصرة لتبرير العنف.

عندما ظهر كتابي *أمريكا بدون عنف* عام 1982، أجرت معي إحدى المحطات الإذاعية الرئيسية في نيويورك مقابلة في وقت متأخر من الليل، فصدمتني ردود فعل المستمعين. لقد بدا أنّ كل متصل كان يلقي بلوم العنف (العنف كله) على عدوّه، أو عدوّها، المفضَّل. "أنت تعلم تماماً أنهم البورتريكيون"، "هل قرأت الإحصائيات حول السود تحت سن الخامسة والعشرين؟"، "إنهم البيض الذين يسبّبون كل العنف"، وهلم جرّاً. إنه الخطأ نفسه الذي كان يرتكبه طلاب بيركلي عندما ركّزوا على جرائم الكراهية ضد الآسيويين، فقط هنا أصبح المُضحّون بالآخر بدلاً من الضحايا هم الذين صُنفوا ضمن مجموعات، وكأن القضية أصبحت المجموعات وليس العنف. منذ ذلك الوقت، وعوضاً عن اتخاذ الخطوات الضرورية لننتقل بتفكيرنا من المظهر إلى السبب (مشيرين هنا إلى أنّ أحداً لا ينكر، ومهما كان السبب، واقع أنّ بعض المجموعات ترتكب العنف أكثر من الأخرى)، فصنفت مجموعة أكثر مأسوية من أجل لومها: "إنهم المراهقون". العنصرية سيئة بما يكفي، أما إذا كنا قد وصلنا إلى حدّ إلقاء المسؤولية على أطفالنا، حينئذٍ ستكلفنا نظرتنا إلى العنف أكثر من الداء – قد تكلّفنا حضارتنا.

لذلك فإن ما أقترحه للعمل الآن هو أن نغلق معاً النافذة الأخلاقية تماماً، إذ لسنا بحاجة لاكتشاف مَن نلوم على كل ما نشهده من عنف بطريقة *ميتافيزيقية*؛ نحن بحاجة فقط لاكتشاف كيفية إيقافه.

النموذج الطبي

الذي هو نموذج أحدث وكانت له فعالية أكبر بكثير؛ فبالنسبة لطريقة التفكير هذه يصبح العنف مرضاً، والسلام صحّة. ومن المحتمل أن تكون هذه الطريقة للتفكير حول العنف أكثر دقّة بكثير من تفسيره كخطيئة أو كجريمة. لاحظ كيف أنّ العاملين في الحقل الطبي قادرون بيسر على تغيير اتجاه

التعقّب بحيث لا يقعوا، وخاصة فيما يتعلق بالعنف، في شرك التفصيلات. ففي الإصدار الأول للنشرة الإخبارية لـ Medical Abstracts نقرأ:

إنه اليوم المسبب الرئيسي لفقدان الحياة في الولايات المتحدة؛ فهو يقتل من الناس أكثر مما يقتله الإيدز أو السرطان، ولم تظهر أية مؤشرات لعلاجه: إنه *العنف*...[59] (التأكيد من عندهم)

كون العنف مرضاً ليست فكرة جديدة بالطبع. وقد أحسن أوغستينوس استعماله لتطوير تعريفه المشهور للسلام بأنه "التناغم الناجم عن العلاقة المنتظَّمة بين كل أجزاء الجسد"، على سبيل المثال. لكنّ معظمنا يتذكر كيف أنّ حركة السلام، خلال الحقبة المناهضة للأسلحة النووية، بلغت ذُرى لم يسبق لها مثيل عن طريق الأطباء، وخصوصاً على يد طبيبة رعاية بليغة جداً هي هيلين كالديكوت. وما جعل "**أطباء من أجل المسؤولية الاجتماعية**" ونظراءهم الأوروبيين فاعلين جداً لم يكن فقط حقيقةُ أنّ للأطباء سلطةً مُحترمة لدى معظم الناس أو اتساع دورهم في الحفاظ على صحة الناس فرداً فرداً وإبقاؤهم بالملايين على قيد الحياة، فهذا أمر طبيعي، إذ كانت الصورة الحيّة لنظام الحرب كمريض مختلّ وظيفياً، إن صحّ القول. الأمر الذي جعل عمل ملايين البشر لمناهضة هذا النظام أكثر سهولة، بمن فيهم الكثيرون ممن كانوا يرفضون أي نقد للحرب كعمل وطني رفيع وشكل من أشكال "الدفاع". لقد جعل ذلك المنظور الجديد النشطاء المناهضين للحرب أكثر فعالية إلى حدّ ما لأنه ساعدهم على تقديم شيء محسوس للناس بدلاً من تبادل الاتهامات بخصوص الحرب؛ فالإشارة فقط بإصبع اللائمة إلى الآخرين يجعلهم يتحجَّرون في موقفهم، إن لم يكن في قلوبهم.[60]

وقد أصبحت قوة المنظور الطبي حقيقة واقعة في أحد أيام صيف 1993 في غرفة الطوارئ في مستشفى في لوس أنجلس، وذلك حين دخلت امرأة هائجة المستشفى قاصدة إطلاق النار على ممرضة كانت تعتقد أنها على علاقة جنسية مع زوجها المُجافي لها؛ فوجدت من كانت تبحث عنها وأطلقت عليها النار لكنها لم تقتلها. راحت الممرضة الجريحة تترنّح نازلة إلى غرفة الطوارئ تطاردها المعتدية، وكانت الممرضة المناوبة في غرفة الطوارئ جوان بلاك قد سمعت إشارة بالشِفرة إلى أنّ هناك شخصاً مسلّحاً طليقاً في المستشفى قبل لحظات من دخول زميلتها الممرضة الجريحة ومن ورائها المرأة المسلّحة باندفاع عبر الباب. ردّت بلاك، ذات الاثني والستين عاماً، بغريزة الشخص الطبّي الخبير: "وضعت ذراعي حولها وبدأت الحديث معها. كانت المرأة تواصل القول بأنها لم يعد لديها ما تعيش من أجله، وأنّ هذه المرأة سرقت عائلتها. وأنا كنتُ أواصل القول: "أنت تتألمين، وأنا آسفة، لكن كل الناس يعانون آلاماً في حياتهم... أنا أتفهّم ذلك ويمكننا أن نحلّ الأمر".[61] (وتصدّرت قصة إطلاق النار أخبار الصفحات الأولى، أما إنقاذ الممرضة بلاك البطولي للموقف فقد ظهر فقط في قسم تالٍ). لقد أتاح الحديث بمثل

---

[59] - *Medical Abstracts Newsletter*, 1993.

[60]- cf. Ivie, Robert L., "Metaphor and the Rhetorical Invention of Cold War 'Idealists,'" *Communication Monographs* 54, (1954) pp.165-181.

[61] - This AP story from the *Los Angeles Times* for Aug. 11, 1993, p. B7.

هذا الثبات، وفي الوقت نفسه إبعاد المسدس في كل مرة كانت المرأة تحاول فيها استعماله، أتاح لبلاك أخيراً تهدئة المرأة.

الإنسان الكلاسيكي الذي في داخلي يُوجب عليّ الإشارة ههنا إلى أمر ما قبل أن نواصل. لقد اتبعت الممرضة بلاك غريزياً، نقطة بنقطة، النموذج المستعمل من قبل القدماء من أجل تهدئة الناس المهتاجين أو الذين لا عزاء لهم. فهي، أولاً، لم تتماثل معهم ولم توجّه اللوم إليهم ("أنت تتألمين. أنا آسفة..."). ومن ثم تعطيهم بعض الاستقلالية في الرأي بتذكيرهم بالشيء الأول الذي نفقد جميعاً بصيرتنا بصدده في مثل هذه الحالة، وهو أنّ ما يعانون منه هو تجربة إنسانية عالمية ("كل الناس يعانون آلاماً في حياتهم"). كما يمكنك أيضاً تذكيرهم بأنّ اللحظة غير المحتَملة التي يواجهونها يجب أن تمرّ، ومن ثم أخيراً تحضّهم على تغيير موقفهم ("يمكننا أن نحلّ الأمر"). والحقيقة أن الممرضة بلاك كانت مُلهَمة في نقل هذه المحاكاة المثالية لعزاء كلاسيكي في لحظة كهذه يوضّح شيئاً له علاقة بعالمية الديناميات الإنسانية التي سنستخدمها لاحقاً.

لا بدّ أنّ جوان بلاك كانت ممرضة غرفة طوارئ عظيمة. وقد أفلحت في هذه الحالة بالتأكيد في تهدئة موقف بالغ العنف، وهذا تمّ جزئياً لأنها ممرضة ومناوِبة في غرفة الطوارئ. لقد أتاح لها كل هذا رؤية الموقف بشكل مختلف تماماً أكثر مما لو واجهت رجلاً مسلحاً في زقاق مظلم. فهي لم "ترَ" مجرماً يدخل عبر الباب، بل رأت مريضاً، وقالت حرفياً: "لقد رأيتُ شخصاً مريضاً وكان عليّ الاعتناء به". تغافلت الصحف كلياً تقريباً هذه النقطة، وتشبّثت بملاحظة لها مضللة بالكامل تقول فيها: "من المحتمل أنّ هذا العمل كان أغبى عمل عملتُه في حياتي". لكن تلك مشكلة الصحف وليست مشكلتنا؛ فقد كانت جوان بلاك بطلة وقادرة على القيام بعمل استثنائي في مواجهة العنف. لماذا؟ لأنها رأت في المُرتكِب شخصاً مريضاً، شخصاً يعاني مشكلة، وليس مجرماً.

على بعد ألف ميل، في غرفة طوارئ أخرى، احتفلت طالبة طب اسمها ديبورا بروثرو سميث بعيد غطاس مختلف نوعاً ما. ولحسن الحظ كانت قادرة على الإمساك بزمامه، وفي الحقيقة، على تحويله إلى عُرف. حدث هذا ذات ليلة بعد أن خاطت جرح شاب كان قد أُصيب في معركة بالسكاكين. وبينما كانت تحضّره للخروج، التفت إليها وقال: "لا تذهبي للنوم.. فالشخص الذي فعل هذا بي سيكون هنا في غضون ساعة". كان الأمر جزئياً يبدو كدعابة، وجزئياً كتبجّح ذكوري؛ لكن بروثرو سميث، وهي طبيبة وأم لابن مراهق، فكّرت مليّاً بما قاله. فثقل عليها التفكير بعبث وسخف إصلاح ضحايا العنف بعد أن يكون هذا العنف قد حدث دون عمل أي شيء لمعالجة الأسباب، لأنه مناقض مع كل ما تتعلمه في الطب ويقول إنّ: درهم وقاية خير من قنطار علاج، ويصلح لمعالجة مرض العنف كما لأي مرض آخر. لاحقاً، وعندما أصبحت بروثرو–سميث مندوبة الحكومة للصحة العامة في ماساشوسيتس، أنشأت برنامجاً تربوياً للحيلولة دون عنف المراهقين مع منهاج اتبعته 325 مدينة في 45 ولاية. وصاغته على النحو التالي:

المهمة في نظام العدالة الجنائي هي إثبات المسؤولية عن الخطأ عندما تقع حادثة عنفية واتخاذ الإجراءات العقابية. تلك مهمة مناسبة لكنها ليست وقائية. لذا فإن ما أؤيده في [كتابي] *عواقب مهلكة*، وفي هذه الحركة التي تنظر إلى العنف كمشكلة صحية، هو أن نباشر بالتحدث عن الوقاية.[62]

وعلى نحو ممتع، قدمت بروثرو–سميث تعريفاً رائعاً للعنف الهيكلي في مقابلة أُذيعت على نطاق واسع:

بأمانة تامة، إذا ما عرّفتَ العنف بشكل محدود جداً كمجرد أذى جسدي، فإنك تُقيد فهمك... فالافتقار إلى الفرص، ونظام تعليمي لا يعمل، وحتى عائلة لا أثر لها . تعتبر تجارب عنيفة جداً.[63]

لأنّ الصحة والمرض هما صنوا السلام والعنف؛ واستعمالهما أكثر فعالية بكثير من محاولة استخدام مفهوم الجريمة والعقاب، مهما كان ذلك ملائماً لمشاعرنا. فالتفكير بالعنف بوصفه مرضاً يخرج اللوم من الصورة: ما لم تكن جورج برنارد شو لا تلُمْ الناس على مرضهم. ومن جهة أخرى، هو يركّز بؤرة اهتمامك إلى حيث يجب، إلى حيث يحتاج الأمر للكفاءة وللرحمة – إلى حيث الوقاية. عندما يكون بوسعك القيام بعمل خلاّق ما يركز على الأسباب العميقة للعنف الضاربة جذورها في الأنظمة المجتمعية والعائلية، والتي استشهدت بها بروثرو–سميث للتو، فأنت تقوم بعمل أكثر فاعلية بكثير من نشر المزيد من رجال الشرطة في الشوارع، أو وضع أقفال أمتن على الباب الأمامي لمنزلك؛ إنه عمل دعاه بعض المهنيين الصحّيين، وأستعير هذا التعبير من الباحث في مجال السلام جون بيرتون، بـ"الوقاية الاستباقية".

النموذج التربوي

رغم منافع النموذج الطبي، سأفتح منظوراً ثالثاً. فإذا لم يكن العنف خطيئة، بل يشبه كثيراً المرض، لا بل يشبه نوعاً من أنواع الجهل؛ فإني أعتقدُ أن الصوفي المحبوب في الهند الحديثة، سوامي رامداس، قد عنى ذلك حرفياً حين قال:

الجهل هو علّة النزاعات والصراعات في العالم. والجهل ليس جريمة، ولا يستحق الإدانة، لكنه يجب أن يُزال. وبمقدورك أن تزيل الجهل بقوة محبتك.[64]

وهذا يبدو لي تلخيصاً لطبيعة العنف بكلمات قليلة، ويوجّهنا نحو "الوقاية الاستباقية" منه. فالنظر إلى العنف كضرب من الجهل يساعد بصورة مباشرة على رؤية الحكمة والمحبة كحل، وتقدير قوة التعليم في البحث عن مستقبل لاعنفي.

خضتُ، ذات مرة، مناقشة حامية مع مجموعة من الصحفيين في حلقة دراسية مرتجلة في سان فرانسيسكو. فالتفت إليّ زميل لي من جامعة بيركلي وقال: "حسناً، ما هو العنف؟"، فأجبت بسرعة:

---

[62]- Prothrow-Stith, Deborah. *Harvard Alumni Gazette,* April 23, 1992, sec. Q&A, p. 23. Following quote from p.24.

[63] - Ibid, p.24.

[64]- Ramdas, Swami. Ramdas Speaks, Vol. III. Bombay: Bharatiya Vidya Bhavan, 1957, p. 149.

"إخفاق الخيال". وفي حين أنني لم أكن متيقّناً تماماً مما قصدته، أعتقد أنني كنت أتلمس دربي المعتم نحو بصيرة سوامي رامداس. فإذا لم أكن أمتلك خيالاً لإدراك أننا – أنت وأنا –واحد، رغم انفصالنا الجسدي واختلاف نظراتنا إلى الحياة، فما الذي قد يمنعني من استعمال العنف ضدك إذا اعتقدتُ أنك تقف حجر عثرة في طريقي؟ قد تقول إنّ هناك نوعاً من العنف يُرتكَب من خلال الإخفاق في رؤية أننا واحد . يطال الحقيقة.

يمكن الشفاء من الجهل، كما ألمح سوامي رامداس، كما يمكن أن تُعكَس إخفاقات الخيال. وتلعب المحبة دوراً ما في كلتا هاتين العمليتين.

حسناً، ما هو اللاعنف؟

كنت وصديقي الحميم آلان ريشار نتواسى خارجين من مطعم في سان فرانسيسكو قبيل عودته إلى موطنه فرنسا بعد عدة سنوات قضاها في العمل كناشط لاعنفي رائد. كان موضوع تشكّينا هو أن كلمة "لاعنف" لا تفيد المعنى المقصود غالباً، وكيف لم يقدّم أحد بديلاً سليماً لها. لكن آلان كان قد وجد طريقة لوصف اللاعنف دون أن يسمّيه باسمه حينما كان يدرّب ورشات عمل في ريف أفريقيا في وقت سابق. "انسَ اللاعنف – قال لي – تحوّلتُ إليهم لأسألهم، هل استخدم أيّ منكم قوة أخلاقية داخلية في مواجهة قوة بدنية؟" وبلا ريب، ارتفعت أيدٍ. وعرضت إحدى النساء قصتها: اعتاد زوجها على ضربها كثيراً. وذات مرة، أحسّت بشيء ما يقدح في داخلها. وبدلاً من محاولة حماية نفسها، وقفت بثبات ونظرت في عيني زوجها وقالت: "لماذا لا تقتلني فحسب وتنتهي من الأمر كله؟". لم يضربها مرة أخرى مطلقاً.

كل ما قلته عن "الجانب الظليل" للعنف كان تهيئة جيدة، لكنها تهيئة فحسب، من أجل العمل الحقيقي الذي يمكن أن نعكف عليه الآن، والذي يتفهّم القوة التي غيّرت بشكل مثير زوج هذه المرأة. فالعنف ليس تكاملياً، واللاعف قوة تكاملية. إنه، كما النية في الأذى، أولاً وقبل كل شيء، قضية عقل، ومن ثم فقط تعبير عن حالة العقل في فعل. ويمكن أن يُعلَّم. ومقتضيات هذه العملية التعليمية هي التي تهمنا بصورة رئيسية.

وكما بيّن اختبار دافيتز، يمكن بسهولة مدهشة تعليم الناس السلوك الإيجابي والسلوك التعاوني، وحتى سلوك التضحية بالذات. ويجادل مؤيدو اللاعنف أنّ ما يفعلونه حقاً هو *لا* . تعليم السلوكية العدوانية والسلوكية التنافسية وسلوكية التضحية بالآخر، التي ألبسناها للآخر. وعندما أقول إنّ اللاعنف يمكن أن يُعلَّم لا أعني أنه لم يكن موجوداً من قبل، فقد كان موجوداً بالفعل، لكن يبدو أن المقدار الكبير من التكيف الذي يجعلنا اليوم كائنات اجتماعية يُعمّي عليه. لكن التكيّف ثانوي، ولذا يمكن أن يُزاح بسهولة نسبياً: الأخير في الداخل، الأول في الخارج. ففي حضارتنا نتمسّك دوماً وبطريقة ما بالظلّ عوضاً عن الضوء.

فلنُعرِّج على الإيتيمولوجيا (الاشتقاق)، كما فعلنا مع كلمة "عنف".

بالكاد ظهر مصطلح اللاعنف (أو *اللا–عنف*، كما لا يزال يُهجّأ أحياناً) للمرة الأولى منذ قرن مضى (على خلاف مصطلح *العنف*!)، وبدقة في العام 1923. ويفيد *اللاعنف* كترجمة حرفية (لكن مُضلِّلة، كما أصبحت تفهم) للكلمة السنسكريتية *أهيمسا* Ahimsa، وهي نقيض *هيمسا* Himsa "(الرغبة في، النية على) الأذى". وبموجب ما رأيناه للتو، تعني أهيمسا "غياب الرغبة، أو النيّة، في الأذى". لكن هذا النفي (البادئة "لا: a" في اللغة السنسكريتية تشبه أساساً البادئة نفسها في اللغة اليونانية، والتي تبنّيناها في اللغة الإنكليزية: لاأخلاقي amoral) يتطلّب بعض الشرح. فعلى خلاف الوضع في الإنكليزية، كلمة *لا* none في السنسكريتية قديمة قِدَم نقيضها، إذ تظهر *أهيمسا* حتى في النصوص الأقدم من "المرجع" المبجّل لغاندي، البهاغافادغيتا (كُتِب ما بين 200 قبل الميلاد و200 ميلادي). ومرة أخرى على خلاف الوضع في الإنكليزية، غالباً ما تُسمّي الأسماء المجردة في السنسكريتية خاصيّة إيجابية على نحو غير مباشر بنفي ضدها. وهكذا تُعرّف الشجاعة بـ *أبهايا* abhaya" التي تعني حرفياً "عدم الخوف non-fear"؛ أو نجد *أكرودها* akrodha"، "عدم الغضب non-anger"، مقابل "اللطف"، و*أفيرا* بوذا Budha's avera"، "عدم الكراهية non-hatred"، وتعني "المحبة".[65] والسبب الذي دعا المفكرين العظماء الهنود القدماء للتعبير عن أنفسهم بهذه الطريقة الملتوية على ما يبدو هو أن ظواهر مثل المحبة والشجاعة المطلقة والرحمة هي أمور أصلية لا يمكن التعبير عنها تماماً بلغة بشرية مشروطة وغير معصومة. وكما تذكّرنا الكثير من النصوص أنه مهما تفكرنا أو قلنا عن الله فإننا نخفق في الوصول إلى الحقيقة. أما اللغة الإنكليزية فهي مختلفة (مع أن "اللاتناهي infinite" قد تدعو إلى المقارنة)، ما يعني أن مصطلح اللاعنف لا ينقل حقاً معنى أهيمسا باللغة السنسكريتية.

في الواقع، *أهيمسا* ليست مصطلحاً سلبياً، كما هو بلا ريب وقع مصطلح اللاعنف على أسماعنا. *فأهيمسا* توحي بشيء ما إيجابي إلى حدّ عميق، وقد يكون هذا الشيء غير قابل للتسمية بصورة مباشرة. فأهيمسا، كنوع من النفي المضاعف، ترمز إلى شيء ما أصلي إلى درجة أننا لا نستطيع الإمساك به تماماً بلغتنا الضعيفة.

لقد جلتُ بك عبر كل علم اللغة هذا (لأنّه ـ حسناً)، لأسباب عدّة. لأنّ من المهين أنّ هذه اللغات الحديثة ما زالت تجاهد من أجل كلمة تعبر فيها عما كان مقدساً في كلمة *أهيمسا* منذ ألفيات مضت. ولأنّ ذلك المصطلح القديم كان متقدماً علينا إلى هذا الحدّ في تفضيل البعد العقلي للعنف / اللاعنف؛

---

[65] - "Nonviolence" in English: See Pam McAllister, *You Can't Kill the Spirit: Women and Nonviolent Action.* Philadelphia: New Society, 1988, p. 9.

المرجع هنا هو لكتاب غربيون: أما الكلمة فنراها سابقاً، بالطبع، في الكتابات والترجمات الإنكليزية لغاندي.

السالب بالسنسكريتية: لنقرن القول التالي لروشي جييو كينيت، " تتحدث البوذية عما هو ليس الكائن الأزلي. (وقد استعملت كلمة أزلي عوضاً عن الله. لأن لله تصور يظهره كألوهة لها لحية وخصل شعرية طويلة.) ما يعني أنها لا تصف ما هو لأنها لو فعلت سنصبح مقيدين بمفهوم. لذلك فإن البوذية تتحدث فقط عما نعرفه كشيء مؤكد. وبالتالي هي لا تتحدث عما يدخل في حقل الإيمان. أي عن ذلك الذي بوسع اكتشافه بأنفسنا... ولكن ليس بوسعنا التعبير عنه.

Meetings with Remarkable Women. Boston & NY: Shambala, 1957, p. 168.

ولأنه، أخيراً، في تلك الترجمة المضلِّلة لأهيمسا التي تحولت إلى نفي في الإنكليزية نرى سوء الفهم الأكثر أهمية للعنف، ذلك الحاجز العقلي الذي يحول دون امتلاكنا الإدراك بأنّ اللاعنف، مهما كان اسمه، هو قوة إيجابية تحمل الحل لمعظم مشاكلنا الرئيسية، الشخصية والاجتماعية والعالمية.

لقد واجه غاندي هذه العقبة منذ بداية عمله في جنوب أفريقيا. فعندما طرق سمعهم للمرة الأولى صيغته الجديدة المُربِكة للمقاومة، بحث غربيون وهنود غربيو التعليم عما هو مألوف جزئياً بالنسبة لهم ويمكنهم على الأقل المقارنة به؛ فافترضوا أنّ هذه الصيغة شبيهة بفرض الضريبة على الطوائف "المنشقّة" (غير الأنجليكانية) في إنكلترا، ومماثلة، على وجه الخصوص، لحركة حق الاقتراع للنساء التي كانت مثار دهشة في ذلك الوقت.[66] كما كانت هناك، أيضاً، أقلية تكافح من أجل حقوقها دون استخدام العنف الجسدي لكن، للأسف، توقّف التشابه هناك. وهذا التشابه السطحي كان من الممكن أن "يتسبّب في سوء فهم فظيع"، وكان غاندي يخشى، وهذا ما حصل لسخرية القدر، أن يقع صديق أوروبي مخلص للحركة في "سوء الفهم الفظيع" بطريقة لا يبقى فيها أمام غاندي من خيار سوى انتشاله.[67] ففي السنة المحورية 1906، عندما أظهرت المقاومة الهندية جَلَدها مما أقلق المستوطنين البيض، رتّب هذا الصديق، وهو ويليام هوسكينز، لقاءً مع أوروبيين بارزين لسماع ما كان يشغل الهنود، وفي ذلك اللقاء قدّم غاندي مع الملاحظات حسنة النيّة التالية: لقد لجأ الهنود في الترانسفال إلى المقاومة السلبية في حين أثبتت كل الوسائل الأخرى من أجل الإنصاف الآمن عدم جدواها... عددياً، هم قلّة فقط. وهم ضعفاء وعُزّل من السلاح، ولذلك اتخذوا سبيل المقاومة السلبية التي هي سلاح الضعفاء.[68]

يمكن لهذا الخطأ الكلاسيكي أن يُجفِل أي باحث لاعنفي معاصر لكنّ غاندي، عندما سمع ذلك، ألقى خطاباً رقيقاً كان قد هيّأه وناقض فيه صديقه حسن النية نقطة فنقطة. كان يرغب في أن يكون واضحاً قدر الإمكان أنّ الحركة الهندية مختلفة في النوع عن حركة المنادين بحق الاقتراع، وإن كانت كلتا القضيتين عادلتين ولم تعتمدا العنف الجسدي. فقد أوضح غاندي، أولاً، أنّ حركة حق الاقتراع لم تتوانَ عن استخدام القوة الجسدية في حين لم يكن للقوة العنيفة مكان مطلقاً في الحركة الهندية، وفي شتى الظروف، و... لا يهمّ كم كانت معاناتهم قاسية، فالساتياغراهيون لم يستخدموا القوة الجسدية على الإطلاق، رغم أنه كانت هناك مناسبات كانوا فيها في وضع يؤهّلهم لاستخدامها بفعالية. ثانياً، ورغم أن الهنود كانوا محرومين من أي حق دستوري وكانوا ضعفاء، لم يكن لهذه الاعتبارات أي أثر على تنظيم الساتياغراها.[69]

كما بوسعنا أن نرى، لقد ابتكر غاندي كلمة جديدة من أجل ما كان يقوم به، رغم ما يمكن أن يولده كلّ من تعبيري *اللاعنف* و*المقاومة السلبية* من سوء فهم. فالساتياغراها، أو "قوة الروح"، التي

---

[66] - Hunt, James D. *Gandhi and the Nonconformists*. New Delhi: Promilla, 1986, pp.54ff.
[67] - CWMG. 1999, Vol. 34, p. 94: originally *Satyagraha in South Africa*, p. 103.
[68] - Ibid.
[69] - Ibid.

استعملها غالباً، ليست نفياً مضاعفاً بل تعني، حرفياً، "التشبّث بالحقيقة". إنها ليست "سلاح الضعفاء"، كما اعتقد هوسكينز، بل هي سلاح الأقوياء لأنّ هناك نوع من القوة لا يُستَمَدّ من كثرة العدد أو من السلاح. ولصالح هذه القوة، التي يؤمن اللاعنفي أنها أعظم، تخلى *الساتياغراهيون* (ممارسو الساتياغراها) عن استخدام القوة الجسدية، بشكل طوعي وكمبدأ. وبعد العودة إلى الهند، لم يعد عدد المقاومين 13000 إنما أصبح 300 مليون تقريباً مقابل 150 ألف مستعمر بريطاني فقط. وظلّ الهنود يستخدمون الساتياغراها كخيار.

وحتى هذا اليوم، بعد قرن تقريباً من زلّة هوسكينز، نواصل تكرار نفس الزلّة، ولكن في غياب غاندي الذي لم يعد بوسعه أن يصحّحها لنا. فمؤخراً، أعلن صحفي مشهور أن المستوطنين الإسرائيليين في الخليل، الذين ربعهم تماماً مُدجّج بالسلاح ومتعصّب إيديولوجياً، يستخدمون "التكتيكات الغاندية: أي المقاومة السلبية".[70] لم يكن (هذا الصحفي) يعرف، ولن يعرف معظم قرّائه، أنّ اللاعنف والمقاومة السلبية يمكن فعلياً أن يكونا مختلفين بقدر اختلاف العنف واللاعنف. فالساتياغراها ليست سلبية وأنت ليس بوسعك أن تكون "غاندياً" حين تكون مليئاً بالكراهية حتى لو كنت . في هذه للّحظة . نازعاً إصبعك عن الزناد. ويمكن للمرء أن يسترسل في الاستشهاد بأمثلة عن مثل هذا التشوّش. و(هذه الأمثلة) مثيرة للسخرية حين لا تكون بالغة الضرر.

غالباً ما يكون من الأيسر رؤية هذا التشوش حين ننظر بمقياس أكبر؛ فمن المعروف والشائع إلى حدّ ما الآن أن السلام هو أكثر من غياب الحرب (مع أن هذا غير واضح لصانعي القرار ولمعظمنا). لقد ذكرتُ أنّه كان من المفترض أن تجلب اتفاقية دايتون السلام إلى يوغسلافيا السابقة لكنها أخفقت في التوجّه إلى المسبّب لحروبها . الكراهية الإثنية التي كانت تثيرها محطات التلفزيون الرسمية والسياسيون القوميون. واليوم، تُدعى حالة غياب الحرب هذه بحق بـ"السلام السلبي". وأحد أكثر الأمثلة وضوحاً، والذي نال تماماً ما يستحقه من سخرية من قبل المنظمات المناهضة للتسلح النووي، هو ما قدّمته، بكل جدّية، إدارة القوات البحرية التي اقترحت تعريف السلام بأنه تلك الحالة التي "تسبق العداوة المستمرة". فهل هذا هو السلام؟

كما أنّ من السخف أن نعتقد بأن اللاعنف هو مجرد غياب للعنف (الجسدي)، والتفكير بأن السلم هو مجرد استقطاع بين الحروب. فكلتا الحالتين هما كمحاولة فهم الضوء من خلال دراسة ظلّه. لقد حان الوقت للالتفات ورؤية الشيء بحدّ ذاته.

---

[70] - . Friedman, Robert. I. "An Unholy Rage," *New Yorker*, May 7, 1994, p. 54.
ما يعني أن ما يدعيه فريدمان مضلل أيضاً ومن منظور آخر: فأفعال المستوطنين التي يتحدث عنها هي رمزية فقط. كذلك ما جاء بالفصل الرابع، وهذا لا علاقة له بالعادية.

في الثمانينيات، كانت فكرة "الطبيعة حمراء السنّ والمخلب"[71] مُستحوذة على الخيال الشعبي. وقد خضتُ معركة شاقة محاولاً إظهار أنّ الصورة المقدَّمة من قبل بعض شعبوييّ علم السلوك الحيواني Ethology هي صورة خاطئة. بضعة علماء وفلاسفة فقط، مثل آشلي مونتاغو وماري ميجلي، كانوا يحاولون تصحيح ما أسمته ميجلي وجهة نظر "متفاخرة ومتهوّرة" بأنّ الطبيعة مكان عنيف وأنّ الكائن البشري دمية تحرّكها الطبيعة بخيوطها. وقد بدأ هذا الفهم في التغيّر؛ فحالما ظهر كتابي دعت منظمة اليونسكو إلى حلقة دراسية لبعضٍ من أبرز علماء السلوك في العالم لإصدار بيان عام بشأن نظرية العدوان الفطري هذه. وقد شهّر إعلان إشبيليا، غير المُعلَن لكن الحاسم، الصادر عام 1986، بوجهة النظر الشعبية التي كانت تقول بأنّ سلوكاً معقّداً مثل العدوان البشري يمكن أن يكون مُبرمَجاً من قبل جيناتنا، ولذلك نحن متمسكون به.

هذا القول لا يعني أن الاتجاه العام لسلوكية هؤلاء العلماء . ونحن هنا لا نذكر الجمهور . كان سيتخلى بسهولة عما قدّمه من صورة "متفاخرة ومتهوّرة". فالمدّ القوي للمذهب الكلبي Cynicism[72] في ثقافتنا الراهنة يجرّ الكثيرين منا إلى بحر من اليأس في الوقت الذي لدينا فيه فرصة للوقوف على أرض يابسة، لكن، وفي كل مكان، باشر بعض العلماء بتحويل ذلك المدّ.

في يوم من أيام عام 1975، وقبل حوالي عقد من ظهور إعلان إشبيليا، حقّق العالم البريماتولوجي primatologist[73] الهولندي فرانز وال اختراقاً نوعياً في مهنته في حديقة حيوانات آرنهيم. حين أدرك على نحو مفاجئ أن قرود الشمبانزي لديها نظام شامل للسلوك التصالحي . لم يسبق للعلماء أن أولوه الدراسة مطلقاً.

الحرائق تشتعل، لكن الحرائق تنطفئ أيضاً. حيث من الواضح أنّ العلماء الذين كانوا يهتمّون بالعدوان، كنوع من الحريق الاجتماعي، أهملوا كلياً الوسائل التي بوسعنا عن طريقها إطفاء نيران هذا العدوان. ونحن نعرف الكثير جداً عن أسباب السلوك العدواني للحيوانات وللبشر، بدءاً من الهرمونات ونشاط الدماغ وصولاً إلى التأثيرات الثقافية. ومع ذلك، لا نعرف إلا القليل عن سبل تفادي هذه النزاعات . أو، حين تحدث، كيف يكون من الممكن إصلاحها وتطبيعها بعدئذ. وكمحصلة، يميل الناس إلى الاعتقاد بأنّ العنف هو أكثر تكاملاً مع الطبيعة البشرية من السلام.[74]

---

[71] . عبارة تفيد في الإشارة إلى العالم الطبيعي العنيف الذي تتلطّخ فيه أسنان ومخالب الحيوانات المفترسة بدماء فرائسها. وقد ورد هذا الاقتباس في قصيدة مُطوَّلة للورد تينيسون (Memorium 1850). وفي القرن العشرين، استخدم الداروينيي ريتشارد داوكينز هذه العبارة في كتابه *الجينات الأنانية* لتلخيص سلوك جميع الكائنات الحية التي تنشأ من مبدأ البقاء للأصلح في البيولوجيا التطورية . المترجم.

[72] . المذهب الكلبي Cynicism: مجموعة فلسفية يونانية وُجِدَتْ بين عامَي 437 و370 ق م. وتستند أخلاقيات الكلبيين، بشكل عام، إلى رفض الأعراف الاجتماعية، التي يميّزون بدقة بينها وبين الطبيعة التي كانوا يدَّعون الرغبة في الرجوع إليها. من هنا، يمكن تفسير ازدراءهم الكبير للعلم وتأكيدهم بأن الخير الوحيد إنما هو الفضيلة . معابر: القاموس الفلسفي.

[73] . بريماتولوجيا Primatology: علم دراسة الحيوانات الرئيسات، وهي رتبة من الثدييات تشمل الإنسان والقرود . المترجم.

[74] - de Waal, Frans. *Peacemaking Among Primates*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1989, p. 1.

هذا الاكتشاف يبدو مألوفاً لكلّ من يدرس العنف البشري.

لذلك، وأيّاً كان النموذج الذي نستخدمه للتفكير بشأن الإمكانية البشرية، فإن ما نؤمن به حول أنفسنا سيميل بقوة لأن يتحقق. فعدم معرفة أن اللاعنف ممكن التحقيق، أو التفكير بأنه فقط مجال اختصاص بعض النشطاء المحتشدين عند حافة اجتماعية خشنة، يعني الاستسلام أمام العنف المتزايد باستمرار في ثقافتنا، ما يجعلنا محكومين بتحمّله بكل معانيه. ولمعرفة هل اللاعنف ممكن، لمعرفة أنه ليس نفياً لشيء إنما هو قوة متجذرة في الطبيعة وهناك أمثلة عنها في التاريخ، هو نقطة البدء لإعادة ثقافتنا إلى سياقها.

والقول بأنّ اللاعنف محتمل يعني أمرين اثنين، وكلاهما هام: الأول هو أننا نحمل اللاعنف في داخلنا، ما يعني "استعدادنا للساتياغراها"، حتى في ظروف بالغة الصعوبة، كما عبر عن ذلك الغانديون. والثاني هو أنه يعمل حين نتبناه، وهذا ما سأبيّنه ببعض التفصيل في الفصل الرابع. لكن دعوني أُبدي بعض الملاحظات التمهيدية حول كيفية تأثير اللاعنف على من هم حولنا . أو من هم ضدنا.

هناك تصريح لافت حول الساتياغراها عرُض للمرة الأولى وبكل وضوح في العصر الحديث، أثناء كفاح الهنود من أجل استعادة كرامتهم المنتهكة في جنوب أفريقيا، وهو لسكرتير الجنرال جان كريستيان سموتس، رئيس حكومة مقاطعة الترانسفال في جنوب أفريقيا، والخصم الرئيسي لغاندي في هذا الصراع. ويقدم لنا هذا التصريح لمحة لما يبدو وكأنه ساتياغراها فائقة النوعية يقوم بها نشطاء ملتزمون ومدرّبون بصورة جيدة.

"أنا لا أحبّ شعبك، ولا تهمّني مساعدته على الإطلاق. لكن ماذا عليّ أن أفعل؟ أنت تساعدنا في أوقات حاجتنا، فكيف يمكن أن نضغط عليك؟ أنا غالباً ما أتمنى أن تنجرّ إلى العنف مثلك مثل المضرِبين الإنكليز، حينها سنعرف في الحال كيف نسوّي الأمر معك. لكنك لا تؤذي حتى العدو. فأنت ترغب في إحراز النصر عن طريق معاناتك الذاتية وحدها... وهذا ما يضعنا في وضع عجز مطلق."[75]

وكما تقول ميجلي: يجب أن تكون الطبيعة خضراء لفترة طويلة قبل أن تصبح حمراء. فإذا قرأنا بين سطور هذه الشهادة (وهناك أمور مماثلة مدوّنة عن الغزو الفرنسي البلجيكي لراينلاند، بعد حوالي عشرين سنة، كما عن أحداث أخرى). ونشعر هنا بدافع إلى العمل يمكننا أن نسميه بالدافع لشيء عميق، وربما غير مرئي بشكل عادي، في الطبيعة البشرية. وتفسير غاندي الخاص لقوة مثل هذه الدعوة يشكّل، من وجهة نظري، أحد أكثر الأوصاف تبصّراً والتي قُدِّمت للاعنف على الإطلاق.

إنّ ما تفعله الساتياغراها، في مثل هذه الحالات، ليس قمعاً للعقل بل تحريرٌ له من العطالة، وتأسيسٌ لسيادته متجاوزاً الإجحاف والكراهية والعواطف الوضيعة الأخرى. وبكلمات أخرى، إذا كان بوسعنا أن نعبّر بشكل مُفارِق، إنها لا تستعبد العقل بل ترغمه على أن يكون حراً.[76]

---

[75] - CWMG, Vol. 34, p. 267.

[76] - Pyarelal. The Epic Fast. Ahmedabad: Navajivan, 1932, p. 35.

في الحديث عن النموذج التربوي، سيقول لك أي معلم إنّ هذا هو نوع التعليم الذي نحلم به، حيث لا يتعلم الطالب فقط بعض الحقائق بل يصحو على إدراك جديد. إنها تجربة نمو أكثر مما هو مجرّد اكتساب للمعرفة، وبعد هذا النوع من التعليم لن يعود المرء إلى النوم من جديد.

لا بل أكثر من هذا، فمنذ صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب (2001)، تراكمت شواهد علمية "صارمة" تظهر أنّ "الإلزام" الذي يدّعيه غاندي للساتياغراها هو، أو له، واقع فيزيولوجي. وباستخدام تقنيات جديدة غير تداخلية، يعرف العلماء الآن أنّ هناك "خلايا عصبية عاكسة" خاصة في كلٍّ منا تستجيب على الفور للحركة . والعاطفة . التي نراها عند الشخص الآخر. وكمثال آخر، حين يمكننا أن ننظر إلى الآخر كفرد بحدّ ذاته بدلاً من كونه عضواً منتمياً إلى عرق، تكون لدينا استجابات مختلفة (صحيّة أكثر) لعمق ذلك الشخص في أعماق دماغنا.[77]

فيما مضى، كان لي صديق اسمه بيل يدخّن ثلاث علب سجائر في اليوم. ومع معرفته الواعية لتأثير التدخين على صحته، استمر في ذلك على نحو ما. وقد حاول عدة مرات الإقلاع عن التدخين لكنه لم يفلح. وذات ليلة راوده حلم رأى فيه أنه كان يجتاز فناء كنيسة، وفيما كانت عيناه في الحلم تطوفان على شواهد القبور، استرعى انتباهه نقش على ضريح، فوجد نفسه يكبّره:

هنا يرقد بيل

الذي أقلع أخيراً عن التدخين

ولم يُشعل من يومها سيجارة على الإطلاق.

أُسلِّم بأن حادثة لاعنفية ناجحة تفعل على هذا المستوى اللاشعوري أيضاً. فعلى نحو مفاجئ، ورغماً عنهم تقريباً . كما يلمح غاندي، ويعترف السكرتير سميث . سُمح للجنود السلفادوريين بـ"رؤية" مارسيلا، ليس كشيء مربوط إلى كرسي، ليس كـ"ضحية"، بل كشخص، بفضل اهتمام كارين الفائق بها، ما خلق صلة رائعة بين همّها الخاص وبين شعورهم الرفاقي تجاه بعضهم البعض . رفاقيتهم. فشجاعتها ومحبتها وافتراضها أنهما أيضاً كائنان بشريان لهما نفس المشاعر حول الجنود عمل على إيقاظهم.

هذا النوع من الصحوة، هذه الإعادة للأنسنة، هو أكثر أنواع التعليم رُقيّاً، وهو النوع الذي يسعى إليه الفاعلون اللاعنفيون. وكما سنرى من الأمثلة التالية، فإنّ اللاعنف تجربة كلية للوجود لها تأثير بعيد المدى أقوى بكثير من تلك التأثيرات المُكتسَبة . أو المُكتسَبة أحياناً . عن طريق قوة التهديد.

لا بد لأي فعل إكراه من أن ينتج ردّ فعل مكافئ ومعاكس. وكما لاحظت حنة آرندت: "مثل أيّ عمل آخر، تغير ممارسة العنف العالم، لكن التغيير الأكثر احتمالاً هو نحو عالم أكثر عنفاً".[78]

---

[77] . وينرمان، لي: "مرآة العقل"، *مراقب علم النفس* 36,9 (2005): 49 . 50؛ م. ويلر و س. فيسك: "ضبط التحيّز العرقي" *العلم النفسي* 1:16 (2005)، 56 . 63.

[78]- Arendt, Hannah. On Violence. New York: Harcourt, Brace & World, 1969, p. 80.

وعلى العكس، نادراً ما يكون للاعنف الحقيقي حركة ارتجاعية لأنه، إذا كان لاعنفاً حقيقياً، لا يعمل عن طريق الإكراه – إنه يعمل عن طريق الإقناع، وفي غالب الأحيان من خلال نوع من الإقناع العميق يحرك الناس إلى ما دون مستوى الوعي. فـ"إرغام العقل على التحرر"، أو كما صاغه غاندي في موضع آخر، "تحريك القلب"، يختلف نوعياً عن إجبار الآخرين فحسب على القيام بشيء ما عن طريق العقاب أو الردع. وبما أن العناصر المعترضة قد تغيرت طوعياً، فإنها لن تبحث عن فرصة للعودة إلينا. لأنه عندما تفعل الساتياغراها، فإنها لا تغير فقط موقف طرف واحد، إنما تغير العلاقة بين الأطراف. فحالما "رأى" أولئك المعارضون لنا فيما مضى الموقف من وجهة نظرنا، انتقلوا إلى موقع أقرب منا روحياً. هذه هي القوة التكاملية، وهي على ما يبدو ليست قوة عادية لأن شجاعة كارين فعلت ما لم تكن حكومة كولومبيا مجتمعة قادرة أو راغبة في فعله. ذلك مقدار كبير من القوة! شيء ما يصحو في كارين ريد أو غاندي . أو فيك أنت أو فيّ أنا . وسيغير الناس. إنه ليس بالشيء الذي نتعلمه عن طريق فكرنا (رغم أن الفكر يمكن أن يساعدنا لاحقاً على فهمه) بل بمعرفة القلب. وأحد خصائصه أنه يُبلِّغ عن نفسه على "المستوى الباطني" نفسه للمراقبين.

باشر [مارتن لوثر] كينغ عمله مركّزاً بشكل أساسي على القناعة الدينية الأساسية التي تقول إنّ في قلب كل كائن بشري، سواء كان أبيضَ أم أسود، أم نائبَ مدير اشرطة أم عاملاً يدوياً أم حاكماً، وإن بشكل واهن، نوعاً من التماهي الطبيعي مع باقي الكائنات، ذلك أنه في قلب التصميم الشامل للكون، الذي يربطنا ببعضنا بعضاً في آخر المطاف، نميل إلى الشعور بأنّ ما يصيب أندادنا البشر يصيبنا نحن أيضاً بطريقة ما، لذلك لا يمكن لإنسان أن يحطّ من قدر كائن بشري آخر، أو أن يسيء إليه، دون أن يشعر في النهاية، في نفسه على الأقل، ببعض الأذى المُطابِق غير الواضح والاضطراب المُخزي. لذلك، خلال تطهير مواجهة حياتية من الخطأ، وعندما نُقابل عنف المضطهِد بمحبة متسامحة، فمن الممكن أن تتأثر حياته، وأن يتجدّد، مؤقتاً على الأقل، ككائن بشري، في حين أن المجتمع الذي يشهد مثل هذه المواجهة سرعان ما سوف يعي للرحمة وللعدالة.[79]

إعادة النظر في التاريخ وفي العلم

لقد بدأنا الآن برؤية بعضٍ من المعاني المُتضمَّنة في النموذج التربوي كمقاربة لخيار من أجل تخفيض العنف . ومن يدري، ربما إزالته في يوم من الأيام؛ فعبر هذا النموذج نمسك بسهولة بالحقيقة الرئيسية التي تقول إنّ اللاعنف أساساً نوعٌ من القوة. وقد استخدم غاندي، على الأقل، هذا النوع من اللغة في فترته الأولى.

[79]- Frady, Marshall, "The Outsider, II," *New Yorker*, March 10, 1992, p. 70.

وللقوة نوعان: أحدهما يُكتسَب عن طريق الخوف من العقاب، والآخر عن طريق أفعال المحبة. والقوة المستندة إلى المحبة أكثر فعالية وديمومة بآلاف المرات من القوة المستمدّة من الخوف من العقاب.[80]

أو مرة ثانية، العقوبات على نوعين: واحدة كقوة جسدية، والثانية كقوة روحية . ساتياغراها. ولا يمكن مقارنة القوة الجسدية بقوة الحقيقة.[81]

واليوم يتعلّم العلم بذاته التحدث بلغة أخرى، لأنّ هناك شعوراً بأنّ الاكتشافات المذهلة لـ"الفيزياء الحديثة" تتضمن فهماً لما نعتقده العالم، أعمق من أي اختراق مفاهيمي في التاريخ المُدوَّن، وانعكاساته على مجالات تتجاوز العالم الفيزيائي محيرة، وما زالت بعيدة عن الفهم. (أحد هذه الاختراقات الرئيسية كان بالضبط إحداث ثغرة في الحاجز بين العالم المادي والعوالم الأخرى). وفيما كانت هذه اللغة الجديدة تشقّ طريقها ببطء من عقول الفيزيائيين إلى العالم بشكل عام، كانت تعطينا مفردات جديدة وواعدة لوصف طبيعة وفعالية اللاعنف، والذي كان عصيّاً على التفسير نوعاً ما في اللغة "الصارمة" للمُدرَكات النيوتونية.[82] والباحث الشهير في علم الجريمة هارولد بيبينسكي كان من بين الذين استفادوا من المفردات الجديدة الأكثر فاعلية (فحيثما قال: ردّ فعل، أقول: لاعنف).

العنف وردّ الفعل يعملان وفق المبادئ نفسها وعلى كافة المستويات، من الشخصي إلى الدولي. فكل كائن بشري... هو في الوقت نفسه فاعل وموضوع كلتا الطاقتين العنيفة والمستجيبة. والتيارات المتعارضة للعنف والاستجابية تسري بثبات في كلّ منا، وتفيد في تفسير الانحراف والسلوك اللامتوقَّع على أي مستوى كان.[83]

على أية حال نحن نسمّي هذه القوى، وككائنات بشرية نختبرها كخيار عميق بالغ البساطة . هنا يستخدم بيبينسكي لغة أكثر تقليدية: "من لحظة إلى لحظة، يكون الخيار دينياً على نحو عميق سواء التزامنا بالعنف أم بالديمقراطية".[84]

وسواء استخدمنا تعابير علمية أم دينية، فإن بصيرة بيبينسكي تُظهِر أمراً غريباً تماماً: لماذا نحن عادة غافلون إلى هذا الحدّ عن اللاعنف؟ إن كان واقع كل لحظة، ألا يجب أن نتحدث عنه بشكل مُقنِع وفي أحوال كثيرة؟ ألا يجب أن يتجوّل في التاريخ وعلناً، وسط أحداث أخرى؟

يبدو، أحياناً، أننا أفضل في إدراك ما هو ليس واقع كل لحظة، بالضبط كما تصعب "رؤية" درب التبانة لأننا جزء منه، وتصعب رؤية الأشياء التي في الأعمال الخشبية عوضاً عن الجلوس إلى الطاولة. لقد ناقش اليونانيون القدامى، وكانوا أكثر الناس فضولاً، بتفصيل تام، كيفية شنّ حرب، وكيفية إخضاع

---

[80]- . These two quotes respectively from CWMG, Vol. 30, pp. 66f and
[81] - Vol. 9, p. 392.
[82]- See chapter 8 for more on this strange similarity between “new” physics and nonviolence.
[83]- These two quotes from Pepinsky, Harold E. *The Geometry of Violence and Democracy*. Bloomington, IN: Indiana University Press, 1991, pp. 44
[84] - Ibid., 127.

العبيد، لكنهم لم يناقشوا قط الحرب أو العبودية بحدّ ذاتها، أو المسائل المتعلقة بالاقتصاد، أو مكانة المرأة. لذا بالكاد يبدأ تاريخ اللاعنف أن يكون مُدوَّناً، ولايزال علم السلوك القياسي لا يأخذه بنظر الاعتبار. كان هذا إحباطاً كبيراً لغاندي؛ فعندما كتب بيان 1909 الكلاسيكي، Hindo Swaraj، أو "الحكم الذاتي للهند"، كان يعرف أنه يثور ضد ما هو أكثر من إمبراطورية؛ شيء ليس أقلّ مما سندعوه اليوم نموذجاً غير ملائم. و"التاريخ" كما نعرفه لم يكن قادراً، من الناحية الشرعية، على المساعدة.

فواقع أنه ما زال هناك الكثير جداً من الأحياء في العالم يؤكد أنه ليس قائماً على قوة السلاح بل على قوة الحقيقة أو المحبة... والنزاعات الصغيرة لملايين العائلات في حياتهم اليومية تختفي قبل ممارسة هذه القوة. مئات الأمم تعيش بسلام، والتاريخ لم يلحظ وليس بوسعه أن يلحظ هذه الحقيقة. التاريخ هو حقاً سجل معوّقات العمل المُطرَد لقوة المحبة أو الروح... التاريخ، إذاً، سجل لمعوّقات مجرى الطبيعة. وقوة الروح، لأنها طبيعية، لم تُلحَظ في التاريخ.[85]

تلك كلمات رزينة، وكل من حاول الحصول على مراجع صحفية لتغطية حدث لاعنفي يعرف أنها صادقة. ففي جنوب شرق أوروبا، ولسوء الحظ كما في كل مكان في العالم، بالكاد تكون أفعال اللاعنف والعمل الطوعي من أجل المجتمع معروفة للجمهور الواسع. وبالنتيجة، ينمو عدم التآلف مع اللاعنف كما تنمو عند الشباب فكرة لا جدوى هذه النشاطات، مما يدفع هؤلاء الصُنّاع المحتملين للتغيير إلى مزيد من السلبية.

إبان الستينيات، أُعيقت في جامعة كولومبيا مظاهرة طلابية استمرت يوماً كاملاً لمدة دقيقة بسبب مشاجرات من نوع ما، تسبّب فيها على الأرجح غرباء أو ربما استفزازيون. وعلى شبكة الأخبار في ذلك المساء، خُصِّصت دقيقة واحدة بالضبط للحديث عن مظاهرة الطلاب هذه. ولَكَ أن تُخمِّن أية دقيقة؟ من العام 1909 إلى العام 1969، لم يتغير شيء. فقط فارق طفيف في سياتل في العام 1999. وأتساءل في الوقت نفسه، كم من البشر ماتوا نتيجة العنف العبثي؟

أجل، تتكتّم وسائل الإعلام أحياناً على قصص الفساد في المناصب الرسمية العليا، وذلك لانحياز سياسي. لكن هناك انحياز ثقافي يجري على نحو أعمق وقد يصيبنا بضرر أكبر بكثير. وهذا الانحياز الثقافي نموذج يعانق كل مظاهر المعرفة الإنسانية، ويشبه العناق بيد واحدة فقط.

منذ بضع سنين، وبينما كنت أعمل عميداً في الجامعة، تلقّيت اتصالاً من طالب دراسات عليا كان يبحث عن بعض الأدلّة حول العدوانية في وسط القرود. أنا لست عالِماً، لكنني كنتُ معروفاً في محيطي الجامعي باهتمامي بهذا المجال، وكان الطالب قد أُرسِل إليّ من قبل أحد أفضل علماء السلوك في بيركلي. كان هناك شيء ما غريب في محادثتنا، وقد صُدِمتُ حين أدركتُ ما هو: لم تكن لديه أية فكرة ولو ضبابية عن أنّ نظرية العدوان الفطري كانت موضع جدل. لقد افترض . تبعاً لناصحيه الذين

[85] - Gandhi, M. K. *Hind Swaraj, or Indian Home Rule*. Ahmedabad, Navajivan, 1938, p. 70.

قادوه إلى هذا الافتراض . أنّ أبناء عمومتنا القرود يتصرفون بعدوانية فجّة وتنافس وصراع غالب أو مغلوب، رغم أنّ الطبيعة، كما لاحظ غاندي، لو أنها أُعدَّت للعمل بهذه الطريقة لما استمرت فترة طويلة جداً. وكما قال فرانس دي وال: أتحدث عن سنوات من الإحباط بالنسبة لما كتب حول السلوك البشري... فما عدا تقارير حول أطفال في سن ما قبل المدرسة [كما رأينا في الفصل الأخير] وتعليل أنثروبولوجي عَرَضي، ليست لدي أية معطيات في هذا المجال... لقد سألتُ مؤخراً عالمَ نفس أمريكي مشهور، متخصّص في العدوانية البشرية، عمّا يعرفه عن المصالحة؛ فوجدت أن ليس فقط لم تكن لديه أية معلومات حول الموضوع، بل نظر إليّ كما لو أنّ الكلمة كانت جديدة على مسامعه.[86]

آثار المستقبل

بعد بضع سنوات على صلب السيد المسيح، وبدقة في العام 39 للميلاد، استحوذت فكرة جنونية على الإمبراطور كاليغولا بإشادة تمثال لنفسه كزيوس المجسّد ليُنصَب في المعبد الكبير في أورشليم (القدس). بالنسبة لكاليغولا، الذي لم يكن يعتبر إفراطه في المسعى الغروري نقيصة، لا بدّ أنّ هذه الفكرة بدت رائعة، لكن إفراطه هذه المرة كاد أن ينفجر في وجه الإمبراطورية. وبينما كان مندوبه السوري، بيترونيوس، يتقدّم باتجاه القدس لتنفيذ هذا الأمر الكارثي، بدأ الناس من كل الأصناف والمواقع يتدفقون . رجالاً ونساء وأطفالاً . من المدن والقرى والمزارع من جميع أنحاء منطقة الجليل الغربية إلى العاصمة للتجمع لمواجهة الخطر. قدِموا عُزّلاً من السلاح، وكان بعضهم يرفع رموز ولاء للإمبراطور، لكنهم أخبروا بيترونيوس بعبارات غير محدَّدة أنّ تدنيس المقدسات لا يمكن السماح به. طبعاً، هدّد بيترونيوس بإطلاق العنان لقواته ضدهم؛ فردّوا بأنهم على استعداد للموت بدلاً من رؤية مثل هذا الإساءة لدينهم.[87]

لم يكن بيترونيوس صديقاً خاصاً لليهود لكنه أُصيب بالارتباك حول كيفية التعامل مع هذه المقاومة غير المسلحة، وعجز عن إقناعهم، لكنه كان نافراً من ارتكاب مجزرة جماعية (وهو ما كان قد قام به بحماس مندوبين آخرين ضد انتفاضات عنيفة)، فتراجع وخاطر بالكتابة إلى روما مفتعِلاً بعض الأعذار لتأجيل المخطط الضئيل الأهمية للإمبراطور. لكن كاليغولا، المُتمسِّك بالشكليات، أرسل أوامره بإعدام بيترونيوس على الفور، إلا أنّ القدر تدخّل عند هذا الحدّ، حيث اغتيل كاليغولا مما أنقذ حياة بيترونيوس وصان الدين اليهودي في موطنه لبعض الوقت.

---

[86] - .(المرجع المذكور، ص 233)

[87] - CROSSAN, JOHN DOMINIC. *THE HISTORICAL JESUS: THE LIFE OF A MEDITERRANEAN JEWISH PEASANT*. SAN FRANCISCO: HARPER COLLINS, 1991, PP. 130-132.

لم تكن هذه الساتياغراها، التي أخذت بيترونيوس على حين غَرَّة، حدثاً منعزلاً؛ فقد كان هناك، على ما يبدو، في الثقافة اليهودية في تلك الفترة ما يستحضر مثل هذا الردّ من قِبل الجموع، مع أنّ النوع "الطبيعي" للمقاومة، الذي كان لا يزال المقاومة العنفية، كان وارداً، كما نعرف جيداً وكطريق أخير للخيار، مع كل نتائجه الكارثية. كان المسيح بلا ريب في الجانب اللاعنفي إلى حدّ أن تعاليمه تركت أثراً على كل أشكال العمل الاجتماعي. وعلى أية حال، يجد الباحث جون كروسان ليس أقل من سبعة انتفاضات شعبية من هذا النوع المختلف ما بين الأعوام 4 . 65 ميلادي، ويذكر أنها "جميعها... كانت لاعنفية، وأنّ جميعها كانت لها أهداف معينة تماماً، وأن أربعة من تلك السبعة حقّقت أهدافها دون خسائر في الأرواح".[88]

ذلك هو التاريخ الآن. فإذا كان اللاعنف قانوناً، كما ندّعي، ينبغي أن يكون قد ترك آثاراً في مجمل السجلات التاريخية. ونجد . الآن وقد بدأ الانحياز للعنف بالتراخي . أنه قد ترك ذلك الأثر. فتاريخه، ذلك الذي كان أكثر نسياناً وأكثر تغاضياً عنه حتى من تاريخ الحركة النسائية التي ترتبط به بشتى طرق ، بدأ يستعيد عافيته. ولم يُنجز هذا العمل الحيوي فقط من قبل مؤرخي اللاعنف بحد ذاتهم، وهنا يمكننا الإقرار بدَيننا لبيتر بروك وتوماس فيبر وستاوتون وأليس ليند من بين آخرين، بل من قبل مؤرخي الاتجاه السائد مثل جون كروسان الذي بدأ في إظهار تحسّسٍ أعظم للدور الذي لعبه اللاعنف المُنظَّم في مجرى الأحداث الإنسانية، وهذا أمر جوهري. فلابد لهدفنا من أن يرفع اللاعنف من الحقل المُتخصِّص البالغ في الصغر الذي يشغله الآن ويُظهِر أنه لا يهم النشطاء والمضطهَدين فقط، بل يهمّ كل الناس. إنه تراثنا، ويستطيع *كلٌّ* منا أن يستخدمه. وإذا كنا لا نريد تخفيض نوع معين من الجريمة فحسب أو حماية بعض الضحايا المعينين، إن لم نقل إبعاد *العنف* عن طريقنا، فمن المحتمل أنّ اللاعنف هو الأمر الوحيد الذي بوسعنا استخدامه.

إذا وضعنا ساتياغراها تمثال المعبد إلى جانب فعل كارين ريد الأصغر بكثير والذي بدأنا به (أصغر من ناحية عدد الناس المشاركين فيه)، نرى أن القوة الدافعة ذاتها تكمن وراء كلٍّ منهما، ويمكننا أن نفهم السبب الذي جعل الكثيرين لا يترددون في دعوة تلك القوة بالمحبة . المعنى هنا ليس العاطفة التي عادة ما ندعوها بذلك الاسم، بل التفاني المُضحّي بالنفس كما فعلت كارين من أجل صديقتها (وقضيتها)، والذي كان قوياً إلى درجة أنه تغلّب على خوفها على حياتها، بالضبط كما هي محبة الحشود اليهودية لدينها وثقافتها مما جعلها تضع حياتها، دونما تردد، تحت رحمة سيوف الرومان. إنّ هذه القوة، والتي تبدو المحبة تعبيراً صائباً عنها، كانت موجودة دوماً في الوعي الإنساني. ولسوء الحظ، وخصوصاً في أزمنة مثل زماننا، نجد صعوبة كبيرة في إخراج تلك القوة إلى السطح، لكن هذا يتغير.

---

[88] - IBID., 136. SEE ALSO Akers, Keith. *The Lost Religion of Jesus: Simple Living and Nonviolence in Early Christianity*. New York: Lantern Books, 2000.

لقد لاحظ غاندي ذات مرة أن الوحيدين الذين لا يأبهون لكون يسوع لاعنفي هم المسيحيون.

اللاعنف قانون، وليس ضربة حظ. والساتياغراها ليست مصيبة حيناً ومخطئة حيناً آخر. هناك بلا شك، كما يقول بيبيسكي، عناصر "انحراف" ونتائج مفاجئة عندما نتعامل مع أمر مُرهَف كـ"قوة الحياة" (كما دعاها غاندي)، لكنّ هذا لا يعني أنه ليس بوسعنا أن نتعلّم أكثر عن تلك القوة، وأن نبدأ باستخدامها على نحو أكثر تنظيماً. فكون الكومبيوتر يُخفق، لأسباب معروفة له وحده، فهذا لا يعني أنه ليس هناك شيء كالطاقة الكهرومغناطيسية، أو أننا لن ننجح أبداً في إعادته للعمل. ورغم أننا لا نستطيع دائماً التنبؤ، بدقة، بكيفية ظهور التدخل اللاعنفي إلى السطح المرئي للأشياء، ما زال بوسعنا تنمية اللاعنف كقوة من قوى الطبيعة. وفي الحقيقة، اللاعنف قوة من قوى الطبيعة . اتفق فقط أن يكون قوة من قوى الطبيعة البشرية، والتي هي النوع الأكثر مخادعة. فنحن، ككائنات بشرية، وكما يقول الكاتب العلمي لويس يونغ، "مُعقَّدون، سريعو التأثر، تسهل قولبتنا". لكنّ، نكرّر، هذا لا يعني أنه ليست هناك قوانين تحكم سلوكنا، أو أنّ هذه القوانين سلبية فحسب.

الرسالة التي تصلنا من جزيرة القيامة هي أن سبيل العنف يُفرِّخ عنفاً أكثر؛ فارتكاب الأعمال الوحشية يصبح أسهل على نحو متصاعد عندما يعزَّز بالتراث ويُدعَم بالتقاليد. ومن جهة أخرى، يمكن لأفعال الشفقة والرحمة أن تُعزَّز في مجتمع متمدّن. الطبيعة البشرية معقَّدة، سريعة التأثر، وسهلة القولبة، ومُؤهَّلة لكلٍّ من الخير والشر، ويمكن أن تتأثر بتجارب الحياة. وإنّ تربية قائمة على العنف تكشف النقاب عن الوحش في الطبيعة البشرية.[89]

أما التربية القائمة على *اللا*–عنف؟ فيسرّنا استكشافها الآن ومباشرة.

[89] - Young, Louise B. "Easter Island: Scary Parable." *World Monitor*, August 1991, p. 45.

الفصل الثالث

ما مِن قوة تَصِفها "اللحظة اللاعنفية"
باعتبارها تجربة بالغة الذروة.

"إما أن أكبح غضبي، وسيدفعني ذلك إلى الجنون... أو أن أستسلم له، وهذا يعني دخولي السجن" – فرانكلين سميث، مراهق أمريكي

عندما كان معلمي الروحي لا يزال يعيش في الهند، على تلال نيلغيري، كان لديه صديق يشبهه تماماً في الرحمة والطبيعة الحسّاسة والمشاعر الدفّاقة تجاه العدالة والإنصاف. وذات يوم كان الاثنان يقطعان السوق فالتقيا مصادفة بقروي معه دبّ في قفص. كان القفص صغيراً جداً إلى حدّ أنّ الحيوان المسكين بالكاد كان بوسعه أن يستدير في داخله؛ فبدا الاستهجان واضحاً على ملامح سري إيسوورن وصديقه، وابتعدا صامتين. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، ذهب إيسوورن لدعوة صديقه فوجده يرتعد غضباً، وانفجر قائلاً: "سأذهب حاملاً بندقيتي إلى السوق، وأُحرِّر ذلك الدب، وسأطلق النار على كل من يحاول إيقافي".

قال إيسوورن بعجلة: "تماسك قليلاً ودعني أرى ما بوسعي عمله".

ذهب، أولاً، إلى مالك الدب لكي يحاول التفاهم معه؛ فوجد أن الرجل مجرد قروي بسيط من ولايته كيرالا نفسها، لذلك لم يكن من الصعب طرق الموضوع بعد دردشة قصيرة بلغتهم الأصلية:

– "انظر، ألا تعتقد أن هذا المخلوق يعاني في مثل هذا القفص الصغير؟".

– "وهل تعتقد أنني راغب في إبقائه حبيساً في مثل هذا الوضع؟ لكن ما الذي يمكنني أن أفعله؟ سيكلفني قفص جديد أكثر من مدخول شهر".

– "هل أنت مستعد لاستعمال قفص لائق إذا تمكنت من الحصول على واحد؟".

– "طبعاً".

وكانت المحطة التالية هي النجار المحلي. ولحسن الحظ كان الرجل من كيرالا أيضاً؛ فشرح له إيسوورن الوضع ومن ثم دخل في صُلب الموضوع: – "أعطني أخفض سعر لديك من أجل قفص جديد".

– "أيها الأخ، لديّ عائلة عليّ إطعامها، لكن من أجلك...".

ثم عاد إلى صديقه الغاضب: – "افترض أننا استطعنا الحصول على قفص أفضل مقابل بعض الروبيات ووافق مالك الدب على استخدامه، فهل ستدفع النقود؟"

– "بسرور... لكنّ المالك لن يوافق أبداً".

– "لقد وافق للتو".

لقد كان إيسوورن غاضباً بقدر غضب صديقه لمرأى معاناة الحيوان الأبكم. ومن المهم إدراك ذلك، لكن المهم بالقدر نفسه هو الاختلاف الرئيسي في طريقة فهم الموضوع. لقد رأى أحدهما طريقاً للحلّ فالتقطه على عجل، في حين أن الثاني كان مُعلَّقاً بين الخيارات التي نحن جميعاً متآلفون معها، المعضلة التي دعاها المراهق فرانكلين سميث "العيش مجنوناً أو الموت سليم العقل". ولذا استشاط غضباً، بينما بدأ سري إيسوورن في تسطير نهاية سعيدة للدب ولصديقه وللنجار وللمالك . ومن أجله هو نفسه بلا ريب.

حدث بسيط فحسب، إن شئتَ النظر إليه بهذه الطريقة. لكن بوسعك أيضاً النظر إليه كحكاية رمزية ذات بعد أخلاقي. كم من الأزمات تواجه الحكومة الأمريكية سنوياً والتي تردّ عليها إما بعنف أو بتراخٍ وإما بفرض عقوبات أو بما هو أسوأ كما هو الحال مع العراق، أو بالهياج العاجز كما هو الحال مع البوسنة وتيمور الشرقية والتيبت؟

إنها جميعاً تُذكِّر بنوعَي الطلاب . أو بالأحرى نوعَي التدريب اللذين خضع لهما الطلاب . في اختبار دافيتز. فاللاعنفيون ليسوا أناساً لا ينتابهم الغضب بل، على العكس، بوسعهم غالباً تقييم الغضب (على الأقل، نوع الغضب الذي أحسّ به إيسوورن وصديقه)، أولاً لأن تلك القدرة على التعاطف مع الآخرين، والتي تعني أحياناً الغضب لما يحدث لهم، هي من الأمور التي تجعلنا بشراً على نحو كامل. وثانياً، والأكثر أهمية، ذلك الغضب هو بصورة كامنة القوة ذاتها التي نحتاجها لتصحيح الوضع لأننا، على ضوء اختبار دافيتز، لا يمكننا القول إنّ إيسوورن فعل ما فعله على الرغم من غضبه؛ لقد فعله من جرّاء غضبه. فبعدم استسلامه لاندفاعه الغاضب لفعل شيء ما لمالك الدب بحث بدلاً عن ذلك عن طريقة بنّاءة لمساعدة الدب ومالكه، وحوّل الطاقة، التي كان يحسّها كغضب بشكل غير واعٍ، إلى جهد بنّاء. العواطف قوة لكنها لوحدها ليست حكمة بالضرورة؛ فالحكمة تكمن في اختياره، في قطع الطريق على المسلك التدميري، ومن ثم انفتاحه على طريق مُبدِع.

كانت هذه "الدبلوماسية المكوكية" المرتجلة فعلياً، حين تفكّر بشأنها، حلاً واضحاً بكل معنى الكلمة. والمشكلة هي أننا عندما نغضب لا يستطيع معظمنا التفكير بشأن الغضب. فقط عندما نُحفَّز للقيام بعمل ما نفقد بصيرة فعل ما هو واضح؛ فكما يقول المَثَل القديم: "الغضب ريح تنفخ على مصباح العقل" . ما لم يكن عقلنا يقظاً بما فيه الكفاية لتوجيه أشرعته نحو مجرى أفضل.

إن كنت لا تزال تفكر بأنّ هذا كان عملاً صغيراً، فعُدْ بالتفكير إلى حدثٍ له الدينامية نفسها، لكنه غيّر مسار التاريخ. وأفكر بالغضب الذي اختبره غاندي في ليلة 31 أيار 1893 المشؤومة، عندما طرد من القطار في بيترماريتزبرغ بعد أسبوع على وصوله إلى جنوب أفريقيا. لم يُولِّد هذا سُخطاً قليلاً؛ فطبقاً لشهادته نفسه، كان غاندي يغلي من الغيظ. وهذا، مترافقاً مع حقيقة أن غاندي كان أكثر من واضح بخصوص تجاربه الداخلية، هو الذي جعل من هذا الحدث (من بين ملايين الإهانات المشابهة التي تتحمّلها الكائنات البشرية من بعضها البعض) نافذة ذات مغزى تمكننا من فهم دينامية التحويل

اللاعنفي. كانت الفكرة الأولى ذات العلاقة بكيفية نجاحه، وبعد ليلة من التفكير المرير الذي مكّنه من رؤية الطريق الخلاق، هي أنه لم يأخذ الإهانة على محمل شخصي، وإنما رأى فيها كامل مأساة وحشية الإنسان تجاه الإنسان، وكامل الإساءة العنصرية. لا، "لا يمكنهم أن يفعلوا هذا معي"، لكن "كيف يمكن أن نفعله بشخص آخر؟". وكانت الفكرة الثانية هي حالة إيمانه ذات العلاقة بالطبيعة الإنسانية. ففي تلك الفترة كان يعتقد أنه لا يمكن للناس أن يبقوا مُغمضي العيون تجاه الحقيقة إلى الأبد، ولم يكن يعرف كيف يمكن إيقاظهم؛ كان يعرف فقط أنه ليس بوسعهم البقاء نياماً إلى الأبد. وكان هذا هو المدى الذي جعله قادراً على إيجاد طريق ثالث عدا أن يُولي الأدبار إلى موطنه الهند أو أن يقاضي شركة السكك الحديدية.

تصوَّر قاطرة قديمة الطراز تحمل هذا "المحامي الذي كانت تعوزه البراعة" من ديربان في أعالي الجبال إلى بريتوريا، قاطرة تتوقف في محطة بيترماريتزبرغ ويصدر عن مقدمتها بخار كثيف. بوسعك أن تضع المزيد من الفحم فيها وأن تحصر كل تلك القوة وتزعم أنها ليست موجودة، إلى أن تنفجر أخيراً. أو بوسعك فتح الصمامات فحسب وتسمط كل من هو على الرصيف، لكن المؤكد أنك تريد استخدام هذه القوة لقيادة القطار. وهذا ما كان غاندي يكابده بكل القوة العاطفية المُتصاعدة تدريجياً في داخله عبر الإهانات المتراكمة التي لقيها منذ وصوله إلى رصيف ديربان. وقد اختار أن لا "يسكت على الإهانة"، كما قال، وأن لا يجلد المصدر المباشر للألم. فأطلق ما أصبح التجربة الأعظم في التغيير الاجتماعي في العالم المعاصر.

بعد بضع سنوات على هذا الحدث، كان غاندي يعمل خمس عشرة ساعة يومياً، وسبعة أيام في الأسبوع، بتواتر يكاد يرعب حتى المهووسين بالعمل. حيث لم تستطع سكرتيرتان اثنتان مجاراة مراسلاته أكثر من تمكنهما من مجاراة "مشيته" التي تقطع الأنفاس عندما كان يسرع الخطى على الطريق في كل مساء مثل طائر الطِّيْطَوى. وفي جولة محاضرات في غوجارت، كانت تأخذه إلى قريتين، وأحياناً ثلاثة، يومياً، كان يتوجّب عليه أن يُذكِّر أولئك الذين ينظِّمون خط رحلته الشاقة بأنه مخلوق بشري فحسب. وقد استمر على هذا المنوال خمسين سنة، بدون استراحات، إلا عندما كان يُحجز في "سجن جلالتها". ونتخيل مقدار الضرر اللامحدود الذي كانت ستفعله مثل هذه الطاقة لو أنها خُنِقت في داخله، كما تخنق لدى ملايين الهنود الآخرين الذين يئنّون بصمت تحت أقدام المستعمرين، والتي يتم تنفيسها كعنف صرف، وهو ما كان على وشك أن يحدث بالنسبة للكثير منهم.

تجربة بالغة الذروة

يُختبَر الهروب من العنف في أغلب الأحيان كنوع من البهجة الغريبة. فأنت تدفع ثمناً، وغالباً ما يكون هذا الثمن غالياً، لكن الاكتشاف المفاجئ للطريق المبدع بعيداً عن معضلة الاختيار بين الخوف وبين الغضب، بين الإذعان وبين الهجوم المضاد، يعطي شعوراً عظيماً بالانعتاق. وهذا يُدعى، في

البوذية، "الطريق الوسط"، والتعبير الأفضل عنه يأتي من قبل شخص اختبره تحت إضغط كراه مفرط، مثل أندرو يونغ الذي استخدم كلمات روحية قديمة تتحدث عن، "الطريق الخارج من اللاطريق".

وقد جرت حادثة تصوِّر بشكل جميل هذا الطريق أثناء مسيرة من أجل حق الانتخاب في بيرمنغهام، ألاباما، في العام 1964. حين كانت الحشود، ومعظمهم من السود، يسيرون للتجمّع حول قاعة المدينة عندما وجدوا فجأة أنّ كتيبة من رجال الشرطة والإطفاء تسدّ عليهم منافذ الطريق. لم يكونوا مستعدين لهذا الاحتمال، ولم يكونوا يعرفون احتمالاً آخر لما يتوجب عليهم القيام به، فسجدوا للصلاة. ويذكر أحد الذين شاركوا في المسيرة ما حدث كما يلي:

أصبحنا (بعد فترة) "ثملين روحياً"، وكما وصف الوضع زعيم آخر... بدا هذا محسوساً من قبل الشرطة ورجال الإطفاء وبدأ يترك تأثيراً فيهم... لا أعرف ما الذي حدث، حيث نهضتُ على ركبتي وقلت لرجال الشرطة: "لن نعود أدراجنا. نحن لم نقم بأي عمل خاطئ. كل ما نريده هو حريتنا. ما هو شعوركم وأنتم تفعلون هذه الأمور؟" بدأ الزنوج بالتقدّم فصاح بول كونور [مفوَّض الشرطة العنصري السيئ الصيت]: "افتحوا المياه!"، لكن رجال الإطفاء لم يستجيبوا. فأعطى الأمر ثانية ولم يحصل شيء. ويدّعي بعض المراقبين أنهم رأوا رجال الإطفاء يبكون. وأيّاً كان ما حدث، فقد عبر الزنوج صفوف الجنود.[90]

يقولون إنّ السلطة السياسية تأتي من فوهة البندقية، لكن في هذه الحالة كانت قوات الشرطة هي التي بيدها البنادق، أما المشاركون في المسيرة فقد كانوا يملكون كل القوة، على ما يبدو.

وسواء دعونا هذه القوة بالـ "قوة تكاملية" أم أسميناها "فعل محبة"، فإن تجربة جون بلاك في غرفة الطوارئ وتجربة المشاركين في المسيرة الذين جُوبِهوا بقوة التهديد في بيرمنغهام، مع الاختلاف بين التجربتين، تعطي شعوراً بمقدار فعالية القوة المُتضمَّنة ههنا، وبعدد الطرق التي تستطيع فيها أن تُعبّر عن نفسها، ما جعل المشاركين في مسيرة بيرمنغهام يبدون وكأنهم يتخطّون قوة عنف الغوغاء وليس بالعكس؛ فما مصدر هذه القوة؟

وفي كلتا الحالتين، نجد أن المصدر هو ردّ فعل خوفٍ شديد *لم ينعكس داخلياً*، وإنما انعكس فعلاً خارجياً، تماماً كسري إيسوورن الذي لم يتصرف وفق أفكاره الغاضبة بل وجّهها نحو عمل مبدع. كان يمكن للمشاركين في المسيرة أن يستسلموا ويعودوا إلى منازلهم، أو كان بوسعهم مهاجمة رجال الشرطة والإطفاء، لكنهم لم يريدوا أن يتصرفوا من منطلق ردّ الفعل وبشكل أوتوماتيكي. كانوا على مستوى أعلى فحسب. قَبلاً بقليل، كان أحد قادتهم قد قال: "سنفوز بحريتنا، وبذلك سنحرّر إخوتنا البيض أيضاً". إن رؤيتهم للوحدة هي التي جعلتهم يرتقون؛ فتنفّسوا هواء الحرية المُسْكِر، وواصلوا السير. وسيعبّر كينغ نفسه

[90]- LYND, STAUGHTON. *NONVIOLENCE IN AMERICA*. INDIANAPOLIS: BOBBS MERRILL, 1966, PP.525F. (SEE BELOW FOR THE NEW EDITION OF THIS VALUABLE RESOURCE).

لاحقاً عن هذا بشكل جميل: "لم يتسبّب المشاركون في المسيرة بانفجارات غاضبة، بل سيطروا على الغضب و"حرّروه من خلال انضباط بلغ تأثيره الحد الأقصى".

أما رجال الإطفاء الذين كانت أيديهم متجمّدة على خراطيم المياه؟ فقد كان عقلهم الباطن، وكما عبّر غاندي، "مُرغَماً على التحرر". إنّ مواجهة كهذه، حيث كانت المشاعر متأججة لدى كلا الجانبين، وأدى شروع أحدهما بعمل شجاع وواضح إلى تعجيل الوصول إلى نتيجة ناجحة، هي ما دعاها أحد الباحثين "اللحظة اللاعنفية".[91] ومن منظور الفاعل اللاعنفي، يمكن تسميتها "تجربة بالغة الذروة"؛ فالتجربة البالغة الذروة هي التجربة التي نُرَدّ فيها إلى مصادر أعمق بسبب تحدٍّ عاطفي.

يقدّم أحد المشاركين في **جولات الحرية**، والذي اعتدى أحد الغوغائيين العنصريين عليه بالضرب، رؤية تحليلية نفسية واضحة لمثل هذه التجربة. قال: "أنت تشعر بالألم، لكنك لا تصبح متهوّراً، ولا عدائياً... لأنك تنسى نفسك... إن أصبحت مُنهمكاً في ظروف الآخرين".[92] ليس هناك ما هو خارق للطبيعة بخصوص هذا النوع من الكفاح، وليست هناك بالتأكيد ضمانة . يقدمها العالم الذي نعيش فيه . بأنه لن يسبب لنا بعض المعاناة. لكن مثل متسلّق جبال يواصل الاندفاع في قلب طقس قمة جليدية لاذع ورقيق، أو راقصة باليه تدفع جسدها إلى ما يتجاوز حدوده القصوى، هناك شيء يدعى الترفع عن الألم. ففي الألعاب الأولمبية عام 1966، أعطت كيري ستروغ مدربّها "قفزة إلى أبعد حدّ" رغم الألم الذي كانت تعانيه من كاحلها المخلوع، وقد جفل العالم كله وهو يراقب اختلاج وجهها لدى هبوطها المثالي. وهنا الفرق: فالفاعل اللاعنفي يسعى بتعمد لإظهار الألم الذي يحاول الآخرون إخفاءه. ولذلك فإنه في حاله، أو في حالها، ليس الألم مجرد أمر يتوجب تحمّله طوال الطريق، وإنما جزء من المرحلة.

والحقيقة هي أنك لا تستطيع، وإن لم تُقحم نفسك في شؤون عالم اليوم، أن تتجنب الألم. ومن المهم جداً تذكّر هذا حين يقول الناس إنّ اللاعنف محفوف بالمخاطر: هو بالطبع محفوف بالمخاطر، لكن ألا يتعرّض الناس للهجوم وهم منصرفون إلى أعمالهم الخاصة ولا يتفكرون حتى بتغيير العالم؟ في الحقيقة، هناك طريقة لاعنفية لمواجهة هذا النوع من الألم أيضاً، وهذا ما توضّحه القصة التالية:

ذات يوم من أيام عام 1992، تعرّضت امرأة في الثمانين من عمرها، في مدينة نيويورك، للسرقة وأُصيبت بأذىً كبير. وعلى أية حال، لم تكن إيلين إيغان ضحية نموذجية للسرقة. كانت طوال عمرها ناشطة سلام، وزميلة لدورثي داي وللأم تيريزا، وكانت ترى بشكل طبيعي الأمور على نحو مختلف قليلاً عن معظم الناس. وكانت أيضاً كاتبة جيدة وقادرة على توضيح رؤيتها، فعلى سبيل المثال، وفي مقابلة بليغة مع مجلة Parade بعد سنتين على تعرّضها للهجوم أعلنت قائلةً: "**أرفض العيش بخوف**". وإيغان ناطقة ذات بصيرة لذلك النوع من التجارب التي أتحدث عنها، وعن نتائجها طويلة

---

[91] - Mirsky, Yehudah. "Jewish Perspectives," In, *Perspectives on Pacifism*. David R. Smock, editor. Washington, D.C.: U.S. Institute of Peace, 1995, p.23.

رغم أني لا أوافق على التفسير العام لميرسكي بأن اللاعنف سلبي، إلاّ أني أنصح بقراءة هذا المقال

[92]- From the film, *A Time for Justice*. Teaching Tolerance: Atlanta.

المدى. وبدون استخدام كلمة *لاعنف* (وهذه خطوة حكيمة، لأن القلّة يفهمونها بشكل صحيح)، استطاعت أن تصف بدقة ما الذي يجعل هذا المبدأ يعمل، وبلغة يومية يستطيع أي كان متابعتها بانتباه. وكما أخبرتنا، بدأت من فرضية أن النتيجة الأسوأ للهجوم لم يكن تكسير عظامها بل "التكسّر" المحتمل لمشاعرها اللاحقة تجاه الرجل الذي هاجمها. فمثله مثل تأثير مشاهد العنف على شاشة التلفزيون، سينتشر تأثير العنف الواقعي، إذا سمحنا له بذلك، في مشاعرنا تجاه كل علاقاتنا. وكانت إيغان مهتمّة جداً بألاّ تدع هذا يحدث. وبدلاً من أن تنقاد إلى الحقد، حاولت أن تُصادق المعتدي عليها، والبقاء على اتصال معه بينما كان يقضي عقوبته في السجن، وتصف كم ساعدها هذا على تجنب "الإجهاد النفسي لما بعد الرضّة" الذي تلا مثل هذا الهجوم الوحشي. ونلاحظ هنا أنه في هذه المرحلة، لم يبدُ الشخص متأثراً جداً بسماحة نفسها لكنّ هذا لم يمنعها من الإستفادة من الموضوع، وتوضح:

لقد نسيتُ الهجوم بالكامل. كنت أشعر بالتوتر عندما كان شخص ما يمشي خلفي، لكن هذا الشعور زال الآن. هناك الكثير من الأمور الأهم للقلق حولها في العالم.[93]

لكن، ألم تكن غاضبة؟ بالطبع، بيد أنها كانت تملك ما يساعدها على التخلّص من غضبها، ولذا لم يُخلِّف هذا الغضب أية ندوب. كيف استطاعت ترويض هذا الغضب؟ أتذكرون الممرضة بلاك؟ "رأيت شخصاً مريضاً وكان لا بدّ من العناية به". وقد رأينا هذا من قبل في حالة كارين ريد، وسنواصل رؤيته خلف كل مثال لاعنفي حقيقي نصادفه. فأحد الأمور التي ترافق التجربة بالغة الذروة، والتي تجعلها ممكنة ربما، هو الرؤية من منظور أسمى. وذلك لأنه، ومن منظور الشخص اللاعنفي، حتى المهاجم هو إنسان؛ وهو (أو هي) لن يجرّد أي إنسان آخر من صفاته الإنسانية، بما فيه الشخص الذي كان قد جرّد نفسه من تلك الصفات.

ولهذه الرؤيا منظور آخر؛ فعملياً كل أولئك المنقذين الذين خاطروا بحياتهم لمساعدة اليهود واللاجئين الآخرين أثناء المحرقة شعروا "بأنّ ما فعله فرد، أو أخفق في فعله، هو ذو أهمية"، حيث "أنّ ما فعله فرد، أو أخفق في فعله، هامّ إذا كان بوسعه أن يؤثر في الأحداث... [لهذا] فإن ما فعلوه، أو أخفقوا في فعله، مهمّ إلى حدّ كبير"[94]. فإلى جانب تلك النظرة التي تقول إننا جميعنا بشر، ومتساوون واقعياً، هناك إحساس بإنسانية فعلنا، وبأنّ صراعنا العاطفي لأن نتصرف بصورة حسنة هو أمر ذو مغزى، لأننا مُدرِكون بعمق أنّ لجهودنا تأثيراً في العالم. وكما تقول إيغان: "إذا اختار شخص ما حياة العنف ولم يحصل على النتيجة التي كان يتوقعها من ضحيته [أي: الخوف والغضب]، فربما سيساعده هذا على رؤية الحياة بشكل مختلف". العطف يولِّد عطفاً، والرؤى تتواصل، والمزاج يؤثر في المزاج. الإعلاميون يستغلون انطباعاتنا طوال الوقت، فلماذا لا نستطيع نحن (التأثير)؟ خلال عام 1992، لم تلقَ إيغان الكثير من الاستجابة من مهاجمها لكن هذه ليست مشكلة؛ فمن المحتمل جداً أنه كان متأثراً عاطفياً، وأنه

---

[93] - *San Francisco Examiner: Parade.* "I Refuse to Live in Fear," Sunday, Oct. 23, 1994, pp. 22f.
[94] - Fogelman, Eva. *Conscience and Courage.* New York: Anchor Doubleday, 1994, pp. 6 & 59.

لم يكن مستعداً بعد للبوح بذلك، وفي كل الأحوال جَنَت إيغان بالتأكيد منافع من موقفها، منافع ستُبهِج أي مستشار قانوني لدى حصوله عليها. ففي عشرينيات القرن التاسع عشر، أشار آدِن بالو . وهو أحد أوائل الغربيين (على حدّ علمي) الذين كتبوا حول اللاعنف وكان يدعوه "اللامقاومة المسيحية" . إلى أنّ هناك، إن شئت، نوعاً من الفوز لا يستطيع أحد أن يسلبك إياه حين تقرر التصرف على نحو لاعنفي وهو *الانتصار على خوفك وعلى غضبك*.

كانت بيرتا باسويغ لاجئة يهودية فرّت إلى مصر. وذات يوم، في الاسكندرية، قالت لها صديقة: "بيرتا، يجب أن تصلّي من أجل هتلر". وحين رأت صدمة بيرتا أوضحت الصديقة قائلة: "ليس لكي ينجح في مقاصده الشريرة، بل لكي يغيّر الربّ عقله". وعندما استطاعت بيرتا أخيراً فعل هذا، وجدت أنه "في حين أنني لا أعتقد بأن صلاتي كان لها تأثير على هتلر، فقد كان لها تأثير عليّ:... حيث تلاشت كل مشاعر المرارة والكراهية تجاه الألمان، وأصبح بوسعي التقاؤهم والتحدّث إليهم دون استياء".[95]

لأنه بالنسبة لبيرتا باسويغ وإيلين إيغان، على عكس جوان بلاك أو كارين ريد، فإن العنف في حالهما كان قد حصل. وفي كل الحالات السابقة كنا نتحدث عن مداواة العنف، وليس منعه . مداواته وعدم تركه ينتشر. كما تحدثنا أيضاً عن أفراد ولم نتحدث عن مجموعة، كجوّالي الحرية أو متظاهري بيرمنعهام. ما يجعلها تبدو وكأنها أحداث عرضية لا تترك أثراً على المبدأ الأساسي أو على الطريقة التي تفعل بها أو تُلامسها التجربة بالغة الذروة: وفي كلتا الحالتين نرى أن الغاية تتجاوز الألم. فبإعلاء الغاية، يمكن أن يجعلنا ألمنا الجسدي أعمق إنسانياً.

وقد سبق أن ذكرتُ أن بوسعنا رؤية الدينامية نفسها لدى المجموعات أو الأفراد، بيد أنه من المهم المباشرة بالأفراد بدلاً من المباشرة بمسيرة كبرى أو بإضراب واسع، وذلك لأنّ معظم الناس يربطون اللاعنف بالأفعال الجماعية الكبيرة. طبعاً، يمكن لموجة الحماس الجماعي أن تجرف الفاعلين لكن المصدر الحقيقي لقوة اللاعنف ما زال يأتي من قلبهم، ويجب عليهم وعلينا عدم التغاضي عن ذلك؛ فليس لدى المجموعات عواطف إنما الأفراد وحدهم من يملكون العواطف. واللحظة المؤسِّسة للساتياغراها، كانت برأيي، لحظة إعلان القسم الشهير في المسرح الإمبراطوري في جوهانسبيرغ في 11 أيلول (تاريخ مُثير!) 1906، حين أقسم حشد واسع من الهنود على ألا يطيعوا التشريع الذي كان على وشك أن يحرمهم من منزلتهم الإنسانية الأساسية. ويسلِّط شرح غاندي لمعنى القسم، لكل واحد من ذلك الحشد الواسع، الضوء على جذور قوته في الفرد: "حتى لو أحجم الآخرون، وهو احتمال غير وارد، وتركوني وحيداً لأواجه الضجيج، فأنا على ثقة من أنني لن أحنث بالعهد مطلقاً."[96]

---

[95] - Henderson, Michael. *All Her Paths Are Peace: Women Pioneers in Peacemaking*. West Hartford, CN: Kumarian Press, 1994, p. 162.

[96] - CWMG. 1999, Vol. 5, p. 335 (*Satyagraha in South Africa*, p. 100).

لقد طلب منهم جميعاً أن "يفتشوا في قلوبهم" وأن يلتزموا بالعهد، إن كانت حقاً هذه المسألة هي فقط بين كلّ واحد منهم وبين ربّه، بغض النظر عما قد يقوم به أي فرد أو المجموعة كلها. أي بعبارة أخرى، رغم أنّ القَسم كان ينبغي تنفيذه بشكل جماعي، فإنه لم يكن فعلاً جماعياً، بل كان محصلة للأفعال الفردية، وهذا ما أبقى على قوته المستقلة.

بعد ثمانين عاماً، سيقول الكاردينال جايم سين الأمر نفسه بشأن انتفاضة "قوة الناس" الضخمة في الفيليبين: «لقد كان أمراً مُذهلاً: مليونا قرار مستقل. حيث قال كل واحد في سرِّه "سأفعل بهذا"، وخرجوا.»[97]

ونظراً لأن حالتَي العنف واللاعنف تنطلقان من الوعي الباطن، قبل أن تتبدّيا في أفعال خارجية بوقت طويل، فعلينا ألاّ نستغرب حين تتسبب بعض السمات المميزة أو المعايير لثقافة بكاملها بالعنف دون أن ندرك ذلك. وفي ثقافتنا الحديثة هناك الكثير من هذه السمات، وإحداها هي الطريقة التي "بدأنا بها في فهم كل مواجهة إنسانية كصدام رمزي لمصالح المجموعة، كما أشار الكاتب لويس ميناند. حيث "يمكن التحدث عن العنف بشكل مجرّد، لكن العنف، كالجنس، لا يمكن مطلقاً أن يحدث في المجرد... فالمجموعات متخيَّلة أساساً، أما النفوس فحقيقية، ويمكن إنقاذها أو فقدانها، كلٌّ على حدة فحسب".[98]

وكما هي الحال مع الملصقات التصنيفية، هناك تجريد معين من الإنسانية متأصّل في الإغواء للنظر إلى الناس كمجموعة . سواء كانوا شركة أم دولة أم سلالة عرقية، أو حتى نوع اجتماعي (جندر) . بدلاً من النظر إليهم كأفراد. وعلى أية حال، لا يمكن النظر بهذه الطريقة في حالة اللاعنف. كيف بوسعنا ذلك؟ بالنسبة لـ"قوة الروح"، أنت بحاجة إلى نفوس. وفي حال عملت المجموعة من خلال "قوة روح" يمكن للأعداد أن تكون ذات أهمية، لكنها ليست جوهرية أبداً. قال غاندي: "في الساتياغراها، لا تكون الأعداد هي المُعتَبَرة مطلقاً؛ فقوة العدد مَسرَّة الجبان؛ وشجاع الروح يفاخر في القتال وحيداً".[99]

تنمية اللاعنف: دوام اللحظة

قبل سنوات من وصول فريق كارين ريد إلى السلفادور وجدت سو سيفيرين، وهي مربيّة صحّية في مارين كاونتي، نفسها مُحبَطة وغاضبة جداً بسبب الإرهاب المفروض على القرويين النيكاراغويين عن طريق سياسة "الصراع المحدود" إبان العهد الريغاني ما دعاها لهجر مهنتها والتطوّع في مشروع محفوف بالمخاطر إلى حد كبير، وهو الانضمام إلى مجموعة مدنية أساسها الإيمان، وتقوم بتوثيق النشاط الإرهابي على امتداد الحدود الهندوراسية. وكانت هذه طريقة فعّالة لتحويل غضبها إلى فعل نافع. ومثل كل المشاريع اللاعنفية، قادها الأمر إلى أبعد مما كانت تتوقع. ففي هذه المهمة اكتشفت سو وأعضاء

[97] - Cf. Stephen Zunes, "The Origins of People Power in the Philippines," Zunes, Kurt and Asher, editors. *Nonviolent Social Movements: a Geographical Perspective.* Oxford Blackwell, 2000, p. 151.
[98] - Menand, Louis. "The War of All Against All," *New Yorker* March 14, 1994, p. 74.
[99] - Easwaran, Eknath. *Gandhi the Man*. Petaluma, Calif.: Nilgiri Press, 1978, p. 92 (=CWMG,Vol. 35, p. 365).

فريقها الأمريكي الشمالي قوة *الاعتراض اللاعنفي*، أو، إن شئنا أن نكون أكثر تحديداً، اكتشفوا التقنية التي تُسمّى الآن "المُرافقة الحمائية"؛ فحيثما كانوا يذهبون، وخصوصاً خلال إقامتهم الطويلة بعض الشيء في قرية جالابا المُحاصرة سابقاً، لم تحدث أية هجمات لقوات **الكونترا**.

لذلك، وفور رجوعهم إلى الولايات المتحدة، قررت سو ورفاقها أن لا خيار أمامهم سوى العودة من جديد وتقديم حماية حضورهم للناس الذين عاشوا بينهم، وأن يقوموا بذلك في أكبر عدد ممكن من المناطق. وطبعاً، كان هذا التوقّع مرعِباً, وكانت سو مرعوبة بقدر أي شخص في مثل وضعها جالس في منزله المريح الآمن في مارين كونتي، ويقرأ عمّا كان "الكونترا" يقومون به في قرى تلك الأدغال النائية. لكنها، كابنة عاملة الإنقاذ الهولندية كورنيليا نوتنيرس، وجدت أن "الفعل هو البلسم الشافي من الخوف".[100] والغريب أنه، بينما كانت سو والآخرون متواجدين فعلاً في نيكاراغوا، لم يكن الخوف مشكلة على الإطلاق: "لم أشعر بالخوف أبداً أثناء وجودي هناك، وأعتقد أن السبب الرئيسي لذلك كان انعدام الخيار... لقد وجدتُ . لدهشتي الكبيرة . أنني أصبحت هادئة جداً وسط الخطر؛ فأنا كويكريّة ولا أنسجم كثيراً مع لغة "الله" لكن الطريقة الوحيدة التي يمكنني بها توضيح الأمر هي أني شعرت بأني بين يدي الإله: لم أكن بمأمن . بمعنى أني لن أُصاب بأذى . وإنما لأني كنت حيث يُفتَرض بي أن أكون، وأني كنت أفعل ما يُفتَرض بي أن أفعل. قد يكون هذا إدماناً، ولكن ربما لهذا السبب واصلنا العودة إلى هناك."[101]

لقد بدأنا هذا الفصل بقصة توضّح كيفية تحويل الغضب، وها نحن نرى أنّ الخوف أيضاً يمكن أن يصبح وقوداً لنار محبة فعّالة وغير عاطفية بالنسبة لمن يختار الردّ اللاعنفي.

وتعرض ذكريات سو عدداً من الرؤى الأخرى؛ فهي توضح شيئاً ما عن ذلك الشعور بالتمكن كقوة لا تُقهَر تقريباً، وتسيطر أحياناً على الفاعلين اللاعنفيين؛ فتمكّنهم من مواجهة الخطر، والتغلّب عليه، بشجاعة خارقة للطبيعة في أغلب الأحيان، كـ"الثُّمَالة الروحية" لمتظاهري بيرمينغهام. فهو، وكما أشارت، ليس شعوراً ساذجاً بالأمان، كما لو أنهم عادوا مراهقين من جديد، بل هو شيء أكثر دقةً وأكثر واقعية: إنها القناعة بأن ما تقوم به شيء *نو مغزى*. وبكلمات سو سيفيرين، إنه ما "يُفتَرض بك أن تفعله". وقد ردّدت هذه الكلمات مارج آرجنليان من شيكاغو، حيث قامت بعملٍ مشابهٍ في الخليل عام 1996: "لقد كانت هذه التجربة هي الأكثر كمالاً من أيّ عمل سبق أن قمتُ به".[102] كما ردّدت الكلماتِ

---

[100]- FOGELMAN. OP. CIT., P. 228.

[101] - هو تواصل شخصي مع الكاتب. حيث بدأت أكتشف، بعد كتابة هذا الفصل، أنه توجد وقاء ع "دامغة" تقول بأن خلفية غيرية هي الدافع "الأكبر" وراء تعاطي المخدرات أو فعل أشياء مسيئة إلى حد كبير. معظم الدلائل لخصتها ناتالي أنجيه في "لما كنّا لطفاء جداً: لقد دفعنا للتعاون".
THE NEW YORK TIMES, JULY 23, 2002.

[102] - "Walking the Talk of Nonviolent Intervention," *Signs of the Times* (Christian Peacemaker Teams newsletter) VI, no. 1, 1996, 2.

نفسَها سولانج مولر، ابنةُ الأمين العام المساعد للأمم المتحدة، في لقاء معها في نيويورك: "عندما تجد عملاً كهذا فلن تعود إلى الوراء".[103]

في زمن كزماننا، حين تصبح الحياة بلا معنى للكثيرين، ليس من الصعب تفهُّم كم يمكن أن يكون مذاق الكفاح اللاعنفي "منشطاً". استمع فحسب إلى هذه الشهادات من مشاهد (أحداث يومية) ثانوية من الناحية التاريخة لكن بوسعها أن تضيف الكثير إلى فهمنا للاعنف؛ يرويها رجال ونساء كانوا يخاطرون بحياتهم لإنقاذ ضحايا المحرقة:

«لعب الأستاذ والسيدة إيج دوراً بارزاً في إحدى أكثر المجموعات نجاحاً في إنقاذ اليهود الدنماركيين. وبعبارات السيدة إيج: "لقد ساعدنا اليهود لأن هذا كان يعني أنك ولمرة واحدة في حياتك كنت تقوم بعمل جدير بالاحترام، وأعتقد أنه على الدنماركيين أن يكونوا ممتنّين بالقدر نفسه لليهود الذين منحوهم فرصة القيام بعمل جدير بالاحترام وذو مغزى.»[104] وقد قال فنان الألعاب البهلوانية سبيدي لاركينغ الشيء نفسه لكن بتحفّظ أقل: «أشعر... اللعنة... بأني أودّ أن أُلقي بنفسي على الطريق وأقول: "شكراً لكم".»[105] لكن الدكتور سترانديبغارد حبس أنفاسنا حقاً حين قال: «هذا ليس غريباً... إنه يشبه تقريباً الاختبار الجديد للحب الأول الذي يغمر المرء في شبابه.»[106]

وتأتي هذه اللحظات الكثيفة الوافية، التي رأيناها حتى الآن، من الكفاح الداخلي للسيطرة على استجابتنا المبنيّة على القتل أو اللوذ بالفرار. وهذا الكفاح يمكن أن يؤدّي إلى تجربة بالغة الذروة لها تأثيراتها على خصومنا في أغلب الأحيان. وهذه التأثيرات دوماً، كتلك التي تحدثنا عنها للتو، تؤثّر على الفاعلين: علينا.

في الفصل القادم، سنركز على السؤال الواضح التالي: كيف، وإلى أية درجة من الثقة، يمكننا أن نتوقع تلقّف خصومنا؟ فهناك الكثير مما يجب أن يُقال عن عالم التجربة الداخلية الخاص بالفاعل.

في قبضة اللاعنف تكون خبرة الناس أكثر حدّة، وتبدو الحياة أكثر "واقعية"، لأنها بالضبط كالتركيز المُكثَّف الذي يعطي الإحساس بالمعنى وبالغاية التي يشعر بها الرجال في المعركة. مع هذا الفارق الذي يقول، طبعاً، إنك في الحرب تخاطر بحياتك لقتل الآخرين، أما في حال اللاعنف فإنك تخاطر بحياتك (إن كان هذا ضرورياً) لكي لا يُقتَل أحد آخر، وفي المحصلة لكي لا يبقى على أحد أن يواجه الموت مجدّداً على أيدي نظرائه من البشر. لذلك فإن الإحساس بالمعنى أعمق بكثير، ويدوم أطول بكثير. فاللاعنف هو ما كان يبحث عنه عالم النفس ويليام جيمس: إنه المرادف الأخلاقي للحرب.

هناك في "اللحظة اللاعنفية" الخاصة بنا ومضة شعاع روحي يشقّ مؤقتاً عتمة الصورة السائدة لدينا عن أنفسنا كحيوانات داروينية منفصلة وتنافسية لا تعرف شيئاً سوى قوة التهديد. وهذا يقودنا إلى

---

[103]- Address by Solange Muller, New York City, 1992.

[104] - FLENDER, HAROLD. *RESCUE IN DENMARK*. NEW YORK: SIMON & SCHUSTER, 1963; THIS AND FOLLOWING QUOTE FROM PP. 144

[105] - . Ibid., 149.

[106] - Ibid., 148.

سؤال هام جداً: كيف يمكننا الحفاظ على هذا الضوء مشتعلاً؟ وإذا كان اللاعنف "مسبباً للإدمان"، فكيف بوسعنا الحفاظ على هذه العادة؟

يقدِّم الطبيب النفساني م. سكوت بيك وصفاً جيداً لهذه العملية: «لا أعرف ما الذي يخلق التجربة الروحانية. أعرف أنّ الإعياء بوسعه تحرير "حدود الأنا"، وأعرف أيضاً أنني *الآن قادر على أن أفعل طوعياً ما حدث معي في حينه بشكل لاإرادي*: أن أرى، كلما كان بوسعي أن أتذكر أو أن أختار فعل ذلك، أنّ كل أعدائي هم أقربائي، وأنّ كلّ منا يلعب دوراً من أجل الآخر في نظام الأشياء.» (التأكيد من عندي)[107]

وأتفكر، من حين لآخر، بأنّ لدينا جميعاً ومضات تجربة بالغة الذروة.

مع أنّ ذلك حدث منذ أكثر من ثلاثين سنة، لكني أتذكر بقوة تلك الفترة ما بعد الظهيرة في بيركلي عندما كنت ألعب كرة السلة مع خمسة شبان آخرين في حديقة Live Oak. وفجأة . ربما لأن أحدنا أحرز رمية جميلة فحسب . وجدنا أنفسنا، أنا وأعضاء الفريق في حالة سباق، وكأننا لا نهزم. كان الأمر سحرياً: فكل تمريرة تصل، وكل رمية تجتاز حلقة السلة . كانت حالة أشبه برقصة باليه أكثر من حالة ثلاثة شبان يلعبون الكرة. ثم انتهت الحالة؛ فالسحر . أو أياً كانت تسميته . انكسر، وعدنا إلى ذواتنا المتلعثمة، وأنا لا أعتقد حتى أننا قد ربحنا اللعبة. فالممثل، والرياضي والراقص وحتى الأستاذ، لديه لحظات بالغة الذروة حين "يتلقّفها" فجأة، أو حين "تُفرقِع". والفارق فقط هو أنّ الممثل أو الرياضي المحترف يتعلم كيف يعيد ولوج تلك الحالة حين يريد ذلك. لا غرابة في الأمر، ورغم هذا فإنّ "التعلم" الذي يتطلبه يجب أن يتجاوز مستوى الوعي. فالتدريب بالنسبة "للساتياغراهي المحترف"، الذي يحتاج إلى الحفاظ على بعض ردود الفعل "الطبيعية" تحت السيطرة عندما يكون (أو تكون) على خط الشفير . أو كشخص يريد البقاء حياً في زقاق مظلم . متماثل جداً. علينا أن نتعلّم كيف نبقى يقظين بهدوء تحت الإجهاد، بعدئذٍ يحدث السحر.

الحقيقة هي أنه لا جوان بلاك ولا متظاهرو بيرمينغهام ولا كارين ريد ولا سو سيفيرين ولا إيلين إيغان كانوا مُهيَّئين كلياً لتلك "اللحظة اللاعنفية". فجوان بلاك كانت مناوبة في غرفة طوارئ، وتدريبها الطبي ومكانتها هيأاها لكي ترى في شخصٍ مهتاج شخصاً يحتاج إلى المساعدة. أما كارين ريد وسو سيفيرين فكانتا تنفذان مهمة لاعنفية وتمتلكان قدراً من التدريب بشأنها. وكان متظاهرو بيرمينغهام يشاركون منذ وقت كاف في الكفاح اللاعنفي، وربما كانوا قد تلقوا بعض التدريب على هذا الكفاح كما تلقوا بالتأكيد العون الفذ لقيادة مُلهِمة.

---

[107] - Peck, M. Scott. *The Different Drum: Community Making and Peace*. New York: Touchstone: Simon and Schuster, 1987, p. 35 ().

إنظر حول هذا الموضوع إلى دراسة عالم النفس البريطاني دز جون دوري بعنوان "Protesting Can be Good for your Health" والتي أصدرتها وكالة رويتر على العنوان التالي: http://www.eurocbc.org/page582.html

وتلك كانت أيضاً حال جواهر لال نهرو. فمثله مثل الآلاف من مواطنيه، انجذب رئيس الوزراء المستقبلي للهند الحرة إلى لاعنف المهاتما، لكن الأمر بالنسبة له كان يتجاوز مجرد امتلاك الفكرة، كما اكتشف حين واجه جَلْد (Lathi) شرطة الخيّالة للمشاركين في مظاهرة سلمية في لوكناو عام 1928. و(Lathi أو Lathee، هي قصبة خيزران مُدبّبة في طرفها بمعدن، وكانت تستخدمها الشرطة الهندية والبريطانية بحرية في تلك الأيام).

«... وبدأ الضرب ينهال علينا بالخيزرانات المدبّبة والعصي الطويلة من قبل الشرطة الخيالة والمُشاة على حدّ سواء. كانت صدمة كبيرة، وفقدت وضوح الرؤية الذي انتابني مساء الليلة السابقة. وكل ما كنت أعرفه هو أنه كان علي البقاء حيث أنا وعدم الاستسلام أو التراجع. وأحسستُ بشبه إغماءة جرّاء الضربات، وانتابني لبعض الوقت غضب ثقيل ورغبة في الرد. وفكرت كم من السهل جرّ ضابط شرطة من على حصانه وامتطاؤه، *لكن التدريب الطويل والانضباط حالا دون أن أفعل ذلك*، فلم أرفع يداً، سوى لحماية وجهي من الضرب.» (التأكيد من عندي)[108]

التمرين الأول: العمل الخارجي

ماذا كان هذا التدريب الطويل وذاك الانضباط؟ كان واحداً من أكثر المظاهر المُساء فهمها لقيادة غاندي. فعندما كان يطلب من زملائه المقرّبين التقشّف في الحياة، والتماثل مع أفقر الناس على وجه الأرض، وصنع ألبستهم الخاصة، وحتى التقيّد ببعض القواعد الغذائية، لم يكن بأي معنى يضع تعاليم أخلاقية. إنما كان يُدرّبهم فعلاً لأن يكونوا إلى حد ما "ثملين روحياً" طوال الوقت. كان يعرف أنّ اللاعنف الحقيقي ليس ذاك الذي يحدث عندما تكون كيمياء الموقف سليمة فحسب. إنما كان سيصفِّق لكلمات القائد البوذي الشعبي تيك نات هانه:

«إذا كنتَ ستنتظر إلى حين حدوث الأزمة، فسيكون الوقت قد فات... وحتى لو كنت تعرف أنّ اللاعنف أفضل من العنف، فإنك لن تتصرف على نحو لاعنفي إن كان فهمك فكرياً فقط وليس متغلغلاً في كامل وجودك؛ فالخوف والغضب سيمنعانك من ذلك.»[109]

إذا كنت تعرف بكامل كينونتك أن "أعداءك هم أقرباؤك"، فبوسعك امتلاك تأثير مذهل على من حولك.

أحد أصدقائي الحميمين، ديفيد هارتزوغ، وهو رجل أبيض، كان يجلس مع مجموعة صغيرة من نشطاء الحقوق المدنية إلى طاولة غداء منفصلة في فيرجينيا في أوائل الستينيات. كانوا يجلسون هناك دون أن تُقدَّم لهم أية خدمة لما يُقارب اليومين، مُتعرَضين للمضايقة بلا انقطاع من قبل حشد غاضب.

---

[108] - Nehru, Jawaharlal. *An Autobiography*. C. D. Narasimhaiah, editor. 1936 (Oxford paperback, 1991). Delhi: Oxford, p. 91.

[109] - Nhat Hanh, Thich. *Love in Action: Writings on Nonviolent Social Change*. Berkeley: Parallax Press, 1973, p. 71.

فلا الجالسون ولا أصحاب المطعم تنازلوا، وازداد التوتر. وفجأة، انتزع رجل ديفيد من مقعده وهزّه بعنف وهسهس بصوت كفحيح الأفعى: "أمامكم دقيقة واحدة للخروج من هنا وإلا سأغمد هذه في قلبك". ديفيد، الذي كان يردّد صلاة الرب Lord's Prayer في سِرّهِ قبل أن يُنتزَع من مقعده، رفع عينيه ببطء عن المدية الضخمة القريبة من صدره ورأى "أسوأ نظرة كراهية رأيتها في حياتي على الإطلاق". ووجد نفسه يفكر: "حسناً، لدي على الأقل دقيقة"، وسمع نفسه يقول للرجل "حسناً يا أخي، أنت تفعل ما تشعر أنه ينبغي عليك فعله، وأنا مع ذلك سأحاول أن أقدم لك ما لدي من محبة". ولثوانٍ جليدية، بدا أنه لم تكن هناك ردّة فعل؛ ومن ثم بدأت اليد التي تحمل المدية بالارتعاش. وبعد بضعة ثوان بدت أطول، سقطت المدية، واستدار الرجل وخرج من المطعم، وهو يمسح باختلاس دمعة سالت على خده.[110]

ليست كل اللحظات اللاعنفية بمثل هذا الإيلام. ومع ذلك، تُظهِر هذه اللحظة الفرق الذي يمكن أن تتلمّسه حين تنظر إلى الحياة بشكل مختلف، وبالتالي تباشر محبتك للاعنف تغرز جذورها إلى ما تحت القناعة الفكرية المجردة التي أشار إليها تيك نات هانه، وتبدأ في شَغل "وجودك بالكامل". وديفيد هو كويكري ملتزم، كوالديه. وقد مارسوا قناعاتهم السلمية كنمط حياة، وبذلك عزّزوا قناعتهم بأنّ هناك "شيء من الرب" في كل شخص. كما اجتاز ديفيد فترة لا بأس بها من التدريب الخاص، بقدر ما بوسع المرء التدرّب عليه كي يردّ على نحو خلاّق على مثل هذه الحالة الطارئة. فمثل رجال الشرطة، وحتى الجنود، كان ديفيد قد تعلّم من خلال الاعتقاد والممارسة أنه عندما يكون خصمك مضطرباً، فإنّ من الضروري أن لا تكون أنت كذلك.

هذه هي إذاً مُقوِّمات تطوير الردود اللاعنفية بحيث تصبح جزءاً من شخصية المرء: قناعة عميقة فيما يتعلق بوحدة الحياة، والاستلهام من قيادة لاعنفية حقيقية، والممارسة الصادقة في حال "تبادل الأدوار"، وأخيراً . من تراث غاندي الخاص . حياة تُعاش بهدى من المبادئ اللاعنفية. ويكون المرء محظوظاً حقاً حين يمتلك كل هذه المقوّمات . لأنه من الصعب بشكل خاص اكتساب القيادة في عالم اليوم . لكن من خلال بعض التوافق، ليس هناك مبرّر للشك بأنّ في وسع أي شخص تعميق قدرته الفطرية لكي يصبح "فاعل محبة" فعّال.

ولأنّ هذه القدرة هي ردّ فطري، ليس هناك من سبب يدعونا إلى الخوف من قمع أي شيء حين نشرع في تنميتها. بل بالعكس، عندما نجد المخرج لذلك "اللامخرج" بين الغضب وبين الخوف، نكون قد أطلقنا قدرة طبيعية نمتلكها جميعاً ولكن معظمنا غير مُدرِك لها، ومعظمنا لا يسعى إلى تنميتها لسبب بسيط هو أننا لا نعرف أننا نمتلكها. لكنّ هذا سببه تكيّفنا الثقافي. لذا، فإنّي أعتقدُ حقيقةً أنّ العنف هو المُصطنع؛ فالعنف "حلّ" ميكانيكي يدفعنا بعيداً عن فرصة النمو . النمو كأفراد، بإخضاع جزء مهم من عقلنا؛ والنمو كشعب، بتحقيق حل حقيقي لما يقسّمنا. فالرد اللاعنفي ينشأ عبر الكفاح لإخضاع القوى

[110] - تواصل شخصي بين الكاتب وديفيد هارتسوغ.

العاطفية في داخل أنفسنا. واعتقادي بأنّ هذا الكفاح هو ما يبدو إلى حدّ كبير ذا مغزى، ويجعل التجربة اللاعنفية البالغة الذروة "مُسبّبة للإدمان"؛ فالصراع فرصة، لأن العواطف السلبية هي فرصة من أجل التحوّل.

لقد أعطى مراهق أسود تعبيراً مثالياً لهذا بعد أن تعرّض لسرقة حقيبته من قبل رجل مسلّح. وكان رد فعله الأول هو ارتعاش ركبتيه: "كان عليّ أن أتماسك". وبعد لحظة أدرك أنّ حمله لسلاح بالكاد سيجعله في مأمن من ذلك الموقف. وأخيراً، وبتفكير ناضج، أدرك أنه لو كان لديه سلاح، "لكنتَ سأتشبّث بالمقبض بدلاً من أن أستعمله بدافع من خوفي".[111] قال راندي بوند متحدثاً عن مجموعة صغيرة من المتطوعين الأمريكيين في الخليل كانوا يحاولون الوقوف بين البلدوزرات الإسرائيلية وبين البيوت والبساتين الفلسطينية: "كنا مجموعة صغيرة من الناس العاديين الذين يقومون ببعض الأمور الاستثنائية نسبياً في جزءٍ مُتضرِّر من العالم. وكان يجب علينا تطوير أنفسنا وكفاءاتنا لفعل هذه الأمور، فتلك هي الطريقة الوحيدة التي نتطور بها".[112]

التمرين الثاني: العمل الداخلي

حكمَ الإمبراطور أشوكا معظم مناطق شمال الهند ما بين حوالي العام 269 وحتى العام 232 قبل الميلاد. وقد حكم كما لم يحكم إلا قلة قليلة في التاريخ البشري: باللاعنف. وتخبرنا مراسيمه الأسس التي ما زال عدد منها يُقرأ في كافة أنحاء الهند، كيف كان مبدأه الهادي ليس العدوان وإنما النظام الأخلاقي، أو *الدهاما Dhamma* (بالسنسكريتية: *دهارما Dharma*). وهذا كان يعني، من بين أمور أخرى، التخلّي عن الحروب التوسعية، والتسامح تجاه كل الأديان، وتوفير الحماية للعاجزين، وحتى تشييد المستشفيات من أجل الحيوانات. والصخور الصامتة تحدثنا بصوت يمكن أن "يتردّد صداه في أسماعنا عبر ألفيتين أو أكثر، مستدعياً رؤية تحرّرية ذات نبرة معاصرة بشكل لا يُصدَّق".[113] وها هو ذا المرسوم الأربعون:

«يمكن حثّ الناس للارتقاء في الدهاما بطريقتين فقط، أعني كفرض أخلاقية وكتأمل. ومن الاثنتين، فإن الفرض الأخلاقي هو الأقل شأناً، أما التأمل فهو الأعظم. والفروض الأخلاقية التي أعلنتها تتضمن قواعدَ تنأى عن انتهاك حُرمة بعض الحيوانات، ووضعتُ أيضاً قواعد أخرى. لكنه حتى في حال الامتناع عن إيذاء أو قتل مخلوقات حيّة، فإن طريق التأمل هو الذي يجعل الناس يحرزون أعظم تقدم في الدهاما.»[114] قد يكون *التأمل* الكلمة الوحيدة في اللغة الإنكليزية التي معناها أقلّ اتّفاقاً عليه من *اللاعنف*؛ وكما رأينا من الترابط الوثيق الذي يعقده أشوكا أنّ الأمر قد لا يكون مجرد مصادفة.

---

[111] - Weston, Kevin. "Why I don't pack," *YO* (*Youth Outlook*), Winter 1994, p. 4.
[112] - *Michigan Peace Team Bulletin*, Spring, 1998, p. 2.
[113] - P. V. Narasimha Rao, quoted in *India News*, October 1, 1994.
[114] - Nikam, N. and McKeon R., translators. *Edicts of Ashoka*. Chicago: University of Chicago Press, 1959.

التعريف الكلاسيكي للتأمل معروض في نص شهير يُعتقَد أنه معاصر للبوذا تقريباً، إنه حِكَم *اليوغا Yoga Sutras*، والذي يبدأ بالقول إنّ "التأمل هو إعاقة موجات الأفكار في العقل"[115] ويقصد الحكيم المجهول، الذي كتب هذا النص، بـ "موجات الأفكار"، أو citta-vrtti, Patanjali، أيّ حدث عقلي . أو شعور أو صورة أو رغبة . وليست مجرّد فكرة لغوية. وهذه يمكن أن تكون، على سبيل المثال، موجة من الغضب أو من الخوف، والتي تُظهِر لنا على الفور ترابط التأمل باللاعنف، وتفسر لنا السبب الذي جعل أشوكا يشعر بأنّ التأمل أفضل من القواعد والتعليمات، حتى تلك الأخلاقية منها، من أجل خلق نظام لاعنفي.

«إنّ وضع العقل تحت السيطرة طلب باهظ الثمن!»، كما عبّر على نحو جميل المعلم إيكهارت.

يحتاج هذا إلى عمل شاق إلى حدٍ كبير... وعلى الإنسان أن يخلو إلى نفسه حيث يكون عقله متحرّراً من الأشياء الخارجية.. (التي هي) ثانياً، من ابتكارات العقل نفسه؛ أي الأفكار أو الصور التلقائية.. التي يجب ألاّ يوليها أهمية خوفاً من تشتيت نفسه فيخدع بالتعددية.[116]

إن تعريف بَتَنجَلي *لليوغا* (التي تعني التأمل، في هذه الحالة) مستقى، كما قلتُ، من مجموعة حكمه الشهيرة الـ"Sutras" أو الأقوال المأثورة. فمثل هذه النصوص كانت تُعدّ، إن شئت، ككتيبات علمية مؤلفة من صيغ مجردة ومُعدّة من قبل سلطة مؤهَّلة بحيث تكون مبسَّطة. ولذلك فإنه في المصطلحات العملية، يجب أن تُضاف بضعة أمور إلى التعبير المأثور لتبيان كيف يعمل فعلياً، وخصوصاً في الفترة الحديثة. فأولاً، وكما قال إيكهارت، ليس التأمل حالة تنزلق إليها إنما مبدأ تعمل به. وبشكل واضح، عليك أن تمتلك أداةً للقيام بمثل هذا "العمل الشاق إلى حد كبير". وما تعلمّتُه يتضمّن التركيز، بكل قوة الإرادة التي بوسعي حشدها، دقيقة بدقيقة، على المقطع الإلهامي الذي سبق أن حفظته عن ظهر قلب. وهذا يسمح لي بضبط موجات الفكر التلقائية عند الظهور، و/أو بأن لا أوليها أي اهتمام حين تظهر.

لوصف هذه الطريقة، يبدو التأمل أشبه ربما بتمرين كئيب بالكاد يجعل منا أبطالاً أو بطلات، لكن ذلك سببه معرفتنا القليلة بقدرات العقل. فقد كتب عالم الأعصاب روبرت ليفينغستون: «حسب علمنا، لم تكن قد بدأت تتبين فائدة العمليات الإدراكية، كالوعي والإدراك والحكم والإرادة، في مواجهة أية حدود.»[117] فأمثلتنا الأولى في هذا الكتاب كانت عن أفراد أو مجموعات من أفراد وُضعوا في حالة عميقة من التركيز بسبب ظرف طارئ، كجوان بلاك أو صديقي ديفيد هارتزوغ في ذلك المطعم. ونحن نتحدث هنا عن تعلّم بلوغ حالات أعمق من التركيز حتى بدون ظروف طارئة. فذات مرة، عندما زار غاندي أشرام – بمعنى مُعتَزَل (طائفة روحية) – حكيماً مشهوراً في جنوب الهند، وجّه الحكيم ملاحظة إلى طلابه بعد مغادرة غاندي: "لقد بُورِكنا اليوم بحضور يوغي حقيقي". وحين سأله الطلاب كيف عرف ذلك،

---

[115] - (Sutra I.2, my translation)
[116] - Perry, Whitall N. *Treasury of Traditional Wisdom*. Cambridge, U.K.: Quinta Essentia, 1971, p. 533.
[117]- Livingston, Robert. *Sensory Processing, Perception, and Behavior*. New York: Raven Press, 1978, p. 8.

قال: "حين تنظر إليه بوسعك أن ترى أنه مُتشرِّب باليوغا، فحيثما ينظر إلى شيء ما يوليه انتباهه بالكامل، ولا ينظر إلى أي شيء آخر. لقد قدِم كثير من القادة الآخرين معه، لكنهم كانوا يجولون بنظرهم في كل مكان، وكأنما لهم خمسة أو ستة أزواج من العيون".[118]

لذلك، دعونا لا نتغاضى عن هذه القدرة التي تبدو متواضعة، وإن لم تكن ذات صلة في الموضوع؛ فالانتباه الفردي الموجَّه هو المفتاح النفسي للاعنف. ومن أجل توضيح قوته، وفي الوقت نفسه سهولة مناله لمن ليسوا من المهاتمات، لنستعِر وصفاً لحالة أداء بالغة الذروة من مصدر أكثر إلفة، إن لم نقل غير محتمل. فعلى الرغم من أسلوبه الخالي من البراعة، والذي غالباً ما يكون عادياً، بل وغير ممتع، فإن [جو] مونتانا استثنائيّ لأنه حين يواجه خطراً يكون... مُركَّز التفكير بالكامل. وما لا نعرفه هو كيف يفعل هذا. ... فالأمور تحدث أحياناً بحركة بطيئة بالنسبة لجو في أكثر الأوقات حرجاً. ... وقد كان في ذلك العالم عندما مرّر تمريرة ساحرة إلى جون تايلور [في العام 1989]. وقد شرع مونتانا باللعب في مركز الظَّهير الرُبْعي وراء اللاعبين خلال ربعين من المباراة. واعترف مونتانا: "لقد حدث نوع من الحركة البطيئة"، حيث تراجع إلى الخلف ليُمرِّر الكرة، وفجأة تباطأ كل شيء وأصبحت واضحةً كلياً. لقد رأى جو مدافعين اثنين يلاحقان روجر كريغ ورأى تايلور يقتحم بقعة خالية فمرّر له. ثم غابت الكرة عن مرآه، وسمع صيحات المشجعين وعاد العالم إلى وتيرته العادية.[119]

ومن الغريب كما قد يبدو، أن هذا وصف دقيق لحالة وعي يدعوها الحكماء الهنود *دهارانا dhârana*، أو "الانتباه المضبوط بثبات". وهم كانوا يُعلِّمون أن الدهارانا هي المرحلة الأولى من بين ثلاثة مراحل . هي الانتباه، التأمل، والتشرُّب الكامل للحقيقة الأسمى . في الرحلة الطويلة للتحقّق الكامل. ففي هذه المرحلة الأولى، (أي) الدهارانا، يكون انتباهنا غالباً مُركّزاً على أمر ما خارجي (سواء لدى كريغ أم تايلور كما هو واضح)؛ والمرحلة الثانية، التأمل الصحيح، هي تحكّم مُنتظَم للنشاط الدائر في عقلنا؛ والمرحلة الثالثة، أو سامادهي *samadhi*، هي . حسناً.. يتعسّر وصفها.

لقد وضع مونتانا موهبته غير العادية في استعمالات تختلف نوعاً ما عن الحكماء في مُعتزلاتهم في الغابات، أو عن غاندي في (أشرامه) مُعتزله الحديث، لكنه مثلهم، كان عليه أيضاً محاولة الوصول إلى نوع ما من القبض الدائم على القدرة التي لمحها في لحظات بالغة الذروة. ليس هناك من شيء شرقي أو هندي على وجه الخصوص فيما يتعلق بالقدرة على التأمل، أو الانتباه الأحادي التوجّه، إلا أنه صُقِل على نحو أكثر منهجية وبشكل مستمر في الهند مما هو لدى أية حضارة أخرى أعرفها، لكنه بالكاد يكون مجهولاً بالنسبة للحضارات الأخرى. فبعض المتأمّلين "الأثقل وزناً" في العالم، كالمعلم إيكهارت أو تيريزا الأفيلية (أسبانيا)، نشأوا في الغرب. ولم يحدث اكتشاف التأمّل، أو إعادة اكتشافه الدورية، دوماً في سياق

[118] - Ritajananda, Swami. *Swami Turiyananda.* Madras: Sri Ramakrishna Math, 1963, pp. 172f.
[119] - Cohn, Lowell. "Montana Was Cool in the Eye of the Storm," *San Francisco Chronicle*, January 24, 1989; Special Souvenir Section, p. 2.

دين، كما رأينا. وما سيلي هو بصيرة نافذة لوليَم جيمس حول التعليم، كما وصفه في كتابه *مبادئ علم النفس*: «إن المقدرة على استعادة انتباه مُشتَّت طوعاً مراراً وتكراراً هي جذر المحاكمة العقلية والخُلُق والإرادة. والتعليم الذي يُحسِّن هذه المقدرة سيكون تعليماً *غير مُنازَع*. لكن من الأسهل تعريف هذا المثال من إعطاء توجيهات عملية لإحداثه.»[120]

وما كان غير معروف أكثر لجيمس أنه كان يعيد صياغة أحد أسماء التأمل في الهند القديمة، ألا وهو *براهمافيديا*، أو "التعليم الأسمى". وما وصفه لاستعادة انتباه مشتت "مراراً وتكراراً" إلاّ وصفاً دقيقاً لماهية التأمل. وفي الحقيقة من الصعب إيجاد توجّهات عملية لإحداث هذا؛ ففي كلتا الحضارتين اختفى هذا التراث العزيز سابقاً وراء وهج النزعة المادية[121]. لكنّ النزعة المادية ليس بوسعها أبداً الاستمرار بإحكام قبضتها علينا إلى ما لا نهاية، ولهذا السبب أدخل إلى الغرب الاهتمام بالتأمل الذي استُكشِف منذ سوامي فيفكاناندا التراث القديم للهند في برلمان الأديان في شيكاغو عام 1893 (وهو العام نفسه – للغرابة الشديدة – الذي ذهب فيه غاندي ليواجه قدره في جنوب أفريقيا).

واليوم يعرف العديد من الناس وليَم جيمس، ليس ككاتب بارز بل بسبب مقالته الكلاسيكية *المُكافئ الأخلاقي للحرب*. ولم يكن هذا الاهتمام المزدوج بالنسبة له محض مصادفة. إذ "الحرب تبدأ في عقول البشر" قبل كل شيء. والبهاغافادجيتا، المخطوط المقدّس الأثير جداً إلى قلب غاندي، لا يؤكد هذه البصيرة فحسب بل يعطينا إحساساً واضحاً بما يفرّخه العقل غير المدرَّب من عنف، وكيف يجب التصرف لمواجهته. وهذا التعليم مُمسرَح في الحوار المتبادل بين البطل، آرجونا، الذي يُمثّلك ويمثلني، وبين صديقه وسائق عربته الحربية، سري كريشنا، الذي صدف أن كان إلهاً. ليس هناك من خطأ في العقل الذي لا يشفيه التدرّب، كما يقول كريشنا آرجونا؛ فالمرء يجب أن يتعلم ببساطة كيف "يبقي موجات الفكر في العقل"، كما تقول الحكمة القديمة. ويتفجَّع آرجونا بلغة ما زال بوسعنا جميعاً إدراكها بالكامل: "لكن يا كريشنا، العقل مرتبك ومُهتاج بعنف شديد، وأنت أيضاً ربما تطلب مني السيطرة على اتجاه الريح". ويكون جواب كريشنا: "أوافق، لكنها ستصبح أيضاً تحت سيطرتنا عن طريق القليل من التجرّد، وبعض الممارسة الثابتة".[122]

لأن المكافئ الأخلاقي للحرب هو "الحرب في الداخل"، ففي تلك "الحرب" . (التي هي) كفاحنا الفردي لتهدئة عقولنا . لا يتأذّى أحد بل، على العكس، تصبح مقدراتنا الفطرية القوية من أجل اللاعنف نافذة المفعول أكثر فأكثر عندما نفلح. وقد كان أصعب على الدوام إدراك هذه الحرب من إدراك الحروب التي نشنّها في الخارج. ونحن نتمتع اليوم بمثابرة متنامية للتدريب السلوكي على تخفيض العنف، ونجد نسخاً من هذا التدريب في الصفوف الدراسية وفي السجون وفي ورشات عمل صنّاع السلام وفي

---

[120] - James, William. *Principles of Psychology*. Reprinted in *Great Books of the Western World*. Chicago: Encyclopedia Britannica, 1952, pp. 274f.
[121] - Borg, Marcus. *Jesus: A New Vision*. New York: Harper & Row, 1987, pp. 43f.
[122]- Bhagavad Gita VI. vv. 34f (my translation).

النقابات. وهي خطوة أولى جيدة. وممارسة اللاعنف الفعال خطوة أخرى منفتحة أمامنا جميعاً، ونافعة لنا جميعاً، حتى في نشاطاتنا اليومية. والتأمل هو الخطوة التالية. فبالنسبة لأولئك الذين يهتمّون به، ويتجرأون على الشروع به، يكون التأمل هو التدريب العميق الذي أسماه دالاي لاما مؤخراً "نزع السلاح الداخلي"، والذي يمكّننا من التدخل السليم في الموضع الذي فيه يبدأ العنف، في الجذر ذاته للأفكار العدائية، ألا وهو إحساسنا بالانفصال. وليس هناك شكّ، وأيّاً كان الطريق الذي نسلك، سواء كان مؤثراً على سلوكنا أو من خلال نظام التأمل المباشر والأكثر صعوبة أو كلاهما (صيغتي الشخصية)، بأنّ العقل يبقى حاذقاً ومقاوماً للتصحيح. تلك هي طبيعة التأمل، وهو ليس سهلاً على أيّ منا لكنه ممكن من خلال التدريب، كما جاء في الجيتا. وكلما أحرزنا تقدماً على هذا المسار ستكون إحدى المكافآت الناتجة هي إمكانية أن يصبح اللاعنف طبيعة ثانية لنا. وهي مكافأة "ذات حدّين": فالتدريب يهدّئ العقل، والعقل المسالم لا يستطيع إلا أن ينعكس قوة متناغمة على العالم المحيط به. وذلك التأثير على الآخرين هو ما بوسعنا تحويله إلى التالي، لكنّ هذا كان مدخلاً مكثّفاً جداً وما زال يحتاج إلى بعض التلخيص.

كشف الغطاء

يبدأ اللاعنف ككفاح داخلي، وعلى وجه الخصوص ككفاح لكبح الغضب والخوف والجشع من دفعنا على التصرّف. وهو كفاح له منافع شتى بالنسبة للفرد، ويؤدّي إلى إحساس مبهج بالغاية التي نفتقدها في أحيان كثيرة في حياتنا الحديثة. لقد كان الزوجان الهولنديان فوس من بين العديدين الذين أووا أطفالاً يهوداً إبّان الاحتلال النازي، مُعرّضين أنفسهم وأطفالهم للخطر. وجاء اليوم المحتوم عندما أتت والدة السيدة فوس لزيارتهم وانزعجت بشكل مفهوم من وجود لاجئين في المنزل يعرّضون أحفادها للخطر؛ فأوضحت لها ابنتها: "نحن نجد أنه أكثر أهمية بالنسبة إلى أطفالنا أن يكون لديهم والدان قاما بما أحسّا أنه يجب القيام به، وإن كلّفهما ذلك حياتهما؛ فهذا سيكون أفضل بالنسبة لهم مما لو لم نقم به لأنهم سوف يعرفون أننا قمنا بما شعرنا أنه يجب القيام به، وهذا أفضل مما لو تفكرنا أولاً بأماننا الخاص."[123] وأبدت الأم موافقتها.

إن هذا الشموخ البطولي من قبل أناس عاديين، هذا التمكين، يمكن أن يُنجَز أيضاً بعيداً عن مثل هذه الأزمات الحادة، خصوصاً مع التأمل، وحتى أحياناً من دون التأمل أو أنواع أخرى خاصة من التدريب. فالمرء يسمع هذا باستمرار من أعضاء عصابات سابقين أو من طلاب مثيرين للمشاكل في العديد من البرامج المنتشرة في مدارس وأحياء البلاد، والمُدارة من قبل أولئك الذين سعوا جهدهم للوصول إلى هؤلاء الشباب كي يجدوا لهم البديل. وغالباً ما يكتشف الشباب أنهم كانوا على الدوام يملكون مهارة أن يكونوا وسطاء، على سبيل المثال، لكنّ أحداً لم يلقنهم كيفية استعمال تلك المهارات، وحين يفعل

[123]- Fogelman. Op. cit, p. 178.

أحدهم ذلك نراهم يشعرون بإحساس مبهج بالكفاءة الذاتية التي هي، كما صاغها أحدهم، كـ"مناجم ذهب مخفية".

وفي حين أنّ مشاعر الخوف والغضب التي تسيطر على كل واحد منا من حين لآخر هي مشاعر طبيعية، فإنه من الطبيعي أيضاً بأن نرغب في التحكم بها. فمعضلة العنف، سواء كانت محسوسة في عقل المراهق فرانكلين سميث أم مُمارَسة من قبل أمة تستطيع أن ترى فقط خياراً قبيحاً بين فعل لاشيء أو فعل الأذية، تشكّل هي نفسها مؤشراً بأن ردّ الفعل "الطبيعي" للقتال أو للهروب ليس كل ما خزنته الطبيعة فينا. فوجود "مخرج حيث لا مخرج"، وقبل كل شيء الإحساس العميق بالمكافأة العاطفية التي يشعر بها الناس الذين اتبعوا هذا الطريق، يبدو وكأنه يقول إنّ هذا مسار، إن لم يكن هو المسار الذي وضعته الطبيعة في عقلنا أساساً.

إنّ التفكير باللاعنف كتجربة بالغة الذروة ومشروط ببعض الظروف، بالكاد يلامس السطح. فالعمل على اكتشاف ما كانت عليه هذه القوة وتحويلها إلى شكل صالح للاستعمال هو ما ينبغي أن يأتي لاحقاً؛ فالقمم تتلوها أودية، والفرص اللاعنفية المحتملة يمكن أن تكون غير متوقَّعة كلياً (كسرقة إيلين إيغان)، أو أن تكون مخاطرة محسوبة (كما في بيرمنغهام أو لاهور)، أو شبه منظّمة (كما في أحواض الملح في دهاراسانا). لكنّ هذه كلها تبقى مناسبات، وما نريده هو أن تصبح ممارسات القوة التكاملية هذه ثابتة وعادية كما أصبحت، بطريقة ما، ممارسات القوة التهديدية مُعتادة على مرّ السنين والقرون من التطور البشري.

لقد واصلنا الحديث عن مستويين من التدريب اللذين بوسعنا تطبيقهما فيما يتعلق بالردود التكاملية، كتدريب السلوك (ولدينا الكثير من القول حول دور الثقافة على هذا المستوى)، ومن ثم تدريب العقل نفسه، حيث تنمو بذور هذا السلوك.

ومن المحتمل أن غاندي، حين نتفهم ما كان مشغولاً به، كان الشخص الوحيد في العالم الحديث الذي جعل من هذا التدريب طريقة للحياة، بأكثر ما يكون عليه الوضوح والتنظيم، مُعدَّلاً باختبارات علمية لا تلين. وفي حين أنّ الكثير قد كُتب عن قساوة ونتائج حملاته العظيمة، سلباً أم إيجاباً، فإن الأبعاد الداخلية لكفاحه ونتائجها قد أُهمِلت نسبياً. وهذه الأبعاد، بالطبع، أكثر صعوبة من حيث التوثيق. فعندما شارك في مؤتمر الطاولة المستديرة في 15 أيلول عام 1931، من أجل "يوم في المحكمة" الذي عمل من أجله لثلاثين سنة، لم يكن لديه سوى بضع ملاحظات يقولها. وعندما سأله رونالد دونكان، الذي كان له شرف إيصاله إلى البرلمان في ذلك الصباح، عما ينوي قوله أجاب غاندي: "كيف لي أن أعرف؟ لستُ هناك بعد". ويُقال إنّ خطابه المُرتجل كان تحفة (لم تسمح السلطات بتسجيله). كيف لنا أن نوضح مقدرته الخارقة للطبيعة هذه؟ ومن أين حصل على طاقته اللامحدودة، وقدرته على الاستمرار في مواجهة الكوارث التي يمكن أن تطرح أرضاً أي شخص عادي، ماشياً بخطوته الجبارة وهو في السبعينات من عمره؟ وكيف جرّد نفسه من الكثير من الرغبات الشخصية والممتلكات "غير الضرورية"؟ ومن الخوف؟

وهناك لغز مثير آخر. فقد صدف لوالد أحد أصدقائي أن كان في الهند في الأربعينيات، في ذروة التوتر. وكان قد طُلب منه أن يحمل رسالة هامة إلى غاندي؛ فسألته عما كان انطباعه الرئيسي عن المهاتما كشخص، فقال بدون تردد: *"الصحة"*. فهو لم يكن قد رأى أبداً مثل هذه الصحة المتعافية الفائرة رغم أنه، من وجهة نظر طبية، كان ضغط دم غاندي في منطقة الخطر في ذلك الزمن الباعث على اليأس.

وفي حين أنّ غاندي معروف بشكل أفضل فيما يتعلق بمقاومته لنمط الحياة الصناعي من خلال البساطة و"تخفيض الاحتياجات" . كمعالجة بالصدمات لاقتصاديات الاستهلاك الحديثة . إلاّ أن ذلك كان مظهراً خارجياً لكفاحه فحسب. ورغم أنه نادراً ما كان يستخدم كلمة تأمل بذاتها (حيث كانت قد أصبحت كلمة غير معروفة حتى في الهند إلى حدّ أن ذكرها كان يمكن أن يُحدث شوائب من الاعتقاد الخاطئ)، إلا أنّ ممارسته المتحمسة وتوصيته فيما يتعلق بالتقنيات المترابطة كالصلاة وتكراره mantram (اسم الله) طبعت تعاليمه منذ فترته المبكرة. وفي حين أنه لم يقل حتى كلمة واحدة حول هذه المبادئ إلاّ أنّ علينا افتراض أنه مارسها ليس في حياته ومن خلال منجزاته فحسب، وهذه لا يمكن تفسيرها إلاّ بالافتراض أنه كان رجلاً ذا عقل مسكون بالسلام تماماً. فحياته كانت رسالته، ورسالته كانت "أنا هنا، الناشط الكامل، لكن الحقل الأول لعملي هو عقلي الخاص". فبشكل واضح، كان ينتمي إلى أولئك الذين يمارسون الكفاح الداخلي الذي نسيته الإنسانية على مر العصور. وشهادته الخاصة حول كيفية تحويل الغضب المؤثر عليه شخصياً هي ختام مناسب لهذه المناقشة عن مصدر اللاعنف، وأعتقد أن هذه الشهادة تميط اللثام عن أحد أهم الأسرار في حياة غاندي:

«ليس الأمر هو أني، على سبيل المثال، لا أغضب، لكنني أنجح في كل المناسبات تقريباً في إبقاء مشاعري تحت السيطرة. ومهما كانت النتيجة، هناك دائماً في داخلي كفاح واعٍ لاتباع قانون اللاعنف بتعمد وبلا انقطاع. فمثل هذا الكفاح يجعل المرء أقوى. وكلما أعمل على هذا القانون أكثر أحسّ بالبهجة في حياتي، وبالبهجة في مخطط الكون. إنه يمنحني سلاماً ويعطي معنىً لألغاز الطبيعة التي ليست لدي القدرة على وصفها.»[124]

[124] - Gandhi, M. K. *All Men are Brothers*. Ahmedabad: Navajivan, 1960, pp. 111f.

الفصل الرابع

"العمل" مقابل العمل

«تَذكَّر أنّ العنف فعّال، وأن العنف الكبير يعمل بشكل أفضل. ما من ثورة على الإطلاق استطاعت تجنب حدوث عنف هائل.» . توم ميتزغر، المقاومة الآرية البيضاء.

«يُجرِّب الناس اللاعنف لمدة أسبوع، وعندما لا "ينجح" يعودون إلى العنف، الذي لم ينجح لقرون.» . ثيودور روزاك.

قد يمنحنا اللاعنف إحساساً عميقاً بالغاية المفقودة في حياتنا الحديثة، فقد يكون مخرجاً صحّياً بعيداً عن استجابة "القتل أو اللوذ بالفرار" لكنه إن لم ينجح، فقد نتخلى أيضاً عنه على الفور. وينبّهنا ثيودور روزاك إلى إدراك أنه سواء كان اللاعنف ناجحاً أم لا؛ فإنه ربما يكون أقل بساطة بقليل مما قد يبدو للوهلة الأولى.

في هذا الفصل، أريد أن أقوم بأمرين: الأول والأكثر أهمية هو فهم ما يعنيه حقاً القول إنّ أمراً ما قد "نجح". وبكلمات أخرى، الوصول من المُبسَّط إلى إحساس واقعي بالفعل وبالنتائج. والثاني، وهو على نفس القدر من الأهمية تقريباً: توسيع حقل رؤيتنا فيما يتعلق بالأشكال المختلفة للعمل اللاعنفي. وبناءً على الأحداث التي أمعنّا النظر فيها للتو، سيكون من الواضح أكثر فأكثر أنّ اللاعنف هو أكثر من مجرد شكل من أشكال الاحتجاج. وهذا سيجعلنا ندرك المراد من ادِّعاء غاندي بأنّ اللاعنف هو "القوة الأعظم التي وُهِبتْ للبشرية"[125]

لكن بدايةً، لنقلب الطاولة على أصدقائنا الكلبيين ونتساءل: كيف ينجح *العنف* بشكل جيد؟

لقد حلّل عالما الاجتماع روبرت جيويت وجون لورانس التفكير الأمريكي بشأن العنف في كتاب تعليمي في السبعينيات بعنوان *النموذج الأسطوري الأحادي لأمريكا*.[126] وقد درس الكاتبان الترفيه والإعلان الشعبيين، بحثاً عما دعوه "نموذجاً أسطورياً أحادياً" للعنف، فوجدوا أنه يتلخص في شخصية واحدة تُمثِّل على نحو مُصغَّر أبطال الثقافة الشعبية في ذلك الوقت: سوبرمان (الرجل الخارق). فقصص سوبرمان، التي عثروا عليها، تُوالِد بصورة موحَّدة ثلاثة اعتقادات حول كيفية عمل العنف، بمعنى كيف يحافظ على القانون والنظام ويحمي الأبرياء:

---

[125] - غاندي

[126] - Jewett, Robert Lawrence John S. The American Monomyth. Garden City, NY: Anchor Doubleday, 1977.

1- لا يُساء استخدام العنف مطلقاً؛ فسوبرمان خَيِّر على نحو قويم، كُلّي العلم، ودوماً إلى جانب الحقّ.

2- العنف لا يسبّب أذى حقاً: إنه "طاهر"؛ فعندما ينقضّ سوبرمان على سيارة مليئة بالمحتالين الهاربين ويوقفها، يُهرول المحتالون خارجها مُعاقَبين لكن بدون جروح. وربما ينتهي الأمر بأحدهم بضمادة صغيرة على جبهته، لكن بدون ألم ولا معاناة . وبالطبع ليس هناك "ضرر مُلازِم". ولا يتأذّى المتفرجون عرضياً، حتى خلال مطاردة سيارة فائقة السرعة.

3- وقبل كل شيء، ليست هناك ارتدادات على الإطلاق. وليست هناك "ضربات ارتجاعية" على حد قول وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. فسوبرمان منيع (ما عدا في حالات عرضية يكون سببها نوبة دُوار)، ولذا حتى لو أراد المجرمون، فلن يتمكنوا من إلحاق الأذى به انتقاماً. لكنهم لا يريدون ذلك؛ فهم مُحيَّدون دوماً بصورة ناجحة. ووضعهم في السجن هي النهاية السعيدة للقصة، ونحن لا نسمع أبداً بما يحدث لهم داخل السجن . مثلاً، أن يتعلّموا تقنيات أكثر عنفية في السجن تتجلّى في البحث عن انتقام من المجتمع.

يا للروعة!

أمر لا يُصدَّق، فهذه الحكايا هي التي شكّلت طريقة تفكيرنا بخصوص العنف، ونُسخ أخرى منه ما زالت قيد العمل الآن. إننا نواصل الاعتقاد أنه بواسطة سلاح واحد أكثر نظافة، وبواسطة أداة واحدة أكثر قدرة على تقييد اليدين، وبزيادة سجن، ستتمكن الشرطة من وضع حدّ للجريمة واستعادة أمننا. لكن ذلك التفكير غير واقعي بقدر ما هي المجلات الهزلية التي استندت إليه جزئياً ربما.

في العالم الواقعي يُنجِز العنف غرضه المباشر، أحياناً على الأقل. لا شكّ في ذلك. ففي شباط 1991، قصف "المجتمع الدولي" العراق إلى أن أُجبِر الديكتاتور صدام حسين على سحب فلول جيشه المُنكسِر خارج الحدود الكويتية. وفي آذار 1999، أفلح قصف حلف الناتو لبلغراد في إيقاف العنف المتطرف الذي كانت صربيا قد أطلقت العنان له ضد الألبان في كوسوفو. نعم يمكن للعنف أن ينجح: هذه حقيقة؛ لكن هل هذا هو كل ما شيء فيما يتعلق به، وهل يغطي قوس التأثير هذا تداعيات العنف حقاً؟

ولأنّ وسائل الإعلام تُبرِز وتُعيد إبراز هذا الجانب الوحيد من القصة، فإننا لا نلاحظ بوضوح أن نتائج أخرى، وبعضها على غاية من الأهمية في المدى الطويل، تتموَّج كتلك التي يمكن لفيزيائي أن يدعوها "مخروط حدث" فعل عنفي يتّسع. ونحن لا نلاحظ أن معظم أصحاب البيوت الذين يقتنون أسلحة يُهزَمون أو حتى يُقتَلون من قبل دخلاء أكثر احترافاً بكثير، بالضبط كما (لا نلاحظ أن) الكثير من الناس الذين يُشهِرون بندقية أو سكيناً في بعض أنواع المشاجرات ينتهون ضحايا "حالات قتل مُعجَّلة". فنحن نادراً ما نفكّر بعدد الأسلحة المسروقة من المنازل أو بعدد الأطفال الذين يستخدمونها مع أصدقائهم. وقبل

كل شيء، لا نلاحظ بأنه في كل مرة "يفعل" فيها عمل عنفي – ودعني أكرِّر – بعض منها يسبّب مشكلة في مكان ما.

فإذا عرفنا أين ننظر، بوسعنا أن نرى المشكلة في كل مرة. هل يخطط المجرم الذي يقبع "بأمان" خلف القضبان لتحسين تسليحه في المرة القادمة؟ هل القصة المثيرة في الصحف تجعل أصحاب منازل آخرين يقتنون أسلحة ستؤدي في أربع حالات من خمس إلى إيذاء شخص من العائلة بدلاً من الهدف من اقتنائها؟[127] فإذا حسبتَ كل الوفيات العرضية والحوادث المؤسفة الأخرى الناجمة عن الاحتفاظ بسلاح في المنزل، نرى أنها أكثر شيوعاً بأربعين مرة تقريباً من سيناريو إخافة دخيل. وأخيراً، هل الحل العنفي، رغم "نتيجته" المُرْضية، والتي هي حقاً مجرّد خطوة فقط تؤدّي إلى الكثير من النتائج الأخرى، يرفع تدريجياً من مستوى العنف في المجتمع برمّته؟ نحن عادة لا نسأل حتى هذه الأسئلة، رغم أنها أسئلة تُحدِّد أي طريق نتجّه إليه حقاً: نحو الأمان أم نحو الموت، نحو الفوضى أم نحو السلم الاجتماعي.

خلال حرب الخليج 1991، سقطت القنابل "الذكية" كالمطر على العراق الأعزل أساساً، مُدمِّرة معظم البنية التحتية للبلاد (والكثير من أناسه الأبرياء؛ فقد أظهرت القنابل أنها ليست بذلك الذكاء) إلى جانب الأهداف العسكرية. و"بفعل" هذا العقاب غير المعقول، سحب صدام حسين في الحقيقة ما بقي من قواته في الكويت. أجل، لكن ماذا حدث غير ذلك؟ قُتل ما يقارب مائة ألف شخص، وأُحرِقت ملايين الغالونات من النفط في الهواء الطلق أو سُكِبت في مياه الخليج خالقة كارثة بيئية غير مسبوقة. وتقول التقديرات إنّ الحرب كلّفت العراق وحده 77 مليار دولار أمريكي.[128] وننتقل الآن إلى الجزء السيئ حقاً؛ فقد توفي أكثر من مئتي ألف طفل عراقي، إما أثناء القصف وإما على أثره، في حين ارتفعت نسبة وفيات الأطفال في العراق خلال الثمانية أشهر الأولى بعد الهجمات إلى 300 %. وتواصل موت الأطفال بسبب العقوبات الاقتصادية التي فُرِضت لإجبار الديكتاتور الجاحد على العودة إلى الصراط المستقيم، حيث كان من الواضح أنّ كل ذلك القصف لم يجعل الرئيس حسين يغيّر رأيه، بل أدى إلى تصلّبه فحسب. فلكي نحبِط مقاصد الحاكم العراقي بواسطة العنف، سبّبنا أعظم أزمة إنسانية – سيصفها البعض لاحقاً، كالمدّعي العام السابق رمزي كلارك، بأنها الجريمة الأعظم ضد الإنسانية – منذ الحرب العالمية الثانية. وهذه العاقبة لا يمكن أن تُهمَل لأنها ذات علاقة بمصيرنا.

لنتوقف هنا لنتساءل، باسم أي نوع من المنطق أوقعنا هذه المعاناة المروِّعة، سنة بعد أخرى، على هذا الشعب وعلى هؤلاء الأطفال؟ فالديكتاتوريون بالتعريف لا يهتمون برفاهية رعاياهم، وبالتالي

---

[127] - Kellermann, A. L., and others. "Gun Ownership as a Risk Factor for Homicide in the Home," *New England Journal of Medicine* 329, no. 15, (1993) pp. 1084-1091; also Somerville, Janice, "Gun Control as Immunization," *American Medical News*, January 3, 1994, p.7.

[128] هذه الصورة مصدرها لجنة التعويضات التابعة للأمم المتحدة، ويمكن الحصول عليها من العنوان التالي www.onog.ch/uncc/claims/e_claims حيث نجد أن تكاليف الحلفاء هي بحدود 60 بليون دولار لا تأخذ بعين الاعتبار تدخلات الأكراد أو المصاريف الحربية المستمرة.

بإيذاء رعاياهم.. في الحقيقة تمّت الإشارة أحياناً كثيرة إلى أنّ عقوباتنا أضعفت الشعب العراقي إلى درجة أنه لم يعد بوسعه مقاومة زعيمه القاسي حتى لو أراد ذلك: لقد قمنا بالعمل نيابة عنه.

كان بوسعنا توقّع كلتا هاتين النتيجتين لو أننا فهمنا فقط دينامية العنف، ولكننا أدركنا في حينه أنّ العقوبات القاسية التي تقتل الأبرياء تختلف كمّياً فقط عن القصف فيما يتعلق بنوع القوة المُطبَّقة، ولكن أدركنا أننا، في نهاية المطاف، قد قويّنا الحاكم المسيطر على العراق، ليس لأننا كنا نريد ذلك بل لأننا استخدمنا نفس النوع من القوة الذي استخدمه هو. لقد اعتمد على العنف، ونحن لم نأتِ ببديل.

عندما أطلق الرئيس جورج دبليو بوش عملية عاصفة الصحراء بكلمات رنّانة: "لقد بدأ تحرير الكويت"، أرادنا أن نفكّر بتحرير أوروبا من جيوش هتلر (كان الخط الرسمي منذ البدء يزعم أنّ العراق ينوي، وقادر بطريقة ما، على غزو العالم). وكان يمكن أن يكون أكثر حذراً بعض الشيء بخصوص سابقته التاريخية. فالهجمات الجوية الساحقة، التي أمر بها قادة الحلفاء الذين اجتمعوا في الدار البيضاء في العام 1943، كانت مجرد اختبار خُطِّط له من أجل تحقيق هدف تدمير الجيش الألماني وإزاحته وإضعاف الروح المعنوية للشعب الألماني بما يكفي لتقويض قدرته على المقاومة المسلحة. ونظراً لاستسلام الألمان الذين بقوا على قيد الحياة، فمن السهل إقناع أنفسنا أنّ القصف كان له التأثير المطلوب. ومع ذلك، وكما أشارت الكاتبة السلمية العظيمة فيرا بريتين مبكراً:

«لقد أثبت "الاختبار"، حتى الآن، أن القصف الجماعي لا يحثّ على الثورة أو يحطّم من الروح المعنوية؛ فالضحايا يكونون مذهولين، مُستَنزفين، لامبالين، ومنهمكين في المهام الفورية لتأمين الغذاء والملجأ. لكن ما إن يستعيدوا رشدهم، من بوسعه الشك بأنه سيكون هناك، في أوساط الأغلبية على أية حال، رغبة في الانتقام وعملية تصلّب، حتى وإن قُمِعت عن طريق الخوف لفترة من الزمن؟»[129]

فوفقاً للعديد من الدراسات التي أُجريت بعد الحرب، وبعد حروب أخرى، كانت نبوءة فيرا صائبة تماماً.[130] والمثير للانتباه على وجه الخصوص هو قصف أهداف مدنية في المقاطعة الحدودية الشمالية الغربية في الهند من قبل البريطانيين في العام 1930، والتي سيكون لنا مناسبة للعودة إليه، حيث «أُسقِطت 500 طن من القنابل على البَتْهانيين[131] ، إلاّ أنها لم تسحق معنوياتهم، بل ازداد عدد ذوي القمصان الحمراء من مئتين إلى 80000 شخص»[132]

---

[129] - Brittain, Vera. "Massacre by Bombing," *Fellowship* March, 1944, p. 50. Note p. 51: (her emphasis), *it is the infliction of suffering, far more than its endurance, which morally damages the soul of a nation*. This article was reprinted by *Fellowship* in 1996 and may be obtained from the Fellowship of Reconciliation. (see resource list).

[130] - For the studies done after the war, see Ernest R. May, *"Lessons" of the Past*. New York: New York University Press, 1973. See esp. p. 141f for striking cases of bombing having opposite results from those intended.

[131] . الأفغان المقيمين في الهند . المترجم.

[132] - . Tendulkar, D. G. *Mahatma: Life of Mohandas Karamchand Gandhi*. New Delhi: Government of India, 1951, p. 39.

لذلك لم تكن النتائج المشؤومة للقصف الهائل للعراق عرضية، أو لا يمكن التنبؤ بها. لقد كانت نتاج قواعد عامة وكانت متوقعة تماماً؛ فمن حيث المبدأ لا يؤدّي القصف إلى نتائج مُحقَّقة غير ملتبسة، ومن حيث المبدأ لا يؤدّي العنف بحدّ ذاته إلى نتائج جيدة قط، حتى وإن كان يؤدّي إلى بعض النتائج التي يمكن لأحد الأطراف أن يعتبرها جيدة. فالعنف قوة تدميرية من حيث المبدأ، وما من طريق لتجنب ذلك. ففي أيار من العام 2000، نشرت "نيوزويك" تقريراً لحلف الناتو كان محظوراً من قبل يوضّح أنه عوضاً عن شلّ قدرات الجيش الصربي السنة الفائتة (حيث دمرت فقط، على سبيل المثال، 14 دبابة، وليس 120 كما زُعِم من قبل) تمّ إرهاب السكان المدنيين، وقصف محطات التوليد والجسور والبنية التحتية الأخرى للحياة اليومية.

وكما قال الأستاذ بيبينسكي «الكائنات البشرية مُطوَّقة بإحكام بتيارات معاكسة من العنف والاستجابة»، ونحن دوماً، وفي كل لحظة، نؤثِّر على بيئتنا المحيطة بواسطة «خيارنا الديني العميق ما بين العنف وبين الديمقراطية». وما تزال هناك بصورة واضحة دوّامات وتيارات متعاكسة أُطلِقت عن طريق خيارنا في استخدام العنف في الخليج مثل: إضعاف معنويات الشعب العراقي، وما تتضمنه من "كراهية عميقة" تجاهنا في أوساط الشباب العراقي ، وتشنجات عنفية أُطلِق العنان لها ضد أكراد الشمال وضد شيعة الجنوب. كما يجب علينا أن نفكر أيضاً بالعالم الأوسع؛ فبعد فترة قصيرة من حرب الخليج، أطلق الصرب والكروات عنفاً لا نظير له ضد جيرانهم المسلمين. فهل كانت تلك مجرد مصادفة؟ أم أنهم استطاعوا التقاط رجْع صدى الوحشية التي انهالت على الشعب العراقي من قبل الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية برعاية الأمم المتحدة؟ القصف الذي لا يرحم، والمجزرة التي تعرض لها الجنود العراقيين وهم يحاولون الفرار من الكويت، ودفن آخرين بصورة وحشية في خنادقهم (بدون ذكر المعاناة المستمرة للأطفال).. كانت كلها أمثلة للمسلمين تقول إنهم لا يُعامَلون ككائنات بشرية. ونتساءل هل كان قصف مركز التجارة العالمي في نيويورك من قبل الأصوليين الإسلاميين بعد بضع سنوات على حرب الخليج مصادفة أيضاً، أم مجرد 9/11؟

وقد كان للصراع في الخليج نتيجة أخرى بالغة السوء وهي ليست موضع جدال، لمجرد أن نوليها لحظة تفكير: ففي كل مرة نستخدم فيها العنف لحل مشكلة، نرسل إشارة بأن العنف هو الطريق لحل المشاكل. وفي الحالة الراهنة، من الصعب أن نتجاهل تحجّر عاطفة الجمهور الأمريكي الذي تحوّلت الحرب بالنسبة له، عن طريق محطة CNN ومحطات إخبارية أخرى، إلى لعبة فيديو. ففي عالم العنف، كما رأينا، لا شيء أكثر خطورة من تسفيه حساسيتنا الإنسانية وفقدانها. لهذا السبب فإن مهمة اللا–عنف، التي هي في أغلب الأحيان إيقاظ الضمائر الهاجعة عن طريق جعل الناس يدركون الألم الذي يسبّبونه . أي جعلهم يشعرون بتعاطف مع هذا الألم، تصبح أكثر صعوبة من أي وقت مضى. فمنذ كارثة حرب الخليج، يستخدم الجيش الأمريكي بشكل متزايد ألعاب الفيديو لتدريب أفراده. ويزعمون . وأنا متأكد أنهم يصدّقون ذلك . أنهم يقومون بهذا لأن ألعاب الفيديو قد أصبحت واقعية بقدر واقعية المعركة

الحقيقية، لكني أدّعي أنهم، عن وعي أو من دونه، يقومون بذلك *لجعل المعركة تبدو واقعية بقدر ألعاب الفيديو*: بمعنى أنها ليست حقيقية على الإطلاق. وهم بصورة لا واعية يدرّبون أفراد الجيش ليس فقط على استخدام السلاح؛ فذلك هو الجزء السهل، لأن ما يقومون به على الدوام، وهو الأكثر صعوبة، هو إيصال الجنود إلى عدم الشعور بما يقومون به حين يستخدمون أسلحتهم ضد أهداف حية.

«ذات مرة التقيت أحد المحاربين القدماء في فيتنام على متن طائرة – كتب هنري نووين – فأخبرني أنه شاهد الكثير من الناس يُقتَلون على شاشات التلفزيون إلى درجة أنه كان من الصعب عليه أن يصدق أن أولئك الذين قتلهم ***(هو)*** لن ينهضوا ثانية في الفيلم القادم.»[133]

الحرب غائمة جداً في العوالم اللاواقعية إلى درجة أننا نستنتج ربما، مع سيمون فايل، أن "الحرب بحدّ ذاتها غير واقعية".

لن أُسهِب في الحديث هنا عن دور وسائل الإعلام لأنه معروض بشكل جيد في كتب المُقدَّم ديف غروسمان[134]، لكن النقطة التي يجب تذكُّرها هي أننا عندما نُهيّئ الناس للحرب، فعلينا أن نجرّدهم إلى حدّ ما من إنسانيتهم. وهذه كلفة غير مرئية وعسيرة لمنظومة الحرب، وللعنف ككلّ إلى حدّ ما.

استخدمتُ فيما سبق صورة ملائمة من الفيزياء هي "مخروط الحدث"، وهي الكيفية التي يصف فيها الفيزيائيون الطريقة التي يتشعّب بها أي حدث . لنقل: انبعاث أشعة غاما من جُسيم يخبو . في المستقبل، مُغيراً النماذج ومُعدِّلاً الأحداث التي تبدو غير مترابطة من حيث الزمان والمكان. عندما تنظر إلى مخروط حدثه، فإن الحدث العنفي يبدو أقل "جراحيةً" بكثير. ويمكن أن يكون له أيضاً "تأثير الفراشة" بحيث يولّد أحداث فوضى متعاقبة. ويبدأ إحساسك، بأن العنف قوة مُعطِّلة وليست بناءة، في التوضح بمعقولية أكثر بكثير.

يحاول كينيث وولتز، في دراسته الكلاسيكية *الإنسان والدولة والحرب*، إظهارَ أنه مهما كانت الحرب والعنف باعثين على الأسى، فإنهما أحياناً يصونان "النظام". وأنت يمكن أن تعتقد ذلك بالتأكيد، وقد استشهد، لسخرية القدر، بالقمع الدامي لتمرد المورو الأخير في الفيليبين كمثال (وهذا ما شدّ انتباهي: فجدّي خدم في الوحدة التي اعتقلت مقاتل المقاومة الفيليبيني الشهير: إيميليو آغوينالدو في العام 1901). وقال الأستاذ وولتز إنّ الحرب ربما تكون عملاً شنيعاً لكنها مهّدت الطريق لـ"نظام مستقر" في ذلك البلد تحت حكم فرديناند ماركوس![135] وقد انهار نظام ماركوس "المستقر" بقسوة في شباط 1986؛ وورث خلفاؤه المشكلة مع المورو لأكثر من عشر سنين. وبحسب المصطلح الموفَّق لروزاك «الحرب "فعلت"

---

[133] - Henri J.M. Nouwen, "Saying No to Death," in Walter Wink, editor, *Peace is the Way*, Maryknoll, New York: Orbis Books, 2000, p. 144.

[134] - Grossman, Lt. Colonel Dave. *On Killing: The Psychological Cost of Learning to Kill in War and Society*. New York: Little, Brown and Company, 1996; Grossman, Lt. Col. Dave, and Gloria DeGaetano. *Stop Teaching Our Kids to Kill: A Call to Action Against TV, Movie and Video Game Violence*. New York: Random House, 1999.

[135] - Waltz, K. N. *Man, the State, and War: A Theoretical Analysis*. New York: Columbia University Press, 1959 (1964), p. 231.

لكنها لم تنجح»، إذ لم يكن لها نتائج ناجحة طويلة الأمد. وقد كرّر غاندي مراراً: «الثورة العنيفة ستجلب حكماً ذاتياً عنيفاً [نظاماً]». ليس ربما، وليس أحياناً: فهو كان يقصد ذلك كقانون. لأن الأمر قد يستغرق فترة طويلة أحياناً لكي تنضج هذه النتائج غير السعيدة، ومن ثم علينا أن نكون مستعدين لرؤية العلاقة، لأنها موجودة.

والمشكلة ليست فقط مع الحرب. ونكرر، المشكلة هي في طبيعة العنف بحدّ ذاته. فعلى سبيل المثال، تعتقد غالبية الأمريكيين أن عقوبة الموت تردع جرائم القتل، بيد أنه في واحدة من الدراسات القليلة الجديرة بالثقة حول النتائج الفعلية لعقوبة الإعدام وُجِد أن تطبيق عقوبة الموت يزيد من حوادث القتل بنسبة تقارب 2%. فالدولة تدمّر حياة بشرية لكي "ترسل رسالة" إلى القتلة بالقوة لكنها في الواقع لا ترسل رسالة واحدة بل رسالتين متناقضتين بطريقة ما. فعلى المستوى الواعي تكون رسالتها بشكل رئيسي حول الجزاء والإنذار، لكن على مستوى أعمق تكون رسالتها، لسوء الحظ، حول استهلاك الحياة البشرية، واستحالة إعادة استيعاب شخص عنيف في المجتمع. عنوان الدراسة هو "الردع أم التوحُّش".[136] ومن الواضح أن الرسالة الأعمق، كالمعتاد، أكثر فاعلية بعض الشيء، أو أنها أكثر من بعض الشيء؛ فكما أشارت الأخت هيلين بريجين، تُنفَّذ أحكام الإعدام في تكساس أكثر من أية ولاية أخرى، «ومع ذلك يبقى معدّل الجريمة من أعلى المعدلات في البلاد».[137] أما في نيويورك، حيث لم يعد يُطبَّق حكم الإعدام، فقد انخفض معدّل الجريمة على نحو مثير في الأشهر الأربعة الأولى من العام 1992، وبشكل أكبر عن طريق توسيع أكثر للإجراءات الوقائية في مناطق أخرى تسيطر عليها الجريمة. وهذه المناطق الأخرى، على سبيل المصادفة، هي المناطق التي تستطيع الولاية تحمّل إنشائها حين يتوقف صرف 2.3 مليون دولار على كل حالة إعدام.

وكلما نظرنا عن قرب أكثر بدا بوضوح أنّ اعتمادنا على العنف هو أكثر إشكالية. فالعنف، مع كل مضاعفاته السيئة الكثيرة، طريق زَلِق يصعب السير فيه. ونحن لدينا في أغلب الأحيان شعور بأنّ العنف ينجح، لكنّ هذا الشعور لا يستند إلى حقائق، وأعتقد أننا لا ننظر أيضاً إلى تلك الحقائق عن قرب لسبب بسيط وهو أنها تخبرنا بأن العنف لا يحمينا بشكل جيد *لكننا لا نعرف ما الذي يفعله*، لذلك فإن تلك الحقائق تقلق راحتنا، وتسود قواعد تنافر إدراكي، وتبقى الحقائق مُغيَّبة.

... لكنه أيضاً "يفعل".

---

[136] - Bowers, Wm. J. Pierce Glenn. "Deterrence or Brutalization: What is the Effect of Executions?" *Crime & Delinquency* 26, no. 4, (1980) pp. 453-84.

وهذا لم يتغير بعد مضي 20 عاماً، حسب ستيفن ميزانير، وهو عالم في علم الجرائم في SUNY في ولاية ألبانيا، " من الصعب وَفع (؟) قضية حول أي أثر رادع" وفق الإحصائيات الأخيرة لـFBI .

SEE R. BONNER AND F. FESSENDED, "DEATH PENALTY NOT FACTOR IN HOMICIDE RATES," *SANTA ROSA PRESS DEMOCRAT*, SEPTEMBER 22, 2000, P. A16

[137] - Prejean, Helen, C. S. J. *Dead Man Walking: an Eyewitness Account of the Death Penalty in the United States*. New York: Random House, 1993, p. 232.

وأي شخص يفعل ما أفعلُه يصبح بدوره مُحبَطاً ويائساً ومُضحِكاً من اليقين الذي يتحدث به الناس عن أن اللاعنف لا ينجح. فلو أن المتطوعين اللاعنفيين حاولوا التوسط بين القوى المتعادية في يوغسلافيا السابقة، كما قال لي أحد الأشخاص، لكانوا في عداد الشهداء فحسب. وقال آخر بالقدرنفسه من اليقين: «كانوا جميعهم سيُرمون بالرصاص». وحتى ذلك الوقت الذي كانوا يدلون فيه بتلك التصريحات (في لقاء للمعهد الأمريكي للسلام في واشنطن في ربيع عام 1993)، كان شخص واحد فقط قد قُتِل وجُرِح ثلاثة في كل تاريخ الاعتراض اللاعنفي، وهو تاريخ يعود إلى أوائل القرن شارك فيه عشرات الآلاف من المتطوعين غير المدرّبين كما يجب. ففي هاييتي، وبعد مرافقةٍ للناس المهدَّدين دامت ما يقارب العشرة أشهر، تحدّى سبعون متطوّعاً من ألوية السلام الدولية الميليشيات شبه العسكرية وعديمة الرحمة، FRAPH، بدون التعرّض إلى إصابة واحدة. وأثناء كتابتي هذه، لم يُقتَل ولا متطوع (دقّوا على الخشب) خلال عقد ونصف من القيام بهذا العمل الرفيع، والصدامي أحياناً، لكارين ريد وسو سيفيرين في أمريكا الوسطى، ولم يُختطَف أو يُقتَل أيّ من الذين كانوا يرافقونهم.[138] وأتساءل: «كم من الجنود المُدجّجين بالسلاح وكم من رجال العصابات قُتِلوا خلال تلك الفترة؟» ذات مرة، وبعد أن ألقيت كلمة منذ بضع سنوات في كلية محلية حول كفاح الهند في سبيل الحرية، اعترض عليّ أحد الطلاب بقوله: وماذا عن عشرات الآلاف الذين قُتِلوا؟ وعندما سألته عمّ كان يتحدث، بدأ بالاستفاضة عن مشاهد مذابح مروّعة كان قد شاهدها في مكان ما. وقد ظهر أنه رآها عن حق . في خياله. وخارج المجزرة الحقيقية عام 1919 في جاليانوالا باغ في البنجاب، وما حدث في بيشاور في الثلاثينات (والتي من المحتمل أن لا يكون هذا الطالب قد عرف عنها)، لم يُقتَل ولا ساتياغراهي تقريباً في الاثنتين والثلاثين سنة من الكفاح القاسي الذي أداره غاندي في الهند. لقد مات بضعة أشخاص خلال عشر سنوات من العصيان المدني في أنحاء الجنوب نتيجة ثلاثة ليالٍ من الاضطرابات التي عمّت واتس، لكن لم تحدث أي من الوفيات السابقة أثناء تظاهرة لاعنفية.[139] لقد آن الأوان للقيام بتفحّص واقع الثقافة.

فـ"أفعال المحبة" التي تظهر في حالة بالغة الذروة من ضبط النفس *تفعل*، (فتؤثر) على الحالة النفسية للفاعل وما يليه، في "مخروط الحدث" من تغيرات اجتماعية. وبشكل عام، بوسعنا القول إنها تعمل على ثلاثة مستويات:

1- تُقنع الناس – في أغلب الأحيان – بأن يتحولوا إلى الطريقة التي نريدهم أن يتحولوا إليها.

---

[138] - رغم أن منظمتها لم تكن تقوم بمرافقة لطرف ثالث، فإن راشيل كوري، المتطوعة في صوف حركة التضامن الدولية في الأراضي المحتلة، توفيت في آذار 2003 في قطاع غزة وهي تحاول بكل شجاعة منع تدمير بيت فلسطيني. كما قتل أيضاً شابان من نفس المنظمة.

[139] - Martin Luther King, Jr., in Washington, James M. *A Testament of Hope*. San Francisco: Harper SF (1986), p. 56.

في الصفحة السابقة يشير كينغ إلى أن القناص أوستن في جامعة تكساس، قتل خلال يوم واحد أكثر بكثير مما سببته المظاهرات العنيفة في هارل عام 1964

2- على عكس كل التوقعات، هي لا تؤدي في أحيان كثيرة إلى القتل كما يفعل العنف؛ فليس هناك "ضحايا حالات قتل مُستعجلة". وبكلمات أخرى، يمكن للاعنف أن يكون خَطِراً، لكن ليس بالقدر الذي يكون عليه العنف.

3- وأخيراً، إنها تفعل على مستوى أكثر عمقاً وهو بالضبط ما يخفق العنف في التعويل عليه؛ فكل مرة يستخدم فيها شخص ما اللاعنف الحقيقي تجري الأمور بشكل أفضل، ويتقدم النظام إلى الأمام نحو سلام مستقر، سواء أنجز الفاعل هدفه الفوري أم لم ينجزه.

وسنستكشف بالنسبة لما تبقى من هذا الفصل، هذه الادعاءات بينما نحاول استكمال صورتنا عما يبدو عليه اللاعنف في "العالم الواقعي" للسياسة والتاريخ، لذا دعونا نفتح الملف.

التعمق في الحالات

أودّ أن أبدأ، رغم بعض الهواجس، بحدث مثير جداً. إنها الهواجس، لأنني أعرف كم يسهل الدخول في ذروة مَشْهديّة وإغفال سنوات التحضير التي سهّلت ذلك الدخول، ما يعني إغفال الخلفية الجوهرية التي تنبثق منها اللحظة اللاعنفية. فقد أخبرني صديق لي كان راقص باليه في مطلع شبابه أنّ مارغو فونتين كانت ذات مرة مغمورة بإعجاب بعض المشجعين. وقالت الآنسة فونتين: «حين ترى كل هذه "النعمة" العفوية، كل هذا الجمال "التلقائي"؛ ستدرك معنى ساعات العذاب المطلق التي عانيته من أجلها». لا أريد أن نُغفِل سنوات التدريب اليَقِظ، ومع هذا دعونا نبدأ من ذروة كفاح الحرية في الهند في 21 أيار 1930، عندما مشى أكثر من ألفين من المتطوعين العُزّل من السلاح باتجاه بوابة مصنع ملح دهاراسانا في غوجارات فتلقّوا ضرباً مبرحاً من قبل الحرّاس طوال اليوم. وكان هذا الحدث، الذي أعاد تمثيله السير ريتشارد أتنبوروغ بشكل مبدع في فيلم *غاندي*، وكما يتفق الكثيرون، ذروة ساتياغراها الملح وجزءاً مهماً من كفاح الحرية ذاته. وعندما رأى المراسل الصحفي الأمريكي ويب ميلر موجة إثر موجة من المتطوعين العزّل، في فرق مُشكَّلة من 25 شخصاً، يتقدّمون تحت وابل من الضربات دون أن يرفعوا يداً لحماية أنفسهم، أبرق: «خلال ثمانية عشر عاماً من العمل الصحفي في اثنين وعشرين بلداً، لم أشهد مطلقاً مثل هذه المشاهد الفظيعة». ومع ذلك استمروا في التقدّم، عمداً تحت الضرب، مع استراحة قصيرة خلال فترة الظهيرة لتلقّي الإسعافات الأولية وتجبير عظامهم المكسورة.

والحقيقة هي أنْ ليست هذه "الغارة" فحسب بل كامل حملة ساتياغراها الملح كانت، تقنياً، فاشلة بالمطلق. وما عدا بضعة تنازلات لا تُذكَر انتُزِعت من الحكومة بخصوص قوانين الملح القائمة، لم يبدُ أن شيئاً قد تغيّر. ومع ذلك نحن نعرف الآن أن هذه الذروة الدامية جعلت حرية الهند أمراً محتوماً لأنها أظهرت ما كان يفعله المتطوعون الساتياغراهيون، وما كان يفعله النظام الاستبدادي للحكومة التي فرضها

البريطانيون على الهند. فعندما جاءت الحرية، بعد ست عشرة سنة، كانت معاناة الـ320 متظاهراً الذين أُدخِلوا إلى المستشفى والقتيلين قد أثمرت.[140]

وإذا كان غاندي قد لاحظ بسخرية مُرهفة أن الحملة التي قامت بأعظم عمل لم "تفعل" البتة، فإنّ ذلك لم يقلقه لأن هذا يوضح على نحو كامل طريقته في العمل الناجح، الذي استقاه مباشرة من البهاغافاد جيتا وهي: استخدام الوسائل الصحيحة من أجل قضية عادلة وترك النتائج بين يد الله. وفي تعبير آخر، إذا وظّفت طاقة جيدة في موقف، فيجب أن تتلوها نتائج جيدة، في مكان ما.

لقد عاين كل من يعمل من أجل اللاعنف هذه الظاهرة، وإن كان عادة على مقياس أصغر. فقبيل اندلاع الحرب في كوسوفو في آذار 1998، أرسلت مجموعة أعمل معها ستة مراقبين إلى المنطقة لمنح دعم أخلاقي وبعض التدريب اللاعنفي للطلاب الألبان الذين كانوا يتظاهرون ضد سوء المعاملة القاسية التي كانوا يتعرضون لها من قبل النظام الصربي. وصدف أن كنتُ عائداً من دينفير بعد يوم من وصولهم إلى بريشتينا، وبالمصادفة المحض التقيت برئيس هيئتنا ينتظر الطائرة نفسها للعودة إلى سان فرانسيسكو. فرحّب بي ستيف بحذر قائلاً: «هل سمعت الأخبار؟ ديفيد [مديرنا التنفيذي] مُعتَقَل: إنهم جميعاً في السجن». وقرأنا التفاصيل من حاسوبي المحمول: لقد أخفقنا؛ فكل المجموعة اعتُقِلت بتقنية بسيطة وحُكِم عليهم بالسجن عشرة أيام في سجن صربي، يليه إبعادهم. وما كنا لا نعرفه هو أنّ المُلحَق في السفارة الأمريكية كان حاضراً جلسة التحقيق معهم، فأخذت الأحداث مجراها لمصلحتهم. وفي غضون ساعات، بدأت صور الأمريكيين الستة، برؤوسهم الحليقة، بالظهور على شبكات الأخبار العالمية. وفي الوقت الذي وصلنا فيه إلى سان فرانسيسكو، كانت الصحافة في حالة استنفار قصوى. وأُطلِق سراح أصدقائنا في صباح اليوم التالي وعادوا إلى واشنطن ليعقدوا مؤتمرات صحفية ويقوموا بزيارات لأعضاء مجلس الشيوخ. وفي اليوم التالي، كان فريق التصوير يطرق باب مكتبنا الصغير جداً، وكانت كوسوفو محور أخبار العالم. لم يكن في الحدث ما يشكل منعطفاً كبيراً؛ فـ"المجتمع الدولي" (وأضع ذلك دائماً بين مزدوجتين، لأنه ليس مجتمعاً إلى حدّ بعيد) فشل بالكامل في مواجهة الرئيس سلوبودان ميلوسيفيتش وترك الكوسوفيين لمصيرهم فحسب إلى أن ساءت الأمور أكثر ما أدى إلى استخدام القصف (الذي جعل الأمور أكثر سوءاً). لكن عليك أن تكون واقعياً ومتواضعاً. فنحن كنا مجرد حفنة من الناس المحليين المجهولين على بعد عشرة آلاف ميل، نشتغل بالقليل من المال، ومع ذلك نجحنا، إلى حدّ يتجاوز أحلامنا، في جذب الانتباه العالمي إلى وضع فظيع. وبعد سنتين، طبعاً، أسقطت انتفاضة يقودها الطلاب، فيما أصبح يُعرف اليوم بتمرد أوتبور، سلطة الرئيس ميلوسيفيتش خلال يوم واحد . وهي نتيجة لم يحققها قصف حلف الناتو خلال أحد عشر أسبوعاً.

---

[140]- Nanda, B. R. *Mahatma Gandhi.* Delhi: Oxford University Press, 1958, p. 167.

خاصية أخرى تستحق الاهتمام: ألا وهي أن مهندس كل ساتياغرها الملح، غاندي، قد أقسم اليمين قبالة الملح في تلك الفترة.

جزء من المشكلة هو أن حجم اللاعنف هائل جداً؛ فنحن مثل النمل الذي يزحف فوق جوليفر الجبار. فلا أحد، ولا حتى غاندي، كان بوسعه إدراك الأمر برمتّه على التو. فعليك أن تخطّط لكيفية عمله من زوايا مختلفة، مثل ذلك الشكل الشعبي للعبادة الهندوسية المُسمّى "*أراتي arati*"، حيث تأخذ كافوراً مشتعلاً أو مصباح زيت في يدك اليمنى وتحركه ببطء في دوائر حول رأس الإله الذي يُعبد وعنقه، سواء كان غانيشا أم الأم المقدسة، أو أياً كان. فأنت تكلّله (أو تكلّلها) بالضوء. وعندما يُنجَز هذا العمل في حَرَم معبد، أو في غرفة العبادة داخل منزل غير مُزوَّد بالكهرباء، تعطي الظلال المتبدِّلة فيما أنت تنير الصورة المقدسة من كل زاوية انطباعاً مميّزاً من الحركة، ويعود جانيشا حيّاً.

ولإضاءة الصورة المُبجَّلة للسلام علينا أن نتحرك أيضاً بوقار حولها، وعلينا رؤية جمالها من كل الزوايا. هذا هو السبب الذي جعلني أتجرأ على وضع إحدى تجاربي الخاصة الصغيرة جنباً إلى جنب مع "*اختبار مع الحقيقة*" العظيم في دهاراسانا. فكلاهما يوضح، رغم عدم تكافئهما، كيف تبدو القوى الأعمق سائدة وموجِّهة للجهود اللاعنفية نحو نتائج خيّرة، وإن ليس مُتَنبَّأ بها دوماً. وسأشارككم بعض الأمثلة عن اللاعنف (ثلاثة منها ذات شأن وأخرى إضافية لم يكن بودّي مقاومتها) وهي مختلفة عن بعضها البعض قدر الإمكان – متباعدة إلى حد ما وتشمل دائرة واسعة من الاحتمال. فمع بعض الخيال، يمكن للسلام أن يأتي حياً إلينا.

استعادة خديعة هتلر: مظاهرة سجن روزينستراس

«لم يكن بوسع اللاعنف العمل ضد النازيين». يجب أن يؤخَذ هذا الاعتراض الروتيني بجدّية لأن ما يعنيه الناس به حقاً هو أنه نظراً لأن اللاعنف لم يعمل ضد النازيين – أي، نظراً لأنه حالة ضعيفة جداً بحيث لا يمكنها العمل ضد مُقابِل قوي – فعلينا الإبقاء على حالة العنف للعودة إليها. لكن إن فعلنا هذا، لا يبقى للاعنف عمل؛ فاللاعنف زائد العنف، أو اللاعنف مع جهوزية العنف، ليس لاعنفاً على الإطلاق. وهذا ما يجعل الاعتراض، لو كان حقيقياً، خطيراً للغاية.

وعلى أية حال، هناك أمور عدة خاطئة في هذا السياق. أحدها هو كيف يمكن لشيء ما ألا يعمل حين لا يكون قد جُرِّب؟ ومع استثناءات قليلة جداً، فإن أحد الأمور التي نحن على وشك التفكّر فيها هي أن الأسلحة فقط التي استخدمها الناس ضد النازيين كانت إما سلبية وقد قادت إلى كارثة، أيّاً كانت مبررات تبنّيها، وإما كان عنفاً، والذي كما بدأنا نتعلّمه اليوم، ناجحاً نجاحاً مُتصدِّعاً. فالاعتراض على أن اللاعنف لا يعمل قائم على مجرد تخمين؛ لا بل على ما هو أسوأ من ذلك لأنه مُضلِّل.

في برلين العام 1943، وفي عطلة نهاية أسبوع كئيبة أواخر شباط، اكتسحت قوات الشرطة والجستابو الشوارع الباردة واعتقلت من تبقى من اليهود، ومعظمهم من الرجال الذين كان قد تم غضّ الطرف عنهم عموماً لأنهم كانوا يهوداً "أنسباء للآريين"، أي متزوجين من نساء غير يهوديات. وكما قد يتخيل الكثيرون تماماً، لم تكن هناك سوى مقاومة ضعيفة لهذا التجميع والسَوق غير المتوقعين. وأُخِذ

المعتقلون إلى مبنى ضخم، كان قد تحوّل مؤخراً إلى سجن روزينستراس، الذي كان يبعد بضعة مبان عن المقر الرئيسي للجستابو، دون حصول أية حادثة تُذكَر. لكن في ميونيخ، وقبل أسبوعين فقط، أُتهِمت حركة "الوردة البيضاء" الطلابية بالضلوع في مؤامرة ووُجِّهت إليها تهمة الخيانة، ما يعني عملياً أن جميع أعضائها الشباب كانوا في طريقهم إلى المقصلة. لكنّ "الإذاعة اليهودية" في برلين، وهي ما تبقى من شبكة الهاتف اليهودية الرسمية، باشرت اتصالاتها، وفي غضون ساعات كانت زوجات المُعتقَلين، وفي بعض الحالات، أمهاتهم على علم بمكان اعتقالهم. وما حدث حينه لم يكن قد حدث ما يماثله من قبل تحت الحكم النازي. وبحلول الصباح التالي، تجمّعت نساء من كل أنحاء المدينة في مركز معتقل روزينستراس، «كما لو أنّ الأمر كان استجابة لدعوة، أو مُرتَباً مسبقاً»، مطالبات بإطلاق سراح أحبّائهن.[141] وتحدّين طوال اليوم الأوامر بالمغادرة. وبينما كانت أعدادهن تتكاثر إلى ما يقارب الستة آلاف، واتت الشجاعة السجناء أنفسهم وبدأوا بالصراخ عبر النوافذ ذات القضبان مطالبين بإطلاق سراحهم. كان عَرْضاً مُربِكاً بشدة. وكما ذُكِر، فإن مقرّ الجستابو كان على بعد بضعة مبانٍ فحسب، حيث كان يمكن لرشاش أو رشاشين تنظيف الشارع من مثيري الشغب هؤلاء، لو لم يكن هناك شيء في العالم سوى القوة التهديدية.

ولعدة سنوات، قدّمت هذه الحادثة جواباً على الحكم الحتمي بأنه «لم يكن بمستطاع اللاعنف العمل مطلقاً»، إلخ.، لأن المظاهرات عملت في الحقيقة. فقد خلقت معضلة مستحيلة بالنسبة للنظام، وفي غضون بضعة أيام كانت عيون رجال الجستابو هي التي ترمش بذعر، وليست عيون النساء. وبحلول يوم الأحد كان الرجال أحراراً، و قد أُبعِد بعض منهم إلى معسكرات اعتقال. وطُلِب منهم عدم التحدث مطلقاً عما شاهدوه هناك، وبعجالة وُضِعوا في قطارات متّجهة إلى برلين، بعجالة كبيرة إلى حدّ أن بعضهم لم يتمكّن حتى من استرداد ملابسه الخاصة.

لقد اعتقدتُ حتى فترة قريبة، مثل كل الآخرين الذين عرفوا بالحادثة، وحتى معظم الألمان، أنه قد تم إعادة اعتقال الأبناء والأزواج "ذوي الصلة بالآريين" فيما بعد بشكل هادئ فرادى وجماعات، ولم يكن ثمة من منقذ لهم حين ذاك. ولذا، حققت المظاهرة نجاحاً مثيراً للإعجاب، لكنه لم يكن نجاحاً دائماً؛ فقد "عملت"، لكنها لم تعمل. ولم يكن لها تأثير قوي على مجمل النظام. أو هكذا اعتقدنا.

في العام 1996، ظهرت دراسة مُطوَّلة بعنوان رائع، *مقاومة القلب*، توثّق ما حدث فعلياً، ليس في برلين فحسب، بل في باريس ومدن أخرى فيها أيضاً كميشلينغ Mischling، واجهت مشكلة "السلالات المختلَطة"، حين كان كل مركز قيادة محلي ينتظر بقلق توجيهات العاصمة الألمانية. والكتاب مليء بتفاصيل آسرة حول جنون منطق التفكير النازي، وتناقضات العنف – على سبيل المثال، رفض الفوهرر نفسه اتخاذ أي قرار. فقد كان، صاحب "الإرادة المتعصّبة" والذي "أنقذ الأمة الألمانية"، كما تفاخر ذات

[141] - Jochheim, Gernot. *Die Gewaltfreie Aktion: Idee und Methoden, Vorbilder und Wirkungen*. Hamburg-Zurich: Rasch und Röhring Verlag, 1984, p. 262.

مرة، مشلولاً. فقد أصابه اللاعنف بالشلل. وعلى أية حال، المفاجأة الكبيرة هي أن كل الذين انتزعهم أحبّاؤهم المتظاهرون أمام روزينستراس من بين أنياب الموت نجوا من الحرب. وكذلك زملاؤهم في باريس وفي العواصم الأخرى التي كانت واقعة تحت سيطرة الاحتلال النازي. أي بكلمات أخرى، تم إنقاذ عشرات الآلاف من الناس بفعل هذه المظاهرة المرتجلة التي قامت بها نساء غير مُدرَّبات، نساء كنّ يعشن منذ أكثر من عقد من الزمن تحت سلطة نظام إرهاب استبدادي لم يشهد له العالم الحديث مثيلاً إلا نادراً. لم يتم اختبار اللاعنف تقريباً ضد النازيين، لكنه عندما جُرِّب أحرز نصراً مدويّاً.[142]

ويثير نجاح المظاهرات تساؤلاً مُربِكاً: لماذا توقّفت المظاهرات؟ لماذا لم يرَ أحد ثغرات الدرع الفاشي التي كشفتها هذه الحادثة؟ ومن المحتمل، كما أشارت الدراسة، أنّ سبب الحادثة الذي تم تجاهله تماماً يكمن في هذه النتيجة، وهي أنه إذا عملت مظاهرة واحدة، فربما عملت أخريات أكثر. وتصوّروا لو أن المظاهرات كانت قد بدأت في وقت أسبق...؟

وبدلاً من الاستنتاج أنه تمّ إغفال هذا الحدث بصمت لأن نجاحه حرك البعض، أفضّل أنّ الرأي المترفّق، والأكثر عملية، بأن التعتيم عليه لم يكن جُبناً أخلاقياً بقدر ما كان جهلاً ثقافياً. فأنت لا "ترى" ما يقدمه لك نموذج آخر.

لم تُعوِّق المقاومة في مركز مُعتقل روزينستراس بحد ذاتها الطاغوت النازي بشكل ملحوظ. لكن هل كنا نتوقع ذلك؟ فمن غير المحتمل أن تعرف من حفنة من المتظاهرات اسم القوة التي كنّ يستخدمنها، والأقل بكثير منهن كن يعرفن كيفية البناء عليها. وكعصيان ناضج، كان الأمر طبعاً صغيراً جداً، ومتأخراً جداً. ومع ذلك، تكشف أحداث عطلة نهاية الأسبوع تلك عن مبدأ لاعنفي صلب: فمن خلال فعل شجاع للتضحية بالنفس، أعادت المتظاهرات ولو مؤقتاً الصفة الإنسانية للسجناء اليهود – أحبائهن – إلى القلوب المتحجرة لرجال الجستابو. فالحشد الضخم للنساء المتظاهرات لم يكن محرجاً بحيث منع ارتكاب مجزرة في وضح النهار فحسب، إنما هو لا بدّ ضرب بقوة المُعمّيات الإيديولوجية للنازيين.

ولكن لا حاجة للتذكير بأنّ النساء لم يكنّ إجمالاً مدربات على مثل هذا النوع من المقاومة. فالتدريب على اللاعنف كان صعباً في برلين في الأربعينيات! لكن يمكن أن بعضهن كنّ مدركات لما كان يجري حقاً في الهند وكنّ يحلمن بتطبيقه في ظروف بلادهن. وربما كان البعض منهن هناك عندما تنازل الفوهرر بالظهور سريعاً مع مقاتل الحرية الهندي اللاغاندوي، سُبهاس شاندرا بوس، الذي كانت طريقته في محاربة البريطانيين هي الانضمام إلى قوى المحور. وهكذا، مثل الذين دون قيادة أو حُسن فهم لكيفية المضي إلى الأمام، لم تكن النساء قادرات بشكل طبيعي على الإفادة من اكتشافهن. ولذا "فعلت" مظاهرتهن التلقائية، بمعنى أنها أنجزت النتيجة المطلوبة مباشرة ولكنها، على ما يبدو، لم تفعل

[142] - Stoltzfus, Nathan. *Resistance of the Heart: Intermarriage and the Rosenstrasse Protest in Nazi Germany*. New York: Norton, 1996.

الكثير (بلا مزدوجتين) من أجل تغيير النظام، لأنه مهما بلغت ذروة شجاعة المتظاهرات في تلك المناسبة، فإنه لم يكن لديهن أية فكرة عن كيفية تحويل تلك المظاهرة إلى حركة، سواء بإحداث تحول أكثر ديمومة في داخلهن أم كنوع من التنظيم الخارجي. لهذا السبب، بوسعنا القول إنها لم تكن ذات تأثير ملحوظ طويل المدى. لكن الأمر لم يكن على هذه الشاكلة في الحدث التالي الذي أودّ أن أتفكّر فيه.

قديس أوشفيتز

في أوشفيتز، ذات يوم من صيف عام 1941، تمكن سجين بولندي من الهرب من المبنى رقم 14. وكانت العقوبة الروتينية لمثل هذا الحدث هي أخذ كل من في المبنى، وهم عدة مئات من الرجال الذين كانت حياتهم معلّقة بخيط رفيع، وإجبارهم على الوقوف منتصبين حتى يتم اصطياد الهارب. وإن لم يتم العثور عليه، فسيقع الاختيار على عشرة رجال لوضعهم في "البونكر Bunker"، أي في زنزانة تحت الأرض دون طعام أو شراب، إلى أن يموتوا ببطء كالحيوانات الحبيسة في قفص. وكان ذلك أسوأ ما يمكن أن يحدث للمرء في أوشفيتز – وكان يُعبّر عن الكثير. وقد جاهد الحراس والسجناء على حد سواء للإصغاء إلى أصوات الجنود والكلاب الذين كانوا يفتشون المستنقع المحيط. مضت ساعات، وكان قائد الجستابو فريتش يتمشّى جيئة وذهاباً أمام السجناء كنواس الموت. وحين أُحضِرت الحصة اليومية البائسة من الشوربة أمر فريتش بإلقائها في البالوعة أمام أعين الرجال المتضورين جوعاً. وأخيراً، مع حلول المساء، أُعلِن أن البحث قد فشل. وواحداً إثر آخر، سُحِب عشرة رجال من الصفوف ليدفعوا حياتهم ثمناً لهروب رجل واحد يائس. "لتحيا بولندا!" – هتف أحدهم، وانهار رجل آخر يصرخ باكياً: "وداعاً يا زوجتي المسكينة، وداعاً يا أطفالي المساكين!"[143]

عندها، حدث ما لم يكن مسموعاً: فقد خطا سجين بهدوء خارج الصف وبدأ بالمشي باتجاه القائد. ولسبب ما، لم يُطلق عليه أحد النار، أما القائد فريتش فقد سحب غريزياً مسدسه لكنه صرخ فقط: "من هو هذا الـ Schwein البولوني؟" انطلقت الكلمة كرصاصة: إنه الأب كولب نيبوكالاناو الذي كان، طوال سنتين، رمزاً حياً للجَلَد والكرامة الإنسانية بالنسبة للمعسكر بكامله. وها هو الآن يمشي باتجاه القائد فريتش ويقول له بهدوء، وبلغة ألمانية صافية: "لدي طلب". وعندما صحا فريتش من الصدمة، قال بصوت أشبه بالنباح: "حسناً، ماذا تريد؟" فقال كولب بهدوء: "أودّ أن تسمح لي بالموت بدلاً من أحد هؤلاء الرجال". وفي نظر الإيديولوجيا النازية المغايرة لكل ما هو طبيعي، كان الكاهن وضيعاً بقدر ما كان اليهودي تقريباً. فلبّى فريتش الطلب بازدراء، مُسيئاً فهم قوته كلياً. والنتيجة كانت أن عاش الزوج والأب، العريف فرانسيزك غاجونيتشيك، الذي كان قد بكى. وبعد ثمانية أيام موجِعة أُعدِم الأب كولب

[143] - Lorit, Sergius C. *The Last Days of Maximilian Kolbe*. New York: New City Press, 1988, pp. 15f.

بحقنة غازولين. (أما فرانسيزك غاجونيتشيك فقد توفي مؤخراً عن عمر ناهز الثالثة والتسعين في مسقط رأسه برزيغ، بعد أن شهد في المؤسسة البابوية لصالح كولب كشهيد للكنيسة).

سنكون مُسوِّغين أن نصور هذا الفعل بأنه ذروة الرسالة الروحية للأب كولب. وماذا كان أثر تضحيته النهائية غير المتعمدة؟ وأي خير فعل؟ فيما يلي شهادة شاهد عيان، جورج بيليكي:

«كانت صدمة كبيرة للمعسكر بكامله. لقد بتنا مدركين أن شخصاً مجهولاً كان موجوداً بيننا في هذه الليلة الروحانية... يرفع من معيار المحبة، شخصاً مجهولاً، كجميع الآخرين... شخصاً واجه موته المروّع من أجل شخص ليس حتى قريباً له. ولذلك بكينا.. كلا ليس صحيحاً أنّ الإنسانية مُتلَفة ومُمرَّغة في الوحل... لقد كان آلاف السجناء مقتنعين بأن العالم الحقيقي مستمر في الوجود وأنّ جلادينا غير قادرين على تدميره... لذلك، من التبسيط كثيراً القول بأنّ الأب كولب مات من أجل واحد منا أو من أجل عائلة سجين – كان موته خلاصاً للآلاف.[144]

وتعبير "خلاص الآلاف" ليس مجازياً هنا. فبالنسبة لك وبالنسبة لي، لا يشكل مزاج يتأرجح صعوداً أو هبوطاً مسألة حياة أو موت؛ لكن، بالنسبة لسجين في أوشفيتز هذا بالضبط ما كانت عليه الحال. وكما يعرف كل طبيب، عندما يكون شخص في مرحلة حرجة من المرض، يمكن لإرادة الحياة أن تُحدث فارقاً بين الحياة وبين الموت، وفي معسكرات الموت كان كل واحد مريضاً بصورة حرجة. فالسجين/ة الذي فقد / أو فقدت الرغبة في الاستمرار ينهار على نحو مرئي ويموت عموماً خلال أسبوعين.[145] ومن المحتمل تماماً أنّ الآلاف، وليس العريف غاجونيتشيك فحسب، كانوا سيموتون بطريقة ما في ذلك الجحيم البشري الصُنع، فواتتهم شجاعة الاستمرار في العيش، وفي بعض الحالات العيش حتى رؤية يوم التحرير.

ولذلك يبدو أنّ اللاعنف كان فعّالاً ضد النازيين؛ ليس في إنقاذ حياة الأب كولب بالطبع (وهذا لم يكن غرضه)، وليس في إنقاذ حياة سجين واحد آخر *فقط* (وهذا كان غرضه)، بل في إطلاق الجزء المُقوِّم المحرَّم – الأمل – وسط كابوس حالة التجرّد من الإنسانية التي حاول النازيون إيقاع ملايين العقول في شراكها.

وقد تم القيام بهذا من قبل رجل واحد لا يملك أية موارد خارجية، ومع ذلك، وبمعنى من المعاني، كان ما فعله أكثر فاعلية من مظاهرة روزينستراس التي قام بها ستة آلاف من المواطنين الأحرار (من الناحية التقنية على الأقل)، لأن ما يمنح فعلاً لاعنفياً قوته هي درجة التضحية وليس عدد الضحايا.

---

[144] - Treece, Patricia. *A Man for Others*. San Francisco: Harper and Row: San Francisco: Harper and Row, 1982, p. 178.

[145] - Frankl, Viktor E. *Man's Search for Meaning: An Introduction to Logotherapy*. Ilse Lasch, translator. Boston: Beacon Press, 1959, p. 102.

لفتت محررتي الرئيسة، برناديت سمايت، نظري إلى أن تصرف النساء في معسكرات الاعتقال كان أفضل من الرجال، وهذا ليس لأنهن كنّ يعاملن بشكل أفضل من قبل السجانين إنما لأنهن اهتممن ببعضهن بشكل أفضل: باتقاط القمل من رؤوس الأطفال، والتحدث إلى بعضهن البعض، والتلامس، وبناء مجتمع كان بوسعه إعطاء كل واحد رغبة أكبر في الحياة.

ولتفكّر بما كان الأب كولب ثائراً ضده. إنه طموح هتلر المُعلَن "في تهيئة جيل من الشباب المجرّد من الضمير متغطرس، عديم الشفقة وقاسٍ" كالعديد من حراس أوشفيتز الذين كان بعضهم قد جُرِّد من إنسانيته على نحو ممنهج منذ أن كان طفلاً. لكن الأب كولب كان يدرّب نفسه بشكل منظَّم منذ أن كان شاباً. وفي أوشفيتز، تحمّل إساءات بالغة دون أن يستسلم للكراهية؛ لقد كان لديه إيمان شديد بأن هناك حقيقة عليا رحيمة وراء المظاهر كلها، وهذه كانت في حالته مريم، أم الإله، (كما كان يؤمن) أنّ هذه الحقيقة موجودة حتى لدى مضطهديه، رغم عدم إدراكهم لها بالكامل. لذا كان حرفياً صنواً لهم. وكانت إنسانيته، إن استعملنا تعبير غاندي، "مكافئاً رياضياً" لإنسانيتهم.

وحالما نعرف ما ينبغي البحث عنه، لا يعود من الصعب كثيراً تمييز القوى التحتية التي تحدد نتائج عمل لاعنفي. وربما لو امتلكنا هذه المعرفة بشكل أفضل لكنا قادرين على تقييم مثل هذه الحالات بدقة أكثر، أو حتى التنبؤ بنتائجها. أمر واحد مؤكد: هو أنّ اللاعنف كان فعّالاً ضد النازيين. لقد عمل بشكل متناسب مع ميزان القوة الإنسانية وعلى الجانب الآخر من التجريد من الإنسانية كمحاولة لكبحها. وسيعمل اللاعنف دوماً ضد المضطهِدين – شريطة أن ندرب أنفسنا كما دربوا هم أيضاً أنفسهم[146].

لأنه لابد أن يكون واضحاً الآن ما الذي جعل ثيودور روزاك يضع كلمة "يفعل" بين مزدوجتين عندما كتب أن الناس يقولون أن اللاعنف لا "يعمل". فمن بالغ الأهمية أن يكون واضحاً ما نعنيه حين نقول إنّ أي فعل هو فعل سواء كان فعالاً أم لا. فإذا كنا نعني بذلك، هل عمل بالضبط كما أردنا، أي فوراً وبوضوح؟ عندها، أجل، فإنّ اللاعنف لا "يعمل" أحياناً. لأنه، على سبيل المثال، لم ينقذ حياة الأب كولب. لكن إذا كنا نعني، هل كان له تأثير إيجابي طويل الأمد على كامل النظام، وربما تأثير لم يتنبأ به الفاعل؟ عندها نحصل على جواب مختلف. ففي هذه الشروط بوسعنا إعداد افتراض مركزي حول الفعالية اللاعنفية مقابل الفعالية العنفية مما يشكل مفتاحاً لفهم الموضوع برمته:

اللاعنف "يفعل" أحياناً ويفعل على الدوام بينما العنف "يفعل" أحياناً لكنه لا يفعل مطلقاً، لأننا نسمع أحياناً تنويعة شائعة تقول إنه "لم يكن بمستطاع اللاعنف أبداً العمل ضد النازيين"، بمعنى، "أنه لم يعمل بالتأكيد ضد النازيين!" والناس الذين يقولون هذا يفترضون أنّ الملايين التي لاقت حتفها في المحرقة كانت "لاعنفية". لكن، وكما بيّنا فيما سبق، من بالغ الأهمية أن نكون واضحين بشأن الفارق بين السلبية وبين اللاعنف. هل كان الأب كولب "سلبياً" عندما خطا ليواجه الموت من أجل كائن بشري آخر آخر، وبالتالي أربك النازي بالكامل؟ لأنه وبعيداً عن الأحداث المعزولة وغير المعروفة إلا قليلاً كالحادثتين اللتين ذكرناهما للتو، نادراً ما جُرّب اللاعنف الفعال ضد النازيين أو ضد أيٍّ كان في النصف الغربي من الكرة الأرضية. فقد أصدر الطلاب في ميونيخ المنتمين إلى "الوردة البيضاء"، على سبيل

[146] - For other examples of non-violence in WWII, see Roger S. Powers, William B. Vogele, editors, *Protest, power, and change: an encyclopedia of nonviolent action from ACT-UP to women's suffrage*. New York: Garland, 1995, and Muller, Jean-Marie, *Vous avez dîtes, "pacifisme"?: de la menace nucleaire à la defense civile non-violente*. Paris: Cerf, 1984, esp. pp. 251f, 265 & 279.

المثال، وريقات تدعو إلى "المقاومة السلبية"؛ لكن لم تكن لديهم سوى فكرة ضئيلة عما كانت تعنيه المقاومة السلبية، من دون حاجة إلى ذكر الاختلاف الدقيق بل والهام بينها وبين اللاعنف الفعال.

كلا، لقد كانت السلبية هي التي جُرِّبت ضد النازيين. ومن القسوة على ما يبدو القول، بأن المرء كان سلبياً في مواجهة عدوان كهذا، فحين نكون سلبيين بدافع من الخوف، عندها نساير العنف ونمتثل لمنطقه. وهذه ليست إدانة لأحد ممّن وقع في مثل هذا الشرك. فالقول إنّ أحداً ما كان سلبياً لأنه لا يعرف أنّ هناك بديل لذلك ليس كالقول إنه (أو إنها) كان على ضلال أخلاقياً، وهذه لغة نادراً ما أستخدمها على أية حال، لأنه لا ينبغي إدانة أولئك الذين وقعوا ضحية مثل هذه المأساة، بل يجب فهم الخيارات المتوفرة والتي ستجعلهم لا يقعون في مثل هذا الشرك من جديد. فالشرك الذي نُصب لليهود، الذين كانوا "أنسباء الآريين" في برلين في السابع والعشرين من شباط 1943، كان حصيلة عنف تواصل عملياً، دون معارضة، ولعقدين من الزمن؛ ما يعني أن السلطة، التي أُجبِرت على إبقاء أنيابها بعيدة ما سمح لبعض الضحايا بالإفلات من ذلك الشرك، كانت قوية، على الأقل في تلك اللحظة. فما الذي منح هؤلاء النسوة – اللواتي كن من دون قيادة أو تنظيم أو تدريب، وربما غير مُدرِكات لما يعنيه ما كنّ يقمن به – القوة لكي يجابهن الجستابو؟ إنها المحبة لأزواجهن وأبنائهن. وربما بوسعنا التفكير بالرابط بين الزوج والزوجة، وبين الأم وابنها – فقوة المحبة هي التي تجمع "نواة العائلة" – هي إن فكرنا بنفس المنطق، "القوة الشديدة" التي تتضمنها نواة الذرة: وهذه تتبدى أحياناً حين نحاول تمزيقها.

وهذه الاعتبارات تأخذنا إلى مُكوِّن هام في العلم اللاعنفي وغالباً ما يتم نسيانه من قبل الذين يعترضون بأنّ العنف "لن يكون فاعلاً" ضد خصم شديد العنف؛ فما يشكّل الفارق الكبير هو أن النازية استمرت عملياً بدون معارضة لفترة طويلة.

وقد ارتأيت أنّ من المفيد التفكير بالطريقة التي يُغذّي بها العنف نفسه، من خلال تصعيد النزاع، كذروة منحنٍ، حيث مرسوم للزمن أن يعمل ضد الكثافة – وهي كثافة لا تقاس بعدد الأسلحة إنما بدرجة التجريد من الإنسانية، التي هي المقياس الأكثر تعبيراً عن العدوانية. والأمر المهم الذي يجب أخذه بعين الاعتبار هو أنّ اللاعنف، مثل العنف، يأتي بشكل متدرج. ففي حال العنف، ينتج الزمن مقاومة متحولة وطاقة أكثر نشاطاً. ولذلك، حين يُسمح لنزاع بأن يتواصل من دون رادع ينبغي أن "تتصاعد" درجة اللاعنف المطلوبة وفقاً لذلك؛ فكلما تمهلنا أكثر كانت قوة الروح المطلوبة أكبر.

ولأغراض عملية، بوسعنا القول إنّ الصراع يتصاعد وفق ثلاثة مراحل:

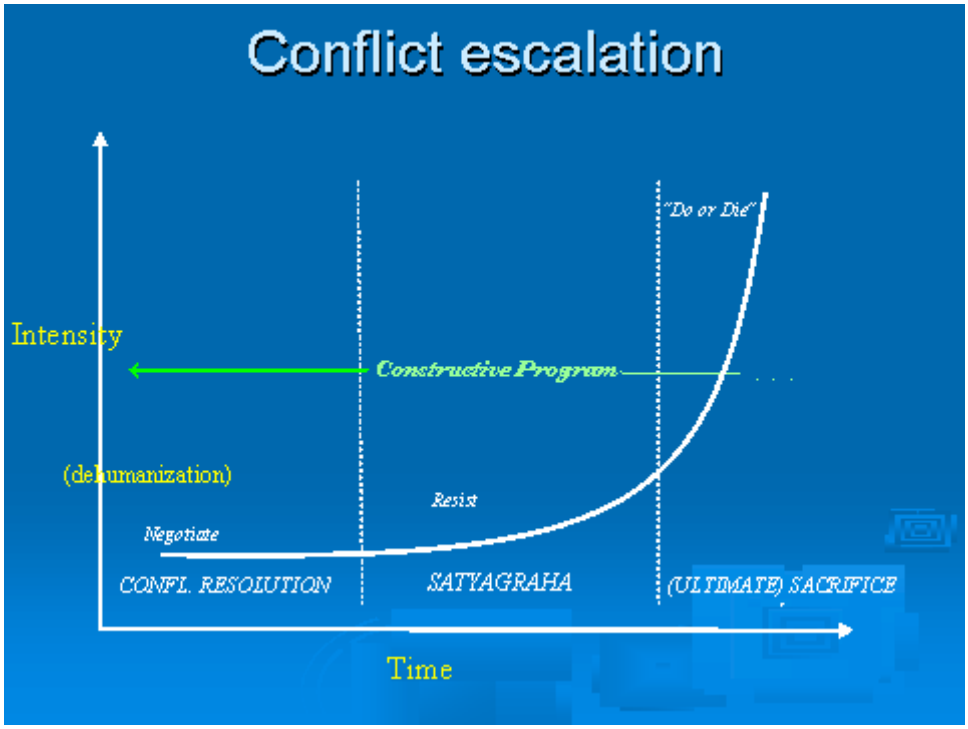

في المرحلة الأولى، يمكن حل النزاعات بنجاح عن طريق فن حلّ الصراع: هناك نزاع يسوء ربما، لكن الأطراف ما زالت قادرة على التوصل إلى حلّ، إما مباشرة وإما عبر وسيط، فمن خلال تقديم الشكاوى والتفاوض حولها ما زالت عملية **الأخذ والعطاء** محتملة. لكن يأتي وقت لا تنفع فيه هذه الطريقة. فكلما تعاظم الغضب خف "الاستماع"، ما يعني ضرورة استخدام نوع مختلف من القوة. وقد حدّد غاندي، مستخلصاً كالمعتاد من تجربته الخاصة، هذا الحدّ النفسي بشكل جيد:

«ليست الأمور البالغة الأهمية بالنسبة للناس مُصانة عن طريق العقل وحده وإنما ينبغي استخلاصها عن طريق معاناتها... فإذا رغبْتَ حقاً في أن يتحقق أمر هام، فعليك لا أن تلبي مطالب العقل فحسب بل وأن تحرك القلب أيضاً.»[147]

ما يعني بكلمة أخرى، أننا تجاوزنا الآن الحدّ وبلغنا المرحلة الثانية، التي هي منطقة الساتياغراها. فعند هذه النقطة علينا مناشدة "قانون المعاناة" الذي اكتشفه غاندي في جنوب أفريقيا، لأننا بحاجة إلى التواصل مع الطرف الآخر على مستوى أعمق من العقل. حيث يجب على أحد الأطراف أن يعيد الصحوة إلى خصم مُبعد بشكل جدّي عن طريق تحدّي الألم – أو على الأقل المخاطرة بقبوله – وعدم محاولة تجنب هذا التحدي. فالنساء في مركز معتقل روزينتسراس، على سبيل المثال، أظهرن أنه يمكن للمخاطرة بالعقوبة أحياناً أن تكون فعالة (وخاصةً حين تستلزم السيطرة على الخوف).

وقد تبنّى الأب كولب المبدأ نفسه ورفعه إلى درجة قصوى. فهنا أصبح التجرّد من الإنسانية حاداً جداً، وأصبحت علاقة القوة غير متساوية إلى حد كبير، وزمن الفعل قصير جداً، ما يعني أنه كان عليه

[147] - CWMG Vol. 54, p. 48 (*All Men Are Brothers*, p. 118).

التضحية بحياته ليُفعِّلها. وهذا يوضّح كيف يمكن تطبيق اللاعنف في ذروة منعطف حاد جداً، ما ينقلنا إلى المرحلة الثالثة، حيث لا يبقى سوى التضحية النهائية. وتأتي القوة مجدداً، كما صرّح غاندي مراراً، من *استعداد الساتياغراهي* للموت. وسواء كان سيموت (أو ستموت) فعلياً أم لا فهذا يعتمد على ظروف خارجية مختلفة، فهو (أو هي) لم يكن يُخادع. وعندما كان غاندي يصوم حتى الموت، لم يكن في الأمر خدعة، وإنما كان يمارس نكراناً زُهديّاً أسمى ويضع حياته على المحك، تاركاً لخصومه الردّ كما يشاؤون. (في حالته، كان خصومه يذعنون على الدوام، وإن كان ذلك أحياناً في اللحظة الأخيرة).

وأنا أجد أن هذا الرسم البياني يبين إلى حد كبير اعتراض "ما كان له أن يفعل أبداً"، ودون استثناء تقريباً، حيث يجب على أولئك المعترضين الذين يفكرون بوضع متطرف أن يتصوّروا أنفسهم فجأة وقد تأخروا كثيراً في اللجوء إلى اللاعنف – على سبيل المثال، حين تستمر أمة بكاملها في تجريد وعيها من الإنسانية لعقود، ودون أي عائق، فمن الطبيعي أنّ مثل هذا الواقع سيخلط الأوراق! فنحن في "المجموعة الدولية" عاجزون عن العمل في يوغسلافيا لأننا كنا بلا حول حينما استخدم السيد ميلوسيفيتش وسائل إعلامه المُدارة من قبل الحكومة لإقحام الصرب القوميين في هيجان الكراهية. كان يمكن للاعنف أن يكون أقل كلفة بكثير في العام 1918 أو 1920 – كما كان في الحقيقة خلال انقلاب kapp– أي في العام 1932. ومع ذلك، هناك طريق حتى يدخل اللاعنف اللعبة، وإن متأخراً. وهذا ما أظهرته لنا نساء روزينستراس وأظهره الأب كولب. فكيفية تفعيل اللاعنف ضد النازيين تعتمد على تصوّرنا لإمكانية تطبيقه ومن قبل مَن؛ فلا يبقى موضع التساؤل إن كان سيعمل. إنما الضمانة وعلى عكس ذلك تؤكد أنه سيفعل – وفي الحقيقة، لقد فعلَ.

قبل حوالي بضع سنوات – ورأيه ما زال فاعلاً – اعتبر الناشط المشهور والباحث ديفيد ديلينغر، الذي عنون سيرته الذاتية *من يال إلى السجن From Yale to Jail*، أننا ما زلنا نفهم اللاعنف بالطريقة التي كانت تفهم فيها الكهرباء أيام ماركوني وأديسون. وهذه المقارنة تصدمني لأنها صحيحة؛ فقد كان ماركوني وأديسون يعرفان أنهما كانا يتعاملان مع قوة طبيعية، تمتلك ولا بد قوة دفع عظيمة لم يُستغَل إلا القليل منها. وبالتدريج اكتشفا كيفية استعمال هذه القوة دون أن تسبّب الأذى. هذا بالضبط ما نتحدث عنه هنا.

وحين نقارن، على سبيل المثال، مظاهرة روزينستراس مع حدث متظاهري بيرمينغهام، فإنه يصبح بوسعنا أن نصقل، إلى مدى أبعد، إحساسنا حول الأمر الذي يصنع لحظة التفاعل اللاعنفية. فنساء برلين (كأمهات المختفين في الأرجنتين أو النساء بالسواد في إسرائيل أو في صربيا) كان لديهن دافع قوي: تلك "القوة النَوَويّة" المحرَّضة من خلال التهديد الشديد لأحبّائهن. ولم تكن حالة متظاهري بيرمينغهام كافية لكنس الخوف من النفوس، بل كانت هناك بضعة أمور أخرى عزّزت القوة اللاعنفية لفعلهم المرتجل. فلقد كانوا مُستعدين من أجل أمر واحد، وكانوا بأنفسهم على رأس التظاهرة، ولم تباغتهم الأحداث على نحو سلبي، وكانت لديهم ميزة وجود قيادة مُلهِمة، والأكثر أهمية هو أنهم كانوا يعرفون

أشكالاً معينة من الاستعداد. وعلاوة على ذلك، كانوا طائفة مؤمنة (والشكر مجدداً لقيادتهم) وقادرة على استلهام الأفكار والحكم من كفاح الحرية الهندي الذي، كما نعرف الآن، كانوا على تحاكٍّ واسع جداً معه.[148] كل هذه الأمور ساعدتهم على الارتقاء، بشكل جميل، نحو الفرصة غير المتوقعة للحظتهم اللاعنفية، ورغم أنهم لم يتكلوا على طاقاتهم الأكثر عمقاً بقدر ما فعلت نساء برلين، بمعنى يأسهن المطلق الذي نتخيله جيداً ربما. إلاّ أن التدريب المتواضع، والقيادة المُؤثِّرة، لمتظاهري بيرمينغهام مكّنتهم أيضاً من القيام بعمل حاسم لم يكن بوسع نساء برلين عمله: ألا وهو المتابعة. وربما كان هذا الاختلاف هو الأكثر أهمية من منظور التأثير المنتظم والمنهجي على المستقبل. ومثلها مثل العديد من الأحداث اللاعنفية التلقائية، نجحت مظاهرة بيرمينغام. وعلى خلاف العديد من المظاهرات الأخرى كانت بيرمينغهام جزءاً من حركة نجحت أيضاً إلى حد كبير، وقد نجحت ضد مقاومة يمكن مقارنتها بالنازية من حيث عنفها الإيديولوجي.

الاستحواذ عليها من القمة: التجربة المقدسة

تشترك الأحداث التي وصفناها في برلين وبيرمينغهام ودهاراسانا ببنية متماثلة، وهي نوع من الحدث الذي يربطه معظمنا بكلمة اللاعنف: بمعنى حركة احتجاج من قبل مجموعة مضطهَدة لمقاومة سلطة تعسّفية. وحتى في هذه الحال، وفي مجالات مألوفة، صادفنا الكثير من الأساطير والأوهام التي تتطلّب الإزالة، كالمثل القائل بأنّ اللاعنف "لا يمكن أن يكون فاعلاً" ضد خصم عديم الرحمة.

بوسعنا الآن أن ننطلق في أراضٍ أقلّ إلفة، أو، إذا شئتم، توسيع العدسات. فاللاعنف ليس فقط سلاح المضطهَدين، بمقدار ما بوسع الكهرباء أن تتبدى كومضات عظيمة من السماء، أو أن تفعل الجاذبية الأرضية على إسقاط تفاحة. فنحن كنا ميالين إلى عدم البحث عن اللاعنف في أي مكان، لأننا كنّا نعتقد أنّ الأقوياء ليسوا بحاجة إلى اللاعنف، بينما ليس لدى الضعفاء من مخرج آخر. والآن علينا التشكك في أنّ كلتا الفرضيتين خاطئتان.

طبعاً، يمكن للاعنف أن يأتي من "الأسفل"، لكنه يمكن أيضاً أن يأتي من المناصب العليا في السلطة. ولعل أمريكا الاستعمارية تفتخر بأحد أفضل الأمثلة المعروفة حول هذا. فقبل قرن تقريباً من الثورة، في آذار 1681، منح الملك تشارلز الثاني أمراً بأن يحكم وليام پين على أراضٍ شاسعة والتي تحمل اسمه اليوم (پينسيلڤينيا). وعلى خلاف معظم الاستعماريين، عبر پين الأطلسي حاملاً تفوضين اثنين: فبالإضافة إلى تشجيع الملك له كي يدير مستوطنة، حمل أيضاً بركات معلمه الروحي الذي كان واحداً من أكبر المنشقين في التاريخ البريطاني وواحداً من أكثر المروّجين الفاعلين للاعنف الراديكالي

[148] - Kapur, Sudarshan. *Raising Up a Prophet: the African-American Encounter with Gandhi*. Boston: Beacon, 1992.

إطلاقاً في الغرب، هو جورج فوكس، مؤسس مجتمع الأصدقاء. وقد استفاد پين من الفرصة لتحقيق ما يدعوه التاريخ الآن بـ"التجربة المقدسة": سبعون عاماً من الحكم وفقاً للمبادئ اللاعنفية.

وحتى قبيل مغادرته إنكلترا كتب پين رسالة، أصبحت الآن مشهورة، إلى رعاياه الجدد، هنود ديلوار، تشهد على مدى تقدّمه على عصره في المقدرة على التسامح (ومن المحزن، في تقدمه علينا في أغلب الأحيان). حيث كتب، في جزء من الرسالة:

«أنا مُدرك للقسوة والظلم الذي عانيتم منه كثيراً من قبل أناس من هذه الأصقاع من العالم... لكني أحمل إليكم عظيمَ المحبة والاحترام، وأطمح بأن أفوز وأنال محبتكم وصداقتكم، من خلال حياة كريمة وعادلة ومسالمة.»[149]

وقد أنجز پين هذا الأمر عملياً إلى درجة رائعة. فبكل الطرق الممكنة، ونظراً لعدم المساواة المتزايدة، سعى إلى الحد من استغلال السكان الأصليين من قبل الأوروبيين. و«كانت النتيجة سجلاً لا نظير له لحوالي سبعين عاماً من التعامل السلمي المتواصل».[150] وقد جعلت هذه التجربة اللاعنفية من پينسلفانيا نسبياً جنة للسكان الأصليين وللفاتحين، مقارنة بالخرائب الدامية للعلاقة التي حصلت في أمكنة أخرى، والتي ما زلنا مُثقَلين بتراثها.

في التجربة المقدسة، لم يكن اللاعنف (ولا حاجة للتذكير بأنّ الكلمة لم تكن معروفة في ذلك الزمن) تمرداً ضد سلطة مؤسّسة غاشمة بل كان سلطة هذه المؤسَّسة. والتجربة لم تكن عرضية أو تلقائية أو ناجمة عن غاية خاصة كما هي حال الكثير جداً من الفصول اللاعنفية حتى يومنا هذا، بل كانت موضوع الإيمان الجوهري لجورج فوكس، مؤسس علم اللاهوت الكويكري والتعاليم الاجتماعية. فأمريكا كانت موطناً للكثير من التجارب الطوباوية، وإن ليس للكثير جداً من الأنظمة الطوباوية، وخصوصاً تلك التي بوسعها أن تقدم نموذجاً – بوسعنا أن نستعمله – للحكم على نطاق قومي.

وقد عانت المستعمرة شتى أشكال المشكلات، بما في ذلك تلك الناجمة عن الاحتكاكات مع التاج، ولكن رغم هذه المشاكل أظهر المنزل الذي أشاده اللاعنف وفق المبادئ الكويكرية المبكرة أن بوسعه أن يكون فعالاً في كافة المجالات، بدءاً من الدفاع وصولاً إلى العدالة الجنائية. كما أظهر اللاعنف أيضاً أنّ النظام المبني على هذا المبدأ نظام متين. واستمرت التجربة إلى أن بهتت الرؤيا وفقد الحزب الكويكري تفويضه في صناديق الاقتراع. لكنه لم يُهزَم من قبل العالم المحيط ولا من قبل سلطة التاج الأعلى منها، فكلا الطرفين كان قائماً بشكل محزن على المبادئ التقليدية. فلسبعين سنة، سكن تحت سقف شرعي واحد مجموعة متنوعة من المستعمرين جاءوا من العديد من الأصقاع الأوروبية، ومن أديان عدة، وعاشوا في حالة رفيعة من الانسجام النسبي في ظل "القانون العظيم" الذي وضعه حاكمهم

[149] - Lynd, Staughton, and Lynd, Alice. *Nonviolence in America: a Documentary History*. Maryknoll, New York: Orbis, 1995, p. 2.

[150] - Trussell, John B. B.. *William Penn, Architect of a Nation*. Commonwealth of Pennsylvania: Pennsylvania Historical and Museum Commission, 1983, p. 37.

في العام 1682. وكان هذا القانون من نواحٍ كثيرة أكثر إنسانية من مشروع قانون الجريمة للعام 1991. ففي ظل هذا القانون، انخفضت حالات الإعدام من مئتي حالة إلى حالتين فقط – حالة خيانة وحالة قتل – وهي خطوة هائلة إلى الأمام بالنسبة لذلك العصر، الذي نرفضه الآن.[151] بل إنّ "القانون العظيم" ألغى حتى الحرب في السابع من كانون الأول العام 1682. (فلماذا لا يحتفل بهذا، بدلاً من الاحتفال بذكرى بيرل هاربر؟). لقد أنتج النظام الكويكري كلا النوعين، الداخلي والخارجي، من الأمن، وبقيت المستعمرة جزيرة سلام حين اكتسحت العواصف المناطق المحيطة مُخلِّفة رضوضاً في العلاقة بين العرقين الأحمر والأبيض، وحتى وقتنا الراهن.

بهذه الطريقة، وعلى الرغم من مشاكله، وضع النظام الكويكري على مدى سبعين عاماً «أسساً لما أصبح بعضاً من... المبادئ المرشدة للأمة كلها»[152] فأمريكا ككل تدين بعض الشيء للتجربة المقدسة التي كانت قائمة بشكل مُحكم على نماذج ومبادئ ندركها اليوم بوصفها لاعنفاً، والتي سعت إلى تطبيق تلك المبادئ في السياسة الاجتماعية والعدالة القضائية والتسامح الديني، وحتى في الدفاع الوطني.

وكما أعلن غاندي لاحقاً؛ فإن «اللاعنف الذي يبدو وكأنه مجرد مقاومة مدنية للسلطات، وأنه لا يمضي إلى ما هو أبعد من ذلك بالكاد يستحق اسمه»[153] فتحت قيادته، مضى غاندي إلى ما هو أبعد بكثير في الحقيقة، ومن ناحية علاقات القوة سار في ثلاثة اتجاهات. فبينما كان *الساتياغراهيون* الهنود يقاومون الحُكم البريطاني كانوا أيضاً، وبإصرار من غاندي، يحاولون أن يكونوا لاعنفيين تجاه الطائفة المسلمة التي تشترك معهم في تحمل عبء النير البريطاني، وتجاه "الطوائف المُدرَجة" كأدنى منهم وفقاً للتراتبية الاجتماعية الهندوسية القديمة. فإذا كانت مقاومتهم المناهضة للبريطانيين من الأسفل، ضمن الحيز السياسي، فإنهم كانوا أيضاً يعملون بشكل جانبي، وعلى نحو غير عنفي، تجاه المنبوذين السابقين الذين أعاد غاندي تسميتهم بالـ *harijans* أو "أبناء الله". وكان شعوره المبكر جداً بأنّ هاتين العلاقتين أكثر أهمية من اللاعنف في مواجهة الحكام، وأنّ علاقات حقيقية مع نظرائهم و"تابعيهم" الاجتماعيين – تلك الطبقة السفلى التي خلقوها بأنفسهم – كانت مطلباً أساسياً للتحرر من القبضة البريطانية. فاللاعنف هو قاعدة حياة، وليس قاعدة لنوع واحد فقط من العلاقة.

لم يُظهر غاندي نفسه أدنى ميل لاستلام أي منصب عام. لكن في الهند كان هناك، ولمدة طويلة، منقول للحاكم المثالي الذي يحكم رعاياه عن طريق القوة التكاملية بدلاً من القوة التهديدية، وهذا المثال كاد أن يصبح واقعاً على الأقل في حالة واحدة مشهورة كنتُ قد لمّحتُ إليها – عندما أشاد الامبراطور أشوكا، الذي دعاه هـ. جـ. ويلز بالامبراطور الأعظم في التاريخ، حكمه على المبادئ البوذية

[151] - This fact and the next from Brinton, Howard Haines. *Friends for 300 Years: The History and beliefs of the Society of Friends Since George Fox Started the Quaker Movement*. Wallingford, PA: Pendle Hall Publications and the Philadelphia Yearly Meeting of the Religious Society of Friends, 1965, pp. 151f and 79.
[152] - Ibid., XX.
[153] - CWMG, VOL. 79, P. 199.

في شمال وسط الهند. فقد اعتلى أشوكا عرش امبراطورية ضخمة خلفاً لوالده في العام 269 قبل الميلاد على الأرجح. وبعد أن مارس السلطة لحوالي ثماني سنوات تقريباً، حقق خلالها نصراً ثميناً، لكن بدلاً من أن يُدخِل هذا النصر الابتهاج إلى نفسه، فإن رعب الحرب أثقل على قلبه بسبب مشاهد الموت والمعاناة. فقد حوّلت تلك الرؤية غزواً عادياً إلى أزمة شخصية، ومطلباً ملحاً للغزو الذاتي، الذي كان مقدَّراً له أن يغير التاريخ. وكما وصفه الامبراطور:

«عندما كرّس الملك بريادارسي [أشوكا]، محبوب الآلهة، ثماني سنوات، غزا كالينغا، فأُسِر 150000 شخص هناك، وقُتِل 100000، ومات الكثيرون غيرهم. وبعد استيلائه على كالينغا مباشرة بدأ محبوب الآلهة في اتباع مبدأ الإستقامة Righteousness أي [*دهارما*، بمعنى أنه اعتنق البوذية]، وفي حب الاستقامة، وفي التبشير بها. فعندما يتم غزو بلد يُغلب الناس ويُقتَلون ويموتون أو يُؤخذون أسرى. وهذا ما وجده محبوب الآلهة مثيراً للشفقة والأسى إلى حد كبير... أما اليوم، ... فإن أضرّ به أي شخص فسيغفر له قدر الإمكان لأن محبوب الآلهة يتفهم حتى قبائل الغابات في إمبراطوريته، ويسعى إلى إصلاحها. بيد أن محبوب الآلهة ليس رحيماً فحسب، بل هو قوي، ويدعوهم إلى التوبة خشية من أن يُقتَلوا. ومحبوب الآلهة يرغب في الأمان وضبط النفس والعدالة والسعادة لكل الكائنات. ومحبوب الآلهة يعتبر أن أعظم انتصار على الإطلاق هو انتصار الاستقامة.»[154]

حكم أشوكا من العام 273 قبل الميلاد إلى حين مماته لأسباب طبيعية في العام 232 قبل الميلاد، موسِّعاً إلى حد كبير الأراضي الشاسعة التي ورثها عن جده الشهير شاندراغوبتا مويا. وكما يوضح هذا المرسوم، لم تكن لدى أشوكا أية نيّة للتخلي عن المسؤولية في صيانة عالمه، وهو، في الحقيقة، جعل هذا العالم أكبر لكنه لم يلجأ مرة أخرى إلى ممارسة العنف كوسيلة للغزو. لقد أظهر أنّ المرء في الحكم يمكن أن يكون براغماتياً ورحيماً معاً، وأظهر أيضاً أنّ الرحمة لا تأتي فقط عن طريق القوة، بل هي تنجب القوة. لقد كان وليام پين، وعبر اختبار هام، مُساهِماً أساسياً في إرساء فكرة "السلام الدائم" في أوروبا، لكن تأثير أشوكا تجاوزه لأنه ساهم في نشر البوذية في معظم أنحاء جنوب شرق آسيا.

ومن الممتع المقارنة بين هاتين التجربتين الواقعيتين وبين مصير النظام الطوباوي الذي وصفه ألدوس هكسلي في روايته *الجزيرة*، التي أسرت بقوة مخيلة جيل الستينيات. فصوفيتها المخدِّرة وتصويرها المحلق لحياة حرة خاطبتا جياع ذلك الجيل لكنها، من إحدى النواحي الهامة، أبقت، بشكل لاواعٍ، على نفس وجهة نظر العالم التي كانت تحاول الهروب منها. وتنتهي الرواية بهلاك يخيّم فوق فردوس الجزيرة، وهي على وشك أن تُقهَر من قبل دولة مجاورة. فالعالم الخارجي غيور من الجزيرة، وهو أمر واقعي بما فيه الكفاية. ولأنّ سكان الجزيرة غير عدوانيين فإنهم لا يمتلكون وسائل دفاعية. لكن الأمر ليس على هذا النحو؛ فلا التجربة المقدسة للامبراطور أشوكا ولا تجربة ويليام پين كانتا، كما رأينا، بلا دفاع أمام

[154]- Basham, A. L.. *The Wonder that was India*. Calcutta: Rupa & Co, 1967, pp. 53-55.

الضغوط الخارجية. ولم تكن لا توكوغاوا شوغونات المجرّدة من السلاح ولا كوستا ريكا المعاصرة – واحدة من اثنتي عشرة دولة قومية دون قوة دفاعية، وإحدى الدول القليلة جداً التي لا تعتمد على ترتيبات دفاعية مع أية دولة أخرى.

وفي الحقيقة، بوسعنا التحقق من شرعية خاتمة هكسلي الخيالية بطريقة أخرى. ففي فجر ذات يوم كان الغافيوتانيون، الذين استهلينا هذا الكتاب بإعطاء صورة عنهم، يستعدون للذهاب إلى العمل حين وجدوا أنفسهم أمام "زوار" من *القوات المسلحة الثورية الكولومبية*. حاولت هذه الوحدة المسلحة أن تشرح للطوباويين ضرورة الكفاح المسلح. وقال قائد الوحدة مجادلاً: "ليست هناك أرض محايدة في كولومبيا. إما أن تكونوا معنا أو تكونوا ضدنا". لكن الغافيوتانيين أجابوا: "نحن مع الناس، وليس مع السياسة". فتركوهم بسلام، وأُعطيت الأوامر لهم بعدم إلحاق الأذى *بلوس غافيوتروس* لأن هذه التجربة الأخيرة ثمينة جداً.[155] وعلى نطاق ضيق، يُظهر هذا الحدث مجدداً أنه فيما يتعلق بقوة اللاعنف، فإنه حتى خيال هكسلي لا يستطيع الذهاب بعيداً بما فيه الكفاية. ولذلك، نعم، اللاعنف لا "يفعل" – في الروايات، لكن نقص مناعته المزعومة لا يؤيدها منطق العلم أو حقائق التاريخ.

ربيع براغ

في ربيع العام 1968، أصبحت القيادة السوفييتية العليا قلقة إزاء الليبرالية "الخطرة" لسكرتير الحزب (الشيوعي التشيكوسلوفاكي) الكسندر دوبتشيك، والتي كانت تهدد بخلق نوع مختلف من الشيوعية في تشيكوسلوفاكيا. وكان ردّ السوفييت على "الإشتراكية ذات الوجه الإنساني" هو إصدار الأوامر لجيوش حلف وارسو للتوجّه إلى تشيكوسلوفاكيا. كان الخبراء العسكريون السوفييت يتوقعون أنّ الأمر لن يستغرق أكثر من أربعة أيام لإعادة تشيكوسلوفاكيا إلى الحظيرة، وكانوا مُحقّين وفقاً للمعايير العسكرية، لكن لم تكن تلك هي المعايير الوحيدة التي تسيّر العالم الواقعي. ولافتقارهم إلى سبيل عسكري للدفاع عن أنفسهم، لجأ التشيك بطريقة ما إلى شكل مقاومة مدنية شاقة – و – متحضِّرة، وتتميّز باللاعنف. لم يكن باستطاعتهم منع السوفييت من دخول بلدهم، لكن كان بوسعهم رفض الانصياع لأوامر حظر التجول، واستغلال الوقت للتمشّي في الشوارع وغرس الزهور في بنادق الجنود أو الخوض معهم في مناقشات حامية. كما غيّروا إشارات الشارع، وراقبوا الأرتال المدرّعة وهي تُقعقع بعيداً بلا هدف إلى الريف؛ ففي حادثة مماثلة، كان الجيش البولندي الذي دخل للغزو بكامله يضيع يوماً كاملاً وهو يستدير عائداً إلى حدود بلاده. (كان لي صديق في مكتبة براغ عندما توقفت دبابة روسية خارجاً. دخل أحد الجنود وانتظر

---

[155]- . Weisman, Alan. *Gaviotas! A Village to Reinvent the World*. White River Junction, VT: Chelsea Green, 1998, pp.112f.

كان باولو لوغاري نفسه قد خطفَتْه إحدى فرق حرب العصابات المسماة بـ M-19، لكنهم أطلقوا سراحه بعد أقل من يومين، بعد أن تعبوا من طاقته المتدفقة وحماسه (المرجع نفسه، الصفحة 101)

بنفاذ صبر دوره أمام الصندوق، ثم طلب خريطة للمدينة ودفع ثمنها بتهذيب بالعملة التشيكية). كما قام التشيكوسلوفاك بنشر وسائل إعلام بدلاً من الصحف ومحطات الإذاعة الممنوعة، كما وزع رجال الشرطة التشيكوسلوفاك الصحف غير الشرعية في سيارات دورياتهم؛ فهم لم يكونوا يدافعون عن أرضهم بل عن مؤسساتهم، ولم يقوموا بذلك عن طريق السلاح بل عن طريق خليط تشيكي مميّز من المرح والشجاعة والتضامن. وبقدر الإمكان، واصلت الحياة دورتها كما لو أنّ قوات الاحتلال لم تكن موجودة.

ونتذكّر أن التشيك لم يكونوا يتعاملون مع الجيش الروسي المثبط الهمة الذي غاص في مستنقعي أفغانستان والشيشان، وإنما كانوا يتعاملون مع نصف مليون من القوات العاقدة العزم، في حال صدور أوامر، على سحق ما كان يتم إخبارهم عنه، فالكثيرين ربما كانوا يصدّقون بأنهم يواجهون ثورة مضادة. ولمدة ثمانية أشهر كاملة، من 20 آب 1968 إلى 17 نيسان 1969، كانت هذه الجيوش مُحبَطة بسبب تعامل المواطنين غير المدرَّبين معهم، والذين أبقوا على حالة من التآخي مع الجنود كأناس في حين ظلوا بتصميم غير متعاونين معهم كغزاة. وبعد عشر سنوات، أفضى أحد عملاء KGB بدخيلة نفسه، بعد عدة كؤوس من الشراب، إلى صديقي جين شارب من مركز العقوبات اللاعنفية في هارفارد: "يا ولدي، لقد كانت كارثة بكل معنى الكلمة!".

وفيما بعد، عندما انهارت الامبراطورية السوفييتية من الداخل، جارفة معظم الشيوعية العالمية معها، وهلّل محللون غربيون لذلك ودعوه بـ"نهاية التاريخ". ما الذي سنتعلمه من كل هذا التاريخ، إذاً؟ أما كان على الانهيار السوفييتي التلقائي (الذي لا يختلف عن مظاهرات روزينستراس) أن يحثّ على تفكير يتّسم بالاعتدال والاتزان؛ فقد كان بإمكاننا التعامل مع الخطر الشيوعي بنمط مختلف كلياً، ومن دون تلك الكلفة من الأرواح البشرية التي رهنت آمال نصف العالم في تنمية لائقة، دون الحاجة إلى ذكر الرضّة النفسية التي تحملناها جميعاً عندما كانت الحياة على الأرض معلّقة على حافة الخطر؟ لقد أظهر ربيع براغ مدى الضعف الفطري لمثل ذلك النظام المستبد، وبيّن وميضَ سبيلٍ لاستغلال ذلك الضعف. إنه واحد من أفضل الأمثلة المعروفة للاعنف التلقائي في أوروبا، لكنه مثل كل الأمثلة عن اللاعنف في كل مكان بالكاد يكون معروفاً ما عدا للقلّة من المتحمّسين المبشِّرين.

خلال تلك الأشهر الثمانية التي استغرقتها موسكو لإعادة تأكيد سيطرتها على تشيكوسلوفاكيا، كان لزاماً على كل الجيوش أن تتناوب على الخروج من البلد وأن تُستبدل بقوات لم يكن قد "أفسدها" بعد الاحتكاك مع المواطنين. وقد استمرت المقاومة حتى بعد أن أُجبر زعماؤها على قبول ما يشبه المساومة. وكان معظم المجنّدين الجدد قد أُحضِروا من أصقاع بعيدة من الإمبراطورية السوفييتية ولا يستطيعون فهم اللغة السلافية. حين نأتْ مقاومة مسلّحة بنفسها عن مواجهة مثل هذه القوة الساحقة لمدة ثمانية أشهر خلقت فولكلوراً جديداً سنتذكره بعد ألفي سنة. لكن في العام 1968، لم يكن هناك حتى تسمية لنوع المقاومة التي كان ينفذها المواطنون التشيك ، ولذلك كنا نتجاهل ربيع براغ – وبالكاد لاحظ العالم أن أناساً غير مدربين كانوا قادرين على تقديم مقاومة ناجحة لمدة ثمانية أشهر دون إراقة نقطة دم واحدة.

على أية حال، لدينا الآن تسمية لمثل هذا النوع من المقاومة، والشكر في جزء كبير من هذا للعمل الرائد لجين شارب.[156] فما قام به التشيك أصبح الآن معروفاً كدفاع ذي أساس مدني (CBD). وهو أحد شكلين رئيسيين ظهر اللاعنف فيهما كبديل للحرب، وسأقدم مراجعة شاملة لكلا الشكلين فيما بعد، في الفصل الثامن. لكن علينا أن نلاحظ الآن مبدأين لـ CBD يمكن بواسطتهما لأناس عازمين ومتّحدين بشكل معقول أن يقاوموا غزواً، كما في براغ، أو أن يستولوا على السلطة، كما حصل في تمرد Kapp الفاشي الأول الفاشل في ألمانيا الفايمارية في العام 1920؛ أو حتى أن يقاوموا ضمن ظروف احتلال، مثل إضراب معلمي المدارس النرويجيين الذي حال دون انتشار النزعة النازية في النظام التعليمي النرويجي. فالمثل الأول هو لأناس لا يستسلمون ولا يمكن إخضاعهم؛ حيث يمكن أن يُقتَلوا لكن لا يمكن إخضاعهم. والآخر هو لشعب تمكّن من التمييز، على نحو راسخ، بين مجموعة من الناس وبين جدول أعمالهم – أي بين الخاطئين وبين الخطيئة – فيقاوم الخطيئة بحزم في حين يعترف بحزم في المقابل بإنسانية الخاطئين، ما جعله يطور قوة لا تُقاوَم تقريباً. هل "فعلت" المقاومة في براغ؟ كلا، هي لم تَصُنْ الحرية التشيكية. ورغم هذا، أودّ أن أقول إنها "فعلت" إلى أبعد حد، على اعتبار أنها حققت للبلد ثمانية أشهر مُبهجة، بالرغم من أنها كانت ردّ فعل مرتجل من قبل أناس لم يكن لديهم – كالمعتاد – لا التدريب ولا القيادة الحقيقية من أجل هذا النوع من العمل الاجتماعي، ومن المحتمل أن معظمهم لم يكن بوسعه إخبارك بما يُدعى مثل هذا العمل، من دون الحاجة إلى ذكر كيف كانوا يطبقون مبادئه بمرونة وتناغم. لقد "فعلت" بشكل جيد بما يكفي للسماح لنا بالاعتقاد بأنها ربما سادت أخيراً، فجعلت التشيك يصممون على الاستمرار حتى نيل السلام، دون أن يفهموا ما الذي تعثروا به.

وهل فعل ربيع براغ (بدون مزدوجتين)؟ دعني ألفت الانتباه إلى شهادة شاهد عيان، صديقتي الراحلة بيترا كيلي:

«خلال صيف العام 1968، حين كان المواطنون اللاعنفيون في براغ يقاومون القوات السوفييتية المحتلة، كنت تحت الإقامة الجبرية مع جدّتي في فندق بالقرب من ساحة وينسيسلوس. وحتى بعد اعتقال دوبتشيك ومساعديه المقرّبين، بقي الناس صامدين في مقاومتهم. وفي النهاية، كان السوفييت قادرين على إعادة فرض سلطتهم وتأخير إصلاحات ربيع براغ لمدة 21 سنة. لكن من خلال تضحيته ومعاناته، نجح الشعب التشيكي فيما بعد، في "ثورته المخملية". وقد برهنت هذه الأحداث على قوة الدفاع الاجتماعي اللاعنفي.»[157] والتي هي، بتعبير آخر، قوة تغيير الأمور نحو الأفضل، (قوة) حلّ المشاكل غير المتوقعة، وأحياناً تلك التي في المتناول. لم يدُمْ ربيع براغ طويلاً. لكن أيضاً، لم تدم طويلاً تلك الامبراطورية الهائلة الذتي بدت وكأنها انتصرت في حينه في ذلك الكفاح غير المتكافئ.

---

[156] - Sharp, Gene. *Making Europe Unconquerable*. Cambridge, Mass.: Ballinger, 1985; also in that year: *National Security Through Civilian-Based Defense*. Omaha: Association for Transarmament Studies.
[157] - Kelly, Petra. *Thinking Green!* Berkeley, Calif.: Parallax Press, 1994, pp. 57f.

أتقولها بواسطة الأزهار؟

برزت إلى الضوء في السنوات الأخيرة قصص عن الكثير من أعمال الإنقاذ من المحرقة، لكن في الدوائر السلمية تجلّت إحدى أكثر القصص المعروفة في قرية لو شامبون فوق لينون في الأوت لوار، ليس بعيداً عن مرسيليا، أي تقريباً في منطقة فيشي. لكنها كانت أيضاً منطقة هوغونوت، عانت فيها أقلية بروتستانتية اضطهاداً في ماضي القرون. وعندما قدم الاحتلال، شجّع القس أندريه تروكميه وزوجته ماجدا أبرشيتهم برمّتها لإعداد نفق هروب تحت الأرض من أجل حماية اللاجئين أو إبعادهم خفية خارج البلاد، تحت أنف حكومة فيشي وجحافل الـ SS التترية التي كانت تقبع قريباً طوال مدة الحرب.

مقاومة الشامبونيين هي إحدى الحالات القليلة التي لم تكن جهاداً "هاوياً"، أي بلا قيادة؛ فتروكميه كان قد توصّل إلى قناعاته في وقت مبكر وعرف عن غاندي من خلال *زمالة المصالحة (FOR)*، وهي منظمة سلمية موقّرة باشرت عملها بقيادة اثنين من الكويكريين، أحدهما ألماني والآخر إنكليزي، عند اندلاع الحرب العالمية الأولى. ولـ FOR، اليومَ، واحدٌ من أطول سجلات المجموعات السلمية نجاحاً، ومن أفضل المؤسسات الداعية للمبادئ اللاعنفية. وعدا عمليات الإنقاذ الدنماركية السرية لجميع السكان اليهود في تلك البلاد، كانت المقاومة في لو شامبون من أكبر العمليات في أوروبا، والتي أصبحت معروفة نسبياً من قبل الجمهور منذ أن كتب عالم الأخلاق فيليب هالي دراسته التي بعنوان *خشية إراقة دماء بريئة*. وأحد الأسئلة المثيرة التي تطرحها هي: كيف أفلتت عملية بذلك الحجم من رقابة الألمان؟

والجواب المثير هو أنّ تلك العملية لم تُفلت من رقابتهم. فبعد عدة سنوات من الأحداث ما بين العام 1940 إلى 1944، اكتشف هالي أنّ قائد المنطقة، الرائد شميهلنغ، كان يعرف طوال الوقت ما كان يفعل المسؤلون عن العملية في لو شامبون لكنه كان متأثراً بشجاعة القرويين التي جعلته يتحدى فعلياً SS من أجل حمايتهم. وبعد عشرين سنة أوضح شميهلنغ لتروكميه: «أنا كاثوليكي صالح، وأنت تفهم عليّ، وبوسعي إدراك هذه الأمور.»[158] في ذلك الوقت، لم يكن لدى الشامبونيين أية فكرة عن حماية شميهلنغ لهم معرِّضاً نفسه الخطر. وما كان أيضاً ليُعرف حتى بحث هالي، ولا لنا أيضاً. تخيل كم من أمور من هذا النوع لم نكتشفها مطلقاً؛ كم من مثل هذه القصص ما زالت مخفيةً في طيّات التاريخ، والذي هو علم لم يكن مهتماً حتى مؤخراً في البحث عنها.

لو شامبون هي مثال على اللاعنف الذي "فعل" وكان فعالاً؛ فقد أنقذ حياة خمسة آلاف شخص (أي أنه "فعل ضد النازيين") وارتقى بمستوى الوعي. كشميهلنغ، الذي كان متأثراً بإخلاص أحد

[158]- Hallie, Philip. *Lest Innocent Blood be Shed*. New York: Harper & Row, 1979, pp. 275, 245 and 114.
ومن المثير للانتباه أيضاً أن شيندلر كان ابن عائلة كاثوليكية شديدة التدين.

الشامبونيين فوضّح لقائد الـ SS العقيد ميتزغر في شهادته أمام المحكمة أن «ليس لهذا النوع من المقاومة علاقة بالعنف، ولا علاقة بما يمكننا تدميره عن طريق العنف.»[159]

واصل الشامبونيين عملهم لمدة ثلاث سنوات، متمسكين بخيارهم للمخاطرة حتى الموت بدلاً من التخلي عن المسؤولية التي قبلوا بها. لذلك، وبالإضافة إلى قيادة تروكميه الفطنة، كانت لدى الشامبونيين ميزة عبور بوتقة تجربة مستمرة. وكانت إحدى نتائج هذا العمل هي أنهم تجاوزوا تلك المرحلة ذات الصلة بمعظم تلك الأحداث التي نعتبرها لاعنفاً أو نشاطاً سلمياً في عالمنا: مرحلة المقاومة الرمزية. لقد بدأت المقاومة في لو شامبون بالطريقة التي تبدأ فيها عموماً عندما يصحو حافز المقاومة – أي كمواجهة رمزية، لكنها لم تتوقف عند ذلك الحد، إذ إنّ «تحية العلم وقرع الأجراس وكل أشكال القَسَم المثيرة للمشاعر تم التخلي عنها... لصالح *نشاط* وحيد جعل من لو شامبون قرية ملجأ: من أجل إنقاذ حيوات بريئة»[160] (التأكيد من عندي). وهذه النقطة الهامة غالباً ما يُساء فهمها إلى درجة تجعل من الضروري التأكيد عليها؛ ففي حالة اللاعنف، أنت لا تعبّر عما تفعله عن طريق الرموز. فعندما قدّم فيلم السير ريتشارد أتينبوروغ ظاهرة غاندي إلى الجمهور، أتذكرُ أنّ أحد الصحفيين قال مُجفَلاً إنّ *غاندي* كان «مجرّد لغز رجل جالس وهو يحمل زهرة». وقد شاهدت على ما أعتقدُ كل لقطة فوتوغرافية وكل مقطع صغير من فيلم غاندي المعروض للعامة. ولم أشاهد أنّ غاندي حمل زهرة على الإطلاق في أية لقطة من الفيلم. كان لديه موظفون ودولاب غزل ومكبّر صوت، ولكن ليس زهرة على الإطلاق. فالرجل كان يستخدم أدواتاً، وليس رموزاً.

ومن المهم بالمناسبة هنا أن ندرك أنّ مجرد أن يرتدي الناس أوشحة أو أن يزحفوا من النقطة (آ) إلى النقطة (ب) ملوّحين باللافتات يعني أنهم لاعنفيون – ليس بعد. ولذلك فإنه إن لم "تفعل" مظاهرتهم (أو فعلت، لا حاجة للقول)، لا يحق لنا القول بأنّ اللاعنف قد أخفق. فليس هناك أي لاعنف ما لم يكن هناك كفاح شخصي، أو تضحية يليها عمل خارجي – وكلا الأمرين صائبان تماماً، كلّ على طريقته. فهي ليست مطالب أو لافتات بل أفعال، وقد تكون رموزاً أيضاً، لكنها أولاً وقبل كل شيء حقيقية.

لكنْ ماذا بشأن تلك المسيرات الاحتجاجية التي قادها غاندي في جنوب أفريقيا والهند؟ دعونا ننظر إلى تلك المسيرات الشهيرة عن قرب أكثر. فالمسيرة الأولى، والمعروفة الآن بـ"المسيرة العظمى"، انطلقت في جنوب أفريقيا في 6 تشرين الثاني 1913، عندما وجد غاندي نفسه مسؤولاً عن عدة آلاف من عمال المناجم المضربين وعائلاتهم. كانت قبل كل شيء فعلاً مدروساً من أفعال العصيان المدني باشر به عمال مناجم ساتياغراهيون– تحولوا إلى ساتياغراهيون – في نيوكاسل في مقاطعة ناتال، والذين دخلوا الترانسفال ليعتقلوا ويحاكموا. ما يعني، بعبارة أخرى، أنها كانت فعلاً غير شرعي لأنه لم يكن

[159]- Ibid., 245.
[160] - Ibid., 114.

مسموحاً للهنود الذين لا يعيشون هناك في دخول ترانسفال. والأمر لم يكن حول الذهاب من نقطة إلى أخرى لإظهار أنهم يهتمّون بشيء ما. وكان عمال المناجم هؤلاء يعيشون ضمن أملاك الشركة، وعندما أضربوا عن العمل فقدوا منازلهم، ما يعني أنه لم يعد أمامهم سوى السير إلى الترانسفال حيث سيحاول غاندي إسكانهم في مُعتَزله. ما يعني أن المسيرة لم تكن مجرد رمز. وهم لم يكونوا يعبّرون عن رأيهم بالسير على أقدامهم بشكل مجرد، بل كانوا ذاهبين إلى مكان كان لا بدّ لهم من أن يذهبوا إليه، وإن تحدّوا بذلك القانون.

ولنتذكّر الآن المسيرة الأكثر شهرة على الإطلاق؛ المسيرة التي أطلقت ساتياغراها الملح الطبيعي في العام 1930، عندما باشر غاندي وثمانية وسبعين من المتطوعين من معتزله "الحج" لمسافة مئتي ميل إلى المدينة الساحلية داندي لاستخراج ملح غير شرعي من المحيط، متحدّين بذلك الاحتكار الحكومي. وعلى امتداد الطريق، انضمّ حوالي سبعين ألفاً إلى "الحجّاج" العُصاة بشكل مدني. وربما تعرف المشهد من فيلم أتينبوروغ؛ فالذين تراهم هم أناس حقيقيون يذهبون إلى بحر حقيقي للحصول على ملح حقيقي مُنِع عنهم بقسوة ولأغراض استغلالية فاسدة، ومرة أخرى كانوا يخرقون بفعلتهم قانوناً غير عادل. ونتساءل: ما الذي يمكن أن يكون أكثر أساسية وأكثر مادية من الملح؟ لأنه إذا كان هناك شيء فما هو إلاّ ذلك الاحتكار المنافي للعقل، والذي يمنع استخراج الملح، والذي كان مجرد مرايا دخانية وتركيباً عقلياً حسبته الملايين بأنه كان حقيقياً، حتى كسرت مبادرة غاندي الرائعة ذلك الوهم. طبعاً، كان يمكن لغاندي أن يركب قطاراً، لكن عندئذ كيف كان بوسعه أن يجلب معه تلك العشرات من الألوف؟ سمِّه عملاً مسرحياً إن شئت، لكنه ليس رمزاً[161].

لذلك دعونا نتمعّن مجدداً في تعريف غاندي للسلطة، والذي استشهدتُ به في الفصل الثاني، وفهم معناه الحقيقي: «ثمّة نوعان من السلطة: الأول مُكتسَب عن طريق *الخوف* من العقاب، والآخر بواسطة *أفعال* المحبة.»[162] (التأكيد من عندي)

وأنا أؤكد على الفارق بين *الخوف* من جهة، وبين *أفعال* لاعنفية تؤكد مرة أخرى التفوق الفعلي للاعنف على العنف من جهة أخرى. ويمكن للرموز أن تلعب دوراً في المراحل الأولى للحركة؛ إذ يمكنها أن تشجّع الناس على الصمود، وأن تساعدهم على إظهار التضامن، لكن حالما يكون الجميع هناك، ومستعدين، فما الذي سيفعله الناس؟ إذا واصلوا التلويح بالرايات والمسير من النقطة (آ) إلى النقطة (ب)، فسيكونون ماضين ضد الروح وضد الحقيقة الأعمق للاعنف. وقد يقول قائل، عند تلك النقطة تحافظ

---

[161] لقد أصبح غاندي معلماً مسرحياً: حين جلب معزاته معه إلى لندن، وحين وضع الملح في كوب الشاي الذي كان يشربه مع نائب الملك: وكلتا الحركتين كانتا حقيقيتان. كما يمكن أن نسجل أن بعض الاحتجاجات ضد أمير الغال خلال زيارته عام 1919 كانت رمزية، كما كانت الزيارة بحد ذاتها. على حد علمي، لم يكن أي فعل لغاندي خلال مسيرته الطويلة مجرد رمز فارغ من المعنى (وهذا ما أكده حفيده آرون). ونسجل هنا أن العديد من المواقف الرمزية لحركة السلام كانت مجرد محاولات لتجسيد أفعال في منتهى السوء. كهيروشيما، وأوشفيتز، إلخ. إلى حد يجعلنا نتساءل هل كانت متفقة مع الروح العاندية البناءة و "الرافضة للشر".

[162]- See chapter 2, note 34.

الرموز على الأمر نفسه الذي يجب على الفاعلين أن يحاولوا تبديده: أي الاعتقاد بأن للقوة التهديدية وحدها سلطة حقيقية، وبالتالي يتحول اللاعنف إلى مجرد مناشدة لوجدان الآخر، وليس، كما ألحّ غاندي، إيقاظاً لضميره (أو ضميرها). وقد يكون هذا التناقض هو السبب في أنّ الرموز، في الممارسة العملية، تؤثر عكسياً في الفعل اللاعنفي – على سبيل المثال شعار "آلهة الحرية" الذي رفعه الطلاب وبعض المحتجّين في ساحة تيان امين (في الصين)، وأثار الغيظ لكنه لم يفعل شيئاً لإضعاف السلطات أو ثنيها.

من جهة أخرى، لا يأتي تهديد السلطة من العقاب، فوِفْق غاندي الذي يعرف كيف ينتقي كلماته: إنه يأتي من "*خوف* الضحية من العقاب"، بمعنى أنه حيث لا يوجد خوف لا توجد سلطة. وقد نوقش هذا الأمر بلباقة، على حد علمي، فالسيناريو الذي كان يبدو الأشدّ إخافة في الأزمنة الحديثة والقائل "ماذا لو؟" – "ماذا لو حصل هتلر على القنبلة (النووية)؟" – ليس في الحقيقة مقنعاً كما قد يبدو للوهلة الأولى. حسناً، ماذا لو استخدم القنابل الذرية ضد مدينة أو مدينتين *وماذا لو واجهناه*: "افعل أسوأ ما لديك؛ فنحن لن نستسلم"؟ هل كان سيحكم أرضاً مقفرةً ومُشعّة؟ فالتجربة القانونية والسياسية الفعلية تثبت أن التهديد هو على ما يبدو أقلّ الطرق التي يمكن الاعتماد عليها للحصول على إذعان الناس.[163] حيث يجب أن نستجيب للتهديد كما كان مُراداً له، أو أنه لن يفعل. فالمستبدون يحكمون عن طريق الخوف أكثر مما يحكمون عن طريق السلطة الفعلية التي يملكونها لإيقاع الأذى. ونكرّر، إذا لم يتملكّنا الخوف لا يمكن ردعنا، ولهذا السبب قال غاندي إنّ الساتياغراها "*تُرغم* العقل أن يكون حراً"، في حين أن التهديدات تؤثر فقط إذا كنا نخاف منها. وقد وضّح هذا بشكل جيد ألبرت زينت– جيورجي، الحائز على جائزة نوبل في البيولوجيا، في ملخص تقديري لأهمية غاندي التاريخية (ومثل معظم الناس، استخدم كلمة *القوة* للتعبير عما ندعوه *القوة التهديدية*):

«بين الحربين العالميتين، وفي ذروة الحقبة الاستعمارية، سادت القوة الأشد خطورة. وكانت سلطتها مكشوفة، وكان من الطبيعي أن ينحني الأضعف أمام الأقوى. ثم جاء غاندي وواجه، تقريباً من دون مساعدة، القوة العسكرية الأعظم على وجه الأرض. فعلّم العالم أنّ هناك ما هو أعلى من القوة، وأعلى حتى من الحياة نفسها، وأثبت أنّ القوة قد فقدت سلطتها المكشوفة.»[164]

يمكن للعنف أن يؤذينا لكن ليس بوسعه تغيير آرائنا أو سلوكنا. فقط الخوف من العنف بوسعه فعل ذلك. واللاعنف يؤثر في العواطف أيضاً لكن البعض منا، ممن استخدم اللاعنف بشكل ناجح، يعرف أنّ أسلوبه الأصلي في العمل ملموس تماماً.

وقد أخبرني جون ماركس، رئيس منظمة *البحث عن أرضية مشتركة* Search for Common Ground التي مقرها واشنطن (وهي من أكثر منظمات حل النزاعات نجاحاً في العالم، حسب رأيي) أنه

[163] - Tyler, Tom R. *Why People Obey the Law*. New Haven: Yale University, 1990.
[164] - Szent-Gyeorgyi, Albert. *The Crazy Ape*. New York: the Philosophical Library, 1970, p. 44.

في حين أن الحوار مهم، فإنه يجب أن يؤدي إلى شيء ملموس. فعلى نحو مثالي، يجب على الخصوم أن يعملوا معاً لحل المشاكل المشتركة، كالتنظيف العرقي السلافي والألباني للمواقع الدينية مثلاً.

"العمل معاً من أجل حل المشاكل المشتركة" هي بدقة الصيغة التي اكتشفها فريق مشهور من العلماء النفسانيين الذين سعوا بشتى الطرق إلى حلّ النزاعات في معسكر صيفي، ووجدوا ببساطة أن جعل الطرفين يعملان معاً على إصلاح شاحنة أو بئر أوفى بالغرض من مشاهدة الأفلام أو تناول الآيس كريم.[165] وفي الحقيقة، بعض أكثر النزاعات مرارة في العالم هي حول الرموز؛ وبعض أكثر الحلول عذوبة أتت عندما واجهت هذه المشكلات الواقع الملموس. فالخطوة الأولى، إذاً، هي أن نكتشف كم عدد المشاكل المشتركة في الحقيقة.

لذلك إن لم تكن للاعنف سلطة متأصّلة، فستصبح اللافتات والشرائط والتماثيل من أكثر الأمور فاعلية مما يمكننا القيام بها لكن عندها، إذا لم يكن للاعنف سلطة متأصلة، فليس هناك داع لتأليف كتاب عنه.

ما الذي يمكننا توقعه؟

رغم كل قماءة رسالته، حدّد العنصري الأبيض توم ميتزغر نقطة غير قابلة للنقاش حين قال في الفقرة الأولى من هذا الفصل: إنّ العنف يأتي على درجات. لأنّ هناك شيء "كبير وهائل" كهذا العنف، وهو في الحقيقة "يفعل"؛ فالقنبلة التي دمّرت مبنى مورا الاتحادي في مدينة أوكلاهوما في 15 نيسان 1995، كان لها تأثير أكبر من خطبة محتجّ منعزل يشجب الحكومة من على منبر صغير. وهذه كانت لتبدو مجرد ملاحظة بديهية لولا الحقيقة القائلة بأنّ النتيجة الطبيعية أقلّ وضوحاً إلى حدّ ما؛ فاللاعنف، أيضاً، يأتي على درجات لأنّ أي مقدار من المحبة نطلقه في موقف سيفعل، لكن إذا أردناه أن "يعمل"، أي أن يكون له تأثير نوعي هنا وهناك، فينبغي أن يستخدم ما يكفي من المحبة للتفوّق على الحقد الفاعل على الأرض. فالكراهية التي أُطلِق لها العنان في أوشفيتز كانت متطرفة، ولذلك كانت قوة التضحية البالغة، كالتي قدّمها الأب كولب، مطلوبة لمواجهة الكراهية عندما حلّت اللحظة بالنسبة له لكي يتصرف بشكل حاسم ضدها.

لقد قال غاندي عن نفسه وعن أتباعه إنّ نجاح جهودهم في الحملة الأخيرة من أجل حرية الهند في العام 1942 كانت "متكافئة رياضياً" مع صفاء لاعنفها. ولو كانت لدينا أية فكرة حول كيفية قياس المحبة والكراهية، لرأينا ربما أنه لم تكن هناك حوادث أو مفاجآت في تلك العملية الطويلة التي أوصلت الهند إلى استقلالها السياسي. ونحن نعرف كم كان عميقاً، وشكّل نوعاً من الطبيعة الثانية، وإجحافاً عنصرياً مُمأسساً في الجنوب الأمريكي حين رفضت روزا لوي ماكولي باركس التخلي عن مقعدها في حافلة مونتغومري في الأول من كانون الأول عام 1955. وفي السنوات التي تلت، كان الكثير من ذلك

[165] - Sherif, M. *In Common Predicament*. Washington, D.C.: Public Affairs Press, 1966.

التجرد من الإنسانية مكشوفاً ومُنفلتاً، والمؤسسات التي بنتها تفكّكت. ولو كان بوسعنا قياسه، كم كان المجموع الكلي للقوة التي حركتها طرائق تدريب باركس في مدرسة Highlander Folk الشهيرة بشجاعتها، وبسماحة نفس مارتن لوثر كينغ الابن وبقوة التضحية والعمل المثابر الذي ألهمه للكثيرين.

الطقس متقلب جداً لكن شيئاً ما بخصوصه، كما نعرف، ممكن التوقع تماماً؛ فإذا واصلنا نشر فلوريت الكاربون في الجو، وواصلنا إحراق غابات الأمطار الاستوائية وكل الوقود المُستخرج الذي يمكننا الحصول عليه، فإننا سنستمر في تسخين هذا الكوكب. إذ الارتفاع العام لدرجة الحرارة ظاهرة من صنع الإنسان لم نكن قد اختبرناها من قبل إطلاقاً. وبسبب ارتفاع درجة الحرارة على الأرض (والتي من الأفضل أن ندعوها "زيادة مفرطة في الحرارة الكوكبية")، يمكن لاضطرابات[166] بسيطة، وغير هامة عادة، أن تُحدِث عواصف مدمرة بشكل مرعب. أي متى وأين سيحدث هذا، أمر لا نستطيع التنبؤ به لكننا نستطيع توقع المزيد والمزيد من هذه العواصف إذا واصلنا تسخين كوكبنا. ويمكننا بثقة أن نتوقع بأنّ العملية نفسها سيكون لها تأثيرات أخرى، وبأنها ستؤذينا.

الشيء نفسه فيما يتعلق بالعنف. نحن لا نستطيع توقع *من* سيتوه ويدخل المدرسة الثانوية وبأي نوع من الأسلحة، لكننا نعرف بلا ريب أنه طالما تشاهد أجيال إثر أجيال المزيدَ من العنف عن طريق التلفزيون والسينما، وتمارس ألعاب فيديو أكثر وحشية، *فسوف* يكون هناك المزيد من المعاناة بسبب العنف. وفيما يلي حكم **لجنة الجمعية النفسية الأمريكية حول العنف والشباب** في العام 1993، والذي ردّده على مدى السنوات القليلة التالية وزير الصحة الأمريكي والجمعية الطبية الأمريكية، وعملياً كل المنظمات الصحية رفيعة المستوى في البلاد: «ما من شك في أنّ المستويات الأعلى من مشاهد العنف على شاشات التلفزيون له علاقة بالقبول المتزايد للمواقف العدوانية والسلوك العدواني المتزايد»[167] فعندما نغلي الماء لا يمكننا توقع متى ستتبخّر الجزيئات، *ولا نحتاج* إلى ذلك، لأن كل ما سنحتاجه هو إطفاء اللهب.

تُوجّه أجهزة الإعلام انتباهنا إلى سمة العنف التي ليس بوسعنا توقعها، وإلى التفاصيل الفردية لكل حالة. وما ينبغي علينا فعله هو تركيز 90% من انتباهنا على الحقيقة الأساسية التي بوسعنا توقعها، والتي تقول: إنّ العنف يُولِّد العنف. وعلى النقيض: اللاعنف يُولِّد اللاعنف.

اللاعنف عِلم، إذا كان هناك من علم على الإطلاق، لكنه لا يستطيع تقديم توقعات بنفس القدر من الدقة التي تقوم بها الآلات أو الكهرباء، لأن الساتياغراها، كما أسماها غاندي، "قوة حية" وليست قوة فيزيائية. فتلك "التيارات المتعاكسة للعنف والاستجابية"، والتي أشار إليها بيبينسكي كفاعلة باستمرار فينا جميعاً، تساعد على تفسير حوادث السلوك العنفي لكنها لا تستطيع توقعها بالضبط؛ فهي لا تضع بين أيدينا صيغة تجعلنا نقول: «إننا إذا حصلنا على ثلاثين ساعة أقل من برامج العنف كل أسبوع فستكون

---

[166] . اضطراب الجرم السماوي في حركته المدارية بسبب قوة غير تلك التي تسبب دورانه النظامي . المورد.

[167] - GROSSMAN AND DEGAETANO, OP. CIT., P. 127.

هناك ثلاثة آلاف حالة قتل أقل في كل سنة» لأننا سنحتاج إلى نوع من نظرية الفوضى للتمكن من توقع عدد الأشخاص أو العصابات التي سوف تستجيب. فأحياناً نكون لطفاء مع الناس، ومع ذلك ينفجرون غضباً في وجهنا: تلك هي الحياة.

لكن يبقى أمر واحد بسيط جداً يتعلق بالعنف / اللاعنف قابل للتوقع، ومجدداً ربما يكون هو الأمر الأساسي الوحيد الذي علينا أن نعرفه: ففي مكان ما، وبطريقة ما، سيؤذينا العنف دوماً، في حين أنه في مكان ما، وبطريقة ما، سيشفينا اللاعنف دوماً. ولإجراء تغيير طفيف على الصيغة التي وصلنا إليها سابقاً نقول: إنّ العنف "يفعل" أحياناً لكنه لا يفعل أبداً، واللاعنف "يفعل" أحياناً لكنه لا يخفق أبداً في العمل على جعل حياة البشر أفضل في مكان ما وبطريقة ما.

ولذلك فإن اللاعنف، مثل الطقس، مكتنف بالأسرار حيناً وعادي حيناً ومُتوقَّع تماماً. وكما وصف غوردون فيلمان بدقة الطريقة التي تُصوِّر فيها أجهزة الإعلام اللاعنف، فإن أخذنا، على سبيل المثال، *عزّ الظهيرة* التي هي أكثر تأثيراً من *جزيرة* هكسلي، فإننا نرى في هذا الفيلم البديع سيدة رائدة تتنازعها حالات حيرة حول القتل، لكن "لاعنفها" «متخلّف وتبسيطي وضعيف، بلا برنامج ولا خيال ولا نزاهة حقيقية».[168] طبعاً، هذا بالغ الضعف لكنه ليس لاعنفاً؛ فعندما نتغلب على هذه التفاهات، ونتعلم تنظيم اللاعنف وتعبئته، يستطيع اللاعنف حتى أن يُستخدَم لإبعاد بلية الحرب.

ورغم تنوع الحقول التي رأينا فيها اللاعنف فعالاً حتى الآن، فقد نظرنا فقط إلى مشروطية واحدة لهذا "السلاح المنقطع النظير" لأن له مشروطيتين، ويجب أن تكون جليّة اللحظة التي ندرك فيها أن اللاعنف حقيقة أساسية، وليس أي شيء، وأن تعبيره الكلاسيكي قد لا يكون، واقعياً أم رمزياً، في أسلوب الاحتجاج على الإطلاق. صحيح أن غاندي وصف نفسه ذات مرة بـ"المقاوِم المحترف" حين سئل عن مهنته في محكمة أيام الإدارة البريطانية، لكنه خارج المحكمة أعطى تفسيراً مختلفاً نوعاً ما لعمل حياته. «سياستي الحقيقية هي العمل البناء».[169] فاللاعنف ليس نهجاً في الكفاح ضد الأخطاء فحسب (كما بين كل من پين وأشوكا) بل أيضاً – وبالدرجة الأولى – قوة تبني الأشياء على نحو صحيح في المقام الأول. وهذا بالنسبة لمعظمنا، من غير المحتجين، سينتزع اللاعنف من على الرف ويضعه بين أيدينا بشكل صحيح كأداة جديدة كلياً، ويمكن أن نستعملها كل يوم لتصميم المستقبل الذي نسعى، نحن وأطفالنا، للحياة فيه. نحو هذه الإمكانية المثيرة نستطيع الآن أن نتحول.

---

[168] - Fellman, Gordon. *Rambo and the Dalai Lama*. Albany: State University of New York Press, 1998, p. 20.
[169] - Pyarelal, and Sushila Nayar. *In Gandhiji's Mirror*. Delhi: Oxford University Press, 1991, p. 268.

الفصل الخامس

مخرج من الجحيم

«من أجل استرداد فضاءاتنا السياسية المُستعمَرة ينبغي أن نسترد فضاءاتنا الثقافية المستعمَرة» . ديفيد كورتن.

«اجعل مُحبّ الحقيقة يخجل من محبتك» – القديس إسحق السوري.

كان مبارك عوض يتحدث كضيف في صفّ اللاعنف الذي أُدرِّس فيه كلما كانت تتسنى لي فرصة الوصول إليه. كان رجلاً ضخماً لطيفاً ومتحدّثاً صادقاً وجذاباً إلى حد كبير مع وعي أخلاقي حاد باللاعنف. وتضيف إنكليزيته باللكنة العربية والمفعمة بالحيوية نغمة من الأصالة عندما كنا نناقش واحدة من أكثر الانتفاضات العالمية أهمية: *الانتفاضة* الفلسطينية الأولى (حرفياً، "اهتزاز" أو "ارتجاج"). ورغم كل الصعوبات، أسّس مبارك *المركز الفلسطيني لدراسة اللاعنف* الذي أشكُّ بأن لديه الكثير ليعمله مع تلك الحركة (الانتفاضة). ومن المؤكد أن الحكومة الإسرائيلية قد فكّرت بالأمر ذاته. وقد كانت زيارته الأكثر إثارة بلا شك في العام 1990، حين جاء حديثاً بعد إبعاده من فلسطين. وسوية مع وهج الاستشهاد، كان لدى مبارك معلومات داخلية واقعية ليشاركنا بها. ولم يكن طلابي يعرفون ما فيه الكفاية لكي يقبلوا على نحو غير نقدي الصورة الإعلامية *للانتفاضة* بوصفها عنفاً، بل وحتى "إرهاباً"، لكن ما لم نكن نعرفه هو أنه كان هناك "على الأرض" يواجه جنوداً إسرائيليين مسلحين يخلقون اضطرابات. وكان مبارك، الأخصائي النفساني، هو الشخص المثالي لمشاركتنا ذلك.

اندلعت *الانتفاضة* في العام 1987، عندما بات واضحاً أن الإرهاب والتكتيكات الفدائية للمنفيين الفلسطينيين لم تُجدِ نفعاً، وأنه كان الأجدى للفلسطينيين الذين يرزحون فعلياً تحت الاحتلال الإسرائيلي أن يعملوا شيئاً ما يتعلق بقدرهم. وما فعلوه كان مقاومة بوسائل غاندوية كأشكال المقاطعة الانتقائية وتعليق الأعمال وما شابه (متعلِّمين في الغالب من جين شارب عن طريق مبارك) بالإضافة إلى بعضٍ من بنات أفكارهم الفطرية مع وابل من الحجارة المتحدّية – مزيج مرتبك مما دعوتُه "وابل غير عنفي"، بمعنى: الإحجام عن عنف (جدّي) ضد الخصم دون محاولة محبته خارج التصنيف الناجم عن طاقة إيجابية. وهذا ما وضع الشباب الفلسطيني، على وجه الخصوص، تحت الكثير من الضغط لأنّ عدداً كبيراً جداً من البالغين أُعتقِلوا مما أجبر المراهقين على تحمّل المسؤوليات ومواجهة المخاطر – التعرّض للضرب، السجن، الموت – والتي قد لا نتحمّلها نحن البالغين. طبعاً، ترك هذا أثراً كبيراً في نفوس طلابي لكنّ

الذي فاجأ مبارك، وجميعنا، كان أنه عندما بدأت الانتفاضة، توقّف الشباب في المناطق المحتلة عن تعاطي المخدرات. فقد اختفى عملياً الإفراط في تعاطي المخدرات وتناول المشروبات الكحولية، والتي كانت مشكلة خطيرة حتى ذلك الحين.

طلبنا منه مواصلة الحديث؛ فأوضح لنا أنه كانت هناك في قطاع غزة وحتى في إسرائيل الطبقة نفسها من الشباب المشابهة، عرقياً واقتصادياً، لما في المناطق المحتلة، لكن لم تكن لدى هؤلاء الشباب طريقة للمشاركة في الانتفاضة. وبالتأكيد، لم يكن هناك مثل هذا التغيير لدى مجموعة "التحكّم" هذه؛ فحيث لم تكن هناك *انتفاضة* واصلت المخدرات والمشروبات الكحولية مجراها التدميري.

وقد تتساءل هنا عما أُمهِّد السبيل إليه. أم هل تراني أقول أن سبيل التخلص من مشكلة المخدرات هو ثورة لاعنفية؟

بالطبع لا؛ فما أدعو إليه أكثر أهميةً بكثير. فمن وجهة نظري، بوسعنا التخلص من *كل* المشكلات عن طريق ثورة لاعنفية، ليس من المخدرات فحسب، وليس حتى من الجريمة نفسها فحسب، بل من كل كوارث الحضارة الحديثة. فأصغِ إليّ بأناة وأنا أوضح كيف بوسعي تقديم مثل هذا الادعاء.

ماذا يعني أن تكون مدمناً؟

للمصادفة، وبعد فترة قصيرة من إخبار مبارك لنا بكل هذه التفاصيل، نشرت الصحف تقريراً مذهلاً عن تعاطي المخدرات في الولايات المتحدة. حيث وجد ثلاثة باحثين، كانوا يعملون بشكل مستقل تماماً عن بعضهم البعض، ولدهشتهم، أن المعرفة التقليدية بمن يتعاطى المخدرات في أمريكا خاطئة. فالمتعاطي "النموذجي" للمخدرات في أمريكا ليس الذكر الأسود، وليس الذي حكم عليه الفقر بأن يعيش في غيتو. فالعلماء الثلاثة جميعاً اكتشفوا صفحة حياة مختلفة كلياً. فالشخص الذي يكون في مقدمة القوى العاملة والمُقْدِم أكثر على المخاطرة هو نفسه الأكثر جرأة، [والأكثر] عرضة لتعاطي المخدرات... وهؤلاء [كان لديهم] نمط حياة أكثر نشاطاً بكثير، وكانوا منشغلين أكثر بالحملات السياسية، ومستخدمين أكثر للمعلومات.[170] إنهم، باختصار، الناس الأكثر سعياً للصعود إلى "الطليعة" في المجتمع الأمريكي.

ولم يستطع أيّ من العلماء الثلاثة توضيح السبب الذي يجعل شخصاً ما أكثر عرضة، وليس أقل، للإدمان على المخدرات. فقد قال أحدهم أنّ السبب هو "عامل خفي ما"، وتساءل آخر عما إذا كان "هناك شيء ما في الشخصية الأساسية" لهؤلاء المتفوقين، دون أن يقترح ما قد يكون هذا الشيء. أما العالِم الثالث فقد تلمّس شيئاً ما حين قال: إنّ هؤلاء الناس "يبحثون عن شعور بالتفوق". كما لاحظ، وفقاً لذلك، حين وصف لهم برنامجاً مذهلاً من المحفزات الحسّية، كالقفز الحرّ بالمظلات وقفزة "البانجي" بالحبل ورقص الديسكو، مع قفزات من نمط MTV من مكان إلى آخر في جو من صخب الموسيقى

[170] - Browning, Frank. “Drug Users Defy Stereotypes,” *Pacific News Service*: 4:6, 1992, p. 3.

المعدنية الثقيلة، أنّ هذا التصعيد الخاطف للأحاسيس يساعدهم في الحقيقة على الإقلاع عن تعاطي المخدرات أكثر من اللاصقات المانعة التي تقول "لا" فحسب. لكن هذا يستدعي السؤال التالي: ما الذي جعل هؤلاء الشباب الموهوبين والمفعمين بالطاقة يعتقدون أنّ بإمكانهم أن يجدوا السعادة في المقام الأول عن طريق الأحاسيس؟

وما أقترحه عليكم يقول إنّ هؤلاء الناس النشطاء الأذكياء لا يبحثون حقاً عن أحاسيس أكثر، بل يعتقدون ذلك لأنّ تلك هي الطريقة التي تكيّفنا على التفكير فيها لأنّ ما يبحثون عنه حقاً هو معنى ما لهذه الحياة.

وهذا الأمر ليس مقصوراً على الشباب الأمريكي فقط؛ فالأمريكيون والفلسطينيون الذي أقلعوا عن تعاطي المخدرات بطرق مختلفة – برنامج "المحفزات الحسّية" من ناحية، والثورة اللاعنفية إلى حد كبير من ناحية أخرى – كانوا قد تعاطوا المخدرات لأسباب متشابهة؛ فرغم التباين اللافت في ظروفهم الظاهرية، إلا أن كلاهما كان قد استسلم للعجز في الحياة. فقد واجه الشباب الفلسطيني مستقبلاً قاسياً، حيث كانت كل فرصة النمو تُعاق من قبل مضطهِد طاغٍ، ومُزدرٍ في أغلب الأحيان. وكان الشباب في أمريكا الشمالية يواجهون حياة رضا خارجي مؤقت، وما لبثوا أن عرفوا عن طريق التجربة الشخصية أنهم فارغون. لقد كانوا أغنياء، لكن بطريقة ما كانوا فقراء جداً؛ كانوا ما دعته الأم تيريزا "أفقر روحياً من الفقير" لأنهم لم يكونوا يستطيعون إبصار طريقهم إلى حياة خدمة وذات معنى.

لذا كان كلاهما يبحثان عن غرض في الحياة، والذي أخشى أنه ليس موجوداً في الوثب على نهاية حبل بانجي، أو في شراء أشياء جديدة، أو في الانتظار السلبي لحدوث شيء ما جيد. وسأراهن، دون مجازفة، أنه، بعد فترة من استهلاك مثل هذا الإحساس، سيخفت الاندفاع إلى كون الإنسان مجرد يو–يو بشري، وقد يجد الباحثون عن الإحساس أنفسهم عائدين إلى اللاشيء. فالمذهب المادي والمذهب الحسّي هما جزء من المشكلة، وليسا الحل، وهي مشكلة أكبر بكثير من تلك التي تواجهها هذه المجموعة بشكل خاص. إنها مشكلة كل شخص. فلو وثب البلد بكامله على حبال البانجي، فهل سيحلّ ذلك مشاكل الجريمة والتشرد واليأس؟ وبلغة روزاكيان، قد "تفعل" المحفزات الحسّية (بالنسبة للبعض) لكنها لا تعمل في النهاية. إنها لا تفعل فيما يتعلق بالأسباب الجذرية للمشكلة.

أما *الانتفاضة* فقد كانت مختلفة لأنها لم أعطت الشباب الفلسطيني ما يفعلونه فحسب، لقد أعطتهم شيئاً ذا مغزى لكي يفعلوه. صحيح أنّ كل من حبال البانجي والانتفاضة تعرضان الخطر والإثارة للعيان (كما تفعل المعركة)، لكن المقاومة اللاعنفية تعرض الخطر، وتعطي الإحساس بالمخاطرة، لكن من أجل غرض مُتجاوز. بينما يكون الخطر في حالات أخرى، أو بالأحرى تكون رعشة الإثارة في مواجهة الخطر، هو الغرض بحدّ ذاته. وهذا ليس جيداً تماماً. ولا يمكنني تجنب التذكير مرة أخرى بكلمات سو سيفيرين، موظفة الصحة في مارين كاونتري التي غادرت إلى نيكاراغوا مع **شاهد من أجل السلام**.

الطريقة الوحيدة التي بوسعي أن أوضح بها الأمر هي أنني شعرت بأني كنت بين يدي الله: لم أكن بمأمن – بمعنى أنه لم يكن سيصيبني أذى – بل لأنني كنت حيث كان يفترَض بي أن أكون، وأقوم بما هو مُفترَض بي أن أقوم به. وهذا قد يكون كالإدمان لكن ربما لهذا السبب واصلنا العودة.[171]

من الغرابة أن تستخدم سو كلمة الإدمان في هذا الصدد، لكن تلك كانت الكيفية التي يمكن أن تقوم بها بعمل قوي وذو مغزى . قوي بما يكفي للتغلب على التبعية الكيميائية. فقد أجرت صحيفة *استشراف شبابي (YO)*، وهي صحيفة شبابية مقرها سان فرانسيسكو، مقابلة مع شاب مدمن في سان فرانسيسكو قدّم تفسيراً مؤلماً لسبب تعاطيه الهيروين: «أرغب في سلام هادئ أحقن به روحي إلى الأبد.»[172]

كان يبحث عن السلام. ومن منا لا يبحث عن السلام؟ هذا الشاب بحث عن السلام في المخدرات لأنه كان ميّالاً للاعتقاد بأن ما نحتاجه يأتي من خارجنا، وكأنّ السلام شيء يمكن أن نأخذه عن طريق حقنة، أو أنّ الأمان والصحة والمغزى أشياء نشتريها. ومع ذلك يعرف البعض منا أن ما نبحث عنه *ليس* في خارجنا، إنما هو السلام الداخلي الذي يمكن أن يفكّ ارتهاننا لأية إمكانية للإدمان، لأنه السلام الذي يأتي حين نجد غرضاً مُقنِعاً لحياتنا.

هل بدأ ادّعائي المفرط يصبح مفهوماً؟

اللاعدالة المجرمة

رأيت، على مرّ السنين، المئات من الشباب الذين كانوا يعملون على مشاريع مماثلة في الروح للانتفاضة، إن لم تكن أكثر خطراً. كان هذا أحد الميزات العظيمة في حياتي. فقبل أشهر قليلة من قصف حلف الناتو ليوغسلافيا السابقة عملت كرئيس جلسة لـ"ندوة" في بيركلي حول معاناة ألبان كوسوفو. وكان في اللجنة اثنان من الشباب اللذان ذكرتُ سابقاً أنهما قد عادا للتو من سجن صربي حيث أمضيا يومين. تحدث الشابان بعاطفة هادئة؛ كانا يتحدثان من منطلق أمان عميق لأنهما وجدا ما يفعلانه، مهما بدا صغيراً، لتخفيف المعاناة في العالم. تحدثا على نحو مُقنِع، دون غضب (رغم أنه كان هناك بين المستمعين بعض القوميون الصرب الذين كانوا يشحنون الجو إلى حد كبير). تحدثا بمحبة، وأتذكر أني فكرت كم كنت أودّ لو كان لدى كل طلابي – وفي الحقيقة، لدى كل واحد منا – مثل هذه الملاءة الهادئة.

وأنا لا أتحدث من منطلق يقول "دع الأولاد يقومون بفعل السلام؛ إنه جيد بالنسبة لهم ولربما يبعدهم عن المخدرات"، بل أقول إنّ هؤلاء الشباب قد أحرزوا نجاحاً في شيء ما – شيء مبدئي. مبدأ

---

[171]- See note [from p. 102-Severin …]
[172] - *YO*, January / February 1997, p. 7.

بوسعنا نحن أيضاً تطبيقه بطرقنا الخاصة، فردياً، ومن ثم جماعياً. ولشرح ذلك، أريد توسيع بؤرتنا لمشكلة هي، إن صحّ القول، المشكلة الأكبر التي نواجهها الآن كمجتمع، وربما أيضاً كحضارة.

لذلك دعوني أركّز على مشكلة المخدرات والجريمة الراهنة في الولايات المتحدة متذكّراً الرسالة العالمية التي ينقلها هذا المثال. إذ نجد أنه في الوقت الحاضر، نصف حالات الحجز والسجن لليافعين تقريباً في أمريكا هي بسبب جرائم تتعلق بالمخدرات. فالمبالغ التي يدفعها الأمريكيون ثمناً للمخدرات غير الشرعية مذهلة، وقد لاحظ المسؤولون برضا ساذج أن هذه المبالغ انخفضت إلى 57،3 مليار دولار في العام 1995.[173] وأنا أردّ، نحن نبدّد مبلغ 17،9 مليار آخر من أجل شنّ "حرب" على المخدرات المؤثرة على العقل، وهذه الحرب فاشلة. على هذه النقطة يوافق عدد كبير من المحللين ممن درسوا هذه الحرب العاثرة. ففي ظل هذه الظروف، ليس بوسعنا ألا نتابع نتائج حالات كالتي تفكرّنا بها للتو، حالات اعتبرناها "هجوعاً عفوياً" في تعاطي المخدرات في أمريكا وإسرائيل – فلسطين. حالات تبدو وكأنها توحي بمقاربة مختلفة كلياً، مقاربة ليست حرباً على المخدرات، ولا على الجريمة – مقاربة شاذة كما قد تبدو، لأنها ليست حرباً على الإطلاق.

لأنه، كما رأينا، يمكن النظر إلى تعاطي المخدرات، كما يمكن النظر إلى العنف، من منظار مختلف. وقد اخترنا في أغلب البلدان الغربية، سواء كان هذا صحيحاً أم خاطئاً، النظر إلى هذه المشكلة كجريمة. فهناك إمكانيات أخرى، لكن حسناً، دعونا ندعها الآن جانباً، ونستغل هذه الفرصة للنظر إلى مجمل قضية الجريمة. فـ"الحرب على المخدرات" (التي تنحدر بطريقة ما في أغلب الأحيان إلى حرب على ضحايا متعاطي المخدرات) هي جزء من حربنا على الجريمة عموماً، وتلك الحرب الأكبر هي أيضاً فاشلة بشكل ذريع. فقد ذكرت لجنة العدالة القضائية الوطنية في العام 1996 أنّ «نزلاء السجون تضاعف عددهم ثلاثة أضعاف في العام 1980، والإنفاق على تطبيق القانون تضاعف أربع مرات. ومع ذلك لم تتغير معدلات الجريمة جوهرياً، والخوف هو أعلى من أي وقت مضى.»[174] ومنذ ذلك الحين استمرت الأمور بالتدهور. لذلك *"لنباشر بإنجاز حقيقي"*، كما كتب عالم الجريمة ريتشارد كويني في صدر كتاب هام يدعى *علم الجريمة وصنع سلام*.

لم يقرّبنا أي مقدار من التفكير بشكل أكبر من فهم وحلّ مشاكل الجريمة. فبمقدار ما يكون ردّ فعلنا على الجريمة أكبر، بمقدار ما نبعد أنفسنا عن أي فهم أو تخفيض فعلي للمشكلة.[175]

ما يعني بكلمة أخرى – وهي لروث موريس في كتابها المميز *إلغاء العقوبة* – أن كامل نظام العدالة الجنائي الخاص بنا، وليس فقط الحرب على المخدرات، «فشل أخلاقي غير عادل ومُكلِف.»[176]

---

[173]- *San Francisco Chronicle*, November 10, 1997.

لقد كلفت الحرب 60 بليون دولار خلال عام 1968 فقط قبل أن ترتفع إلى هذه المستويات من دون أي تحسن ملموس في نتائجها.

[174] - Steven R. Donziger, Ed. *The Real War on Crime: the Report of the National Criminal Justice Commision* (Harper Collins, NY: 1996) xvii.

[175]- Pepinsky, Harold E. and Quinney, Richard. *Criminology as Peacemaking*. Bloomington: Indiana University Press, 1991, p. 3.

وقد أوصل هذا الفشل حضارتنا إلى لحظة فاصلة. ففي نيسان عام 1967، عندما كنا في قبضة حرب فيتنام، نطق مارتن لوثر كينغ الابن بملاحظة تنبّؤية تقول بأنه، وبالنسبة لكل أمة، يأتي زمن كهذا حين تواجه الأمة أزمة أخلاقية محددة. حيث قال في خطبته الشهيرة في كنيسة *ريفرسايد* في نيويورك: «رغم أننا كنا نفضلها بشكل آخر، فإنه يجب علينا الاختيار تحديداً في هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ البشرية.»[177] ولأننا لم نرتفع إلى مستوى ذلك التحدي لم نجد نهاية مُشرِّفة للحرب، لكني أعتقد أننا لم نغُصْ إلى ما تحت إمكانية الخلاص. إنما، وكما يحدث دوماً، عندما لا تُحلّ مثل هذه المشاكل، نترنح نحو مشكلة أخرى، مشكلة هي كالأولى إنما لها شكل مختلف. «إنها لحظة فاصلة في تاريخ كاليفورنيا، لحظة يمكننا فيها أن نشقّ طريقنا نحو مجتمع أكثر صحة، أو توفير كل فلس من تمويل مستقبلي لنظام فاشل من المستودعات البشرية.»[178]

نلاحظ كم تشبه هذه اللغة السابقة لفنسنت شيرالدي، المدير السابق **لمركز سان فرانسيسكو للعدالة الجنائية للأحداث**، لغة المدعي العام السابق رمزي كلارك، والتي استخدمها في رسالة أخيرة لجمع التبرعات: «يجابه بلدنا أزمة أخلاقية مذهلة. لقد حكمنا بالإعدام على 1366 شخصاً، ونضيف المزيد إلى اللائحة كل أسبوع... وفي المستقبل القريب قد نبدأ بقتل مئتي شخص كل سنة. ثلاثة بلدان فقط، هي جنوب أفريقيا والصين وإيران، تنفّذ هذا القدر من أحكام الإعدام.»[179]

بعد فترة قصيرة على تصريح رمزي كلارك انهارت جنوب أفريقيا، وألغى النظام الجديد المناهض للفصل العنصري بقيادة نيلسون مانديلا عقوبة الموت مع الإيديولوجيا العنصرية. وهذا يتركنا الآن، نحن والصين كرائدتين للعالم الصناعي، قيد الصرامة الجزائية، كما نحن في الجريمة (عدد الذين يُقتلون بواسطة الأسلحة النارية في الولايات المتحدة كل سنة في ترتيب آخر من الكِبَر مقارنة بأيّ من الدول الصناعية). وفي السنوات الأخيرة، ناشدت محكمة العدل الدولية الولايات المتحدة مرتين من أجل تأجيل أو تخفيف الحكم بالموت، لكن من دون جدوى. هذا مشهد قاسٍ يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار بالنسبة لأقدم ديمقراطية في العالم – فكأننا نقود العالم القهقرى إلى قيم تنتقم من ماضينا البعيد.

بيد أن الجريمة كأزمة ليست محصورة بالولايات المتحدة، التي أمامها "فرصة" ومخاطر. ولرؤية الفرصة وسط العديد من هذه السلبيات، علينا النظر إلى الإيجابيات التي تحجبها.

الجريمة والتجديد

فيا يلي قصة من مجموعة إخبارية خاصة حول التطورات الإيجابية كما وردتني عبر بريدي الإلكتروني ذات يوم من العام 1992.

---

[176] - Pepinsky, Harold E. and Quinney, Richard. *Criminology as Peacemaking*. Bloomington: Indiana University Press, 1991, p. 3.

[177] - WASHINGTON, JAMES M., EDITOR. *TESTAMENT OF HOPE*. SAN FRANCISCO: HARPER & ROW, 1986, P.243.

[178] - SCHIRALDI, VINCENT. QUOTED IN *UC FOCUS* (UNIVERSITY OF CALIFORNIA, BERKELEY) 8, NO. 6, 1994, P. 1.

[179] - [Ramsey Clark fund-raising letter]

المرجع: أمريكا اللاتينية. العنوان: بيئة – صيادون مخالفون للقانون يصبحون حرّاس محميّة طبيعية. خدمة إنتربريس (ips). من قبل روبرتو هيرشر. بوينس آيريس، الأرجنتين.

إنهم صيادون، وكانوا يتعقّبون فيما مضى أنواعاً من الحيوانات المعرّضة لخطر الانقراض ثم تحولوا إلى حرّاس ذوي ضمائر حيّة تجاه الحيوانات التي كانوا يطاردونها من قبل.

حدث هذا التحوّل الرائع في محميّة إيبرا الطبيعية، في مقاطعة كورينتس، التي تبعد 700 كم إلى الشمال من العاصمة الأرجنتينية. ففي عام 1987، اضطلع بيدرو بيريا مونوز بإدارة محميّة إيبرا. والتقى باثنين من الصيادين، مينغو كابريرا ورامون كاردوسو، اللذين عاشا في المحمية طيلة حياتهما.

كانت حياة كابريرا وكاردوسو شاقة؛ فقد كانا يعتاشان في مستنقعات إيبرا من صيد السمك والحيوانات. ومن حين لآخر كانا يسافران إلى القرية الصغيرة بيليغريني، الواقعة على الحدود الجنوبية للمحمية، لبيع جلود الكاربنشو والأيائل والتماسيح. وبدلاً من اتخاذ موقف عدائي، فهِمَ مونوز أن هذين الرجلين يعرفان إيبرا أفضل من أيّ كان وأنّ الصيد كان وسيلتهم الوحيدة للعيش.

قال مونوز لـ ips: «لم يصدّقا آذنيهما حين عرضت عليهما عملاً. وها هما الآن الحارسان الأكثر تفانياً ووعياً (في إيبرا). فلفهم الطبيعة يجب أن يكون المرء سلمياً، وهذان الرجلان وُلدا على هذا النحو. كانا صيادين بحكم الضرورة، والآن ليس هناك من هو أفضل منهما كأدلاّء وحرّاس. فبمجرد النظر في عيون الناس الداخلين إلى المحمية، كانا يعرفان مَن منهم من الصيادين».

وكابريرا وكاردوسو هما حارسان فقط من أصل ستة حراس في المحمية، لكنهما الدليلان المفضّلان للباحثين والمصورين وأعضاء البعثات البيئية.

قال كابريرا: «الآن نفهم أهمية المحمية. فنحن نرى، دون أن ندرك، أننا أمضينا حياتنا برمّتها ونحن نستعد لهذا».

يقلب هذا الحدث توقعاتنا بصورة رائعة رأساً على عقب؛ فقد كان كابريرا وكاردوسو تقنياً "مجرمين"، وكان بوسع مونوز معاملتهما على هذا الأساس. يا للفرصة التي أفلتها من بين يديه! لكنه عوضاً عن ذلك، وبدلاً من النظر إلى الرجلين كسبب للمشكلة، قرّر أن يوجّههما نحو الحل. وهما ساهما في حل المشكلة. ونلاحظ في هذا السياق نتيجتين أُخريَين: (1) تغيرت القضية بالكامل من قضية نزاع إلى مراعاة كلاسيكية لـ"مصلحة الطرفين" كسب فيها الجميع: مونوز الذي أنجز العمل، وكابريرا وكاردوسو اللذان تبدّلا من خارجين على القانون إلى مستخدمين، من مسببين للضرر إلى شخصين نافعين. الكل ربح، حتى الحيوانات. (2) حصل كابريرا وكاردوسو على بعض المنفعة العميقة الدائمة بدافع التجربة التي نبدأ في إدراكها كإمضاء للأنشطة اللاعنفية، أي الإحساس بالمعنى: «لقد أمضينا حياتنا برمّتها ونحن نستعد لهذا.»

ليس بيدرو مونوز الشخص الوحيد الذي خطرت له مثل هذه الفكرة غير المألوفة عن الجريمة و"المجرمين". ففي نفس الوقت تقريباً، توصّل معلِّمان أمريكيان، بشكل مستقل تماماً، إلى فكرة جلب اثنين من الشباب الجانحين من الذين كانوا رهن الاحتجاز ووضعهما في موقع المسؤولية عن شباب مُعاقين إلى حدّ كبير. كانت شارون روبرتس أحد المعلّمين. وكما اعترفت، كانت تطلب من الكثير من الهيئات التدريسية في لوس أنجلس أن يدعوها «تضع الناس الأكثر خطورة في لوس أنجلس في موقع المسؤولية عن من هم أكثر هشاشة»[180] وقد عملت المفارقة بشكل مبدع؛ فمرة ثانية "ربح" كلا الطرفين: الشباب المعوَّقون والجانحون. يقول ألفرِد، وهو في السادسة عشرة من عمره، وعضو في Cripps تحت الاختبار لأنه كان متواطئاً في إطلاق النار: «لقد اعتدتُ أن أكون مجرماً لكني الآن، وعندما يلتفّ أولاد بيتي من حولي... أخبرهم بأن لدي أمور أخرى كي أفعلها». أمور مثل أخذ طفلة معوّقة تُدعى ستار إلى الصف، ما أكسبه تقدير المدرسة الثانوية وخبرة في العمل. يقول: «هذا يُظهر أنّ بوسعي فعل شيء ما. إنها المرة الأولى التي أشعر فيها بمثل هذا الشعور، حيث أبدو أكثر عطفاً ومقدرة مما كنت أعتقد.»[181]

لاحظوا كيف أصبح ألفرِد يفكّر الآن؛ فكونه مفيداً هو الأمر الوحيد الذي يعتبره "فعل شيء ما". لقد قدِم للتو مجتازاً طريقاً طويلة من النموذج السائد والقائل إنك، لكي "تفعل شيئاً"، يجب أن تساعد *نفسك*، وإن كان لا بدّ من إيذاء الآخرين، إلى نموذج آخر حيث الفائزون الكبار هم أنت وأنا – بمعنى المجتمع بأسره. إن المحجوزين الشباب الذين كانوا سيسببون أسوأ المشاكل – تقريباً من دون استثناء – مُنِحوا مخرجاً من هذه الدوامة اليائسة بالطريقة الوحيدة التي بوسعها أن تفعل ذلك: حيث مُكِّنوا من العثور على ما هو جيد في أنفسهم.

كان هناك مثل في روما القديمة يقول، ***curruptio optimum pessima***، «إن فساد أفضل الناس هو أسوأ أنواع الفساد». وبوسعنا أن نقلب هذا فنقول، ***redemptio pessimum optima***، أي «إن أسوأ الناس حين يثوبون إلى رشدهم يصبحون الأفضل». وهذه ليست مفارقة كبيرة، حيث رأينا في حالة المُتفوقين الذين دخلوا عالم المخدرات أنه غالباً ما يكون الناس الأكثر قدرة هم الأكثر إحباطاً بسبب فراغ المجتمع. طبعاً، وحسب الظروف، هناك مسببات ومفاهيم مختلفة تماماً لهذا الفراغ. إذ يشعر الأمريكيون بهذا الفراغ بحدة من خلال رصد وتقصي فراغ التعريف الحديث للتحقق والرفاهية المادي. حيث غالباً ما اختبرت بلدان المرحلة الانتقالية إلى ما بعد الاشتراكية فراغ هوية مختلف فُقِدت فيه كل المعاني والقيم. لكن بصرف النظر عن الفوارق التي تشكّل بالضبط هذا الفراغ، فإن العواقب متشابهة. فالناس يتشاركون في العوز إلى حياة ذات معنى ويشعرون بالضياع في مجتمع تقوده النزعة الصناعية المسيطرة.

---

[180] - Roberts, Sharon. "Ex-Offenders Aid World of Disabled," *New York Times*, February 4, 1990, p. Y33.
[181] - [Ibid., XX?]

لذلك، وبدافع من الفراغ، تتجه القدرات العظيمة للناس أحياناً إلى نهايات غير بنّاءة. ومع ذلك، توجد عند أسوأ مثيري الشغب، وهذا منطقي إلى حد كبير، أكثر الإمكانيات إبداعاً. والبراعة هي معرفة أن هذه الإمكانيات موجودة هناك، وامتلاك شجاعة للتفاعل معها. وبرامج "وساطة الأقران" مثال فعّال ومنتشر في الكثير من المدارس في كل أنحاء الولايات المتحدة. وقد أثار إعجاب المعلمين والمدراء اكتشافهم أنّ هذه البرامج لا تعمل فحسب على "تهدئة" الكثير من المشاجرات، بل تُبرز أيضاً نمطاً مميزاً حيثما جربت؛ فمثيرو الشغب الأشد يتحولون إلى أفضل الوسطاء. وهذا طبيعي جداً، بالفعل، حين نعرف ما الذي يجري.

أخبر أحدُ الشباب من مثيري الشغب بعد "تغيّره" أحدَ أصدقائي أنّ عليك، لكي تكون وسيطاً، أن "تتحقق من أنيتك عند المدخل". وقد عنى بذلك أنك لن تكون هناك من أجل نفسك فحسب، بل عليك أن تضع جانباً مشاعرك الخاصة. ومن ثم أضاف، قائلاً ما هو أكثر أهمية: «لقد كانت لدي دوماً المهارات لكي أكون وسيطاً، لكني لم أستعملها من قبل لأنه ما من أحد علمني كيف أستخدمها». وهو ليس شخصاً مميزاً لأنّ الجميع يتمعتون بهذه القدرة التي لا يعرف إلا القليل جداً استعمالها. «نحن جميعاً كمناجم ذهب مخفيّة».

وتصريحه هو نص كتاب مدرسي يتعلق بحلّ النزاعات ويمكن تلخيصه في ثلاث جمل:

1- علينا "التحقق من أنياتنا عند الباب"، والترفّع قليلاً عن مشاعرنا الشخصية. لأن بعض التضحية الروحية، سواء كبُرت أم صَغُرت، هو الأساس لأي عمل يمكن أن يؤدي إلى السلام.

2- كل ما هو مطلوب من معظمنا لتعلم هذه المهارة هو القليل من التدريب، لكننا نادراً ما نحصل عليه، لسوء الحظ.

3- وحين نحصل على مثل هذا التدريب في نهاية المطاف، نكتشف وجود "منجم ذهب" داخل كلّ منا. وإن لم نجد طريقة للتنقيب في مواردنا الداخلية، فإن ذلك سيسبب أعظم المشاكل لنا وللمجتمع. أما حين نجد هذه الطريقة، فسرعان ما نكتشف أننا أصبحنا صنّاع السلام الأكثر إبداعاً. وإذا باشرنا بالعمل، مثل الصيادين في المحمية الأرجنتينية أو مثل الشباب الجانحين في لوس أنجلس، فإن أكثرنا صعوبة سيكونون الأكثر قدرة على المساعدة في خلق مجتمع مُحبٍ، إن تمكنا من حل مشاكلهم.

لذلك فإن ما دعاه الكاتب في الأسوشيتد بريس "التحوّل الملحوظ" لكابريرا وكاردوسو لا يقل روعة عن التغيّر الكلي لشباب *الانتفاضة* عن تعاطي المخدرات، أو تغيّر الشباب "الأكثر خطورة" في لوس أنجلس الذين حققوا أنفسهم من خلال العناية بالآخرين من الكائنات البشرية العاجزة. وفي كل هذه الحالات كان "الأسوأ" قد حصل على هذا النحو لأنهم لم يتلمسوا طريقةً لاستعمال ذلك الخير الكامن في داخلهم، وبشكل غير متوقع في أغلب الحيان. وكل هذه المنفعة كانت ستضيع لو بقينا نتبنى النظرة السائدة إلى الجريمة.

مكر الأفاعي

طبعاً، لا تعني الإمكانية "المخفية لمناجم الذهب" أنه يجب أن نسلم الجانحين، وعلى الفور، مسؤولية مساعدة المعوّقين والدفاع عن الكائنات المعرّضة للخطر وصنع السلام. فلنكن مثاليين، أجل، لكن ليس سُذّجاً. فقد يرتقي الكثيرون من "مثيري الشغب" إلى مستوى الحدث، لكن بعضهم لن يكون كذلك. وهذا ما اكتشفه الكاتب نورمان ميلر على حسابه. ففي عام 1981، كان ميلر مُحبَطاً، بشكل مفهوم تماماً، بسبب نفاق الناس المُعرّفين كـ"مجرمين" في حين أننا أنفسنا نخلق الشروط التي تشجّع الجريمة. وكان ميلر على تواصل بالمراسلة مع أحد الجانحين العنيفين، وهو جاك هنري آبوت الذي كان هو نفسه كاتباً أو ما يشبه ذلك. وكنوع من الاحتجاج الشخصي، استعمل ميلر نفوذه للحصول على إطلاق سراح آبوت بكفالته. ولم تمضِ سوى ستة أسابيع على إطلاق سراحه المشروط قتل آبوت ريتشارد أدان وهو نادل في قرية غرينتش وعمره 22 سنة. ومما زاد من صدمة ميلر، إدراكه أنه ترك عدة مرات ابنته ذات الثمانية عشر عاماً وحيدة مع هذا الرجل. بعد فترة قصيرة شنق آبوت نفسه في السجن.[182]

ربما كان ميلر ساذجاً، لكنها كانت نوعاً خاصاً من السذاجة التي يقع فيها معظمنا حين يدرك خطأً كبيراً، ويتصرف بنفاذ صبر، مما يجعلنا نعكس الخطأ بدلاً من حلّه. فبسبب توقه لتخليص جبين آبوت من دمغة "المضحى به" التي وصمه بها المجتمع، دمغه ميلر بالـ"المضحية"؛ فالمجتمع هو الذي جعل هذا الرجل سيئاً، لذلك فالخطأ ليس خطأه، مما يعني أنه بريء. لكن عكس الدمغة لا يجعلنا أقرب إلى الواقع؛ فما نريده حقاً هو التخلص من الدمغات المسبقة لأنّ هذه هي الطريقة الوحيدة التي تمكّننا من رؤية بعضنا بعضاً كأناس. فعندما تَحوّل دمغة مسبقة، كتلك المواد الهلامية المُستخدَمة في أضواء المسرح، بيننا وبين الناس الحقيقيين، يكون العنف قد بدأ. وباستعمال تعابير العدالة (اللاعدالة) الجنائية، تمكننا إعادة الأنسنة من النظر إلى الناس بواقعية، وفهم كيف أصبحوا منتهكين للقانون. بعدئذٍ بوسعنا البدء بفهم ما الذي ينبغي عمله معهم وما الذي ينبغي عمله بحيث لا يقع الآخرون بالخطأ نفسه، وهو أهم بكثير.

لقد كانت ردة الفعل الأولى لميلر صحيحة بالمطلق؛ لأنه كما قالت روث موريس: «واضح أن القلة الخطرة (في السجن) قد استُخدِمت من قبل كل أولئك الذين يريدون إبقاء الـ 99% الآخرين في قلب منظومتنا الراهنة اللاأخلاقية والمُجحفة والمُكلِفة.»[183] فهذا هو المنطق الذي يمكن بواسطته استخدام حفنة من رجال الميليشيا لتشويه كفاح كامل، كل العرق الألباني على سبيل المثال، حيث حتى الجَدّات كنّ يعتبرن "إرهابيات" من قبل النظام الصربي. وميلر كان يطبق فحسب مبدأ لاعنفياً مشهوراً، ذلك أن عدم التعاون مع الشر يجب ألا يُلقي بظلاله قط كعداوة تجاه فاعليه، ولا حتى دمغهم بهذه الصفة. والأمر يبدو صغيراً لأنّ الإنسان – "مجرم" هي مجرد كلمة، في نهاية المطاف – عبر هذه الكلمة يُجرّد من إنسانيته

[182]- See the *Buffalo Report for March 1, 2002* (http://buffaloreport.com/020301abbott.html).

[183]- op. cit., p. 33.

بالكامل، ما يعني بالنسبة للعدالة الجنائية كامل النظام الذي تحدثت عنه روث موريس بدقة لاذعة. وكان غاندي ضد استخدام هذه الكلمة إجمالاً:

«يجب أن تُمحى كلمة مجرم من مفرداتنا؛ وإلا فنحن جميعنا مجرمون.»[184]

ثم أدرك غاندي، وكان مسيحياً في ذلك، أنّ «الإنسان ليس قادراً على معرفة الحقيقة المطلقة، لذلك فهو في المقام الأول غير مؤهّل للعقاب.»[185] ونحن نريد طبعاً الابتعاد عن مثل هؤلاء الراديكاليين الخطرين. لذلك فلنمكث مع بعض المحترفين الموثوقين، مثل الدكتور آرنولد تريباشر، أستاذ علم الجريمة ورئيس مؤسسة مكافحة المخدرات في واشنطن، الذي قال، وهو يتحدث من تجربته الخاصة المحترفة: «لقد علمني الإنكليز والهولنديون أنّ بوسعك استهجان تعاطي المخدرات لكن ليس من الضروري أن تكره متعاطيها».[186] لكن إذا كنا لا نريد أن نكرههم، فإن علينا التوقف عن دمغهم. والدكتور تريباشر يردد هنا فقط أحد المبادئ الأكثر أهمية في الساتياغراها – أو المسيحية بالنسبة لتلك المسألة: تعريف المسيحي، كما قال أوغستينوس منذ ألفية ونصف: «نحن نكره الخطيئة لكن ليس المخطئين».

واليوم، توفر هذه العقيدة دعامة نظرة جديدة تدعى العدالة *الإصلاحية* مقابل العدالة *الجزائية*. لذلك لندع فسحة لهارولد بيبينسكي للتعبير عنها:

«خلال عقود من ألفية مُختبِرة للأدب عبر التقاليد، وعبر محاولات الحياة اليومية في أي مظهر من مظاهر الحياة لكي نصبح أكثر أمناً وأماناً اجتماعياً، أرى أن كل شخص يطبق واحداً من نظامين فحسب للسيطرة الاجتماعية: صنع السلام، أو ما أدعوه "صنع الحرب"... عندما يختار المرء أن يصنع حرباً على مشكلة اجتماعية بدلاً من أن يصنع سلاماً معها، فإنه يتبنى هذا النظام من التفكير: فالطلب الأول للعمل هو أن تعيّن وتؤكد لوم أولئك المسؤولين شخصياً عن الخطر وعدم الأمن اللذين نواجههما؛ هؤلاء هم أعداؤنا. والتالي هو أن نحاول عزلهم وإخضاعهم – إخماد إرادة العدو في القتال. وتستلزم العملية حكماً عابراً على الأعداء ومعاقبتهم (أي سلبهم القوة بإقفال الزنزانات عليهم). فإذا تقرر اعتبار تهديد الفوضى الاجتماعية في نظام السيطرة الاجتماعية لصنع السلام، فإن اللوم يفسح مجالاً لتطهير الفوضى الاجتماعية وإعادة القدرة للخصوم للتقدم بأمان سوية. بينما المهمة البارزة لصنع الحرب هي أن تكون المقاتل الأكبر والأسوأ ما استطعت، والمهمة البارزة لصنع السلام هي أن *تنسج مقاتلين، ضحايا أضعف أولاً، وتعيدهم إلى نسيج اجتماعي من الثقة المتبادلة والأمان المتبادل والأمن المتبادل.*»[187] (التأكيد من عندي)

هذه الطريقة "الجديدة" في التفكير (كما سنرى لاحقاً، مُورِسَت على نحو واسع في بعض المجتمعات الأصلية) هي ليست فقط فكرة عاطفية بل لها خلفيتها البراغماتية. وقد قال جيرمي بينثام في

---

[184]- CWMG: This and following quote from Vol. 19, p. 466.
[185] - Ibid.
[186]- Trebacher, Arnold. Interview in the *Pacific News Service* editorials for June 24-28, 1991, p. 2.
[187] - From the syllabus of Prof. Pepinsky's course, CJUS P202, "Alternative Social Control Systems," Spring 1996.

إحدى مقالاته: «تميل القوانين الدموية لجعل الرجال قساة عن طريق الخوف أو المحاكاة أو الانتقام بينما تؤنسن القوانين التي يمليها الاعتدال أساليب الأمة وروح الحكومة»[188]. واليوم، إن كنت متهماً بـ"الاعتدال" حول الجريمة فإنه على الأرجح الطريق الأسرع لخسارتك في الانتخابات، ومع ذلك بدأت بعض الممارسات تقرع أبواب السلطة داعية لإجراء تحسينات ضخمة في وحول السجون الكالحة التي بُنيت وفق نموذج صنع الحرب.

استعادة العدالة

بدأ أحد أكثر مشاريع العدالة الإصلاحية نجاحاً في الولايات المتحدة في العام 1975 في سجن غرينهافن الرسمي في نيويورك. وبشكل لافت، بُوشر به ليس من قبل باحثين أو موظفي خدمات اجتماعية، بل من قبل السجناء أنفسهم. وقد دعوا أنفسهم "مجلس الخبراء" (وأفترض أنها تورية متعمّدة)، وأجروا اتصالاً مع مجموعة كويكرية محلية لمساعدتهم على إيجاد بدائل لاعنفية من أجل الحياة في السجن وماذا ستفعل لهم. وما بزغ من ذلك التعاون انتشر بسرعة إلى خمس عشرة ولاية وإلى كندا وهو الآن معروف على نطاق واسع بـ"بدائل المشروع العنفي" (AVP). وانبثقت مشاريع عديدة مشابهة، مثل المشروع الذي كانت تعمل من أجله المرأة في القصة السابقة. فما هو AVP؟ جوهرياً، هو مجموعة من ورشات العمل المُصمَّمة لتوفير بيئة مُؤنسِنة ومجموعة من الأدوات التي تتيح للسجناء ألاَّ يتعلموا العدوان. الفكرة بسيطة إذاً، وأصبحت مألوفة أكثر بالتدريج.

أثبت الباحثون النظريون في التعليم الاجتماعي أنّ العدوان والعنف سلوكان يمكن تعلمهما. ولذا يمكن، ضمن حدود بيولوجية ووراثية، تعديله باستعمال مبادئ التعلّم الاجتماعي مثل [دور] التشكيل وفق نموذج... وقد بيّن البحث أنّ استخدام ردود إيجابية غير متوافقة مع عمل عنفي (ابتسامة؛ حالة إرخاء العضلات؛ اتصال مباشر واضح وصريح؛ استماع نشِط؛ تطوير الثقة...) تجعل إمكانية العدوان و/أو العنف غير محتملة أكثر بكثير من اتخاذ روادع سلبية كالعقاب أو التوبيخ أو الإشعار بالذنب.[189]

وقد نتساءل عن تلك "الحدود البيولوجية والوراثية" (هل كان غاندي من صنف آخر؟)، لكن بالتأكيد يمكننا أن نقبل، وفي الحقيقة أن نستحسن، المقدمة الأساسية لـ AVP، كما يتم توضيحها في مستهل كل ورشة عمل... بأنه «ليس من الضروري أن تكون الكائنات البشرية عنيفة مع بعضها البعض، وأن العنف البشري ليس مسلّماً به، حتى في السجن». ولذلك فإن تعليم تقنيات لاعنفية «يمكن أن... يفيد كثيراً المُهيّئين لارتكاب اعتداء». فعلى سبيل المثال، تعليمهم (أو تعليم أيٍّ منا) مهارات شفوية يخفّض من حاجتهم للردّ على استفزاز ما بالعنف. وأكثر من هذا، تساعدهم اللباقة أكثر على الحفاظ

---

[188] . بورينغ، جون (تحرير). (1843). أعمال جيرمي بينثام، المجلد الثاني. إدنبره، ص 562.

[189]- From Lila Rucker's chapter, "Peacemaking in Prisons: a Process," in Pepinsky and Quinney, op. cit., pp. 174, 177, & 175. Rucker is quoting various authorites.

على سلامتهم واحترامهم لذاتهم في المواقف الحرجة. وتذكّرنا ليلا دوكر من جامعة داكوتا الجنوبية: «أنّ هذا الإحساس بالقيمة الأخلاقية مرتبط بإحساسنا بالترابط مع الكائنات البشرية الأخرى.»[190]

ومقدمة AVP هذه هي أساس النظرة العالمية إلى اللاعنف. ونحن لا نتحدث هنا فقط عن استعادة بعض المُهيّئين للعدوان إلى صواب "حالة سويّة"، بل عن إمكانية تغلبهم على بعض من العزلة الروحية التي نقبلها اليوم كوضع طبيعي. فعندما يكون بوسعهم تحويل مجرى إصرارهم الجدير بالاعتبار إلى كفاءة اجتماعية، وإعادة توجيه دوافعهم من "سلطة على" شخص ما إلى "سلطة مع" الآخرين، فسيصبح لديهم نوع من التجربة الناضجة التي يمكن حتى لنا "غير المُهيّئين لارتكاب اعتداء" التعامل معها.

وكما تقول روكر: «يمكن أن يجلب الأمر وخزاً خفيفاً من الإثارة إن سمحنا لأنفسنا باستحضار صور تحويل المراكز التصحيحية إلى مراكز شفائية».[191] وبصراحة، أوافق على ذلك، واعترف بأني أشعر بوخز خفيف من الإثارة بخصوص برامج مثل AVP. فتصوّر إذا أمكننا تحويل نظام العدالة الجنائي الأمريكي بكامله من التخزين في مستودعات والعقاب إلى الاستعادة والشفاء الاجتماعي، وهذا يحدث غالباً. فإحدى أفضل الصيغ هي عندما يعتمد المصلحون ذوو العقلية التقدمية على ممارسات أصلية مُختبَرة مع الوقت.

إذا أمكننا بطريقة ما تحويل النظام القضائي برمّته إلى مشاريع شفائية مثل AVP، فسوف يساعد هذا كثيراً، لأن تلك المشاريع تنشأ من مبادئ صحيحة. وأولئك الذين ألصقنا بهم صفة "مجرمين" هم في الواقع كائنات بشرية لها كامل الإمكانية البشرية، لكنهم معزولون. فإذا كانت الجريمة نوعاً من العزلة (أي نوعاً من العنف)، فلا يمكن شفاؤها عن طريق العقاب الانتقامي (الذي هو نوع آخر من العنف). يجب أن يأتي العلاج الحقيقي من شيء لا يمتّ إلى العنف بصلة ولا يخلق عزلة أكثر. فبدلاً من القول للجانحين: "هيا، انصرف من هنا" كما يحب الناشط بولوزوف أن يصيغها، تحولها البرامج الإصلاحية إلى: "هيا، عُدْ إلى هنا". وفي الحقيقة هذا أمر يجعل العقل يجفل عند تخيّل ما ستكون عليه الحال إن تحوّلت ماكينة العدالة الجنائية بأسرها من العقاب إلى الشفاء.

ومع ذلك سيكون منافياً للاستقامة، وغير مجدٍ في النهاية، التوقف عند هذا الحدّ لأنّ علينا أن نتفكر بما قد يوقعه الزمن من ضرر لشخص في السجن. فقد قال لي ذات مرة راي شونهولتز مؤسس

---

[190] - Ibid., p. XX.

[191] - Ibid., p. 172.

في الواقع، يمكن أن تكون "لإفصلاحية" خطوة إلى امام في بعض الحالات. لكن الغرض من نظام العقوبات في كاليفورنيا تغير بشكل ملموس عام 1976 من نظام إصلاحي إلى نظام عقابي. وحسب مسؤول رسمي في المقاطعة أجريت مقابلة معه بعد حوالي 20 عاماً، لم يكن لهذا التغيير "التراجعي" أي أثر ملحوظ على حالة نسبة الجريمة في الولاية. لقد أصبحنا نملك الآن نظاماً غالباً ما يحول المسيئين غير العنفيين إلى أشخاص عنيفين.

هيئات مجتمع سان فرانسيسكو، مُردّداً بصيرة ديبورا بروثرو–ستيث: «مجمل صناعة عدالتنا هي خلف الحقيقة، مثلها مثل مجمل صناعة صحتنا. الكل يركض خلف الحدث». حتى البرامج التي تُشفي بدلاً من أن تُعاقِب هي خلف الحدث.

عندما نتفكّر بعدد برامج الإصلاح التي هي "خلف الحدث" – وهذا عام على ما يبدو – نبدأ في رؤية السبب الذي يجعل نظام العدالة الجنائي لا يصنع مجتمعاً أفضل. علينا أن نهبط في سلسلة المسببات، وأن نلج نظام قيمنا ونجد ما يجب إدخاله من تغييرات يمكن أن تحول دون الجريمة والعنف والعزلة في المقام الأول. إن التحدي الحقيقي يأتي من "تحوّلات" أناس مثل كابريرا وكاردوسو، أو مثل تحول ذلك العدد الذي لا يُحصى من مثيري الشغب في المدرسة الثانوية والذي أصبحوا من أفضل الوسطاء، أو مثل الجانحين الشباب في لوس أنجلس أو الآلاف الذين ينتظمون في AVP وبرامج أخرى ذات الصلة، ليس فقط من أجل الشفاء من جراح العزلة التي حدثت ذات مرة بل من أجل تغيير شروط العزلة في هذا العالم ما يُمكّن بالتالي أناساً مثل هؤلاء – ومثلنا جميعاً – من عيش حياة ناجزة. تلك هي الطريقة الوحيدة للخروج من العزلة المتعددة الأنواع والتي تؤدي تقنياً إلى السلوك الإجرامي أو إلى مِحَن أقل شكلية.

أليس هناك بعض النفاق في عمل أي شيء آخر؟ وما هو الـ"مجرم" في نهاية المطاف؟ دعوني أُذكّركم بأمر اكتشفناه حول أحد أكثر النزاعات إيلاماً في القرن العشرين: «لماذا يقتلون بعضهم البعض؟... الناس هنا [في البلقان] صدّقوا دوماً، وما زالوا يصدقون، ما يرونه ويسمعونه من التلفزيون.» حسناً، بصراحة، "المجرمون" هم الذين يُصدقون ما يرونه ويسمعونه من التلفزيون التجاري: لأن الناس منفصلون، ولأن الحياة معركة، ولأن السعادة خارجنا، لذلك فإننا جميعاً محكوم علينا بالتنافس ضد بعضنا البعض من أجل سلع مادية محدودة.

هذه بالطبع رسالة لاشعورية تتجاوز دعاية الكراهية غير الحذقة لتلفزيون بلغراد الرسمي: إنها أكثر لاشعورية، وبالتالي أكثر فاعلية. وهي لم تكن لتستمر خمس سنين فحسب، بل على الأقل لخمسين سنة (فيما يتعلق بالتلفزيون بوجه خاص). ففي ثقافة تنشر مثل هذه الرسائل من كل إذاعة أو تلفزيون طوال اليوم لأكثر من أربعين سنة – رسائل فلسفتها الأساسية هي مادة العنف نفسها – فإنه من النفاق أن تفعل شيئاً سوى معاقبة أولئك الذين يستسلمون لتلك الرسالة على نحو غير شرعي. ومن الحماقة الاعتقاد بأنك ستكسب الأمن حين تمسك بأولئك الأفراد. «سأتصرف بالطريقة نفسها التي عُومِلتُ فيها، فليساعدني الله»؛ إن هذه الكتابة بخط اليد على الجدار هي من أجلنا جميعاً إذا واصلنا إطلاق شياطين العزلة، ومن ثم بحثنا عما تدعوه روث موريس "أمناً زائفاً" بإبقاء "المجرمين" بعيداً عن الأنظار؛ فالأمن الحقيقي له وجه مختلف تماماً.

إن نظام العدالة الجزائي، بطقوسه التراتبية المؤسَّساتية، الذي ألبس القضاة أرديتهم وسلّح رجال الشرطة وأقفل الزنازين، يعرض، دون مبالغة، بديلاً ملموساً للأمن الأعمق الذي نفقده. والأكثر مأساوية

هو أننا نأخذ بهذا الحل السريع الذي يسترضي جوعنا الداخلي فقط بما يكفي لكي يجعلنا نخفق في البحث عن أمن حقيقي في المجتمع المعني، حيث بوسعنا أن نكون واثقين من المحبة والدعم مهما حدث. فلا يمكننا مطلقاً الإقفال على آخر معتد... لكن يمكن أن نخلق نوعاً من المجتمع حيث نعرف، مهما كان ما سيحمله المستقبل، أننا سنكون مُحاطين بالمحبة وبالدعم.[192]

الثقافي هو السياسي

بوسعنا استخدام اللاعنف من أجل حلّ مشكلة الجريمة، لكننا نحتاج إلى البدء بإغلاق أبواب الزنزانة. ومرة أخرى، يمكننا الهبوط ثلاث خطوات أخرى إلى أسفل سلسلة السببية ورؤية أين وكيف يمكن التدخّل في كل مرحلة.

أولاً – نحتاج إلى عدالة إصلاحية بالنسبة للموقوفين، وخصوصاً إن كانوا من الشباب. إذ إنّ AVP وشارون روبرتس روّاد يُظهرون لنا ما نحتاجه من أجل النظام بكامله. وهذا ليس اقتراحاً راديكالياً صارماً؛ فهو جديد على الجمهور (قرأت مصطلح *العدالة الإصلاحية* للمرة الأولى في الصحف في حزيران العام 1998)، كما أنه ليس متطرفاً أو مجرد فكرة جديدة على نحو خاص بالنسبة لعلماء الاجتماع. ونستشهد للمرة الأخيرة بروث موريس: «عندما تصبح البرامج الجامعية أرضية تدريبية للحراس الأرثوذكسيين ومدراء السجون والمحامين ورجال الشرطة الذين ينتجون نظامنا الجزائي والتدميري... ليست على تماس مع أدب البحث الجدي الذي يوثّق مراراً وتكراراً عدم القدرة المتأصلة للنظام الانتقامي من أجل إنجاز أي غرض اجتماعي إيجابي»[193] فالعدالة الإصلاحية هي الخطوة رقم واحد، بالنسبة لتلك الخطوات التي فشلنا فيها جميعاً.

ثانياً – نحتاج إلى دعم أكبر بكثير للبرامج التي يمكن أن تصدّ السلوك الإجرامي، وتحديداً، وخصوصاً، من أجل الشباب. ففي كل مدينة أمريكية تقريباً، تحاول الشرطة والمنظمات التطوعية إعطاء الشباب شيئاً أفضل كي يعملوه بدلاً من الالتفاف حول العصابات. فهم ينظمون مباريات كرة السلة، ويُحْدثون أماكن لتمضية الوقت، والأفضل من كل ذلك يدخلون هذه الأماكن ويقضون الوقت معهم. إنّ أحد أكبر الجراح في مجتمعنا هو الفجوة بين الكبار والشباب، ومن المحتمل أنها تضاهي ضعف الاتصال بين الأجناس الاجتماعية (الجندر) في تأثيراتها التدميرية على الثقافة الإنسانية. وبرنامجي "الأخ الكبير" و"الأخت الكبيرة" هما طريقة للتغلب على جزء من هذه المشكلة، لكنهما ليسا بديلاً عن العائلة. ما من بديل عن العائلة؛ فالعائلة المُحبّة المتماسكة تعمل على الحيلولة دون الجريمة (أو "الوقاية الاستباقية") بالمعنى الأصحّ للكلمة. فالنوافذ ذات القضبان وكاشفات المعادن هي موانع بالمعنى الأكثر سخرية؛ ووفق مصطلحاتنا، إنها قد "تفعل" لكنها لا تفعل.

---

[192] - Morris, op. cit. This and the following quote from pp. 44, 46 and 45.
[193] - Ibid., p. XX.

والآن أصبح معظمنا مدركاً بأن ميزانية السجون تصرف من أموال النظام التدريسي، وبصورة سخيفة، لأنه ثبت مراراً وتكراراً أن التعليم المدرسي هو الطريق الثاني الأكثر فعالية، بعد العائلة نفسها، في إبعاد الناس عن الجريمة. وللاستشهاد بحالة واحدة، لم يزدد الإنفاق منذ بداية التسعينيات من أجل K-12 والتعليم العالي في عموم البلاد بأكثر قليلاً من 8% لكل فرد، في حين أن الإنفاق على تأديب الشباب والبالغين ازداد بنسبة 18%، ومنذ ذلك الحين انخفضت النفقات التعليمية باستمرار بينما ارتفعت جدران السجون.

ويلبرت ريدو، وهو كاتب سلس الأسلوب، قتل حارس مصرف حين كان في التاسعة عشرة من عمره وهو يدفع ثمن ذلك الخطأ في سجن ولاية لويزيانا التأديبي منذ العام 1962. ولا مبرّر لديه لكي يدعي أن نظام السجن يخفّض من العنف ويمكنه أن يكون فظاً إلى حد ما بخصوصه. وهو يقول إنّ الإجراءات الصارمة ضد الجريمة هي، بصراحة تامة، مثل "الفرس العرجاء"، فـ«الناس لا يريدون حلولاً، إنما يريدون فقط الشعور بالارتياح»[194] وتراه يلمّح، إلى أنّ أربعة أخماس السجناء ذوي الأحكام الطويلة في سجن ولاية أنغولا هم من الراسبين في المدرسة الثانوية كما هي حاله هو. لذلك، وبدلاً من تضييق الخناق عليهم عندما يقع الضرر: «أودّ أن أرى المزيد من الجهود الهادفة لتحسين حياة الناس حقاً. فالجريمة هي مشكلة اجتماعية، والتعليم هو الرادع الحقيقي الوحيد... فاستثمروا أموالكم هناك». ويصوغ مثل يوناني حديث هذا الأمر بشكل جميل: «عندما تُفتَح مدرسة، يُغلَق سجن».

أو كما تقول لوحة الإعلانات: «افتح مدرسة تغلق سجناً»؛ فالتعليم يؤنسن ثانية. ويمكنه أن يكون فعالاً حتى بعد حدوث الجريمة. ففي ماساشوستس، "حُكِم على" شابة، كانت قد قضت عدة أحكام "عادية"، أي تأديبية، لجرائم أخرى، باستلام صف الأدب. وكان تعليقها: «إنها المرة الأولى التي يمنحني فيها أحد ما فرصة»[195]

هل يجب أن نحوّل نظام العدالة الجنائي برمّته إلى نظام تعليمي؟ كما تعلمون، يمكننا أن نفعل أكثر بكثير. هل يجب أن نعيد الأموال التي تسرّبت من المدارس إلى النظام التأديبي؟ يمكننا أن نفعل أكثر بكثير، لكن يجب أيضاً أن نفعل المزيد والمزيد.

ثالثاً – علينا، بصبر وبحزم، تفكيك ثقافة العنف التي قامت عليها حضارتنا المادية واستبدالها، جزءاً فجزءاً، ومؤسسة فمؤسسة، بثقافة سلام تقوم على أساس "ثورة القيم" التي طال انتظارها، والتي دعا إليها مارتن لوثر كينغ في خطبة شهيرة له بعد أسبوعين من تصريحه ضد الحرب في نيويورك.[196]

على أية حال، في حين أنه من الصحيح أن التعليم هو الترياق للعنف، فليس صحيحاً القول إنّ التعليم لا يعني أكثر من مكوث الشباب في المدرسة. كيف يمكن ذلك، وهم يجلبون اليوم معهم العنف

---

[194] - Woodbury, Richard. "A Convict's View: 'People Don't Want Solutions" *Time* magazine, ug 23,1993., p.33.
[195] - Webster, Katherine. "Verdict, guilty; sentence, literature," *Santa Rosa Press Democrat.* May 31,1994, p.A6.
[196]- King, Martin Luther. "Why I am opposed to the war in Vietnam," delivered in Atlanta, 3rd Sunday in April, 1967.

إلى المدارس من خلال أكثر من مئة ألف قطعة سلاح ناري كل يوم، أي مليون في السنة؟[197] ففي الولايات المتحدة، التي لديها الآن مراكز تسوّق أكثر مما لديها مدارس ثانوية، وإذا شئنا المضي قُدماً من أجل استعادة أموال المدارس التي تسرّبت إلى نظام السجون، فإن ذلك وحده لن يحلّ المشكلة لأن الأطفال سيجلسون في تلك المدارس الحسنة المظهر والمُعتنى بها جيداً والمُكيّفة لا يتعلمون شيئاً تقريباً سوى كيفية الحصول على عمل. فالعدو الأكبر للتعليم ليس نقص التمويل، مع أن ذلك يؤذي؛ إنما هو الافتقار إلى الهدف. فنقص التمويل هو مجرد عَرَض للثقافة المادية الراهنة. وهذه الثقافة نفسها هي التي تجعلنا أيضاً نعتقد بأن بناء السجون أكثر أماناً من بناء المدارس، وتجعل المدارس غير آمنة إلى حدّ أن الشباب يشعرون بأنّ عليهم حمل أسلحة عندما يذهبون إلى هناك.

لقد تعرّض التعليم لهجوم مستمر من محورين بحيث لم يعد بوسع حتى التمويل الجيد – وأنا أؤكد أنه يحتاج إليه – أن يلبيه تماماً. فمن جهة، يأتي أطفالنا إلى المدارس بتعليم لا يُجارى من قبل معلميهم لأنه، وبكل بساطة، يزاول الإعلام الجماهيري التعليم دون رخصة. ومن جهة أخرى، المربّون العامّون أنفسهم – وأنا أكره أن أقول هذا – فقدوا البصيرة حول الغرض من التعليم؛ فقد وصلوا إلى القناعة بأن التعليم يعني أمراً واحداً فحسب: التحضير للعمل. فالجامعات، كما صاغ ذلك مؤخراً زميل لي، «أعادت ابتكار نفسها كشركات». تعليم فعلي – لأنه وكما تجرأت واقترحت إحدى المرشحات الطامحة إلى منصب مدير التعليم في كاليفورنيا مؤخراً «نحن بحاجة إلى إدخال الفنون البصرية والتمثيلية إلى المنهاج»، بدءاً من الروضة فصاعداً. وكنت على استعداد للاندفاع خارجاً إلى صندوق الاقتراع، حين أضافت: «هذا أمر هام... بسبب المتطلبات الاقتصادية الجديدة». وليس من أجل المتطلبات الأزلية للإحساس بالهدف أو الجمال أو المعنى – أوه! حسناً.

لذلك، يجب أن يدرك حتى أولئك الذين، مثل ريدو، يدافعون عن التعليم بوصفه ترياقاً للجريمة أنّ وضع الناس في المدارس لكي يحصلوا على وظائف ليس تعليماً؛ وفي الحقيقة، فإن التعليم من هذا المفهوم هو جزء من المشكلة لأنّ ثقافتنا، وكما تعلّمنا عن متعاطي المخدرات النموذجي في أمريكا، تعتبر أنّ أنماطاً معينة من الحياة "نجاحاً" بينما هي فعلياً تتجلى كفشل فيما يتعلق بتجنيب الناس الإحباط والفراغ. فالحاجات الإنسانية الفعلية يمكن أن تكون مختلفة جداً.

... لا يمكن للرجل [والمرأة] أن يزدهر إذا كان عالمه بالكامل عبارة عن مواضيع يمكنه رؤيتها أو سماعها أو تلمسها أو تذوقها أو شمّها. وغريزياً، سواء أكان من قبيلة في غينيا الجديدة أو ملكاً من ملوك المال في وول ستريت، يميل الكائن البشري إلى الشعور بأنّ الحياة على هذه الأرض يجب أن تكون خاضعة لنوع من الغاية الأسمى.[198]

---

[197] - [Reference to 100,000 guns in school per day]

[198] - Friedman, Meyer and Ulmer Diane. *Treating Type A Behavior—and Your Heart*. New York: Ballantine, Fawcett Crest, 1984, p. 196.

ومؤخراً رُدِّدت هذه الملاحظة من قبل سلطة صحيّة عالية المستوى: «منذ بضع سنوات، نشرت وزارة التعليم الصحي والرفاهية في ماساشوستس دراسة، وكُرِّرت بعد ذلك في فرنسا، جاء فيها أن العلماء والخبراء الاقتصاديين أكدوا مرة أخرى على عوامل الخطر المتعلقة بمرض القلب. ووجدوا أن المُسبب الأول للذبحات القلبية القاتلة، الذي وُصِف أولياً بأنه الاستياء من العمل، مرتبط جداً بفقدان المعنى أو الغرض في الحياة.»[199]

وكنت في مستهل هذا الكتاب قد أشرتُ إلى أنّ غيابَ المعنى والغرض يفسر انتحار المراهقين في جنوب بوسطن. لكن ليس المراهقين فقط؛ ففي جنوب أفريقيا، عندما سقط نظام الفصل العنصري أخيراً، شعر بعض البيض ممن تعلّقوا بهذا النظام من أجل إعطاء حياتهم معنىً أنّ القاع تهبط من تحتهم. وفي حالة أو حالتين، انتحرت عائلات أفريقية بكاملها بسبب شعورها بأنه «ما من طريق إلى الأمام... وما من مستقبل للبيض في هذا البلد»[200] وقالت إحدى الجهات المسؤولة إنّ أعضاء طائفة بوابة السماء في سان دييغو الذين أقدموا على الانتحار في في العام 1997 يلائمون "النمط النموذجي" للناس الـ"باحثين عن "غرض استهلاكي" لحياتهم.[201] وهذا يشكّل نموذجاً لمن؟ طبقاً للدليل الطبي المُستشهَد به للتو، فإن كل فرد منا يبحث عن غرض استهلاكي لحياته. وعندما تستمر الثقافة في إخبارنا بأننا منفصلون، ومجرد مواضيع فيزيائية تنزع إلى الاستهلاك، منقسمة بلا أمل ومحكوم عليها بالتنافس، سيصبح من الصعب إيجاد مثل ذلك الغرض.

انهمكتُ لفترة في برنامج كان يعلّم التأمل للناس الذين شُخِّصت حالاتهم على أنهم مصابون بالأيدز. ونحن كنا مُهيّئين لاكتشاف، واكتشفنا، أنّ التأمل والمبادئ المرتبطة به وفرت لهم الحماية من بعض أسوأ تأثيرات القلق، بما في ذلك بعض تأثيراته على أنظمة مناعاتهم الضعيفة. ومع ذلك، فاجأنا عدد الناس حين قالوا: «إذا أمكننا استعادة صحتنا مقابل التخلي عن كل ما تعلمته من هذا البرنامج، فسوف لن أفعل».

ولذا فالحلّ العميق التام لوباء الجريمة – وأيضاً للفساد والتعصب والهجرة – الحل الذي يعمل *قبل* أن يُلحِق الناس الأذى بأنفسهم وبالآخرين، هو حلّ إصلاحي، ليس من أجل أولئك الذين ابتُلوا فحسب بل من أجل الثقافة ذاتها. أجل، نحن بحاجة إلى المزيد من البرامج الإصلاحية في السجون؛ أجل، نحن بحاجة إلى إعادة إنشاء المدارس وأن ندعها تُعلِّم الشباب كيف يعيشون (دون أن نذكر لماذا يعيشون) لكننا أيضاً بحاجة إلى تطوير ثقافة تُسهِّل، بدلاً من أن تُثبط، "بحث الإنسان عن معنى لحياته".

العالم الذي أُعيدُ صياغة قوله في الفقرة الأخيرة هو فيكتور فرانكل. وفرانكل، الذي تدرب كجراح أعصاب في موطنه فيينا، وأمضى سنتين ونصف من حياته في ذلك الجحيم المُسمّى أوشفيتز ونجا

---

[199] - Deepak Chopra, quoted in *Noetic Sciences Review*, No. 28 (Winter, 1993) p. 19.
[200] - Quoted in the *Pacific News Service*, August 9, 1992, p. 6.
[201] - From a *San Francisco Chronicle* editorial, Friday, March 18, 1997, p. A24.

ليكتب كتابه الأكثر رواجاً بحث *الإنسان عن المعنى* مباشرة بعد خروجه من تلك التجربة التدميرية، رغم أنه ويا للغرابة انتصر فيها. فمن لُجج العنف ارتقى لكي يسأل السؤال الأعمق لوجودنا: ما معنى الحياة؟ ما المُفتَرض بنا أن نعمل ههنا؟

إنّ مجرد طرح هذا السؤال يُعتَبر إصلاحاً بطريقة ما لكنّ فرانكل ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك؛ فقد رأى أنّ المعنى الحقيقي لا يمكن أن يُلفَّق، وإنما يجب أن يُكتشَف: «أعتقدُ أنّ معنى وجودنا لا يُخترَع من قبلنا بل يُكتشَف بالأحرى»[202] وهكذا في حين أنّه حتى الإحساس بالمعنى علاجي (سواء حصلنا عليه من القفز على حبل البانجي، ومن دون أن نذكر التفرقة العنصرية)، فإن المعنى الحقيقي يأتي حين نصبح مرتبطين بطريقة ما بغرض أعلى يتجاوز أنفسنا وما بعدها. تقول ليونا، وعمرها 91 عاماً، والتي تقضي وقتها الفائض في تعليم مهارات خبرتها في الخياطة للآخرين: «أعتقد أنك إذا لم تستطع مساعدة آخر، فلا نفع من حياتك.»[203]

وفق منظور فرانكل (الذي تعتمد عليه "مدرسته الثالثة في العلاج بالتحليل النفسي") نحن لا نستطيع ببساطة تركيب شيء ما ذي معنى لنفعله لأنّ *لدينا* شيئاً ما ذا معنى لكي نعمله، والبحث الحقيقي هو أن نكتشف ما هو هذا الشيء. وكل ما أقوله في هذا الكتاب يريد تسليط الضوء على ذلك البحث، لأنني أعتقد أنّ من الممكن تعريف ما له معنى بالنسبة لنا، نحن الذين نعيش في قلب الأزمة التاريخية الراهنة. لأن المهمة هي خلق مجتمع مُحبّ، والطريق لفهم ذلك والقيام به هو اللاعنف. وأياً كنا، بوسعنا العثور على طريقنا الخاص للقيام بذلك. هذا هو العمل الذي سيعطي حياتَنا معنىً، فردياً وجماعياً. والتعبير الأكثر جمالاً الذي أعرفه عن هذه المهمة يأتي من رسالة كتبها إينشتاين عندما كان في السبعين من عمره. وليس مستغرباً أن تصبح هذه الفقرة الصغيرة مشهورة جداً فيما بعد:

«الكائن البشري جزء من كل، ندعوه "الكون"، جزء محدَّد في الزمان والمكان. فهو يختبر أفكاره ومشاعره كشيء منفصل عن البقية – نوع من الوهم البصري لوعيه. وهذا الوهم هو نوع من السجن بالنسبة لنا، يقيّدنا إلى قراراتنا الشخصية وإلى العاطفة تجاه بعض الأشخاص الأقرب إلينا. ومهمتنا هي أن نحرّر أنفسنا من هذا السجن عن طريق توسيع دائرة الرحمة بحيث تعانق كل المخلوقات الحية وكل جمال الطبيعة.»[204]

والمهمة التي تكلم عنها إينشتاين ليست لهذا العصر فحسب؛ إنما هي مهمة الإنسانية في كل الأزمنة، وجزء من الحالة الإنسانية. لكنّ تلك المهمة تطرح نفسها الآن بإلحاح خاص، عندما يكون المجتمع المُحبّ، و"كل الطبيعة الجميلة"، ممزقاً من قبل قوى الجشع والانعزال. ففي حال مشكلة الجريمة، نحن نطرد أُناساً من المجتمع ونسجنهم في مستودعات، ولا حاجة للتذكير بطردهم بالجملة خارج الحياة

---

[202] - Frankl, Viktor E. *Man's Search for Meaning: An Introduction to Logotherapy.* Translator Ilse Lasch. Boston: Beacon Press, 1959, p. 101.
[203] - Midlarsky, E. and Kahana E. *Altruism in Later Life*. Sage Library of Social Research. Thousand Oaks, Calif.: Sage Publications, 1994, p. 79.
[204] - Einstein's letter was reprinted in the *New York Times*, March 29, 1972.

عن طريق عقوبة الموت البربرية، ونحن غير مُدركين أننا بقينا بأنفسنا في السجن – سجن إرادتنا المريضة وخوفنا وغضبنا الذي يبقينا بعيدين عنهم. وسوف نتمكن من الهرب من سجن أوهامنا عندما ندعهم خارج سجنهم الذي من الإسمنت والحديد.

قبيل نهاية العام 1997، قدّم الباقون على قيد الحياة من الحائزين على جائزة نوبل للسلام مناشدة مشتركة من أجل تغيير الوعي الإنساني في الألفية القادمة؛ وقد أسموا نداءهم "العقد الدولي من أجل ثقافة للسلام واللاعنف لأطفال العالم". فالإنسانية بدأت تتعلّم ببطء أنّ اللاعنف قوة خلاقة تحتوي بحد ذاتها على مبدأ نظام مبدع. فهو يبدو وكأنه المنهج الوحيد للتحكيم بين النزاعات الذي يحتوي على طاقة سلام في سيرورته. واللاعنف (وبقدر ما بوسعي أن أرى، اللاعنف وحده) يفعل هذا من خلال إنعاش صورة الإنسان عوضاً عن الحطّ منها، وهذا وحده سيؤدي إلى تغيرات عميقة طويلة الأمد في النظام الاجتماعي ما سيؤدي فعلاً إلى تحقيق الأهداف المطلوبة لمجتمع المحبّ ضمن المجتمع المُعطى ولسلام مستقر مع الآخرين – أي باختصار، الى مجتمع المحبّ شامل. وبوسعنا الآن أن نضيف ما قد تكون الخاصية الأكثر أهمية للاعنف: إنه يقدم للناس هدفاً – وهذه مهمة يمكن تطبيقها بطرق لانهائية لكي تلائم قدرات كل فرد، سواء كانت صغيرة كإطفاء جهاز التلفزيون أم كبيرة كإعادة النظر فيما يؤسس للحرب.

لم يعطنا التاريخ حتى الآن مثالاً عن ثورة لاعنفية كلّية أعادت بناء ثقافة من الأسفل إلى الأعلى؛ فحتى كفاح الحرية الهندي، الأكبر والأنقى إلى حد بعيد، خرج عن السيطرة في نهاياته لكنه أعطانا ما يكفي من التلميحات التي تجعلنا نرى كيف يمكن أن يكون مثل هذا الأمر محتملاً. فالطريقة التي أقلع بها شباب *الانتفاضة* عن المخدرات، على سبيل المثال، كانت جزءاً من شخصية *الانتفاضة* ككل. ولأنّ مدارسهم كانت مغلقة بشكل مستمر من قبل السلطات الإسرائيلية، أقام المعلمون الفلسطينيون مدارس سرّية في أقبية بيوتهم أو على أسطح المخازن. ولأنّ الصلات التجارية بين الفلسطينيين وبين الإسرائيليين كانت مُعطّلة – بعضها نتيجة أفعال مقاطعة متعمّدة وبعضها الآخر كجزء من العقوبات الإسرائيلية – ابتدع الناس أنظمة خاصة بهم لتوزيع الحليب وإصلاح السيارات ونقل المصابين والمرضى إلى العيادات. وكان الإضراب على وجه الخصوص أحد التغيرات التي وصلت بعمق إلى نسيج الحياة الفلسطينية؛ فقد كان الآباء الذين يذهبون إلى السجن يُخلِّفون وراءهم أعداداً متزايدة من الأطفال، كما أخبر مبارك صفّي: «كل امرأة أصبحت أماً لكل طفل». وفي تلك الفترة الوجيزة، عندما كانت طاقة اللاعنف عاملة، وجد الفلسطينيون أنفسهم يعملون أكثر بكثير من مجرد التمرد ضد سلطة خارجية: كانوا يعيدون ابتكار أنفسهم كمجتمع مدني. ولفعل هذا، وهذا ما يثير الانتباه، كانوا يعيدون إيقاظ المبدأ الخالد للعائلة الموسَّعة الذي كانت له جذور أصلية في مجتمعهم. وحتى في هذا الكفاح المتصدِّع، اللاعنفي بصورة مؤقتة فقط، انبثق المجتمع المُحبّ كمحصلة ثانوية. ولم يكن مجرد محصلة ثانوية؛ فقد كان – وهو دوماً كذلك – نتيجة مباشرة لخيار اللاعنف. ففي الفصل الثالث رأينا الصحة النفسية التي تبدو

بوضوح على الفرد الذي يلجأ إلى هذا الخيار. والآن بدأنا نرى الصحة الاجتماعية المجلوبة للجماعة بشكل عام.

لماذا إذاً تكون الحملات اللاعنفية عادة مجرّد احتجاجات وفوضى؟ وإذا كانت تحتوي على بذور النظام الخلاق، فلماذا هذا الفهم الشعبي للاعنف وكأنه نوع من الثورة، ولماذا يستمر النشطاء اللاعنفيون من جورج فوكس إلى الأخوة بيريغان في خرق القوانين وتعكير صفو ما تؤدّى إليه الأمور عموماً؟ وسوف نرى أنّ الناس لا يميلون إلى الاعتراف باللاعنف فقط لأنّ الاحتجاجات والفوضى هي التعبير الوحيد عنه، وإنما لأن الناشطين اللاعنفيين هم الوحيدون الذين يتشبثون بالنظام في مجتمعات أضحى بعض أنواع الفوضى مسُلِّماً به، كالاحتكار البريطاني للملح والقطن الهندي، أو التفرقة العنصرية في الحافلات في مونتغمري. وكما قال رئيس أساقفة السلفادور روميرو قبل اغتياله في 27 آذار العام 1980:

«لا أريد أن أكون معارضة، كما قيل عني هذا الأسبوع. أريد أن أكون ببساطة مجرد توكيد؛ فعندما يقول المرء نعم لقناعته الذاتية، فإنه لا يجابه... ومن الطبيعي أنّ بعض الآخرين لا يفكرون بالطريقة نفسها وبالتالي تحدث المجابهة.»[205] [روميرو 1988 ص 81]

إنّ الذين يسيرون بصورة عمياء على منحدر يجب أن تُقلَق راحتهم أحياناً من قبل أناس يحاولون إنقاذ محتلّيهم.

الأفقر

لذا أصاب "أطفال الحجارة" (كما يُسمّى شباب الانتفاضة غالباً، وبصورة غير عادلة بعض الشيء) أمراً ما ذا علاقة كبيرة بالعديد من المعضلات الأخرى. وقد تتبّعنا الترابط خطوة خطوة من تعاطي المخدرات إلى الجريمة نفسها، وأخيراً إلى فقدان الغرض في الثقافة الصناعية التي تحيط بنا في العالم الحديث. وذهبنا من البرامج الإصلاحية إلى البرامج الوقائية التي تُشفي بعض منابع العزلة ضمن المجتمعات، إلى – ماذا سندعوه؟ – البرنامج الإبداعي الأهم لنظام قيم أكثر صحة.

وتُلقي الأم تيريزا بعض الضوء على هذه الخطوة الأساسية: «أنتم في الغرب من أفقر الفقراء روحياً... أنا أجد من السهل أن أقدّم صحناً من الرز إلى شخص جائع، وأن أفرش سريراً لشخص ليس لديه سرير، لكن من أجل المواساة أو نزع المرارة والغضب والوحدة التي تأتي من حرمان روحي، فإن ذلك يستغرق وقتاً أطول.»[206]

فالتغلب على الحرمان الروحي عمل شخصي بامتياز لكنه أيضاً مسألة بناء مجتمع مُحبّ مع آخرين – وفي النهاية، مع كل الآخرين؛ إنه تفكيك كامل البيت الذي بناه العنف والبدء بالبناء مجدداً بنوع آخر من القوة.

---

[205] - Romero, Oscar. *The Violence of Love: the Pastoral Wisdom of Archbishop Oscar Romero*; compiled and translated by James R. Brockman. San Francisco : Harper & Row, 1988, p. 81.

[206] - Becky Benenate & Joseph Durepos, editors. *No Greater Love.* Novato: New World Library, 1997, pp. 94f.

هذا مثبط للهمم. نعم! لكن ليس من الضروري إطلاقاً أن نبدأ من البداية؛ فإلى جانب كل المشاكل التي تسبب بها استنبط غاندي برنامجاً اجتماعياً بهذه الجرأة فحسب، وقد نجح هذا البرنامج تقريباً.

الفصل السادس

البرنامج البنّاء

«وهل هناك ما هو أكثر بهجة، بالنسبة لعقل غير فاسد، من مهمة إجراء تحسينات على وجه الأرض، أكثر من كل المجد العقيم الذي يمكن اكتسابه عبر التدمير.» . جورج واشنطن.

ذات يوم، من العام 1940، ألحّ شاب هندي على غاندي بالسؤال: «ما الذي سيجعل، حقاً، البريطانيين يتركوننا وشأننا؟» فأجاب غاندي بتألق: «تقدم استثنائي في الغَزْل»[207]

أودّ أن أتخيّل ذلك الذي كان من أولئك الثوريين الذين لم يُصدِّقوا أنّ غاندي كان جادّاً حقاً بشأن اللاعنف. كان يعتقد – ويأمل – أنّ غاندي كان يبدّد الوقت بانتظار اللحظة المناسبة لإطلاق ثورة حقيقية، لكنّ اللاعنف كان الثورة الحقيقية. وحقاً، يغرينا السؤال عن دواليب الغَزْل؟ أجل، دواليب الغزل وكل ما ساندها. ففي ذلك الوقت الذي كان فيه غاندي يصوغ هذه الإجابة، كانت له تقريباً تجربة خمسين سنة خلف دولاب الغزل، ولم يعد مهتمّاً بأن يبدو بارعاً. وبوسعنا الافتراض أنه قصد ما قاله فحسب؛ فلماذا كان لدولاب الغزل المتواضع مثل هذه القوة؟

للاعنف وجهان: وجه التعاون مع الخير ووجه اللاتعاون مع الشر. هذان الوجهان، أو لنُسمِّهما حدَّيْ سيف الساتياغراها، هما ما دعاه غاندي *البرنامج البنّاء*، حيث تخلقُ الأشياء وتُجري إصلاحات في مجتمعك الخاص وعليه وهو ما أرغبُ في تسميته البرنامج المُعيق، حيث ترفض تحمُّل محاولات الآخرين لإضعافك أو استغلالك. عندما يكون عليك أن تقوم بما هو مسألة وقت إلى حدّ كبير، رغم أنّ معظم

[207] - CWMG, Vol. 79, p. 309.

الذين يفكّرون بشأن اللاعنف هم مثل ذلك الشاب الذي ألحّ على غاندي في العام 1940 – إنهم يفكرون بالجانب المُعيق فقط.

ما من أحد أكثر سخرية من كينيث بولدينغ في ملاحظته بأنّ اللاعنف كان جيداً للهجوم وليس للدفاع، والتي، إذا وضعنا الدعابة جانباً، تُثبت في النهاية أنها خاطئة، كما سنرى في الفصل الثامن. فهذا الانحياز، والذي يتشارك فيه لسوء الحظ النشطاءُ مع بعض الباحثين والمراقبين غير الإكليركيين على حدّ سواء، قام بدور كبير جداً في إعاقة تطوير السلام واللاعنف. ومن سخرية القدر أنّ الحافة البنّاءة هي فعلياً أهم إلى حدّ بعيد من الحافة المقابلة – العائق الذي بدأنا بإدراكه نسبياً.

اجتمعتُ، ذات مرة، ببارون فرنسي وزوجته بينما كنت أعمل في موقع أثري في الجزيرة اليونانية ديلوس. وقد وجّه السيد والسيدة إيفرار – غاربيه دعوة لزوجتي ولي إلى شقتهم في باريس لتناول العشاء، وطبعا قبلناها على الفور. كانت السيدة طبّاخة بارعة، وكانت المحادثة تجري بشكل رائع إلى أن أبدى صديقي البارون ملاحظة عَرَضية: «أوه، أنا أؤمن بالكامل بعدم المساواة بين الأعراق». شحب وجه زوجتي لأنها كانت تعرف أني قد أختلق شجاراً. وفي العادة كنتُ أفعل ذلك، لكن عدة أمور جعلتني أُحجِم هذه المرة. أولاً، لأن المحادثة كانت باللغة الفرنسية، وهذا ما أبطأ ردّي. ثم أني كنتُ في منزله، آكل من طبخ زوجته المُترَف. والأكثر أهمية، ربما، هو أني كان قد مضى علي، في ذلك الوقت، سنة أو نحو ذلك في حالة تأمل. فلم أتفوّه بكلمة. مرّت لحظات، وبعد أن تغير مجرى المحادثة، قال مُضيفي: «أنت تعرف أن لا أهميةَ لشيء في العالم سوى البِر [*charité*]». فقلت له بهدوء: «هل تعتقد أنّ الأعراق تُوهَب القدرة على البِر بشكل غير متساوٍ؟»

من المحتمل أني قمت بتخفيف العبء العنصري للعالم في ذلك المساء أكثر مما فعلته طوال سنين النشاط. ومع ذلك، لم أكن وهيهات أقلّ غضباً – والمجهول أكثر بالنسبة لي هو أنّ غضبي كان يبحث عن مخرج بنّاء أكثر، جاعلاً إياي أكثر يقظة لما كان يقوله مضيفي بدلاً من أنْ أكون أقلّ يقظة، بالرغم من أنني كبحت نفسي ليس بدافع القناعة، حقاً، بل ببساطة بسبب الظروف التي أُملِيَت علي. كانت هذه بالنسبة لي تجربة شخصية هامة في تحويل قوة تأثير الغضب، وما سيكون علي فهمه بعد سنوات كبرنامج بنّاء.

وكما سنرى، كانت بذرة البرنامج البنّاء تُزرَع في البداية ذاتها لحياة غاندي العامة، بعد حوالي سنة على زوال صدمة بييترماريتزبيرغ، أو بالأحرى، خُفُوتها. ففي العشرينيات، بعد فترة وجيزة من عودته إلى الهند، نمت تلك البذرة في جدول يضمّ ثمانية عشر مشروعاً صُمِّم لإعادة بناء الهند من تحت إلى فوق. وكلما أصبحت الأمور أكثر إحكاماً وشمولاً انتقلت لكي تحتل مرحلة مركزية في تفكير غاندي. ففي العام 1940 كان لديه أمل رئيسي؛ فقد كان ملتزماً بالكامل بالاعتقاد أنه في حين أنّ للاعنف سلطة واسعة للاحتجاج والتعطيل، فإن سلطته الحقيقية هي الخلق وإعادة البناء. إذ لن تهزّ الأرتال الاحتجاجية بناء مجتمع. هذا هو ما أراد لمتحدثه في العام 1940، ولنا جميعاً، أن نفهمه.

واليوم، حيثما نبحث عن أمثلة ناجحة للتغير الاجتماعي تبدو لنا المجموعات، أو الأفراد، التي تتخذ خطوات إيجابية وملموسة، مثل مشاريع إعادة البناء التي ألقينا نظرة عليها في الفصل الأخير، هي التي تُحدِث الاختلاف الأكبر. وربما يكون الأمر بسيطاً بقدر بساطة برنامج صندوق الدفاع البيئي "المرفأ الآمن"، الذي يكافئ ملاك الأراضي الذين يوفرون الحماية للأنواع المعرَّضة للخطر بدلاً من معاقبتهم عندما لا يفعلون ذلك. وبإدخاله إلى ثلاث ولايات "عمل" بشكل جميل؛ فـ"المرفأ الآمن" في تكساس لوحده لديه أكثر من مليون هكتار تحت الحماية، تبعاً لموادهم البريدية في العام 1998. أو الصندوق التربوي لإنهاء عنف الأسلحة النارية الذي استهل مشروعاً دعاه "أيدٍ بدون أسلحة"، وكان غرضه أن يظهر للأطفال عالماً من المرح والفرص خارج عالم الخوف والعنف. وقد ضربت هذه الرسالة الإيجابية على وترٍ مدوٍّ؛ فمن بوسطن إلى سان فرانسيسكو نظّم مراهقو الأحياء عملية استرجاع أسلحة وأقاموا تماثيلَ من الأسلحة المُجمَّعة.[208]

إنّ أحد أكثر البرامج البيئية نجاحاً عبر العالم هو برنامج الدكتور كارل هنريك روبيرت "الخطوة الطبيعية". والدكتور روبيرت دكتور في الطب من السويد أصبح مهتمّاً بشدة بالتبخيس الذي يلحق بالبيئة، وبدأ باستقطاب آخرين إلى تلك الدائرة من الاهتمام. وكان يتميّز، لحسن الحظ، بالجَلَد لمجاراة عاطفته. وما هو فريد بشأن برنامج "الخطوة الطبيعية" ليس إعداده العلمي ولا موثوقيته بمقدار ما هو مقاربته.

إننا أولاً نثقِّف كبار رجال الأعمال والسياسيين والعلماء في **شروط النظام الأربعة** [أربعة أمور يجب ملاحظتها لكي تكون الأرض نظام إنعاش مستمر للحياة] ومن ثم نسألهم النصيحة. وبدلاً من أن نملي عليهم ما الذي يجب أن يفعلوه، نقول لهم: «كيف يمكن تطبيق هذا في عالمك؟» وهذا يُطلق شرارة إبداع ويُعزّز الحماس في العملية بدلاً من آليات دفاع.

أية خبيرة في حقل نشاطها... هي أكثر براعة منك أو مني. فإذا أعطيتها المبادئ العامة، ومن ثم سألتها النصيحة، فإنها ستجد الحلول الأكثر ذكاء من التي يمكن أن يجدها "السلام الأخضر" أو أنا أو أي شخص آخر. ونحن بحاجة مُلحّة إلى الحلول العملية الخلاقة.[209]

في الأيام الأولى، وقبل أن يكون لـ"الخطوة الطبيعية" منظمات وطنية حول العالم، كاد روبيرت أن يذهب إلى الشركات وأن يطلب التحدث إلى مجالس إداراتها حول تضاؤل الموارد الذي يصطدمون به. وبشكل نموذجي، كانوا سيصرفونه قائلين له: «لا تتصل بنا، نحن سنتصل بك»، لكن في غضون أسبوع أو نحوه، كانوا يتصلون به. يكمن السرّ في ذلك هو أنك إذا كنت تفترض أنّ الناس عقلانيون، فسوف يفيد هذا في إيقاظ عقلانيتهم – إنه «يرغم العقل على أن يكون حراً». وهذا يعمل أحياناً حتى في حالات على مستوىً عالٍ من منحنى التصعيد، حين تبدو كثافة العواطف السلبية أنها قد خنقت العقل. وهو يعمل في المستويات الأدنى بشكل جميل.

---

[208] - WORKING ASSETS MAILER, MAY 1998.
[209] - Mailer reprinted from Spring, 1997 *Wingspread Journal*, The Johnson Foundation.

قبل عشرين سنة من رشّ غاندي ذلك الماء البارد على سائله نافذ الصبر في العام 1940، عندما أطلق ساتياغراها شاملة ضد الحكم البريطاني في الهند، فعل ذلك مع وعد جريء بـ"حكم ذاتي Swaraj [حرية] خلال سنة واحدة". كانت جرأة لكنها لم تكن تهوّراً. لقد وعد بالحرية خلال سنة واحدة إن هو حصل على التعاون الكامل مع البرنامج البنّاء والغزل. ولم يغيّر شيء من رأيه بين عام 1921 وأوائل الأربعينيات. وإذا كان هناك من شيء، فهو أنه كان واثقاً أكثر من أي وقت مضى من أنّ اللاعنف هو الطريق الوحيد للمضي فيه، وأنّ المعنى الحقيقي للاعنف لم يكن في المواجهات الكبيرة المثيرة مثل غارة دهاراسانا (تلك "اللحظات اللاعنفية" المتألقة)، بل في الهمهمة البطيئة الثابتة لدولاب الغزل.

ولكي نُقدِّر تماماً كيف كان العمل البناء الأساسي بالنسبة لمفهوم غاندي للتغيير اللاعنفي، يمكن أن نعود إلى البداية ذاتها، إلى عام 1894، عندما اختتم مهنة المحاماة التي كان يمارسها من أجل تقديم المساعدة في جنوب أفريقيا، وليكون قادراً على الالتفات إلى "الشرّ" الذي كان يواجهه تقريباً منذ اليوم الأول لوصوله في أيار عام 1893، وهو التفرقة العنصرية. وفي الحال، منذ البداية، تأكد أنه إلى جانب الكفاح المباشر ضد الحكومة «كان لا بدّ أيضاً من الشروع في تحسين داخلي للقضية»[210] وكان هذا إثباتاً مُبشِّراً ومفهوماً للكلمات. وفي مجرى الزمن، يمكن "أيضاً" أن تصبح "في الدرجة الأولى"؛ فالتأكيد كان سينتقل بثبات إلى عمل بنّاء تباشر به الجماعة ذاتها، سواء كانت الجاليةَ الهندية في جنوب أفريقيا أم الهنود المحرومين في بلدهم نفسه، بالرغم من أنّ الدراما التي فتنت العالم ستكون دوماً الصدامات الصريحة مع القوة البريطانية. وهو عنى ذلك عندما قال إنّ سياسته الحقيقية كانت العمل البنّاء. والذي كان من البساطة بمكان إلى حدّ أنّ أحداً لم يتوصل إليه.

من الطبيعي أنّ الفاعل اللاعنفي سيكون عصبي المزاج إلى حدّ ما بشأن إلقاء لوم أي خطأ على الآخرين على وجه الحصر. فعندما تكون الطرف الأضعف، ومُستغَلاً في الواقع، فمن الهام جداً أن تتذكر أنك، أيضاً، لا بدّ أن يكون لديك بعض الضعف الذي أدخلك في الوضع. لا ضعف، ولا استغلال. رغم أنه لم تكن لدى غاندي أية أوهام بخصوص عدم رحمة الأوروبيين وانحيازهم، فقد كان يُطلع زملاءه الهنود – في *الحكم الذاتي الهندي*، وهي إحدى أكثر الكُراسات اتّقاداً مما كتبه على الإطلاق – أنّ الهند لم تُغلَب بحدّ السيف ولا يمكن أن تُحكَم بحدّ السيف: «نحن أحضرنا الإنكليز، ونحن نبقيهم... إنّ تبنّينا لحضارتهم يجعل وجودهم في الهند محتملاً إلى حد كبير»[211]

ومهما يكون شعورنا بصدد الإنصاف أو "المبادئ الأخلاقية" للتأكيد على تصحيح ضعفنا، فإنها طريقة فعالة لمقاومة الاستغلال. وقد توصّل غاندي إلى الشعور بأنها كانت الطريقة الأفضل. ومثل معظم الحركات الشعبية نشأت ساتياغراها كردّ فعل على إساءة الدخلاء. وذلك ما كان ردّ فعل غاندي

---

[210] - CWMG, VOL. 34, P. 42 (*SATYAGRAHA IN SOUTH AFRICA*, P. 43).
[211] - CWMG, Vol. 10, p. 283 (*Hind Swaraj, or Indian Home Rule*, p. 60).

الأول كما هو حال أيّ أحد آخر. لكن حيث أنّ معظم الحركات تظلّ مركّزة على "ليتركونا وشأننا"، شعر غاندي غريزياً أنّ هذا كان نصف القصة فقط، وربما نصف الظل فقط. فالنظرة الفعالة حقاً كانت "لننهض بأنفسنا". وأمران اثنان يعطيان لهذه النظرة قوة، كما رأينا: الانتقال من "هم" إلى "نحن" (فكر كم نحن أكثر انفتاحاً بكثير منهم، رغم كل شيء) والانتقال الموازي من نمط عملية مُعوِّق إلى نمط بناء. وأمور أخرى مساوية، ذلك أنّ البناء أفضل بكثير من الهدم؛ فلا شيء أكثر صدقاً إطلاقاً مما هو في عالم اللاعنف.

من البرنامج البنّاء إلى برنامج البِناء

كيف بوسعنا تطبيق هذه البصيرة اليوم؟ يعمل الكثير من الناس، هنا وهناك، في أقسام من هذا المشروع الواسع: إعادة بناء الأحياء، انتشال الشباب من براثن العصابات، العمل ضد الفساد، القيام بإجراءات بيئية، الكفاح من أجل حقوق الأقليات ومن أجل المشاركة الديمقراطية. وما هو مفقود، كما يبدو لي، هو أنّ كل هذا لم يتماسك لحدّ الآن لكي يُظهر صورة كبيرة. فذات يوم، سأل أحد طلابي باحثة سلام مشهورة كانت قد ألقت كلمة جميلة: «كناشط، أجد أنّ من المحبِط أننا نحاول إيقاف حرب هنا، وإيقاف إبادة جماعية هناك، وإيقاف سباق التسلح في كل مكان، وفي اللحظة التي نحول فيها دون أمر من هذه الأمور، تبرز ثلاثة أخرى. فالذي لا نوقفه هو ما يسبب كل هذا. وأتساءلُ إن كان لديك فهم عملي سليم لذلك»

لم يكن لديها هذا الفهم لكني أعتقد أننا بدأنا بامتلاك هذا الفهم. فما يسبب "كل هذه الأمور" هو العنف، والترياق هو اللاعنف، والبرنامج البنّاء سيكون النوع الأكثر فاعلية للاعنف بين أشكال الكفاح الدنيويّة، ويُمهِّد السبيل لها، مثل حركة الحقوق المدنية. ويبدو لي أنّ من الضروري حدوث أمرين اثنين ليسا تماماً في الموضع الصحيح؛ فنحن نحتاج إلى التمسّك بإحكام وبشكل حقيقي بمبدأ اللاعنف الذي سيمنحنا فهماً مفصليّاً لكيفية تطبيقه (لا تفاهات، كما كان غاندي سيقول)، ونحتاج إلى مخطط العام – صورة متماسكة إلى حد ما، لكنها شاملة – مما سيساعدنا على الشعور بأننا نعمل معاً حتى لو لم نكن نعمل على المشروع نفسه. ليس مناسبة تجريبية هنا أو مجموعة خاصة بالسجناء هناك، وليس نشاط لحقوق الإنسان هنا أو حملة لمكافحة الفساد هناك، بل حركة لاعنفية متطورة ومُوجَّهة كلياً.

ويعرض لنا تصميم البرنامج البناء الهندي نموذجاً. فلم يكن لدى البرنامج تصميماً عاماً بالغ البساطة يمكن تخيّله كصورة أحادية دائمة التكرار؛ فالبرنامج البناء كان "نظاماً شمسياً"، كما كان يقول غاندي غالباً، ودولاب الغزل كان "الشمس".

ونظراً لأنّ غاندي كان يمتلك فرصة، لم تتوافر لكينغ، لتطوير أفكاره إلى حدّ هائل، فلدينا الفرصة لكي نرى فيها إصلاحاً للعمل إلى ذلك الحدّ، ولكي نرى، على سبيل المثال، العلاقة الممتعة بين دولاب الغزل، وهو المشروع الرائد، وحملة الخلاص من السيطرة البريطانية على النسيج المُورَّد إلى الهند التي كانت تتفاخر فيما مضى بحِرَفها النسيجية عن طريق الصناعة المنزلية، وبين البرنامج البناء كلياً.

كانت المنفعة الكبرى من هذا الترتيب هي تماسكه المتناسق، وإن بدا البرنامج الواسع النطاق بأكمله مُحيِّراً، فبوسعك فهمه في دولاب الغزل – على سبيل المثال، هو يقول "تقدم استثنائي في الغَزْل" وستفهم أنه يرمز إلى الأمر برمته. ليس الأمر قَبْضة من الملح هنا ومقاطعة محل للمشروبات الكحولية هناك؛ بل هي دعوة إلى الحقيقة هي التي تمثّلها تلك النشاطات والنشاطات الأخرى.

عيد التجلي في أحمد آباد

في الطيف الواسع والشامل لتلك المشاريع الثمانية عشر، كان *charkha* (باللغة الهندية "الدولاب"، واختصاراً حملة الغزل المنزلية) الشمس التي تدور البقية حولها. وعلى المرء أن يتذكر أنّ الهند، منذ الأزمنة القديمة، كانت "حضارة أدغال"، ولم تكن ثقافتها واقعة في المدن الكبرى مثل تاكشيشيلا وباتاليبوترا وكاشي (بيناريس الحديثة)، بل في القرى، مئات الألوف من القرى، التي يعيش الناس فيها قريباً من الطبيعة. وكانت البصمة الاقتصادية لهذه القرى هي الاكتفاء الذاتي؛ فقد كانت معظم الصناعات القروية تُنجز من قبل العائلات التي تنظَّمت منذ قرون في نظام طوائف متواكلة تبادلياً. ومن بين الكثير من مثل هذه الصناعات، كان الغزّالون والحائكون جزءاً من اقتصاد القرية الذي كان يصل إلى أبعد بكثير من قراهم؛ فالقماش الهندي كان فخر آسيا. ومن الواضح أن غياب التنظيم *المركزي* لا يعني غياب شتى أشكال التنظيم، مهما اعتقد الحكام الأوروبيون لاحقاً. فقد كانت الصناعة المنزلية محور – شبكة من محاور كثيرة – التجارة النشطة في كافة أنحاء شبه القارة وما وراءها. وسوية مع هذا الاكتفاء الذاتي الاقتصادي انساق النظام الثقافي بأسره: المؤسسات الدينية، التعليم، ومعظم آليات الحكم والقانون والنظام التي كانت تعتمد على القرى وحولها وفي أيدي الناس الذين كانوا يعرفون بعضهم البعض.

وبالتالي، في مسار القرن التاسع عشر، بدأت المعامل الصناعية المدينية تنتزع لنفسها الكثير من خيوط هذا الاقتصاد. وفي وقت قصير جداً (إذا أخذت هذا من منظور هندي)، خلقت المدن الصناعية، مثل أحمد آباد، ومعها الاحتكار البريطاني لصناعة النسيج، بطالة لملايين القرويين المنتجين، دافعة إياهم إلى هوامش النظام الاجتماعي. (كان مظهراً هائلاً آخرَ للتعسّف هو أنّ تجار النسيج هؤلاء كانوا مسلمين). وفي العام 1928، زار غاندي تلك المعامل في أحمد آباد، عاصمة مسقط رأسه ولاية غوجارات، واكتسب تجربة قد تُغري بتسميتها رؤيا. فبينما كان واقفاً على أرضية المعمل، ناظراً إلى الآلة المقعقعة، بكى. فنحن حيثما تلفّتنا نرى آلات – صاخبة ومزعجة، ربما، لكنها مجرّد آلات – أما هو فقد "رأى" العنف البنيوي والجشع الذي أحلّ هذه الآلات هناك؛ فساكن المدينة يستغل القروي البسيط، والشركة اللاشخصية تستبدل بما كانت شبكة واسعة من العلاقات الوثيقة، وجنون الربح الطاغي بكرامة العمل. وهناك أساطير ذات علاقة تقول إنّ البوذا العطوف وتابعيه كانوا يحدقون في مشهد جميل على نحو خاص. وبينما كانوا يُكبِرون الجبال المكسوة بالثلج والنهر الصافي، رأى البوذا نهراً من الأحزان – الدموع

المتدفّقة من معاناة الإنسانية – وجبالاً ليست مكسوة بالثلوج بل بعظام الراحلين. وكان جواب البوذا هو توجيه حركة دولاب القانون؛ وكان على غاندي أن يدير دولاب غزل الحرية: الحرية من الجشع والتمركز والعنف البنيوي.

لقد بيّن دولاب الغزل لنا أنّ بوسعنا العودة إلى نوع من الحياة التي عاشتها الإنسانية من قبل، وتغلّب عليها جنون الآلة. وليس المضمون قماشاً فحسب، بل إيديولوجيا – ليس مختلفاً كثيراً عما كانت الهند قد عرفته قبل قرون – "سيعيش" فيها الغني على نحو اختياري ببساطة، ولذا قد يعيش الآخرون ببساطة، وسيكون النظام الاجتماعي–الاقتصادي أحد مقاييس الإنسانية. ومجدداً، إنّ حقيقة أنّ النظام لم يكن مركزياً لم تعنِ أنّ مكوناته كانت منعزلة. فكما في الماضي، كان الغزّال في قريته على ارتباط مع المزارعين الذين كانوا يزوّدونه بالقطن، ومع الذين يصنعونه، والذين يبيعونه، وأخيراً مع الذين يلبسون الخادي *khadi* (لباس قطني منزلي الصنع). ولدرجة أكبر من *الانتفاضة*، كان دولاب الغزل يعيد بناء البنية التحتية لهند حرة بطريقة حياتها الخاصة القابلة للاستمرار.

ومن العشرينيات فصاعداً، حثّ غاندي كل شخص، الغني والفقير، لقضاء ساعة يومياً يغزل، إن لم يكن تمشيط النسيج أو حياكته أو، بطريقة أخرى، صنع القماش من القطن الهندي المحلي، موضِّحاً بلا كلل أنّ النقطة الأساسية كانت صنع قماش لأولئك الذين بالكاد يستطيعون تحمّل نفقات تغطية أجسادهم العارية، ولإعادة العمل ذي المغزى إلى ملايين كانوا قد أضحوا عاطلين عن العمل بسبب نظام الاستغلال عديم الرحمة وغير الملحوظ، وعبر القيام بذلك، لوضع حدّ لذلك النظام. وكان الكثير من الهنود، وخصوصاً سكان المدن المغربيين (من الغرب) لا يحبون لبس الخادي *khadi* أو الخضار *khaddar*. فهو خشن يَحكّ الجلد، وبالتأكيد ليس زيّاً متطوراً. كان هذا النوع من المناقشة يؤذي غاندي في الصميم.

«يجب أن نكون جاهزين لكي نرضى بمثل هذا القماش بما أنّ الهند يمكنها إنتاجه، تماماً كما نحن راضون بالأطفال الذين يمنحنا إياهم الله، ونشكره عليهم. فأنا لم أعرف أمّاً ألقت بطفلها الرضيع بعيداً بالرغم من أنه قد يبدو قبيحاً في نظر الغرباء.... فالخضار *khaddar* هو الحقيقة الملموسة والمركزية للسواديشي *Swadeshi*.»[212]

والسواديشي *Swadeshi*، تُعرَّف بإيجاز بأنها العالمية معكوسة. إنه يعني الاعتماد الذاتي والعمل المحلي، ينمو خارجياً من ذلك الموقع للقوة إلى اعتماد متبادل وشأن عالمي. و*Swadeshi* المُشخَّص هو نسيج من غزل البيت، كما قال غاندي.

كان الخضار *khaddar* مدخل كل واحد في نظام *Swadeshi*. قالت إحدى حفيدات غاندي مؤخراً: «الغذاء واللباس والمأوى هي من الضروريات الأساسية للحياة المتمدِّنة. فمعظمنا، في وقت ما من

[212] - CWMG, Vol. 24, p. 77.

حيواتنا، لفَّ *chapati* (خبز هندي مُسطّح). وبصورة مشابهة، لابد لكلّ هندي في وقت ما من حياته أن يتلمس ويتحسّس الخضار *khaddar*، فذلك هو بران *praan* أو الروح في كل منا. فنحن نحتاج إلى القماش بجانب الغذاء»[213] ففي الاقتصاد الغاندوي، هناك فرق نوعي بين الحاجات الأساسية من غذاء ولباس وملجأ وبين أي شيء أقلّ ضرورة. فلكل واحد الحق بتلك الحاجات الأساسية الثلاث. فإذا لم تتوفر – لكل واحد – فسوف يخفق المجتمع.

والآن لنتذكر حملة غاندي الأخرى العظيمة حقاً. إنها بشأن الملح – ومرة ثانية، الشأن الأساسي بشكل جازم في بلد استوائي مثل الهند. فبهاتين الحملتين، العرض "المعوّق" لاستعادة الملح من أيدي الحكومة، والمشروع البنّاء لصنع قماش على مستوى القرية، أراد غاندي استعادة اثنين من أكثر عناصر الحياة أساسيةً – عناصر مُعزِزة لأي اقتصاد، المأكل والملبس. وهذا ما يجعل قول نهرو الشهير، إنّ الخادي *khadi* كان "الزي المميز لحريتنا"، تقريباً أقلّ مما تقتضيه الحقيقة؛ ففي القتال من أجل الملح والقماش، كانت الهند تقاتل من أجل السيطرة على ضرورات الحياة ذاتها.

إذاً، لا شيء يمكن أن يكون حقيقياً بقدر دولاب غزل. طبعاً – بالتفكير بالقضايا الحقيقية مقابل القضايا الرمزية التي عالجناها في الفصل الرابع – الدولاب هو *أيضاً* رمز. ففي الهند، كما في أي مكان آخر، الدولاب رمز قديم لتقدم العالم، "دولاب الوجود، ودولاب الحياة والموت (*samsara*)"؛ أو كما في البوذية، "دولاب القانون". لكن ما الذي أعاد هذا الرمز القديم إلى الحياة السياسية؟ ليس شعاراً تلصقه على ظهر عربتك التي يجرّها ثور، يقول: "أنت تتبع غزّالاً". لقد كان الوضع أنّ الناس يغزلون قطناً حقيقياً تماماً من أجل أناس يحتاجونه حقاً. فمن تلك الحقيقة الملموسة جاءت الكثير من المكاسب الأخرى: دخلٌ للعاطلين عن العمل والجائعين على الغالب؛ مئات من الشبكات المحلية تحضر المواد الخام للغزّالين وتأخذ منتجاتهم إلى السوق؛ تدبير وإصلاح تجهيزات رأس المال للمغازل والدواليب وأقواس تمشيط القطن؛ أخلاقيات البساطة؛ إحساس عميق بالتضامن مع الفقراء؛ وأخيراً وليس آخراً، الحرية السياسية التي أبطلت تأثير القبضة البريطانية بشكل لاعنفي. فصورة دولاب غزل في لوحة إعلانات أو على علم الأمة (حيث يستقر اليوم) يمكن ألاّ يكون قد عمل أي من هذه الأشياء.

بالإضافة إلى هذه المؤهلات الرئيسية الثلاثة من أجل المنزلة "الشمسية" لـ *charkha*، أعني أنه كان ملموساً (كما أشار غاندي)، وبنّاءً وغير مجابِه، بوسعنا أن نرى ببساطة بعضاً من منافعه الأخرى:

1– بوسع أيّ شخص العمل عليه. فالعمل معاً يخلق إحساساً بالمصير والوحدة المشتركة، كما لا يمكن لشيء آخر أن يفعل تقريباً.[214] فعلى نحو كامن، كان كل شخص متحداً بـ *khadi* لأنّ كل شخص يمكنه الغزل؛ رجلاً كان أم امرأةً أم طفلاً، غنياً أم فقيراً، فلا أحد كان من التواضع أو الضعف أو التباهي أو القوة لكي يعجز عن وضع يده على هذا الدولاب. ففي الأيام العظيمة لدولاب الغزل، حتى شخصيات

[213] - Conversation with Tara Bhattacharjee, published in the East Bay newsletter *Gandhi Mela* VII (1995), p. 19.
[214]- Sherif, M. *In Common Predicament*. Washington, D.C.: Public Affairs Press, 1966.

هامة من النوّاب كانت تعود إلى البيت وتغزل مدة نصف ساعة في اليوم – في الحقيقة، خصوصاً الشخصيات الهامة. لكن *khadi* لم يكن شيئاً تغزله فحسب؛ بل كان شيئاً تلبسه، وهذا ما صاغ نوعاً آخر من التضامن، نظراً لأنّ الأغنياء يمكن أن يلبسوا مثل الفقراء تماماً – لباساً بسيطاً ووقوراً، منسوجاً في البيت. فبتقلّدهم معتقداتهم على أجسادهم، اكتشف الكثير من الهنود الأثرياء على نحو مباشر أنّ الأخوّة أكثر إرضاءً من المنزلة الاجتماعية.

2– بوسعك العمل عليه كل يوم. وليس لزاماً عليك أن تنتظر الوقت أو الطقس أو الظروف الملائمة، أو أن تعتمد على إقبال كبير في مناسبة خاصة؛ فالإيقاع القديم لدولاب الغزل كان مرتبطاً فقط بإيقاع النهار والليل نفسه. ولا بدّ أنّ هذا قد ذكّر وكان يرمز إلى المتطوعين الذين كانوا يعملون عليه لفترات طويلة – "المثابرة المستمرة" التي تُحدِث اختلافاً في اللاعنف، أو أي شيء نافع تقريباً. ومن المثير للاهتمام في هذا السياق أنّ غاندي ادّعى حتى أنّ عملية الغزل اليومية كانت نوعاً من الانضباط الروحي، لأنه ليس هناك من اعتقادات هندية بأن النتائج الروحية تحدث على نحو غير منتظم. وبوسعك أن تدرك هذه النتائج بالتطبيق الثابت لفترة طويلة فحسب.

3– كل دولاب غزل *charkha* كان في البدء عملية. إذا احتجت للملابس، تصنعها. وهذا هو جوهر البرنامج البناء. فالحقيقة تأخذ مركز الصدارة، ومن ثم تتالى الأحداث. ولكونه سابقاً للعملي فإنه يعطي المرء منفعة استراتيجية عظيمة، مثل أيّ مفهوم عام. لكنه يتضمن أيضاً المبدأ الأعمق للساتياغراها: فالحقيقة ليست انعكاساً لشيء آخر أو لغيابه؛ إنما هي واقع.

4– أخيراً – بالعودة إلى سؤال المتطوع نافذ الصبر لغاندي في العام 1940 – كان الغزل، على نحو غير قابل للشك، فعل حقيقة واجه كذب الاستعمار على المستوى الأعمق، ولذا شكّل المقاومة الأكثر فاعلية. فالنظام الاستعماري بكامله مستند إلى أكذوبة، "أكذوبة" التبعية التي تحاول أن تجعل مجموعة من البشر تعتقد أنّ عليها استجداء خبزها من الآخرين. وهذه ليست الطريقة التي جهّز بها الله كوكب الأرض، لكن باطنية الاستعلاء ترغمها، حتى بالنسبة لأولئك المبتلين بها. وقد وصلت الهند إلى تصديق الرسالة الضمنية القائلة: «أنت معتمدة علينا. أنت بحاجة إلينا لإعطائك الملح والقماش (ولا حاجة لذكر إقامة العدل والدفاع عنك ضد الغرباء وحفظ النظام)». هذا ما دعاه غاندي الارتباط "الأثيم" واللاطبيعي بين المُستغِل والمُستغَل، وردّاً على ذلك همهم هو دولاب الغزل: «شكراً لكم، بوسعنا إكساء وإطعام أنفسنا، كما فعلنا لخمسة آلاف سنة قبل مجيئكم». وفي الحقيقة يقول الدولاب، إذا ما أصغينا بانتباه، لا أحد يحتاج إلى السلع المُصنَّعة من عند آخر لكي يبقى على قيد الحياة؛ ففي الحقيقة، يحتاج الناس إلى القليل جداً من البضائع المصنَّعة في المصنع عموماً. هل هذا ثوري بما فيه الكفاية؟

في عالم البهتان، تكون الحقيقة مُجابِهة أصلاً. البرنامج البناء حقاً في مثل هذا العالم هو مثل سمكة تسبح ضد التيار – ستضرب العوائق بقوة، حتى دون أن تَجدّ في البحث عنها. وقد بدأ الراجا Raj، كشركة تجارية، ينتهي عندما قرر شركاؤها غير الراغبين في أن يسايروا هذا النوع من "التجارة".

وربما يكون البريطانيون قد تعلموا في المدارس وأسهبوا في خطاباتهم في البرلمان حول "الراية" و"القدر" و"عبء الرجل الأبيض"، لكن حالما أصبح الراجا عديم الجدوى فقد سيطرته، خصوصاً منذ أن عرض غاندي المقاومة ثنائية الجانب التي عرّفها توينبي جيداً: «لقد جعل من المستحيل بالنسبة لنا الاستمرار في حكم الهند، لكنه في نفس الوقت جعل من الممكن بالنسبة لنا التنازل دون ضغينة ودون عار».[215]

ولذا بدا أن دولاب الغزل لوحده غير مُجابِه. امرأة في كوخها، طفل على الشرفة، وأحياناً كل القرية تتجمع في لحظة بهيجة في الميدان (المرج)، وصوت دولاب الغزل *charkhas* يهمهم في الهواء – جلسوا ببطء، يقوضون بثبات كل نظام الراجا الاقتصادي، والحكومة بالكاد تعرف بما يحدث، أو كيف توقف ذلك. فالبرنامج البنّاء يثير مجابهة ببساطة لما هو كائن – أو بالأحرى، لبقية العالم.

وفي الوقت نفسه، كان هناك بُعد لاتعاوني لدولاب الغزل *charkha* أكمل العملية البناءة للغزل – فمن يتمسّك بالحقيقة لا يتمسك أبداً بنمط واحد من العملية فحسب – فالهنود لابسو الخادي khadi أحرقوا بناطيلهم البريطانية بالقدر نفسه من الحيوية التي أداروا فيها الدولاب لحياكة بناطيلهم الخاصة (وربما أكثر). وكانت مقاطعة القماش الأجنبي ناجحة إلى حدّ أنّ ثلاثة ملايين تقريباً من معامل لانكشاير وجدت نفسها متوقّفة عن العمل، وفي وقت كساد عالمي، عندما كانت التوجهات الاقتصادية قد أصبحت مهترئة. وقام غاندي، الذي كان في إنكلترا للمشاركة في مؤتمر الطاولة المستديرة، برحلة خاصة إلى الشمال لتوضيح حركته مباشرة للعمال في لانكشاير في 22 أيلول عام 1931، والتي أصبحت إحدى النقاط البارزة لتاريخ اللاعنف. ولم يتلفظ غاندي بالكلمات تصنّعاً في حديثه مع العمال: «أنا متألّم بسبب البطالة هنا، لكن لا توجد مجاعة أو نصف مجاعة هنا. أما في الهند، فلدينا كلا الشكلين؛ فإذا ذهبتم إلى القرى ستجدون... جثثاً حيّة. لا تفكّروا بالازدهار فوق قبور الملايين من فقراء الهند... وليكن في ذهنكم أن لا أمل في إنعاش تجارة لانكشاير القديمة – ذلك أن دولاب الغزل *charkha* كان يقدم ما هو فائض عن الحاجة – ولا تعزوا بؤسكم للهند بل فكروا بالقوى العالمية التي تعمل بقوة ضدكم»[216]

كانت معجزة أخرى لساتياغراها؛ فقد كتب أحدهم: «هل لي أن أقول أو أحتاج للقول إنني كعامل في مصانع القطن في لانكشاير، والذي كان يعاني إلى حدّ ما خلال مهمة قادة المؤتمر الهندي، مُعجب أشدّ الإعجاب بالسيد غاندي، ويشاركني الكثير جداً من زملائي العمال هذا الإعجاب؟». وقال آخر، بعد عبارات غاندي الصارمة: «نحن نفهم بعضنا بعضاً الآن».[217] فمن خلال قوة الروح بوسعنا فصل الخصوم عن جداول أعمالهم بينما نعيد توحيدهم مع أنفسنا.

وحدة القلب: تنوّع بدون انقسام

---

[215] - Quoted by B. R. Nanda in *India News*, October 1, 1994, p. 11.
[216]- Tendulkar, D. G. *Mahatma: Life of Mohandas Karamchand Gandhi*. New Delhi: Government of India, 1951, pp. 123 & 115.
[217] - Ibid., p. XX.

كان البرنامج البنّاء جدول أعمال شامل للمشاريع التي جرى فعلياً التعامل معها في كل مظهر من مظاهر حالة البلاد المُصابة؛ فكلّ شيء مُصمّم من أجل شفاء "التكسّر" في المجتمع الهندي. ووفقاً لذلك، كان البند الرئيسي الأول في البرنامج هو الوحدة المشتركة. وكانت إزالة حالة النبذ هي البند الثاني، أو بكلمة أخرى، إعادة الانسجام بين المسلمين والهندوس، والتخلص من الغطرسة الطائفية ضمن الجماعة الهندوسية. وليس أقل من ستة بنود أخرى هدفت إلى «إعادة اللحمة بين المجموعات المتنوعة في المجتمع» التي تمّ تهمشيها إما بسبب التقاليد الهندية نفسها أو بسبب التأثير المُخرِّب للحكم الأجنبي.[218] وبشكل واضح، كان البرنامج البنّاء ككلّ مُصمَّماً لبناء مجتمع مُحب؛ فوحدة القلب تكمن وراء كل مشاريعه.

لنتوقف للحظة عند هذه العبارة البسيطة على نحو مُضلِّل. فـ"وحدة القلب" تعني أنني أريدك أن تكون سعيداً، على الرغم من تباياناتنا. وفي الحقيقة، أن تشعر بوحدة القلب مع الآخرين هو أن *تستمتع* بالتباينات؛ فكم سيكون العالم مُسطّحاً ومُضجراً بدونها. ويمكن لتلك التباينات أن تكون حتى – على سبيل المثال – تباينات في الثروة. والتفاوت في الثروة سمة فاحشة جداً للاقتصاد العالمي؛ فالرجال الأربعة الأغنى في العالم يملكون ثروة أكبر من حوالي ثلث *الدول* الأقلّ تطوراً في العالم. ماذا بوسع المرء أن يُسمّي هذا إن لم يكن "الفحش"؟ والآن، في ظل غياب مفهوم وحدة القلب، يكون الحل الوحيد الذي يوحي بنفسه هو انتزاع الثروة من بين أيدي الأغنياء بأيٍّ من الوسائل وتوزيعها إلى أن يكون لدى كل شخص المقدار نفسه منها تقريباً. لا يميل الأغنياء إلى الإعجاب بهذا الحل، وتكون النتيجة عنفاً مريراً وغيرَ متكافئ. فضمن وحدة القلب تكون النظرة مختلفة جداً. فأنت لا تحسد الأغنياء على سعادتهم النسبية (كما شرح غاندي لعمال لانكشاير)، بل تسعى إلى تنبيههم إلى ضحالة الثروة المادية وأسى انتزاعها من الآخرين الذين هم بحاجة إليها. لذا عليك تغيير عقول الأغنياء، وهذا طبعاً، ليس بتلك السهولة لكنه أسهل فعلياً من حرمانهم من أموالهم. فأولاً، بوسعك إظهار قلة اهتمامك بالثروة المادية الفائضة، حتى ولو كانت لديك حرية الوصول إلى بعض منها؛ فهذا فعال. وفي ثقافة ليست مادية بإفراط (والتي لا نملكها في الوقت الحاضر باعتراف الجميع)، سوف يكون فعالاً حتى بوضوح.

لذا، ليس من الضروري أن نجعل من العالم كله حقلَ نشاط اقتصادي منبسط. فكل ما علينا فعله هو الحصول لأفقر الناس على ما يكفيهم لكي يعتاشوا عليه ويكونوا قادرين على النمو والتعبير عن أنفسهم ككائنات البشرية. ويجب ألا نتوقف إلى أن نكون قد أنجزنا ذلك. لكن يمكن أن يكون لدينا أغنياء وفقراء ما دام لدى الفقراء ما يكفي لكي يعتاشوا عليه، بما في ذلك الاحترام. فليس من الضروري أن يكون الجميع على المستوى الاقتصادي نفسه، بل فقط على المستوى *الإنساني* نفسه.

---

[218]- THOSE PROGRAMS WERE, 9: WOMEN, 14: KISANS (PEASANT FARMERS), 15: LABOUR, 16: ADIVASIS (INDIGENOUS PEOPLES—STILL A CONTENTIOUS ISSUE IN INDIA), 17: LEPERS, AND IN A SENSE ONE COULD COUNT 18: STUDENTS. THE PAMPHLET, *CONSTRUCTIVE PROGRAMME, ITS MEANING AND PLACE* WAS FIRST PUBLISHED IN 1941 AND IS STILL AVAILABLE FROM NAVAJIVAN PRESS IN AHMEDABAD AS WELL AS OUTLETS IN THE U.S. (SEE RESOURCES)

في غياب وحدة القلب، كما رأينا، تصبح اللصاقات – توتسي، شيتنيك، إرهابي، وما إلى هنالك – تدميرية على نحو مضاعف. إنها تنتهك الوحدة عن طريق خلق حالة استقطاب، نحن مقابل هم؛ وتنتهك التنوع بحَجب مجمل إنسانية الإنسان والاختلافات البشرية تحت تصنيف واحد. فالمنزلة الروحية لوحدة القلب هي منزلة لا غنى عنها وقاعدة أكيدة للمجتمع المُحب.

مشاريع أخرى في البرنامج البناء تتوجّه إلى الصحة وإساءة استعمال مواد الإدمان (الكحوليات في الغالب) والفاقة والتدهور الثقافي (من خلال "تعليم جديد"). ومأخوذة معاً – ومقصود أخذها معاً – كان عليها أن تجعل الهند قابلة للحياة والنمو، وكل المجتمع يعانق تنوّعها.

أمر واحد واضح: إذا كنا بصدد الاستفادة من غاندي فعلينا أن نأخذه ككل، وليس فقط محاولة محاكاة اللحظات الأيقونية للدراما الرفيعة التي ميّزت سيرته. فثقته بالنسبة للمستقبل تكمن على الأغلب في العمل البناء الثابت – ثابتاً وليس عَرَضيّاً، وعملاً وليس احتجاجاً، ونهوضاً ذاتياً وليس عرقلةً للآخرين، وعملياً ملموساً وليس رمزياً. ولم يكن لأحد أن يقاتل بتصميم أكبر متى كان ذلك مطلوباً؛ كما أنه لا أحد كان مستعداً للعودة إلى العمل البنّاء في اللحظة التي لم يكن مستعداً لها.

وفي حين أنّ بوسعنا استعمال النموذج العام للبرنامج البنّاء، نحتاج بالطبع إلى تكييف البرنامج الفردي لكي يلائم شروطنا. نحن ليس لدينا سبعمئة ألف قرية، رغم أن الضواحي تكاد تعادلها. ولدينا موارد مادية أكثر مما كان لدى الهند تحت الاحتلال، ما يعني أن الـ *khadi* بذاته لن يكون قابلاً للتطبيق بشكل مباشر. وليس لدينا زعيم فرد يوازي قامة غاندي وسنعارض "السلطات الديكتاتورية" التي منحته إياها بسرور الجماهير الهندية.

لكن الأمر الرائع فيما يتعلق بالبرنامج البنّاء، الأمر الذي لا يزال من الممكن استعماله، كان رؤيته وشموليته: الطريقة التي توجّه فيها إلى كل مشكلة بطاقة ملهِمة وحيدة. وبوسعنا امتلاك الطاقة، والنموذج *التنظيمي*. فالطاقة هي اللاعنف؛ والنموذج هو نطاق واسع من البرامج مع مشروع "شمسي" يجعلها تتماسك كلها مع بعضها البعض، برنامج يمكن لأيّ كان المشاركة فيه ويعطي رؤية مشتركة للآخرين. وأعتقد أنه ربما بات واضحاً الآن كيف يجب أن يكون ذلك المشروع في اعتقادي.

تغيير جوهري

ربما تكون الولايات المتحدة هي الأسوأ، لكنها بعيدة عن أن تكون المثال الوحيد عما فعلته الثقافة الحديثة. ففكرة الديمقراطية اختفت عالمياً بسبب النزعة المادية والانفصالية – لدى مختلف الثقافات. والسؤال: "من سيفوز؟" واحد فقط إذا نحن اعتبرنا الآخرين مختلفين عنا جذرياً. وتعزيز هذه النظرة العالمية كان التأثير الأكثر ضرراً لوسائل الإعلام التجارية في كل مكان تواجدت فيه.

وبمعنى من المعاني، "لقد استُعمِرنا" من قبل أناس ليست لديهم اهتماماتنا في العمق أكثر – لا بل أقلّ إلى حد كبير – مما يهتمّ موظفو الراجا برفاهية الهند. فأسيادنا الاستعماريون لم يأتوا من بلد

آخر؛ إنهم يتنقّلون بيننا ولهم لون بشرتنا نفسه، ويتكلمون اللغة ذاتها التي نتكلمها (مع أنهم يفسدونها تدريجياً)؛ ورغم ذلك يُضحّون بنا بصورة منظَّمة، "الجمهور المشاهِد"، بترهيبنا بما يُسمّى الأعداء، جاعلين منا نشتري أشياء لا نريدها، ويقنعوننا بالركض وراء السعادة حيث لا يمكن لها أن توجَد، بينما يحجبون الوحدة والغاية التي يمكن أن تجلب لنا السعادة الحقيقية. وعلى خلاف مضطهدي الهند الاستعماريين، الذين قدِموا من حضارة أخرى، ويتكلمون لغة غريبة، ويلتمسون تأييد دين مُحدَث (والذي بالكاد يتّبعونه بأنفسهم)، يسير "مضطهِدونا" في الشوارع معنا، ويتبعون بالضبط الدين نفسه الذي يتبعه معظمنا – إنها النزعة المادية. وقد غيّر التلفزيون التجاري كثيراً عقول الشباب الذين يصرّ معلموهم بجهد، وما زالوا يحاولون، على نقل أي شيء لهم لا يتبع المثال المادي التنافسي. وكما صِغتُ ذلك في الفصل الأخير، يُمارس الإعلام الجماهيري التعليم دون رخصة: لقد حان وقت التمرد.

إنه ليس الإعلان فحسب الذي استعمر فضاءنا السياسي والثقافي. فملايين الناس شاهدوا المناظرة التلفزيونية بين كلينتون وبوش في التاسع عشر من تشرين الأول العام 1992، وكنتُ أنا نفسي من بينهم. وعندما انتهت المناظرة، تقدّم مسؤول الشبكة وقال: "سنعلن لكم نتائج هذه المناظرة خلال دقيقة فقط". الـ"نتائج"؟ كان يعني، طبعاً، من الذي "فاز". وأنا واثق من أن هذا مرّ دون أن يلاحظه معظم المشاهدين، لكن بالنسبة لي، ونظراً لأنني لا أشاهد عملياً التلفزيون التجاري، كانت صدمة تماماً. فقد كنت أعتقد أن الغاية من النقاش العام هي مساعدتنا على تشكيل آرائنا الخاصة، وليس أن يتم إخبارنا من قبل "سلطة" اعتباطية ما شاهدناه فحسب. وكنت أعتقد أن النقاش السياسي يعرض على الملأ قضايا، وليس لتصنيف "الفائزين". وقد أشار كثير من المعلّقين قبلي إلى أنّ أجهزة الإعلام، والتلفزيون على وجه الخصوص، غيرّت السياسة كما كنا نعرفها، غيرتها، جزئياً على الأقل، من كونها عملية صنع قرار إلى مباراة شعبية – إلى معركة. لقد انحطّوا بالديمقراطية إلى صراع على سلطة، والذي هو رأس الجسر الذي أسّسته النزعة المادية والتنافسية اللتين نقلتا هذا إلى فضائنا السياسي.

إنه أمر مثير للسخرية، لكنه حقيقي. فبعد خوض الكثير من الحروب للدفاع عن طريقتنا في الحياة ضد المعتدين الأجانب تخلينا عن أكثر أشكال حريتنا ذات المغزى – حرية التفكير – دون كفاح. ولن نستعيد هذه الحرية بالتأكيد دون كفاح؛ لكن يجب أن يختلف منهج هذا الكفاح وأسلوبه بالمثل من القوى التي أوقعتنا في هذه الفوضى. يجب أن نضع في مركز هذا الكفاح تماماً مشروعاً أساسياً يبدأ بخيار شخصي لتحطيم سيطرة الإعلام الجماهيري على قيمنا وثقافتنا. وأينما وُجِدت صرخة غاندي الحاشدة "قاطعوا القماش الأجنبي" أقترحُ "قاطعوا *الأفكار* الأجنبية"، وحيثما وضع دولاب الغزل في الحركة أقول إنّ علينا أن نُدوِّر بسرعة القرص المُدرَّج لأجهزة الإعلام الجماهيري – إلى "التعطيل".

إذ إنّ أفكار العداوة والانتقام والتنافس والمادية والطمع يمكن أن تُدعى بحق "أجنبية" بالنسبة إلى طبيعتنا الجوهرية – هكذا أعتقد يقيناً، أنا على الأقل. وبهذا المعنى، اعتاد صديقي الراحل ويليس هرمان على استخدام مصطلح *القيم الزائفة* من أجل جني المال و"السَبَق" على حساب إقامة علاقات عميقة؛

وعلى حساب عائلة نابضة بالحياة والنشاط. وما سبق هي أهداف تفقد الأهمية بالنسبة لأولئك الذين تذوّقوا طعم الخدمة والرحمة والمجتمع المُحب. إنّ هذا العالم المليء بالاضطراب والظلمة، والذي كرّسنا إبداعنا لخلقه، هو ليس التعبير الجوهري عن طبيعتنا. وعلى الرغم من أن نَسَبهم التطوري الطويل وجشعهم ورغبتهم وتعصّبهم وغضبهم أجنبي بالنسبة لنا بالمعنى الحقيقي تماماً فإنّ هذه الأمور تعيقنا عن إدراك تطلعاتنا الأعمق.

لا يُولد الأطفال معاقين على سبيل المثال؛ فـ"عليهم أن يُعلَّموا بعناية"، كما تقول أغنية قديمة، ويمكنهم أن يكونوا بسهولة غير مُعلَّمين على نحو جيد. وبوسعنا أن نتكيّف إلى درجة أن الأمر يصبح طبيعة ثانية لكي نردّ بعدائية على نظام لون البشرة المختلف أو اللكنة المختلفة أو الاعتقاد المختلف؛ لكنه لا يصبح أبداً طبيعتنا الأولى. يرد في فاتحة النص الأساسي للبوذية، دهامابادا، بترجمة إيكناث إيسوورن: «كل الذي نكونه هو نتيجة لما كنا اعتقدناه» فكل مَن يؤثّر على أفكارنا يؤثر على قدرنا. هل المُعلِنون والسياسيون متساوون في تلك المسؤولية؟

بلوغ الحقيقي

إنّ إصلاح "فضائنا الثقافي" وجعله حراً من التعصب والانقسام والطمع يمكن أن يكون، وربما يجب أن يكون، نشاطاً يومياً، لكلّ شخص – مثل دولاب الغزل *charkha* بالضبط. فالوقت نفسه الذي نتجنّب فيه مشاهدة التلفزيون أو حضور فيلم دموي يمكن أن يكون ممنوحاً إلى بدائل بنّاءة. ومثل دولاب الغزل، أيضاً، هناك مظاهر بناءة لمقاطعة التلفزيون ووسائل الإعلام الأخرى: كتابة رسائل، نشر المعرفة، وربما تنظيم مقاطعة إعلامية في مدارس أطفالنا، أو في مؤسسة دينية، أو بين أصدقائنا فحسب. ومع أن ذلك يبدأ بخيار شخصي، فإنه يمكن أن يعطي نهوضاً لشبكة، حملة–حركة.

إنّ ساتياغراها هي على الدوام شكل من أشكال التعليم. وكلما كان بوسعنا أكثر كسب الناس إلى بؤرة ما تكون عليه القضية حقاً أمكننا حلّها عاجلاً وبصورة أقل إيلاماً. فالشبكات – ولنفكر بالتلفزيون مرة أخرى – منشغلة بالتصنيف؛ وليس لها ارتباط إيديولوجي بالسوقية والعنف في حدّ ذاته. وعلاوة على ذلك، إنّ رسالة واحدة توضح بشكل مؤدب «لقد توقفت عن مشاهدة برنامجكم بسبب عنفه المجاني»، مع "نسخة منها" إلى المُعلِنين الذين يرعون ذلك البرنامج، تُحدِث فرقاً. والأكثر يُحدِث تأثيراً أكبر. فحركة مستندة إلى الحقيقة قد لا تروّج بالسرعة التي تروج بها بعض الحركات، لكنها لا تغيب بالسهولة نفسها أيضاً.

والحقيقة أنّ مقاطعة التلفزيون ومعظم وسائل الإعلام الأخرى هي أقل إلهاماً من مشروع *بناء*: ماذا يبني؟ أو، ما الذي نفعله بواسطة هذا النوع من المقاطعة؟ فعلياً، القليل جداً. فالعائلات التي أحجمت عن مشاهدة التلفزيون بدأت بإعادة اكتشاف بعضها البعض؛ ومراراً وتكراراً وجدت أن التفاعل مع شخص ما أكثر إرضاء بكثير، حتى لو كان شخصاً لديك مشكلة معه، من التحديق في صور شخص ما

ليس موجوداً هناك. كتب الضابط براولي، وهو من شرطة نيويورك أطفأ التلفزيون لمدة أسبوعين كجزء من تجربة: «يقضي الأطفال وقتاً أطول بكثير وهم يعملون أشياء مبدعة».

يمكنني البدء برؤية أين أمضى الأطفال وقتاً أكثر في عمل أشياء ستكون على قدر من الأهمية بالنسبة إليهم في أعمالهم المدرسية في المستقبل... فللمرة الأولى منذ أن كنت في المدرسة، لحقتُ بالكامل بكل قراءة مقرراتي... وبدأنا في زيارة عائلات مختلفة، وقمنا بالاتصال بها خلال أشهر الشتاء.

وبدا الأطفال في أغلب الأحيان أكثر ميلاً للمشاجرة فيما بينهم.... وفي الوقت نفسه أصبح الأطفال أقرب إلينا بينما كنا نشاركهم في عمل الأشياء سوية.[219]

وكتب أحد المشاركين في تجربة مدرسية في دِنفر: «أشعر أنّ العائلة تعمل بانسجام أكثر نتيجة رفض التلفزيون». فمشاهدة التلفزيون يمكن أن تكون تجربة عزلة – والتي يمكن القول عنها تجربة ما قبل عنيفة، حتى قبل أن نبلغ المحتوى المُفزِع. وبالمقابل، حينما وإلى المدى الذي امتنع فيه الناس أو العائلات أو الأصدقاء عن مشاهدة التلفزيون، وجدوا أنّ العلاقات تعود لكي تحتل مكانها بحيوية، سواء كان ذلك عن طريق اللعب مع الأطفال أم التحدث عن قرارات العائلة أم مجرد التحدث. فخمس دقائق من المحادثة المعمّقة هي أكثر إنجازاً من خمس ساعات من الاستغراق البديل في صور حياة شخص آخر. وأبدى الناس، والعائلات كذلك، شعوراً من الارتياح، ومن الاكتشاف؛ شعوراً بأنهم كانوا أفضل حالاً وأكثر "وظيفيةً" عندما أقصوا أجهزة التلفزيون.

لقد تلقّوا مساندة علمية. ففي دراسة ممتعة لعالم الاجتماع الإسرائيلي أوري برنفينبرينر، جاء أن الأطفال الذين شبّوا في التطورات السكنية الجديدة لما بعد الحرب في ألمانيا الغربية، حيث كانوا يُمنَحون مساحات واسعة للعب فيها، تبيّن، للغرابة، أنهم قاموا بأعمال أقلّ جودة تنموياً من نظرائهم الأطفال في أكثر الأحياء الضيقة في المدن الألمانية الأقدم. ويستنتج الباحثون أنّ السبب بدقة هو أنّ المكان كان يتيح للأطفال الهرب من بعضهم حينما لا يستطيعون التقدّم، بدلاً من أن يحلّوا صعوباتهم ويصبحوا أكثر حميمية، كما اكتشف الضابط براولي.[220] إننا نحتاج إلى فضاء إنساني من أجل النمو، وليس إلى فضاء فيزيائي.

يعاني المدرّس في هذا العصر من الصدمات، ومعظمها بسبب ظهور جيل لا يشبّ على التلفزيون فحسب، بل لأن الآباء كذلك شبّوا على التلفزيون. ونسمع عموماً أنّ طلاب السنة الأولى لا يعرفون أيَّ شيء (يعني، أي شيء عن القيمة الثقافية الدائمة) وأنّ مدى انتباههم قصير جداً بصورة فظيعة (ولذا لا يمكنهم تعلّم أي شيء عن القيمة الثقافية الدائمة)؛ لكن هناك تغيّر مأساوي آخر. أتذكّر المرة الأولى التي كنت أُحاضر فيها فنهض زميل من الصف الثاني وخرج. وما زال هذا الخروج الفظ يتواصل – وكذلك شعوري بالصدمة.

---

[219]- This and following quote from Marie Winn, *The Plug-In Drug*, New York: Viking Press, 1980, pp.193 ,197.
[220] - Bronfenbrenner, Urie. "The Origins of Alienation," *Scientific American* 231, no. 2, 1974, p. 61.

إنّ طلابي لا يفتقرون إلى الاحترام لي أو الاهتمام بما أقوله. وقد استغرق الأمر مني فترة لإدراك كنه المشكلة: *إنهم لا يدركون تماماً أنني كائن حقيقي*. يخرجون لتناول وجبة سريعة بينما يكون التلفزيون مشغَّلاً، ولا يكونون واعين كلياً أنهم في تلك اللحظة يستمعون إلى شخص حي حقيقي.

لنتذكّر ملاحظتي في الفصل الرابع، وهي أنه عندما يستعمل الجيش ألعاب الفيديو لتدريب جنوده على المعركة، يكون يدربهم بالدرجة الأولى ليس على إطلاق النار مباشرة، بل على إطلاق النار بلا ندم، وعلى قمع وعيهم بأن ما يطلقون النار عليه هو كائن حي. ومن الصحيح أيضاً أنّ أولئك الذين يقومون بأعمال القتل، في مجتمعنا وشوارعنا ومواقع أعمالنا ومنازلنا، يشهدون غالباً أنهم لم ينظروا إلى ضحاياهم بوصفهم كائنات بشرية حقيقية، بل مثل دُمىً متحركة أو صور – أناس "افتراضيين"، مجرّد أهداف. فقط عندما تغلبت الممرضة بلاك على العنف، برؤيتها الشخص القابع خلف القاتل المُنتظَر، عكست تلك العملية التي تُبقي أولئك الذين سيقتِلون أو سيؤذون ضمن رؤية الشخص بتلك اللصاقة، أو شيء ما حتى أكثر تجريداً للإنسانية؛ فسوزان أثكينز من طائفة مانسون قالت إن «ضحاياها لم يبدوا حتى مثل الناس... وأنا لم أفكر ذهنياً بشارون تيت بكونها أي شيء سوى أنها عارضة أزياء»[221] لا، لست خائفاً شخصياً من حدوث عنف في قاعة دروسي؛ لكني خائف جداً من أنّ هذه الثقافة الواسعة الانتشار قد زرعت، عبر جعلنا تدريجياً أقلّ حقيقيةً بالنسبة لبعضنا البعض، بذور العنف في الطلاب قبل أن يصلوا إلى هناك.

الدليل الموجود في نهاية هذا الكتاب سوف يقترح طرقاً بوسعنا إعادة ربطها بحيوية أكبر مع بعضها البعض، لكنها تعتمد على رفضنا بأن نكون جمهوراً لبرمجة سيئة. تلك هي مساهمتنا الشخصية الجوهرية لتشكيل ثقافة أكثر صحيّة وأقل "سُميّة"، ذات صورة إنسانية أسمى وقيم أفضل.[222]

إذا كان على شخص ما أن يسألني: «ما الذي *حقاً* سيجعل العنف ينصرف عنا»، فسوف أُجيب دون تردد: «تقدّم استثنائي في الثقافة».

المجتمع المُحب

كان البرنامج البنّاء، كما يدلّ اسمه، بنّاءً بدلاً من أن يكون معوِّقاً. لقد نشدت المشاريع المركزية العودة إلى الحياكة في المجتمع المقموع اقتصادياً، المُهمَّش أو المنبوذ، باستعمال مفهوم بسيط لكنه فعّال لوحدة القلب التي أفصحت عن كل البرنامج البناء، كما أفصح هو – أو كان من المفترض أنه أفصح – عن الساتياغراها. وتمنح الطاقة الشافية الناس سُموّاً ذاتياً، وفي النهاية يعمل بعض من سحرها حتى بين الحكام والمحكومين. وبالنسبة لنا، أيضاً، سيمنحنا تماسك مثل هذا النموذج من "النظام الشمسي" طريقة لاتباع عواطفنا الفردية (الكفاح من أجل حقوق متساوية للجميع، والحديث جهراً دونما وجل ضدّ

---

[221] - Orlick, Terry. *Winning through Cooperation: competitive insanity, cooperative alternatives*. Washington: Acropolis Books, 1978, p. 79.

[222] - this is a term used by *Adbusters* Magazine; it will also be found in a key article from the Canadian Broadcast Review magazine, at www.broadcastdialogue.com/Magazine/fullstory_blue.asp?article=287

التعصب، وتنظيف البيئة، وتعلّم ما يخص المسؤوليات المدنية) دون الشعور بأننا نقوم بذلك في حالة من العزلة؛ فالطاقة الشافية للاعنف سوف توحّدنا.

يُقال إنّ التلفزيون شكل من أشكال "الاتصال"، لكن الاتصال هو بطريقة واحدة إلى حدّ ما. وفي الحقيقة، لا تُقدّم لنا مشاهدة التلفزيون شيئاً، كما نعلم، سوى العزلة. فكلٌّ منا في شرنقته التقنية، يتحدّث إلى ما هو ليس حقيقياً. وهو بالشكل والمضمون، على الأقل كما نستخدمه اليوم، تقنية العزلة ذاتها. ومع أنّ الحقيقة هي أنّ الكثير جداً من الناس يشاهدون "الأخبار" نفسها، وفي الوقت نفسه، فإنّ له تأثيراً عازلاً، نظراً لأنه مثال جيد ليس على الوحدة بل على التماثل – وهي مفارقة سنمرّ عليها ثانية في الفصل التاسع. فالقوة الدافعة لبرنامجنا البناء، كما هو سلفه العظيم، يجب أن تتغلب على تلك العزلة، بالعودة عنها من غير انقطاع.

في العام 1936، قام وفد من الأمريكيين من أصل أفريقي برئاسة الدكتور هاوارد ثورمان بزيارة حج إلى غاندي في الهند. وبوسعنا أن نتصور الإحساس بالأمل الذي راود أفراد الوفد الذي تبع اللقاء مع الزعيم الهندي العظيم. وضَعْ نصب عينيك أنّ مارتن لوثر كينغ الابن كان له من العمر سبع سنوات في موطنه أتلانتا أثناء هذه المحادثة. وبعد سنوات عديدة، وبوصفه طالباً في كلية مورهاوس، سيجلس مُصغياً بانتباه إلى الدكتور ثورمان وهو يتحدث على نحو مدهش عن أهمية غاندي.

السيد ثورمان: نريدك أن تجيء إلى أمريكا... نحتاجك بشدة.

غاندي: كم أتمنى لو أستطيع، ولكن لن يكون لدي ما أقدّمه لكم ما لم أكن قد قدّمت دليلاً عيانياً هنا على كل ما أقول. يجب أن أقوم بالرسالة بصورة جيدة هنا قبل أن أحملها لكم.[223]

وكان غادي قد أتقن منذ زمن طويل درس السواديشي *swadeshi*، مبدأ الإرشاد البارز في كلّ من نمطَي اللاعنف، البناء والمعوِّق. فهو يُصرِّح على أنه عن طريق العمل في مجال تأثيرك تخلق رجع صدى في دوائر واسعة، لكن أن تفرط في توسيع نفسك، أن تحاول أن تفعل كل شيء على عجلة، فإنك تخسر القوة هنا وهناك.

وفي هذا السياق يضيف غاندي ملاحظة نبوئية: «حسناً... ربما من خلال الزنوج تُنقَل رسالة اللاعنف الصافي إلى العالم.»[224]

وبعد حوالي عشرين سنة أبت روزا باركس التخلي عن مقعدها لرجل أبيض في حافلة في مونتغومري، مُستهِّلة بذلك سلسلة من الأحداث التي خرقت شرعية التمييز العنصري المؤسساتية في الولايات المتحدة.

---

[223] - This and the following quote from Tendulkar, 1952, *Mahatma*, Vol. 3, pp. 50 & 51.
[224] - Ibid., p. XX.

ونحن نعلم الآن، والشكر بشكل رئيسي لسودارشان كابور، أنّ "الدليل العياني" على تخلص الهند من أغلالها الاستعمارية من خلال اللاعنف وصل إلى الولايات المتحدة مُجسَّداً بعدد كبير نسبياً من *ساتياغراهيين* من لحم ودم جاءوا إلى الجنوب لتقديم المشورة ودعم حركة الخمسينيات والستينيات.

ونعلم أيضاً، بالنسبة لكلا البلدين، أنّ الحركة التي جمّعت حولها هؤلاء القادة العظماء هي عمل غير مُنجَز؛ فنحن نعلّمها في المدارس لكننا لا نطبقها على حياتنا. فحتى الآن، ما زلنا فعلياً نخسر، ولا نكسب.

لماذا؟ لأن مارتن لوثر كينغ خلع الشرعية عن التمييز العنصري لكنه لم يخلع الشرعية عن *العنف*. لقد أراد أن يفعل ذلك لكن الفرصة لم تسنح له؛ فقبل أن يتمكن من المضي أبعد من ذلك قتله شخص ما أو عدة أشخاص. وبقي العنف في لحمة وسداة الثقافة الأمريكية، ترافقه طاقة الكراهية التي يحملها. والتمييز العنصري، وهو شكل من أشكال الكراهية والعنف، عازم على العودة. فلا يمكنك توقع ألا يتسرب البخار من خلال الشقوق الأكثر ملائمة في المرجل: عليك أن تسدّ كل الشقوق بإحكام، أو أن تجعلها أقل، وتخفّض الحرارة.

ما فعلته عائلة ويسِر

ليس من المحتمل – على الأقل لا يبدو محتملاً الآن مباشرة – إعادة إلهاب حركة الحقوق المدنية، وما كان مارتن لوثر كينغ سيرغب في أن نفعل ذلك بالضرورة. وأنا على يقين أنه كان سيريد منّا مواصلة تراثه في شكل عمل بناء. وفي الحقيقة، كانت تلك هي الوجهة التي يتخذها هو نفسه قبل أن يقضي عليه ردّ الفعل. ولم يكن هذا سيبدأ، بالضرورة، كحركة عظيمة. فدعني أشاركك إحدى القصص الإخبارية الأكثر إثارة للعام 1992، وهي قصة التغيّر الشافي للتنين الهائل في حركة كو كلوكس كلان، لاري تراب، عن طريق زوجين يهوديين، مايكل وجولي ويسر.

مايكل هو قائد جوقة الترتيل في معبد الشارع الجنوبي في مدينة لينكولن، نبراسكا، ومؤيد بارز للقضايا الديمقراطية. وفي العام 1992، بدأ هو وزوجته بتلقّي سلسلة من المكالمات الهاتفية التهديدية ورسائل الكراهية. وحذرته الشرطة من أنّ عضواً بارزاً في منظمة كوكلوكس كلان المحلية، وهو لاري تراب، كان وراء معظم تلك المكالمات، ورغم أنهم وضعوا هاتف تراب تحت المراقبة إلا أنهم لم يستطيعوا أن يثبوا تماماً أنه هو الذي كان يضايقهم. ولذا لم يكن ويسر قادراً على فعل الكثير لحماية نفسه بالطرق المعتادة. وذات يوم، كان تراب يصرخ عليه في الهاتف فقرر ويسر، بتأييد من زوجته، أنه لا بدّ من أن يجد حلاً لهذا الأمر بنفسه. ويتذكّر ويسر: «كنت هادئاً ومطمئن البال تماماً؛ فقد علمت بأنه كان يمر بأوقات عصيبة [كان تراب يتنقل على كرسي متحرك] فعرضت عليه القيام بجولة في مخزن البقالة...

فأصبح هادئاً تماماً، وانطفأ كل الغضب في صوته، وقال: "لدي من يعتني بي، لكن أشكرك على الدعوة"[225]

وعلى أية حال، كان لدى عائلة ويسر في تفكيرها أكثر بكثير من مجرد وضع حدّ للمضايقة. كانوا يريدون، إن أمكن، تحرير هذا الرجل من الكراهية التي كان يعاني منها، وهو الذي (وقد اكتشفوا فيما بعد) كان مُعاقاً مدى الحياة نتيجة للضرب الذي تلقاه من مجموعة من السود. فاستلموا زمام المبادرة، ووجهوا الدعوة *له*. وبعد فترة قصيرة، ذهبوا إلى شقته في زيارة ودّية، حاملين معهم طعام العشاء الذي كانوا قد أعدّوه. وعندما فتح تراب الباب لاستقبالهم، سحب من أصابعه خاتمين وناولهما لضيفيه اللذين كانا لا يزالان مترددين قليلاً؛ وكانا من خواتم النازية. كان يعلن، رمزياً وفعلياً، تبرُّؤَه من منظمة كلان إلى الأبد.

كان لاري تراب، باعترافه هو، أحد العنصريين البيض الأشد تعصباً في البلاد، رجلاً "أراد إشادة ولاية نبراسكا على شاكلة حالة الكراهية السائدة في كارولينا الشمالية وفلوريدا". وربما لهذا السبب بالذات كان تغيره كلياً، مقارنة مع بعض العنصريين الآخرين من حاملي البطاقات الذين كانوا قد أخذوا استراحة. وقد قال تراب عن شركائه السابقين في المنظمة: «إني أشجب كل ما يُمثِّلونه، *لكن ليس الناس الذين في المنظمة هم من أكرههم*... لو كان عليّ القول لقلت إنني أكره كل رجال كلان لأنهم رجال كلان... ولكنت مازلت عنصرياً»[226] (التأكيد من عندي)

يُظهر هذا فهماً رفيعَ الثقافة للاعنف المنجّي الحقيقي – لوحدة القلب. وسوف أُسلِّم بأن هذه القصة تأخذنا إلى جوهر المجتمع المُحب. فعمل عائلة ويسر الناجح على نحو مبدع هو نموذج لكيفية تطبيق الشجاعة والرحمة على لعنة التمييز العنصري.

وفي الوقت نفسه، ليس بوسعك عزل التمييز العنصري بالانتظار إلى أن يبدأ كاره مستعد روحياً بالبحث عن مخرج يوفّره زوجان شجاعان وواعيان لقضية اللاعنف مثل عائلة ويسر. فنحن بحاجة إلى برامج، إن كان هناك ما يكفي منها، تجعل العلاجات الطارئة، مثل علاج عائلة ويسر، غير ضرورية. وهذا يعني أننا نتحدث عن الشباب وعن التعليم.

إلياس جبور عربي إسرائيلي، ومسيحي. وقد عاش في إسرائيل طوال حياته ولم يرَ لحدّ الآن فعل عملية السلام. وذات يوم من العام 1987، قرر التوقف عن انتظار السلام الآتي من صنّاع السياسة، وبدأ بالتساؤل عما يمكن أن يقوم به بنفسه. كان مخططه بسيطاً: تحويل بيته إلى "واحة سلام" (مثل المدرسة المشهورة بذلك الاسم: واحة السلام Neve Shalom). كان الأطفال يقضون أيامهم «في بيئة نابضة بالحياة والحيوية ودافئة وراعية، حيث لا تخطر ببالهم معاملة بعضهم بشكل مختلف على أساس

[225] - Levy, Daniel. "The Cantor and the Klansman," *Time* magazine, February 14, 1992, pp, 14f. There is now a book on this dramatic episode: Watterson, Kathryn. *Not By The Sword*. New York: Simon and Schuster, 1995.
[226] - Ibid., p. 14.

العرق أو الدين» إلى حين دخولهم المدارس العامة، فيعودون منعزلين مرة أخرى.[227] إنّ أولئك الذين كان لهم امتياز العمل مع الشباب توصّلوا إلى رؤية كم هو سهل أحياناً سلخ الردود المشروطة للإجحاف. ففي لوس أنجلس، عندما جُمِع أعضاء من حليقي الرؤوس الرايخ الرابع مع مجموعة من السود واليهود من أعمارهم نفسها، ومرة أخرى توصّلوا بسرعة إلى قبول أصدقائهم الجدد، مُخلِّفين "الرايخ" و"حليقي الرؤوس" سقط متاع.[228]

عاد جان أوبيرغ، رئيس فريق تخفيف الصراع في المؤسسة السويدية العابرة للقوميات من أجل السلام والبحث المستقبلي، من المهمة الثلاثين للمؤسسة إلى يوغسلافيا السابقة، حيث أجرى سلسلة من "الحلقات الدراسية للمصالحة" في شرق سلوفينيا مع 120 كرواتياً وصربياً من طلاب الجمنازيوم من فوكوفار وأوسيجيك وفينكوفيسي. وقد كانت المرة الأولى بالنسبة لمعظم هؤلاء الطلاب التي يلتقون فيها "الجانب الآخر"، رغم أن الكثيرين منهم كانوا يعيشون في المدينة نفسها. وقد استُخدِمت تقنيات مختلفة مثل ألعاب رياضية وأدوار مسرحية ومجموعات نقاش وأعمال فكرية مبدعة. وتوصّل الطلاب إلى معرفة بعضهم البعض، فتبادلوا وجهات النظر وغنّوا الأغاني معاً وأصبحوا أصدقاء. كما بكوا على ما قاسوه من أذى وألم خلال الحرب، لكنهم كانوا حذرين لئلاّ يتفوّهوا بعبارة مثل "أنتم فعلتم هذا بنا"، بل للتنفيس عن أحزانهم فحسب. كما سمحوا لأنفسهم بإبداع أفكار ورؤى ساحرة حول السلام في كرواتيا وشرق سلوفينيا وفوكوفار. وهنا تكون الذروة: لقد وجد أوبيرغ أنّ "الأمر استغرق من الكرواتيين والصرب أقل من ساعة لكي يكتشفوا أنّ لديهم الكثير من المشتركات، على النقيض مما أخبرتهم به حكوماتهم ووسائل إعلامهم، وفي أغلب الأحيان آباؤهم في ما مضى.[229]

أقلّ من ساعة. كم من الناس، أو المجموعات، مستعدون لمنح تلك الساعة لشباب العالم، للئم الجراح التي تسببها الحروب والحروب المستدامة؟

ليس هناك الكثير حتى الآن، لكن بينما تَنِي حركتهم، من المفيد معرفة كم هو جيد أنهم يعملون، وكيف يبنون عليه.

عيد ظهور القهوة: نحو نموذج ديناميكي حراري للمجتمع

أحياناً، يمكن للسؤال عن تجديد الثقافة أن يكون مفهوماً بشكل أفضل بالمقارنة مع نموذج مألوف، وهو القانون الثاني للديناميكا الحرارية. وينصّ هذا القانون على أنّ النظام الفيزيائي يذهب تلقائياً إلى حالة من الإنتروبيا Entropy الأعلى بمرور الزمن، بمعنى أنه يبحث عن نوع من التوازن حيث كل

---

[227] - Communicated by e-mail from Patti Malin, Coordinator, Institute for Global Communication, Dec. 8, 1997.

[228] – محادثة مع حليقي الرأس.

[229] - E-mail from the Transnational Forum on April 30, 1998. http://www.transnational.org.
يمكن الاطلاع على هذا الموقع الممتاز من العنوان المذكور أعلاه

الأشياء مختلطة بشكل متماثل. ومرتبته، أو من وجهة نظر أخرى "معلوماتـه"، تتناقص، في النهاية إلى الصفر. فالأشياء تُجرَّد من رتبتها، و"الأنظمة المنعزلة تتحرك تلقائياً نحو إنتروبيا قصوى".[230] والمثال الأكثر إثارة هو المتعضّي الحي الذي يتفسّخ على نحو لا يمكن تجنبه، ودونما استثناء، إلى حالة الموت. والكون ذاته يقترب في نهاية المطاف، وهي فكرة، من حالة "الموت الحراري" ليصبح خليطاً كونياً غير متمايز من الطاقة–الكتلة. وأي نظام أصغر، مهما يكن (ومعظمها كذلك!)، يمكن أن يقلب ذلك الانجراف الإنتروبي عن طريق استقبال الطاقة من الخارج نفسه. وأحد الأمثلة الهامة هو كوكبنا.

إن حالة كوكب الأرض المشعّة بالشمس الأكثر حرارة توفر بيئة يمكن فيها لخلايا النباتات والحيوانات أن تبني نظامها، وهذا يعني تخفيض الإنتروبيا الخاصة بها على حساب بيئتها.

تلك هي الكيفية التي نبقى فيها أحياء، رغم أنه «ليس هناك دليل يشير إلى أية قدرة من جانب المادة الحية على الجري بطريق معاكس لمبدأ تزايد (عام) للفوضى، كما صِيغ في القانون الثاني للديناميكا الحرارية». والمجتمعات البيولوجية ليست متباينة؛ فيمكن للتوالد الداخلي أن يسبب فقداناً خطيراً للتنوع، مما يعني فقدان المرونة والحيوية ما لم تأتِ معلومات وراثية جديدة إلى علم الجينات من مصدر آخر.

لنتخيل الآن مجتمعاً كـ "صندوق أسود"، أو نظاماً منعزلاً. ففي مثل هذا النظام المغلق، سواء كان أنبوب اختبار أم مجرة، تكفّ الطاقة عن العمل حتماً في سياق الزمن؛ فالفوضى تزداد و"المعلومات" ذات المغزى تُفقَد بثبات. وبصورة مشابهة، ألا تفقد الثقافات حيويتها بمرور الزمن، وتتلطّخ بؤرتها، وتبدأ أولوياتها بالانجراف بينما الناس يفقدون إحساسهم بما مُفترَض بهم أن يعملوه في الحياة؟[231] وإحدى الإشارات الواضحة لهذه الحيوية الهابطة – إشارة نحن متآلفون معها – هي أنّ صنّاع القرار يستمرون في اللحاق بحلول غير عملية لمشكلات مستمرة بالتزايد. هل الانعزال يُشكّل بتآكل أمننا؟ فلنضع المزيد من الناس في السجون. هل هناك دولة مارقة في النظام العالمي؟ فلنضربها بالمزيد من العقوبات، وإن لم تعد إلى الصراط، فبالمزيد من القنابل. فالعنف، على مستوى واحد كما رأينا من قبل، هو افتقار جدّي إلى الخيال.

إنّ إحدى أكثر عمليات صنع القرار درساً في التاريخ الحكومي الحديث هي التي أشارت إلى أنّ عدداً من الزعماء الأمريكيين، وخصوصاً الرئيس جونسون، واصلوا تضليل أنفسهم بأنهم على وشك "كسب" الحرب في فييتنام. وقد ابتكر علماء النفس مفهوماً جديداً وهو "صناعة قرار الأزمة"، لتوضيح هذا التشنّج في الخيال (ناهيكم عن العاطفة). وإحدى الطرق كانت صارمة بقدر ما هي بسيطة؛ فقد أحاط

---

[230] - MARSHALL, IAN AND ZOHAR, DANAH. *WHO'S AFRAID OF SCHRÖDINGER'S CAT?: ALL THE NEW SCIENCE IDEAS YOU NEED TO KEEP UP WITH THE NEW THINKING*. NEW YORK: MORROW, 1997,

[231] - Britannica® CD Deluxe Edition © 1994-2000 Encyclopædia Britannica, Inc., under "chaos."

وقد أضاف ورايلي في نفس الموسوعة البريطانية في تعريفه للشواش أن الفكرة القائلة بأن المنظومة ليس بوسعها عفوياً أن تصبح أكثر نظاماً إنما أكثر فوضى، إن تركت لذاتها، تتطلب المزيد من التدقيق في تجربتنا الفردية المتعلقة بالاقتصاد المحلي.

الرئيس جونسون نفسه بزمرة صغيرة من الرجال، صندوق أسود ضمن صندوق أسود، والذين سينبذون بازدراء أي شيء ما عدا عقلية "المزيد من الحرب". وأي شخص عرض فكرة أخرى كان يُبعد خارجاً؛ ولذا كنا جميعاً محكومين بالبقاء في وجهة السير – إلى أن غرقنا.

إنه تطرف لكن وزارة حرب الرئيس جونسون، التي كانت أيضاً عَرضاً لطريقتنا في التفكير حول العنف، هي عموماً ضيقة الأفق ومُحبَطة ذاتياً بصورة جدّية. ونحن بحاجة إلى أفكار جديدة وطاقة منعشة لكسر الحلقة المغلقة للنقاش المحيط بالعنف، كما تحتاج الكائنات الحية على الأرض للطاقة من أماكن بعيدة عن كوكبنا، من الشمس، لتنظيم أنفسنا بيولوجياً والتغلب على الإنتروبيا. فالثقافة السائدة "تتقهقر" نحو موت ديناميكي حراري بسبب الحاجة إلى طاقة جديدة يمكنها أن تُنشِّط نماذج جديدة للنظام، مما يساعدنا على الرد على الأزمات التي تواجهنا.

واللاعنف هو ذلك النوع الجديد من الطاقة. إنه ليس جديداً تماماً، بالطبع، أكثر مما هو نور الشمس جديد، لكننا أدرنا ظهورنا لهذا البعد من الحياة إلى حد أننا نجد أنفسنا نحاول، على نحو منافٍ للعقل، حلّ مشكلة عنيفة بعد مشكلة عنيفة كما لو أن ذلك المصدر، تلك الطاقة، لم يُوجَد من قبل. وقد كانت إحدى الطرق للنظر إلى البرنامج البنّاء (وغاندي بالتأكيد رآها بهذه الطريقة) هي محاولة إدخال طاقة اللاعنف إلى النظام الاجتماعي على مستوى عالٍ. فمن خلال البرنامج البناء، على سبيل المثال، أحدث غاندي ومريده المُقرَّب فينوبا بهافا مؤسسات متنوعة – مستشفيات، مدارس، معاهد ريفية، مراكز غزل – ليست أقل من مئة واثنتي عشرة، ما زالت تعمل بقوة في الهند اليوم. فالقوة الأصيلة للاعنف مؤثرة جداً، كما يوحي كل بناء المؤسسة هذا، ولذا قد نفكر بالبرنامج البناء، مثل حزام فان ألين، يرشح بالقوة الهائلة للاعنف ويخفّض "فولطيته" إلى مقادير وأطوال موجات قابلة للاستعمال، وبالتالي يمكنه ولوج المجتمع بأقل ما يمكن من العراقيل وبأكثر ما يمكن من الجُهد المنظّم، وهي الطريقة التي امتصّ بها الإله العظيم شيفا القوة الهائلة للغانغيين في رأسه المقدس، وبالتالي أمكنه قياسها بدافع جلب الحياة والصفاء إلى سهل الغانغ.

وعلى أية حال، حيث يتشظّى تناظرنا الديناميكي الحراري يكون في حالنا "الخارج" عن نظامنا الاجتماعي هو حقاً "الداخل". فاللاعنف هو أولاً، وقبل كل شيء، نوع من الطاقة التي تكمن في الكائن الحي. ولسنا بحاجة إلى أناس مختلفين بالقوة، *بقدر ما نحتاج إلى نوع مختلف من القوة في الناس.* فبعض الحملات الرئيسية لحركة الحقوق المدنية – حافلة مونتغومري وغرينسبورو وكارولينا الشمالية واعتصام طاولة الغداء تحضر في الذهن – لم تُطلَق شرارتها من قبل مارتن لوثر كينغ أو بايارد روستين أو من قبل "غرباء" قدِموا من الشمال، بل على التوالي من قبل خيّاطة سوداء اسمها روزا باركس، ومن قبل أربعة طلاب كليات محليين، اقتنعوا بالقيام بأعمال "مُعرقِلة" ستُتوَّج في النهاية بمستوى نظام اجتماعي أعلى.

إننا نميل إلى معرفة أكثر حول معرفة الكيفية التي يجتاز فيها الزعماء التغيرات الداخلية العميقة، والتي تتيح لهم بلوغ شجاعة وإيمان جديدين، ببساطة بسبب انكشافهم العام. فنحن نعرف أنّ مارتن لوثر كينغ، على سبيل المثال، لم يكن في بادئ الأمر مستعداً لمستوى الكراهية الذي ارتفع مثل بحر هائج مما كان يهدد بخطف حياته، وفي النهاية خطف هذه الحياة. لقد مرّ بأزمة عميقة، "بييترماريتزبيرغ"ه إن شئت، وهذا ما كسره تقريباً. وكانت الذروة يوم الجمعة 27 كانون الثاني من العام 1955، اليوم التالي لتجربته الأولى في السجن، عندما هزّت ثقته سلسلة من المكالمات الهاتفية الفاحشة والمليئة بالكراهية. ففي منتصف تلك الليلة، وبعد مكالمة بذيئة وتحمل تهديدات على نحو خاص، لم يعد قادراً على العودة للنوم؛ لقد تعاظم قلقه:

«ووصلتُ إلى الحدّ الذي لم يعد فيه بإمكاني التحمّل أطول من ذلك. كنت ضعيفاً. وقال لي شيءٌ ما، لا تستطيع دعوة بابا الآن، فهو في أتلانتا على بعد مئة وخمسة وسبعين ميلاً، ولا تستطيع حتى دعوة ماما الآن. عليك أن تدعو ذلك الشيء الذي اعتاد بابا أن يخبرك عنه، تلك القوة التي يمكن أن تُحدِث مخرجاً حيث لا مخرج. ... وانحنيت على ذلك الكوب من القهوة.. لن أنساه أبداً.. وبدا لي في تلك اللحظة أنّ بوسعي سماع صوت داخلي يقول لي: "مارتن لوثر، أصمد من أجل الحق. أصمد من أجل العدالة. أصمد من أجل الحقيقة. وانظر، سأكون معك، حتى نهاية العالم.»[232]

ومهما نعتقد أن هذا الصوت كان، وكيفما نوضحه، فقد كان له تأثير مباشر في رفع كينغ إلى مستوى أعلى في الأداء: «في الحال تقريباً، بدأت مخاوفي بالتبدد، واختفت شكوكي». وبعد ثلاثة أيام كان قادراً بهدوء على تقبل خبر تفجير منزله وبداخله زوجته وأطفاله: «لقد منحتني تجربتي الدينية قبل بضعة أيام القوة لمواجهة الأمر». وفي الحقيقة، تكررت هذه التجربة معه طوال شهور وسنين الكفاح. لقد كانت قوته المستديمة.[233]

لا نستطيع أن نجد مثالاً أفضل عن ما كنتُ أدعوه طاقة مختلفة تدخل في "النظام"، في حالة المجتمع الأمريكي هذه وكل تأثيراتها، من خلال التجربة العميقة لفرد. ويجب ألا نتفاجأ من أنّ كينغ كان يُعنى أكثر بكثير بالعمل البنّاء عندما اختطفه الموت.

ومع ذلك، ما الذي يعنيه هذا بالنسبة لنا نحن الباقين؟ فهذه التجارب النادرة حدثت لأناس – لزعيم نادر في ظل أزمة، ولمجموعة راكعة على رصيف في بيرمنغهام، ولأمة أنهضها غاندي، لكن لا يمكننا أن نتّكل عليها. لا نستطيع أن نخطّط لها؛ لكن ربما نستطيع أن نؤسسها. وهذا يعني أننا قد

---

[232] - Garrow, David J. *Bearing the Cross: Martin Luther King, Jr. and the Southern Christian Leadership Conference*. New York, 1986, p. 58;

[233] - . Ibid., pp. 58 & 60.

يمكن أن نسجل بالمناسبة أن الهاتف التهديدي أعطى مفعولاً يناقض تماماً ما كان ينويه موجهوه؛ وهذا أكثر صحة فيما يتعلق بالتفجير: ما دعا مؤسسة مونتغومري للتحسين إلى زيادة متطلباتها فوراً من شكل مهذب إلى "منفصلين لكن متساوين" بهدف منع تدهور خدمة الباصات العمومية، ما أدى بشكل عام إلى تصليب مقاومتهم (المصدر نفسه الصفحة 61). وهكذا نرى كيف يكون "فعل" العنف حين يعتمد.

نستطيع أن نقوم بتغييرات بنيوية وثقافية (وحتى مؤسساتية) سوف تشجّع مثل هذه التجارب وتجعل استخدام تأثيرها أطول مدة. وهناك، على الأقل، دليل مباشر على أن هذا محتمل.

فطبقاً لنظرية أنثروبولوجية عن العنف، للمجموعات الإنسانية نوع من غريزة الرُعاع تعزّزت طوال مسيرة التطور، وقد لُوحِظت بوضوح تام، على سبيل المثال، بين القرود.[234] وبسبب هذه الغريزة (أو مهما كان الاسم الذي ينبغي أن نستخدمه لمثل هذا السلوك ما قبل العقلاني)، يمكن أن تسبب بعض أنواع التوترات ضمن مجتمع في أن يمارس عنفه على ضحايا مُتيسرة قد لا يكون لهم إلا القليل من العلاقة بالمشكلة الأصلية. ومثل هذه الاستجابة نُقِشت، إذا جاز التعبير، في المدونة الثقافية للكثير من المجتمعات، مُعبِّرة عن نفسها في مؤسسات مختلفة توافق مصطلح *إلقاء المسؤولية على الآخرين scapegoating*. وكانت المحرقة مثالاً هائلاً على هذا – لاحظ أن كلمة Holocaust بحد ذاتها مُشتقَّة من سياق التضحية الشعائرية، التي كانت شكلاً رئيسياً للتضحية بالآخر في الثقافات البائدة.

ودون الغوص أعمق في هذه النظرية الآسرة، التي توضح أتمّ التوضيح كيف يصبح الحافز العنيف مؤسسة عنيفة، يمكننا استخدامها بالطريقة التي استخدمنا بها مظاهر أخرى للعنف في هذا الكتاب – يمكننا إيقافها على رأسها. فإذا كان يمكن للطاقة التدميرية أن تُشفَّر وتُؤسَّس، فمن المؤكد أنها يمكن كذلك أن تكون طاقة مبدعة. وهذا ما كان يُفتَرض أن تفعله مُعتزَلات غاندي: «تعتبر المعتزلات أنّ... المجتمع يمكن أن يُشاد على أسس أهيمسا – كما يوضح – وأنه يجري التجارب مع هذه النهاية بتمحيص.»[235]

هذا ما كان في ذهني حين أشرتُ إلى كيفية استجابة جوان بلاك، عندما وُوجِهت بأحد الأفراد المشوّشين في غرفة الطوارئ، بسلوك يحذو حذو نموذج وضع خطوطه الخطباء القدماء لذلك النوع، تقريباً، من الاستجابة العاطفي. وعلى ما يبدو أنّ القدماء، بوتيرة حياتهم البطيئة نسبياً ومؤسساتهم المستقرة، لاحظوا كيف أنّ بعض الأفراد الأذكياء قد أدخلوا السكينة في نفس شخص كان في حالة هياج خطِر، أو البهجة في قلب شخص غائص في الكآبة، وكتبوا حرفياً مخطوطة لمن يحتاج فعل هذا. ذلك ما عاش من أجله غاندي وكينغ وآخرون، ولذا ليس مهماً كم كان عليهم أن يعانوا لإظهار قوة اللاعنف، فبوسعنا إحراز تقدم، وفهم ما كان يتضمنه ذلك، وتعلّم كيفية جعله يعمل على نحو أكثر انتظاماً، وفي النهاية جعله ليس استثناءً شاذاً بل الطريقة لحل النزاعات وعيش الحياة. وبهذا المعنى تعمل الثقافة، كالعلم، عن طريق السرنديبية، مُلاحِظة بعناية أمثلة المعيشة الناجحة ووضعها قيد التداول، وبهذا لن نكون مضطرين إلى تحمّل الفشل.

---

[234] - أول ظهور لنظرية كبش الفداء و "محاكاة العنف" كان بالفرنسية عام 1972، ثم كانت ترجمتها من قبل باتريك غريغوري نقلاً عن كتاب رونيه جيرار العنف والمقدس (*Violence and the Sacred*, Baltimore and London: Johns Hopkins University)، راجع أيضاً لجيرار (*Job, the Victim of His People*, London, Athlone Press, 1987). هذا وينصح جداً قراءة كتاب جيار الأخير كمقدمة سهلة للنقاط الرئيسة المتعلقة بنظرية جيرار الهامة.

[235] - CWMG, Vol. 56, p.163.

ولهذا السبب أنعمنا النظر في المناقشات السابقة، في قلب الجريمة والتمييز العنصري، لرؤية كيف يمكن للاعنف أن يرسل شعاعاً من الضوء حتى في تلك المناطق المظلمة. وفي الحال، سنقوم بالأمر نفسه فيما يتعلق بالحرب. فقد رأينا للتو لحظات إشراق عظيمة تحدث في حالات طوارئ مباغتة، في ذُرى النشاطات، وعلى نحو أكثر أهمية في اللحظات المحدَّدة لأفراد معيّنين. وعرفنا للتو بأننا إذا لم نرغب في الاستمرار بالترنّح من حالة طارئة إلى حالة طارئة تالية، علينا أن ندع أنفسنا نهبط إلى أسفل سلسلة السببية، من تدخلات مدهشة متأخرة، مثل تدخل عائلة ويسر، إلى تدخلات أبكر وأقل رعباً، مثل مدرسة واحة السلام أو نسختها الخاصة التي قام بها إلياس كابور، أو المشاريع الكثيرة لحركة "البحث عن أرضية مشتركة" Search for Common Ground. والأمر الوحيد المطلوب لمثل هذه اللحظات ومثل هذه المشاريع لكي تزدهر هو دعم ثقافي، ويحتل إصلاح وسائل الإعلام مركز الصدارة مثلما تدور حول الشمس المشاريع الشافية الأخرى لبرنامجنا البناء.

إنّ التدخل المبكر، وعلى الخصوص التدخل الأبكر في مؤسسة الثقافة ذاتها، هو ما يجعل البرامج البناءة في المتناول. وكما ذكرتُ، لو عاش كينغ لانتقل أيضاً من المسيرات الاحتجاجية والاعتصامات نحو " التعاون مع الخير" حيث أنه اجتاز الخطوة الأولى الضرورية وهي "اللاتعاون مع الشر". لقد كانت الغريزة في ذلك الحين هناك، حتى في الحملة الأولى التي كان مخططاً لها لدمج شركة حافلات مونتغمري في السياق العام، بل «لتحقيق العدالة من أجل أنفسنا بالإضافة إلى تحقيقها من أجل البيض»[236] لقد انتقل قوسه من اندماج الحافلات إلى ضمان حقوق التصويت إلى خلق فرص اقتصادية؛ فكيف نكمل الدائرة؟

لقد شدّدت على طريقتين، الأولى عن طريق تعهّدنا الشخصي الخاص، ومن ثم عن طريق التغيير المؤسساتي، بدءاً بتلك المؤسسات التي تشكّل قيمنا الأساسية. لماذا لا يعلموننا في المدرسة مطلقاً أنّ للكائن البشري حاجة فطرية للتكامل مع الآخرين ومع الحياة بأسرها، "بقدر موقعه أو موقعها"؟ لماذا لا يعلموننا أبداً أن ليس بوسع أحد العيش على نحو كامل دون أن يدرك أنّ لحياته، أو حياتها، غرضاً أهمّ؟ هل علينا إدارة ظهورنا لحاجاتنا الأعمق ببساطة لأن المُعلنين ليست لديهم طريقة لاستثمارها؟

يمكن اعتبار اللحظة اللاعنفية نوعاً من عيد التجلي، انفجاراً مفاجئاً لطاقة جديدة وغير متوقَّعة. وسواء كان فرداً انحنى على كوب قهوة منتصف الليل أم حشداً ارتقى فجأة إلى نمط أعلى من النشاط، يمكن أسر هذه الطاقة وتطويرها. ويمكن لها، كإصلاح أو مقاومة، أن ترتقي بوعي الكثير، وأن تجعل الاتجاه السائد يختمر لكي يتحول إلى منفعة عظيمة لنا جميعاً.

في هذين الفصلين الأخيرين استكشفنا كيف يمكن أن يُطبَّق اللاعنف على نحو منتظم بالنسبة لمشكلتين ضخمتين، الجريمة التمييز العنصري. وكان موضوعنا المجتمع المُحب؛ وكان نمطنا المفضّل

[236] - King, Jr. Martin Luther. *Stride Toward Freedom*. New York: Harper and Row, 1958, p. 111.

للعمل هو العمل البنّاء، وهكذا سيبقيان طالما نحن ننتقل من مكان إلى آخر لكي نُحكِم الإمساك بـ"سوط الحرب".

الفصل السابع

صورة واضحة للسلام

«إذا استطاعت المقاومة السلبية أن تدحر الكراهية العرقية... فغاندي وزنوج مثل كينغ سيُظهرون للعالم كيف تُدحَر الحرب نفسها.» . دبليو. إي. بي. دوبويس.

بعد حوالي ستة أسابيع على قصف هيروشيما وناغازاكي، اجتمعت مجموعة من العلماء النوويين البارزين في شيكاغو. وكان إنريكو فيرمي هو من استهل ردّ الفعل المتسلسل: "الآن وقد أظهرت القنبلة قوتها المرعبة، البشرية مدعوّة لمواجهة السؤال حول كيفية التعايش مع هذا الواقع". وكان العلماء مدركين بحدّة أنّ التاريخ قد شرع نافذةً لإمكانية نادرة بالنسبة لهم. فمن جهة، كان العالم مصدوماً ومشمئزاً جرّاء الحرب المرعبة، ومن جهة أخرى، هم الذين خلقوا السلاح الذي انتهى إلى أن يكون مملوكاً تقريباً بيد سلطة أشبه بالكهنوتية. ولا أحد آخر كان لديه تماماً السمعة التي يتمتعون بها لتخطيط توجّه للإنسانية يمكن أن يقود إلى السلام. «ومع ذلك – يتذكر غلين سيبورغ – لم تنبثق صورة واضحة لكيفية إنجاز الهدف الذي هو في ذهننا كلنا تقريباً – عالم خالٍ من الأسلحة النووية. لقد كان الأمر كما لو أن بذور سباق التسلح النووي كانت دفينة في الطبيعة البشرية والمؤسسات السياسية.»[237]

إنّ بذور سباق التسلح النووي هي حقاً دفينة في الطبيعة البشرية والمؤسسات السياسية – وكذلك هي بذور السلام الراسخ. والخيارات البشرية، الفردية والجمعية، تقرر أية مجموعة من تلك البذور سوف تزدهر وتسود. وكما رأينا في أغلب الأحيان، لا شيء هناك على الإطلاق في الطبيعة البشرية، بقدر ما هي الطبيعة البشرية معلومة للعلماء والحكماء، الذين سيُحتِّمون أياً من هذه النتائج ستصل إليها الحضارة في نهاية المطاف. وإذا كنا نقصد بـ"الطبيعة" التطلعات الأعمق القابلة للاستكشاف في النفس البشرية والآليات التطورية المُصمَّمة لتطبيق تلك التطلعات، عندها تتكدّس أوراق اللعب، في الحقيقة، بوضوح تام من أجل السلام. وإذا اتجهنا مباشرة في الاتجاه الآخر، فإنها لا تُدعى طبيعة بل نوع من التكيّف الذي يحرفنا عن مصيرنا العادل.

كانت هذه هي الصورة التي لم يرها العلماء، والأمر مفهوم إلى حد ما لأنهم، في حين كانوا رجالاً لامعين في حقلهم، كانت خبرتهم، مهما كان ما قد يعتقده الجمهور، تقريباً ليست بذات علاقة. وكما أشار كينيث بولدينغ، فقد تُرِك حقل القوة التكاملية أرضاً محروثة. فلا أحد – ويقصد، ولا صنف من "الخبراء" نُميّزه راهناً – قام بدراسته الخاصة لتعلّم وتعليم كيفية تخصيب حقل السلام وجني حصاده الغني. فالعلماء

[237]- Seaborg, Glenn T. "Premonitions After the Bombs," *Bulletin of the Atomic Scientists*, 41, no. 11, 1985, p.33.

والناس حسنو النية، ومجموعة شيكاغو من بينهم، كانوا أسرى الرؤية نفسها الضيقة مثل حال بقيتنا، وكانوا يميلون إلى رؤية العالم وإمكانيته من الجانب الظليل – المحزن، المُساق بالطمع، الضيق إعلامياً – وهو الفرق الذي كان يوجّه صورة ما هو مُحتَمل.

أعتقدُ أنّ جورج برنارد شو هو الذي قال إنّ هناك بعض المواضيع التي يمكن لأي أحد تصادفه في الشارع أن يُنوّرك حولها أكثر من الخبراء. والسلام واحد من هذه المواضيع. ففي البحث عن السلام لا يكون لدى "الخبراء"، مثل التقارير "الإخبارية" الرزينة لوسائل الإعلام أو البيانات والتصريحات الرسمية للنخبة التي تصنع سياستنا الخارجية والمحلية، ما يعملونه أكثر من التعمية على حَدْس الفطرة السليمة الذي يمكن أن يضيء الطريق.

لقد ذهبت جائزة نوبل للسلام في العام 1979 إلى الأم تيريزا من كالكوتا. وكان ردّ الفعل العالمي، عدا كونه أساساً أنشودة بهجة، واحدة من شرارات الحدس تلك؛ فقد قال أحد البنغاليين المنتشين في شوارع كالكوتا: «والآن أم البنغال هي أم العالم بأسره». وقبل ثماني سنوات، كان البابا بولس قد شرّف الأم تيريزا بمنحها جائزة البابا الأول جون الثالث والعشرين للسلام، وها هي الآن تُمنَح جائزة نوبل، رغم أنه لم يسبق لها أن لعبت دوراً في مفاوضات أو وقّعت معاهدة أو استخدمت نفوذها للحيلولة دون صراع واسع النطاق. ومع أنّ الرأي العالمي الذي استحسن بجذل منح الجائزة للأم تيريزا، متشاركاً بشكل غير واعٍ بذاك المنطق المُتضمّن، وهو أن الذي يرفع الصورة البشرية من الدرك الأسفل، كما فعلت الأم تيريزا حرفياً في شوارع كالكوتا وحول العالم، يفعل من أجل السلام أكثر من رجال الدولة المماحكين أو الجيوش المُهدِّدة.

وفي الحقيقة، أظهرت الأم تيريزا قوتها على صنع السلام في العام 1982، عندما وصل إلى مسامعها أنّ ملجأ أيتام للأطفال المعوقين في بيروت قد تُرِك لمصيره أثناء قتال ضارٍ، فأعلنت عن عزمها على دخول المدينة لإنقاذ الأطفال. وبالفعل قامت بذلك؛ فثمانية أيام من مجرد حضور الراهبة الضئيلة الحجم، والتي لا تمتلك عملياً أي شيء ولم تصل إلى سلطة رسمية، أعاد تشنج النزاع الهائج، الذي لم تستطع قوات الأمم المتحدة الوسيطة ولا التواجد السوري ولا الجيش الإسرائيلي أن تسيطر عليه، إلى سلام فاتر.

ولذا كانت جائزة نوبل، والاستحسان البهيج للعالم، خيطاً نادراً للحدس المشرق في نسيج التشوّش المحيط بالسلام والحرب. وفي دراما الإنقاذ في بيروت، كمنت إحدى كبرى المهازل في الأزمنة الحديثة. فخصم الأم تيريزا في هذا الصراع، الرجل الذي أمر بإمطار جنوب لبنان بوابل من القنابل والصواريخ، كان رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيغن – وهو الذي مُنِح جائزة نوبل للسلام قبل سنة من منحها للأم تيريزر! ولم تُمنَح الجائزة لبيغن على نحو تهكّمي؛ فقد وقّع رئيس الوزراء الإسرائيلي بيغن والرئيس المصري أنور السادات معاً اتفاقية "سلام" أبطأت مؤقتاً العداء بين إسرائيل ومصر (وكانت الجائزة قد مُنِحت إلى لي دوك ثو وهنري كيسنجر نتيجة إنجاز مماثل في العام 1973). وهذا ما يُدعى "السلام

السلبي"، والذي هو جدلياً أفضل من الحرب الإيجابية، وبهذا المعنى لم تُمنَح الجائزة إلى بيغن والسادات على نحو تهكمي، لكنها بالتأكيد مُنِحت في التشوّش، التشوش بين تعريفين لـ"السلام" هما الآن "سائدان"، كما قال إيمرسون، "في أذهان الكثير من الناس": التشوش بين "سلام سلبي" (على طريقة بيغن à la Begin) وبين "سلام إيجابي" (على طريقة الأم تيريزا à la Mother Teresaug)، بين استراحة متميّزة بغياب الحرب الفيزيائية وبين جزيرة من المجتمع المُحبّ مُغذّاة بحضور الاهتمام التلقائي المتبادل.

وعلى سبيل المصادفة، كان للهجوم الذي أطلقه رئيس الوزراء على لبنان في العام 1981 اسم رمزي هو "سلام الجليل"، المثير للسخرية.

لا أحد سوى روبرت مكنمارا، وزير الدفاع الأمريكي إبان فترة حرب فيتنام، قال: «تستحق الأم تيريزا جائزة نوبل للسلام لأنها تروّج للسلام بأسلوب أكثر جوهرية، بتأكيدها على... الكرامة الإنسانية»[238] لكنّ الأم تيريزا، في خطاب قبولها للجائزة في أوسلو، وبينما كانت تتحدث بما دعته "مِيْسَمها الإنكليزي الخاص"، عرّفت، بدرجة كبيرة من البساطة، الفرق بين نوع سلامها وبين ذلك الذي يروّج له الرؤساء ورؤساء الوزارات: "دُعيتُ لمساعدة الفرد". فالعنف هو على الدوام ضد الفرد؛ فالفرد الإنساني هو الأصل دوماً والشخصية الفردية هي المستفيدة في النهاية من اللاعنف.

وهذا يخلق كل الأفكار الأكثر روعة التي يمكن أن يستخدمها اللاعنف في هذا الفهم الكلاسيكي للحرب، والذي هو الشكل الأوسع نطاقاً للعنف، والذي يكون فيه الفاعلون هم المجموعات الأكبر أو الدول. وعلى أية حال، رغم أنّ نظام الحرب المهيمن يرجع إلى العلاقات الدولية، فالأوضاع الوطنية للعنف البنيوي المستمر، من قبيل سياسات الفصل العنصري والكراهية العرقية والإقصاء، تتشارك مع الكثير من ديناميكيات هذه "الحرب" الكلاسيكية. وآملُ أن يكون بوسع القارئ الإبقاء على هذا التعريف الأوسع في ذهنه لبقية هذا الفصل. لأن الدول والأنظمة الدولية هي التركيبات الإنسانية وبالتالي خاضعة على نحو متساوٍ لقوة اللاعنف.

هل يمكن أن يُستخدَم اللاعنف لصون الدولة بكاملها وأيضاً لبناء البلد؟ هل يمكن لمثل هذه الإمكانية أن تقود إلى بديل لنظام الحرب القائم على توازنات القوة المحض؟ فحتى في حقل السلام نفسه غير الفعال إلى حدّ كبير سيعلن بعض الباحثين أنّ اللاعنف ليس مناسباً لحلّ نزاع دولي: «لم يكن العمل اللاعنفي أبداً *ولن يكون أبداً* ً بديلاً للحرب»[239] (التأكيد من عندي) لكن ذلك الخيط من الحد الذي التقطناه في كالكوتا وتتبعنا أثره في بيروت وأوسلو يبدو أنه يؤدي إلى موافقة. وكما قال دوبويس، إنه يشير إلى أنّ أولئك الذين يرعون "فنون المحبة" مثل كينغ وغاندي والأم تيريزا هم الوحيدون الذين يجلبون السلام إلى العالم؛ وليس أولئك الذين يحجزون الآخرين في وضع توازن غير مستقر للقوة السافرة. وكان دوبويس يتحدث بشك، وحتى بتهكم؛ لكنني سأؤكد كلامه بكل جدية. فبالنسبة لغاندي، كان الأمر واضحاً

[238]- Lazlo, Ervin and Yoo Jong You. *World Encyclopedia of Peace*. Oxford: Pergamon Press; 1986, Vol. 3,p.350
[239]- Steven Huxley, in *Civilian-Based Defense* newsletter for August, 1992, p.4 ().

تماماً: *فقط* اللاعنف يمكنه أن يحل محل العنف البنيوي والحرب: «بوسعي القول بثقة إنّ العالم، إذا كان عليه أن يصل إلى السلام، فاللاعنف هو الوسيلة إلى تلك الخاتمة، وليس هناك من غيرها»[240]

والسبب في أن الطريق إلى السلام بمثل هذا الغموض هو أن معظمنا لا يستطيع الوصول من حدس القلب، الذي نتشارك فيه مع الأم تيريزا، إلى فكرة متماسكة عن كيفية أننا أنفسنا، الذين لا نشاركها نداءها الباطني، يمكننا مع ذلك أن نحذو حذوها. ويعترف السياسيون بالكلام فقط بنوع إسهامها لكن من سيحاول أن ينقل ذلك الاعتراف من الشفاه إلى مكان ما بالقرب من القلب؟ وأقترحُ، بناء على كل ما رأينا أعلاه حول اللاعنف، أنّ السبيل لرؤية "الصورة الواضحة" المطلوبة من قبل الخبراء والعلماء النوويين هو الخطو بعيداً عن الظلال. وهذا يعني، ليس التفكير دوماً بكيفية إيقاف الحرب بقدر ما بكيفية البدء باللاعنف.

لنبدأ: التفكير بالسلام

عندما قادت المغنّية الشعبية المشهورة جوان بايز المجموعة الأولى من المحتجين في قاعة سبرول Sproul Hall في حرم جامعة بيركلي، مُطلِقة ما يُعرَف الآن بحركة حرية الكلام، توقفت للحظة على رأس الدرج الطويل العريض، ثم استدارت نحو الحشد الضخم من الطلاب الذين كانوا مأخوذين بالأهمية التاريخية لدخولهم البناء المحرّم، وقالت بابتسامتها الشهيرة: «لنتذكّر أننا دخلنا بغضب لكن بمحبة في قلوبنا»، وردّدت ما قاله مارتن لوثر كينغ قبلها وما قاله الكثير من النشطاء اللاعنفيين قبلها وبعدها: «سنكون لاعنفيين بالفكر، قولاً وفعلاً». فاللاعنف الحقيقي يأتي من داخلنا، والتحدي يشغلنا جميعاً.

كانت المشكلة، وربما ما زالت، أنه في العام 1964 حتى الذين كانوا يميلون للاتفاق مع السيدة بايز لم تكن لديهم أدنى فكرة عن كيفية أن يكونوا لاعنفيين في الفكر. فتحقيق أي توجيه منظّم بأفكارنا لم يُناقَش إطلاقاً في سلك التعليم، وبالكاد في أي مكان آخر أيضاً في ذلك الوقت. وكان مصطلح التأمل لايزال كلمة جوفاء، أو مُساء فهمها إلى أبعد حدّ، خارج دوائر نادرة جداً. وقد تغير ذلك الوضع لحسن الحظ. والوقت الذي انتهت فيه حركة حرية الكلام، في أقل من سنة، بزغ "العصر الجديد" جنباً إلى جنب مع الأسلوب السياسي الذي أمكنه بطريقة ما العودة إلى قرون التمرد الطلابي التي رَشَحت من خلال ما اعتبرناه ماركسية (لا أحد منا على الإطلاق قرأ ماركس أو لينين، حسب معرفتي، لكننا ناقشنا بحجج مقنعة). ففي المقاهي نفسها، حيث كنا نجلس لنناقش كامو وفانون حول أكواب قهوة صِرفة، كان بعضنا فيما بعد يتحدثون بإثارة عن فيفيكاناندا والبوذية حول أكواب القهوة بالحليب.

---

[240]- Prabhu, R. K., and U. R. Rao. *The Mind of Mahatma Gandhi*. Ahmedabad: Navajivan, p. 458. Cf. CWMG, Vol. 31, p. 482, uttered much earlier (1925):

"وتتزايد القناعة يومياً أن لا سلام بالنسبة للهند، وحتى بالنسبة للعالم، إلاّ عن طريق اللاعنف"

سيفرز الزمن ما هو حقيقي في هذه الطريقة الجديدة في التفكير وما هو تحقيق لرغبة رومانسية. فـ"العصر الجديد" هو ردّ فعل على النزعة المادية، التي تستحق ذلك، لكن الكثير من ردود الأفعال تنتهي بطريقة ما إلى الالتصاق بالعقيدة البالية التي كانت ترفضها. وبالنسبة لي، هناك معيار وحيد لما هو حقيقي وليس رومانسياً حقاً: هل يقدم لنا هذا طريقة للحديث عن العقل وفعل شيء ما بشأنه. ما زال ذلك عسيراً في هذا العصر المادي.

إنّ صنع السلام ليس أكثر ولا أقل من تطبيق قوة الروح على العنف الإنساني في نطاقه الأعظم. ولإظهار كيف يمكن لهذه القوة أن تصبح نظام سلام في العالم، وماذا على العقل أن يفعل حيال ذلك، سأتصوّر ثلاث خطوات من روح صرخة جوان بايز التحشيدية.

مهما يكن مثال "العصر الجديد" قد أنجز، فإنه جعل الأمر أكثر سهولة للحديث عن المشكلة المُربكة للصراعات واسعة النطاق بجعلها، بطريقة ما، أكثر طبيعية لأخذها بعين الاعتبار من ناحية ارتباطها بالوعي. ومهما كان نظام الحرب متّسعاً، ومهما كان معقّداً، فإنه أخيراً يفقد قوته، إذْ أنَّ «الحرب تبدأ في عقول الرجال». وقد تنبأ إيمرسون، منذ زمن طويل، بهذه الحقيقة البدهية لشِرعة اليونيسكو في استغراقه في التفكير في اتفاق كونكورد، والذي أستشهدُ به في أغلب الأحيان: «إن ما بنى مؤسسة الحرب الهائلة هي فكرة حقاً، وفكرة ستفككها أيضاً».[241] فإبان الحرب الباردة، التي تلت ذلك البند المُدوّي لكن المهمل في شِرعة اليونيسكو، كان المؤرخ البريطاني إي. بي. ثومبسون فزِعاً بسبب التعلّق الخطِر بالأسلحة النووية نفسها – وبصورة نبوئية، لأن هذا التسخيف للحرب سيصل إلى الذروة في النزاع في الخليج بعد بضع سنوات. وقد لاحظ، بفتور نوعاً ما، أنّ «العقل الإنساني المشوَّه هو سلاح يوم الدينونة النهائي».[242] وقد قال إيمرسون: «خشب وقرميد وكلس وحجارة تطايرت بأي شكل ملائم، مُذعِنة للفكرة المسيطرة المُتحكِّمة بعقول الكثير من الناس»[243] وفي الوقت الراهن، فولاذ وسيليكون وزجاج ونظائر مُشعّة تتطاير خانعةً، بأشكال أكثر تدميرية. لم يتحسّن تفكيرنا، ولذا أعادتنا "التحسينات" في تقنيتنا إلى خطر مهلك.

وعلى أية حال، كنت سأقترح ممسكاً أكثر عطفاً، وفي النهاية أكثر عملية، على ملاحظة ثومبسون المتجهمة: "إن العقل الإنساني غير المنضبط هو سلاح يوم الدينونة النهائي". فالعقول تصبح مشوَّهة جراء فقدان الانضباط، وتتشكل بالانضباط. وكما قال البوذا: «يسبب العقل غير المنضبط أذىً أعظم بكثير مما يسببه أولئك الذين يكرهونك وكل أعدائك. ويجلب العقل المنضبط جيداً خيراً أعظم وأكثر

---

[241]- Emerson, Ralph Waldo. “War,” quoted in Arthur and Lila Weinberg, editors, *Instead of Violence: Writings by the great advocates of peace and nonviolence throughout history,* New York: Grossman Publishers, 1963, p.379.

[242]- From the essay, “Protest and Survive,” in E.P. Thompson and Dan Smith, editors, *Protest and Survive,* Harmondsworth: Penguin, 1980, p. 52.

[243] - (قول لإمرسون)

مما تجلبه والدتك ووالدك وكل عائلتك.»[244] فالعقل غير المنضبط هو النوع الأكثر خطورة لنزع الشكيمة، وأياً كان الذي يمتلك مثل هذا العقل سيشعر بعدم الأمان مهما كان الموقع الذي يُوضَع فيه (أو تُوضَع فيه)، وسيبثّ عدمَ الأمان إلى كل من حوله، والذي يمكن أن يصبح على مرّ الزمن عدم أمان جماعي، والذي يُعرف بوصفه حرباً.

والطريقة الأكثر فاعلية ومباشرة لضبط العقل – لوضع أيدينا على "الفكرة المسيطرة" المتحكِّمة به – هي التي تحدثتُ عنها في الفصل الثالث: التأمل. فالتأمل – ومجدداً، كما أفهمه – هو "اختيار كيفية الاستجابة للعنف" مراراً وتكراراً، وبشكل منتظم، وإعادة العقل إلى مجرى قناة إيجابية كنتَ أنت قد اخترتها (وفي حالتي، الانتقال الملهم) في كل مرة يبدأ فيها بالضلال. إنّ وثوق صلة اللاعنف بمثل هذا الكفاح هو أنّ تشتت الانتباه لا يتمّ جُزافاً كما نعتقد؛ فإذا خربشت أية فكرة على الورق في محاولة لصرف انتباهك، ستجد أنه حتى تداعيات الأفكار الأكثر براءة ظاهرياً وأكثر وَرَعاً تقودك إلى كمين لا أثر فيه سوى لاثنتين أو ثلاث من تداعيات الأفكار تلك.

"آه، إنه شعر عظيم".

"أتعجّب لماذا لا يدرك ذلك أناس أكثر".

"أنا بارع جداً!"

"لماذا لا تقدّرني جينيفييف حق قدري على وجه الأرض. مثل اليوم الآخر..."

يا إلهي، إننا نذهب إلى هناك مجدداً. فعندما تكون أفكارنا بطيئة وإيجابية (وتميل بطيئة وإيجابية للمجيء سوية، كما تفعل السريعة والسلبية بالضبط)، يكون من السهل نسبياً إبعادها عن المواضيع الأكثر ضجراً – أنفسنا. ويستعيد عقلنا بسرعة استجابيته الأصلية لحاجات الآخرين. والحقيقة هي أننا عندما نتكلم عن عقل غير مُسيطَر لا نكون دقيقين إلى حدّ ما. إنّ العقل الذي لا توجهه محاكمتنا العقلية الأفضل ليس غير مُسيطَر عليه حقاً، فهو مُسيطَر عليه من قبل قوى لا نقبلها. وهكذا يكون التأمل لعبة شدّ حبل دائمة بين محاكمتنا العقلية الأفضل وبين قوى مثل الغضب والخوف والطمع، والتي هي بدورها مُساقة بمبدأ فوضوي أساسي في داخلنا ندعوه الأنا أو شيئاً ما أكثر حيوية. هذه هي "آلة الدينونة" في عقلنا الخاص، وبوسعنا تفكيك هذه الآلة عندما تكتسب محاكمتنا العقلية الأفضل سيطرة تلقائية منظَّمة على الأفكار والصور والمشاعر التي تم إنتاجها في مصنع العقل.

في القرون التي تلت صلب المسيح، اتجه عشرات الآلاف من الرجال والنساء إلى صحراء مصر وتلال سوريا لممارسة ما دعوه "النظام السري". وفيما بعد سيدعونه "صلاة الهدوء" ويمارسونه في أديرة رهبانية منعزلة في كل أنحاء أوروبا، أو في لحظات مُحاطة بالكتمان أثناء الحياة الطبيعية. واليوم، إعادة

[244] - Easwaran, Eknath, translator. *The Dhammapada*. Petaluma, Calif.: Nilgiri Press, 1990., 88.

التعلم من الشرق ما نسيناه من تقاليدنا، ندعوه تأملاً – وللاسم أهمية ضئيلة. وقد أدرك ملايينُ الناس عبر العصور أنّ العقل كما نعرفه هو مشكلة ينبغي حلّها من أجل متطلباتنا الخاصة ومن أجل السلام في العالم.

وهذه طريقة أخرى ساهم فيها الإعلام الجماهيري لترويج العنف. فقد قام دي. دبليو غريفيث، الرائد السينمائي الشهير، بتسريع تغيرات مشهد في بكرة واحدة نموذجية من حوالي دزينة من اللقطات المنفصلة إلى ما يُقدّر بثمانية وستين.[245] إنه الرجل نفسه الذي أنتج أحد أكثر الأفلام تأييداً للعنف في كل الأزمنة، الفيلم سيء السمعة *مولد أمة* (1915)، الذي يُمجِّد كو كلوكس كلان وما رآه غريفيث، كما يدل اسم الفيلم، من أهمية "بناء أمة" تقوم على عنصرية أعضاء لجان الأمن الأهلية للولايات المتحدة. وعبر مشاهدة MTV اليوم ترى نهاية ذلك الطريق.

في التأمل، أنت تتعامل بشكل مباشر مع تلك الصلة الغامضة بين السرعة والتشظّي والعنف. والمفتاح إلى ممارسة التأمل ليس هو فقط المحتوى الإيجابي للانتقال الذي تتأمل فيه، بل جهودك في إبطاء معدّل السرعة التي تمضي من خلالها، إلى أن يجيء اليوم المبارك الذي يتوقف فيه فعلياً التفكير القهري، ومعه كل العنف. هذه هي ذروة صنع السلام – وتجريبه. عندها سنعرف من أجل أنفسنا لماذا أعلن الامبراطور أشوكا أنه ما من شيء أفضل من التأمل لتحقيق التقدم في قانون الحياة.

الجسد، العقل، الروح 1: مناقشة مسيرنا

إلى المدى الذي بوسعنا جعل السلام يحكم أفكارنا، إلى ذلك المدى، سيكون خطابنا وأفعالنا سلاماً نقياً. وعلى أية حال، إتقان هذه العملية هو طريق طويل (حكمي أنا)، والناس يسببون لبعضهم الموت والمعاناة في جميع أنحاء العالم حتى ونحن نتكلم. فما الذي يمكننا عمله *الآن*، بينما نحاول القيام بهذه التغييرات العميقة على العقل، ونضع أسس السلام المضمونة من الأسفل؟

هناك – ونحن من يمهد السبيل إليه – شكل من العمل المباشر الذي يمكن أن يُبطئ أو يوقف زخم نظام الحرب. وهو يصبح جليّاً عندما نتذكر بأن نظام الحرب هذا نموذج كامل، يشمل الفكر والعمل وكل المؤسسات التي تجعله ممكناً لشنّ الحرب. وهناك أيضاً أرضية وسطية هامة بين الفكر وبين العمل حيث يمكن حتى للأفراد أن يتدخلوا من أجل تأثير حسن.

كيف بوسع الكائنات البشرية أن تفعل ببعضها ما شاهدناه في رواندا وكمبوديا ومواضع أخرى للفوضى العالمية؟ الخسارة المطلقة للاحترام هي أحد الأمور، طبعاً. فقد شارك شيرو أزوما في المجازر

[245] - Rogin, Michael P. *Reagan, the Movie and Other Episodes in Political Demonology*. Berkeley: University of California, 1987. p. 192.

ضد المدنيين في نانكينغ. وبعد واحد وستين سنة، لحق به الندم. وقد وضح ببساطة تامة: «كنا قادرين على قتلهم لأننا ازدريناهم».[246]

وأمر آخر هو اللغة. فأدولف إيخمان، خلال مثوله أمام المحكمة في إسرائيل بسبب جرائمه ضد الإنسانية، قال إنه لم يكن صعباً بالنسبة للقادة النازيين ارتكاب مثل هذه الأعمال الوحشية، والفضل للغتهم. ووضحت حنة آرندت أنّ قادة الجستابو كانوا يتلقّون الأوامر لكي يتصلوا ببعضهم البعض عبر شيفرة تلطيفية عجيبة، وبذلك يتوقفون عن التفكير. ولا أحد يتكلم عن القتل، بل عن "حل نهائي" و"إجلاء" و"معالجة خاصة".

لم يكن التأثير الجوهري لنظام اللغة هذا هو إبقاء هؤلاء الناس غافلين عما يفعلونه، بل لمنعهم عن مساواته بفهمهم "الطبيعي" القديم للقتل والأكاذيب... فقابلية إيخمان على الإمساك بالكلمات والعبارات، متحدة مع عدم أهليته للكلام العادي، جعلته بالطبع موضوعاً مثالياً لـ "قواعد اللغة" [هذه].[247]

من السهل على نحو مُضلِّل حدوث هذا. فإذا نظرنا إلى الوراء، إلى الحرب الباردة التي يمكن أن تعطينا شعوراً غريباً من الإرباك لرؤية أناس عاديين مثلك ومثلي يتفكّرون بابتهاج في إبادة كوكب الأرض، وكيف فكرنا وتكلمنا عن ذلك. لم يكن زمن الديمقراطية (وليست أبداً أوقات التوتر والهيستيريا)، بل زمن قبضت فيه نخبة صغيرة على طريقة تفكيرنا، حيث بدت هذه النخبة مصممة على تحريك الأمور نحو المزيد فالمزيد من القلق والحرب. وقد عثر بعض من علمائنا، ممن كانوا يبحثون عن مخرج من هذه الحالة غير السويّة، على فكرة دراسة لغة حديث الحرب الباردة. وربما كان بوسعنا فهم شيء ما عن كيفية دخولنا في تلك الحالة المجنونة من النظر إلى الأمور ومساعدتهم، ولكي يفهم "مثقفو الدفاع" أيضاً.

كانت النظرة مُثمرة. ويمكن أن يكون صعباً على نحو خاص كسب شخص ما معارض لنا من أجل تغيير تفكيره. واللحظة اللاعنفية يمكن أن تلجأ إلى هذه الحيلة؛ لكننا نعرف كم هي نادرة *تلك* اللحظة. لكن عن طريق النظر إلى اللغة المجازية والاستعارات والفوارق الدقيقة، والاقتراحات التي يتكلم ويكتب عنها هؤلاء الناس، وعن طريق وضع تلك السمة من لغتهم تحت مجهر العقل، يمكننا المساعدة على الإظهار لهم – وللجمهور العام – كيف أنهم كانوا يخدعون أنفسهم. وهي، على أية حال، طريقة بنّاءة أكثر ببساطة من ازدراء أولئك الذين يخوضون مناقشات لا تنتهي عن القوة الانفجارية الميغاطنّية و"قذف الأوزان"، أو عن محاولة التحدث معهم عن "المبادئ الأخلاقية لسباق التسلح"، والتي لن تستدعي إلا اللامبالاة، والتي ربما نستحقها. فعندما تجعل الآخرين يشعرون بالإساءة، فهذا سيضمن فقط توقفهم عن الاستماع من أجل حماية ضميرهم المُعذَّب. فحيثما يُواجَه الناس بحقيقة أنّ سلوكهم لا ينسجم مع

[246] - quoted in the *San Francisco Chronicle*, August 18th, 1998, p. A 11.
[247] - Arendt, Hannah.. Eichmann in Jerusalem: A Report on the Banality of Evil, New York: Penguin Books, 1987, pp. 85f.

أقوالهم، «تفترض نظرية التنافر الإدراكي أنهم يغيرون اعتقاداتهم لكي تكون مُتّسقة مع سلوكهم»، وليس الطريق الآخر.[248]

لذا بدأت مجموعتنا في استكشاف عالم اللغة والاستعارة، حيث كنا نأمل إغراء مجتمع الدفاع بالمشاركة في حوار بناء، وحيث – أريد الآن أن أضيف – يمكننا جميعاً القيام بعمل بنّاء ما اليوم. وسواء كنا نحاول بشكل منتظم، أم لا نحاول، السيطرة على *عملية* تفكيرنا، أعني من خلال التأمل، بوسعنا أن نولي انتباهاً حذراً لمحتواه.

فماذا كان يشبه ذلك المحتوى في عهد الحرب الباردة؟ في مقالة مؤثرة بعنوان "الجنس والموت في العالم العقلاني لمثقفي الدفاع"، سبقت العالمة النفسانية كارول كوهِن غيرها. فبعد قضاء أسبوعين في حلقة دراسية مع "مثقفي الدفاع" المدنيين (توهّمت نفسها أنها "جاسوسة نسوية في بيت الموت")، ألقت كوهِن بعض الضوء المرعب نوعاً ما على الطريقة التي كان مجتمع النخبة هذا يشكّل فيها المرأة واللامنتمي السياسي، بلغة شاذة واخزة مع استعارات متشابكة من الإثارة الجنسية والعنف. "نكاح" الأسلحة؛ البعض يُدعى "slick-ems"؛ إنهم يحاولون إنجاز "اختراق عميق". وكانت إحدى الأفكار النمطية عن هؤلاء الرجال هي أنهم كانوا عقلانيين جداً، بحساباتهم الباردة لـ "الأموات بالميغا" والعبارات التلطيفية الباعثة على الرعشة التي لا تحصى مثل "ضربات نظيفة جراحياً" و"هجمات القيم المضادة"؛ لكنهم كانوا على نحو مهم بعيدين عن العقلاني. فمع أنّ حياة كل منا في الميزان، كانوا يناشدون الجنس والعنف لخوض معركة فاصلة.

لقد ركزت دراسة كوهن الهامة على القضية الأساسية للنوع الاجتماعي (gender) والمفهوم السائد للذكورة المُعزَّز في ثقافتنا المعاصرة، لكن لعملها نتائج أوسع حتى. فاللغة هي قبضة محكمة على العقل. وضمن فجوات لغتنا الخاصة يمكننا غالباً تشفير المناقشات – وبالتالي إخفاؤها إلى حد ما – تلك المناقشات التي لا نريد توضيحها بلا لبس. فاللغة الحديثة يتخلّلها العدوان إلى حد أننا لم نعد نلاحظ أننا نستخدم لغة النزاع، حتى ونحن نعمل أجل السلام.

توزع اليونيسكو حقائب ظهر لمؤسسات هي جزء من شبكتها والتي هي حوالي 4600 مدرسة في 147 بلداً. ويمكن للمعلمين والمربين إضافة مادة *تستهدف* احتياجات معينة للمنطقة أو المجتمع...[249] (التأكيد من عندي)

أوه، ياعزيزي، "استهداف" مواد السلام في المدارس!" لكننا جميعاً نقوم بذلك عندما نقول: "هذا المشروع موجَّه إلى شباب المدينة الداخلية"، بدلاً من "مُصمَّم من أجلهم"، أو نقول إننا سوف "نؤثّر" على شيء ما بدلاً من القول أنّ لنا تأثيراً عليه (اشتقاق فعل من اسم، علاوة على ذلك)، أو عندما نقول إنّ

[248] - Cf. Mahoney, L. and Eguren L.. *Unarmed Bodyguards: International Accompaniment for the Protection of Human Rights*. West Hartford, Conn.: Kumarian, 1997, p. 36.
[249] - Cf. Mahoney, L. and Eguren L.. *Unarmed Bodyguards: International Accompaniment for the Protection of Human Rights*. West Hartford, Conn.: Kumarian, 1997, p. 36.

شيئاً ما هو "تنافسي" في حين نعني أنه جيد. وإن كانت مُلاحَظة أم لا، فهذه التعابير – والتضمينات خلفها – تُدوَّن في وعينا. وإن لم تُدوَّن، فلن يكون هناك مثل هذا الموصوف شعراً أو كإعلان.

قد تفكر، بشيء من الإنصاف، أنّ الكلمات والمجازات التي نناقشها هنا هي من الضآلة بحيث لا تسمّى عنيفة لكن تأثير مثل هذا الكلام ليس بالغ الصغر. أتذكر أنه ذات مرة في السبعينات، أُوقف ثوري إيرلندي في هذه البلاد، وأراد البريطانيون تسليمهم إياه؛ فهل يجب أن نسلّمه؟ الموت أو الحياة هما حصيلة هذا السؤال، على الأقل بقدر ما كانت الصحافة مهتمة، فهو متوقِّف على ما إذا كان هذا الشخص "مقاتلاً في سبيل الحرية" أم "إرهابياً" – هذه الكلمات بالغة الاستقطاب. وفي الواقع، كان شخصاً يستخدم العنف للحصول على ما كان يبغي. وكان يمكننا بالتأكيد الحديث عما يجب عمله مع مثل هذا الشخص، لكن إمكانية مثل هذه المناقشة اختفت وراء مناقشة الفكرة الشائعة المُعرِّفة له: هذا هو التجريد من الإنسانية.

وعلى أية حال، عندما نذهب من لصاقات كهذه إلى المجازات والاستعارات في اللغة العادية، نرى حقاً قوة الكلمات على التركيب وفي الوقت نفسه على الحجب. تفكّر في هذا الانتقال المُلفت من مقابلة مع الجنرال أوسكار هامبيرتو ميجيا، الديكتاتور العسكري في غواتيمالا، الذي وصف حملته ضد دجال العصابات في الثمانينات: «إنه أمر لافت للنظر بغرابته، لكنّ السكان يدعمون رجال العصابات أكثر من دعمهم لجيشهم. لا أعرف لماذا. لقد كنا نقوم بواجبنا فحسب. نحن لم *نبدأ* الحرب. لكن السكان كانوا الماء ورجال العصابات كانوا السمك. وأدركنا أنه من أجل قتل السمك كان لابد أن نُصرِّف الماء. كان علينا جذب السكان الأصليين إلى جانب واحد، ولهذا السبب أنشأنا نظام الحرس المدني.»[250]

كان رجال العصابات السمك. تلك طريقة لإمداد شركات الأغذية بالكائنات البشرية!

لكن ما حدث للسكان الأصليين هو أسوأ في هذا الخيال التصوري؛ إنهم ماء، يعني ليسوا حتى حيوانات. كانوا هامدين وسلبيين (مثل الجيش، الذي "كان لا بد له" من طردهم)، دون أن يكون لهم وثيق صلة بذلك ماعدا كونهم عقبة أمام قتل "السمك". ولذا فإنّ الحملات الأقسى للقرن العشرين القاسي، التي اختُزِل فيها الناس بأكملهم إلى كائنات حية في عالم من الإرهاب، أصبحت سهلة، بالطريقة نفسها التي أصبح فيها على أدولف إيخمان أن يكون العقل الموجِّه لذبح عشرات الآلاف من البشر. أصبحت سهلة عندما تخيّل الجناة أنهم لم يكونوا يقتلون ويدمرون. لقد كانوا "يجذبون السكان الأصليين إلى جانب واحد" فحسب، أو كما نقول في الحرب والجريمة اليوم "إخراجهم". يمكنني تقريباً سماع كلمات مايك ماكولوغ، مدير المعهد الوطني للبحث في الرعاية الصحية: "المجاز هو عربة رئيسية من أجل زيادة الغضب".[251]

---

[250] - Mahoney and Eguren, op. cit., p. 32.

للسخرية، أنا أعتقد أن هذه الصور جاءت من تشي غيفارا نقلاً عن ماو زي دونغ.

[251]- Quoted in the *Utne Reader* for March-April 1997, p. 71. Cf. McCullough's book, *To Forgive is Human*, InterVarsity Press, 1997.

للصدفة، بدأ القول كما يلي "تقول النظرية القديمة أنه إن كنت غاضباً فأنت بحاجة للتعبير عن غضبك. لكن التعبير اليوم يجعله أسوأ وأكثر تعبيراً..."

يمكننا جعل الناس يتوقفون عن استعمال الصور البلاغية والاستعارات بالإجمال – باستثناء التي نجد أنفسنا غير قادرين على الكلام، أو حتى على التفكير بشكل جيد، من دونها. فاللغة تقوم على الاستعارة بالكامل؛ حتى كلمة *استعارة* هي استعارة، كون معنى التعبير اليوناني "يرحِّل" (أي من أحد الإطارات المرجعية، أحد المعاني، إلى آخر). وبالأحرى، تُظهر هذه الأمثلة أنّ من الضروري أن نكون حذرين في كيفية اشتقاق الاستعارات وخلق الصور البلاغية، خصوصاً فيما يتعلق بالناس. وبالضبط كما جعلنا أنفسنا حسّاسين تجاه الحاجة إلى مراقبة لغتنا التقليدية حول قضايا العرق والنوع الاجتماعي (gender) إلخ، يمكننا جعل أنفسنا حسّاسين تجاه قوة اللغة على وضع قناع للعنف والترويج له عموماً.[252]

لقد أظهرت كارولين ميركانت في كتابها المدهش، *موت الطبيعة*، أنّ الأسطورة الموجِّهة لثقافتنا تحدِّد بشكل عميق كيفية رؤيتنا للأشياء من حولنا. وبتغيير الصورة التحتية التقليدية للأرض كأم إلى شيء خامد، العملية التي تدعوها ميركانت عن حق "نزع صفة القداسة"، دمر أسلافنا القريبون إجراءً وقائياً ضد سلب بيئتهم الخاصة، شاقّين طريقاً إلى الدمار الوشيك للكوكب، والذي يقودنا الآن.

لقد قلتُ "بتغيير"، لكن من ينجز فعلياً هذا التغيير؟ ففي حالة تغيّر ثقافي ضخم مثل هذا، تغيّر يستمر تحت سطح وعينا، من الصعب تعيين من يغير اللغة التي تطوقنا ويجعل من مثل هذا التغير محتملاً. هل نقوم بهذا التغيير كلنا سوية؛ هل نتبع قادة معينين، والذين ربما هم أنفسهم بالكاد يكونون واعين لما يقومون به؟ يبدو أن الصور المجازية قادرة على التغير بنفسها فحسب لكن هذا، بالطبع، مستحيل. في عملية الثقافة المضلِّلة هذه يصبح كل متكلّم ذا أهمية. وهذا يعني أنت وأنا.

إعادة تعلّم التحدث – وهذا هزل بقدر ما هي إعادة تعلم المشي أو الأكل. ولهذا السبب افتتح جيمس أوكونور أكاديمية Cuss Control في شيكاغو وكتب: *الكتاب الكامل حول كيفية كبح سبب شقائك*، لأن الناس إذا استطاعوا تعلم الاتصال بشكل أفضل، كما يقول بحق، سيتعلمون أيضاً التغلب على عقبات الحياة بسهولة أكبر، وبالتالي الاتجاه مباشرة إلى عنف أقل.[253] وازدياد سبب الشقاء مُكيَّف مع هبوط المثالية والرحمة؛ لكنّ هذا جزء من القصة فقط. فعلينا بجهد معاودة زيارة العادات القيمة وجعل أنفسنا واعين للعديد من الأمور التي هي آلية: هل نستعمل العبارات التلطيفية كمخدّر، هل نحن غائصون في "تسخيف تقني" يحل محل تفكيرنا بخصوص الحرب، هل استسلمنا إلى «الميل إلى اعتبار الآخرين أدنى من البشر» والذي يحوّل الناس أولاً إلى رجال عصابات وتالياً إلى سمك – يُزيل الناس بعيداً عن الأنظار بالحطّ منهم إلى لصاقات وأخيراً إلى أغراض؟

---

[252] - لقد حاز هذا المجال على ما يستحقه من الاهتمام. عد مثلاً إلى جورج لاكوف ومارك جونسون في *Metaphors We Live By* (University of Chicago, 1980) ، وخاصة في كتاب لاكوف " Metaphor and War حيث استخدم نظام الاستعارة هذا من أجل تبرير حرب الخليج " عام 1991، يمكن الحصول على نسخة من هذا من العنوان lakoff@cogsci.berkeley.edu

[253] - Sampson, Ovetta.. “Curse of the Word,” *Santa Rosa Press Democrat,* May 16, 2000, pp.D1f.

إن رعاية "خطاب حذِر" أمر مزعج ومربك وسمج اجتماعياً – ويستحق ذلك بلا ريب. وهناك شعر شهير في البهاغافاد جيتا يصف النوع الأسمى للسعادة، والذي ينطبق هنا: "ما هو سمّ في بداية الأمر لكنه يتحول إلى رحيق في النهاية." [254] حسناً، "رحيق"، قد يكون فيه بعض المبالغة، لكن إذا كانت تجربتي الخاصة نموذجية، فإننا نستمتع بالأصالة والصلابة عندما نبدأ بإسقاط التلطيفية المضلِّلة والتقنيات المراوِغة والأفكار المنمطة المُجرِّدة للإنسانية – إنه شعور بالارتياح.

إنّ تسمية الأشياء *كما هي عليه*، على نحو مُدقِّق، هو شكل من الساتياغراها – التشبّث بالحقيقة. فتحت كل تكيّفه، ما يزال العقل الإنساني يرفض العنف أصلاً؛ وقد رأينا دليلاً على هذا في إيتيمولوجيا (اشتقاق) كلمة *العنف* ذاتها، في العلم السلوكي (عندما يبحث عن مثل هذا الدليل)، وفي عدد كبير من الأمثلة التاريخية. فهناك ما يكفي من الرفض الفطري للعنف في داخل شخص يمكن للساتياغراها غالباً العمل معه بجعل العنف وضعاً مرئياً على نحو واضح.

إبان الحرب الباردة، كان السيف الذي يستخدمه العنف ضد الحقيقة في الكلام يقطع بطريقتين. فالأحياء كانوا يُجرَّدون من إنسانيتهم (أصبحت المدن "أهدافاً"، وأصبحت الكوارث بنوداً إحصائية)، وكانت المواضيع غير الحيّة تُستثمَر بشكل صنعي في حياة مُستعارة. فكِّر بما يعنيه أن تقول "حصاد غني" لـ "حالات القتل" النووي عندما تكون تتحدث عن تدمير صواريخ معادية (موضوعة في "ملاجئ")؛ وعندما تتصادم الصواريخ "الصديقة" يُسمّى ذلك "قتل الأخوة". فكِّر بالمعنى المُتضمَّن للقنابل "الذكية". هذه هي لغة الحياة – وما تصفه فعلياً هو الموت المؤكد فحسب.

قال مارتن لوثر كينغ: «لدينا صواريخ موجَّهة ورجال ضالّون»[255] فالنزعة المادية، بهذه الطريقة، مرتبطة أساساً بالعنف. فهي تسمح لنا جميعاً بالانزلاق بسهولة إلى العنف العقلي في دعوة المدن "أهدافاً" وتسمية الصواريخ كما لو أنّ لها شخصيات (لُقِّبت القنبلتين الذريتين اللتين استخدمتا في الحرب: "الولد الصغير" و"الرجل السمين"). علينا أحياناً عبادة شيء ما، كما ذكّرنا ديستويفسكي، وهذه إحدى السمات المُخلِّصة للكائن البشري. لكن في ظلّ سحر العنف، يمكن أن ينتهي بنا الأمر إلى وضع تلك العبادة في غير موضعها. فلكي تتواصل الحرب، قمنا بتغطية القداسة أو، إذا كنت تفضّل، القيمة الأسمى للحياة، بعباءة النكران، ، ومن ثم نجد أنّ بعضاً منا قد تحولوا وتخيلوا عبثاً أنّ الحياة تكمن في الآلات الخامدة – في آلات الموت، في الحقيقة. لقد أنكرنا الحياة وعبدنا الموت؛ فهل سيكون لكلمة *كفر* أيضاً وقعاً قوياً بالنسبة لهذا الخطأ؟

في يوغسلافيا السابقة أُسيء استخدام اللغة، والتي هي طريقة الاتصال بين الناس، من قبل السياسيين وغالباً أيضاً من قبل الممثلين الدينيين باتجاه الانقسام. فـ"الكراهية" هي كلمة تُقسِّم حقاً، وربما بقوة أكبر من "التعصب"، على سبيل المثال، ولا تدعو إلى التغيير أو التلطيف. وغالباً بسبب تحفيز

---

[254] - Bhagavad Gita, 18.37.

[255]- James M. Washington, editor, *Testament of Hope,* San Francisco: Harper & Row, 1986, p. 211.

القوة، يستخدم الناطقون الرسميون العامون ووسائل الإعلام وآخرون هذه الكلمات، ليس بالضرورة بدافع الاقتناع العميق، بل لكسب أموالهم. فإذا قبلنا بالكراهية في لغتنا، فإننا نقبل بها كواقع في مجتمعاتنا. وإذا سمحنا للكراهية بالسيطرة على الفضاء العام، فسوف تنشأ الأجيال معها وتكون مُتجسِّدة في تلك الشروط. وفي الحقيقة، سنخلق واقعاً من الكراهية والانقسام التام؛ فهل ترى الخطر الكامن للغة؟

وها هو أحد الأمثلة على أهمية اللغة والمجاز قبل أن ننتقل من السلام في الفكر والكلمة إلى السلام في العمل. بيل كينيدي هو معلّم روحي (guru) مالي أمريكي (فكّر *بتلك* الاستعارة للحظة!) ينظّم حلقات دراسية ناجحة جداً للأغنياء حول كيفية أن يصبحوا أغنياء جداً. وهو رجل من النوع الصريح، يحب الإشارة إلى برنامجه بلقب غريب نوعاً ما وملفت للانتباه.

«لقد توصلّت إلى قرار بأن "كلية الحرب" هي اسم مناسب... فأية استعارة أفضل من كلمة الحرب بالنسبة لمعركة الإنجاز لكل شخص يجب عليه أن يشنّها من أجل البقاء... وسط المعارك بالأسلحة النارية المالية التي هي أكيدة في اتباعها الصدامات الحتمية للتسعينات.»[256]

لا يمكن أن تمضي الداروينية أبعد من ذلك؛ فالحياة برمّتها معركة، وفي الحقيقة حرب. والإنجاز البشري، كلا، البقاء البشري، هو حول تكديس المزيد من المال أكثر من الآخرين. فالاستثمار ليس مقترح "فوز كلا الطرفين"، يخبرنا السيد كينيدي برقّة، ولذا جاء للدراسة في هذه الكلية البارزة حقاً... قادة عسكريون مشهورون، وعلماء مُهلَّل لهم، واقتصاديون، وصحفيون، ومؤرخون، وأجانب من مقامات رفيعة... وزارة الدفاع ووكالة الاستخبارات المركزية»[257] وبالمناسبة، فقط الناس الذين يملكون مليون دولار يمكنهم تقديم طلب إلى كلية حرب كينيدي، لذا لا تكن في عجلة من أمرك وتتخلص من بزتك النظامية. وأنا أتساءل ماذا قد تقول أُمّ في رفاهية أو مزارع أصلي في تشياباس عن هذا التعريف لـ"البقاء".

وبالرغم من كل المنافع الجمة لاقتصاد السوق، فإنني، بوصفي معلماً، وجدت أن تكريس التعليم من أجل صناعة المال، والذي هو الآن المعيار، مؤلم جداً إلى حد أنه إحدى القضايا التي لا أثق بنفسي في الخوض فيها. فالعمل من أجل المال هو جزء طبيعي من الحياة بالنسبة لنا جميعاً تقريباً، والمكافأة لقاء العمل يمكن أن تكون طريقة في التفاعل الاجتماعي الصحي. لكن استعمال كينيدي لكلمتي *كلية وكلية* – هذه الفكرة التي على "التعليم" أن يساعد فيها الأفراد على قتال بعضهم البعض من أجل المال – إنها صورة متطرفة للألفية الجديدة.

وتثير " كلية الحرب" سؤالاً آخر عميقاً جداً: «ماذا فعلت الحرب والعدوان الجنسي والأعمال والرياضات والسياسات والعدالة الجنائية عموماً؟ كنشاطات، لا شيء تقريباً؛ وكتعبيرات عن حافز للتنافس، كل شيء عملياً. فإذا كنتَ تفكر بالحياة على هذه الشاكلة، يمكن لها جميعاً تخفَّض إلى أشكال

[256] - Advertisement for the U.S. Monetary War College, *Insight* (June 9, 1990), p. 27.
[257] - Ibid., p. XX.

من التنافس، تنتهي جميعها في نموذج الندرة والانقسام، كمجموع صفري، مقترح فوز/خسارة. لكن لماذا تتوقف هناك؟ فبعد أن قمتَ بهذا بالنسبة لكل شيء يمكن أن يُفسَّر إلى حدّ معقول كمعركة، فكل شيء لديه على الأقل عنصر الأخذ والعطاء، استمر في جعل *كل شيء* معركة، حتى العلاقات بين الطبيب والمريض، وبين الطالب والمعلم، وبالطبع، بين الزوج والزوجة. وأتذكّر حالة طلاق غطّتها الصحف منذ بضع سنوات، وضح حينها الزوج أنه كان يقاتل زوجته السابقة من أجل الوصاية على الأطفال لأن «عليّ أن أحصل على *شيء ما* من هذه العلاقة»

وهذه طريقة أخرى لفعالية مقدار معين من السيطرة على كلامنا. ولأننا اليوم نميل إلى التفكير بكل حدث رياضي، وكل قرار عمل، وكل تبادل دبلوماسي، وأكثر فأكثر بكل علاقة شخصية من ناحية "الفوز"، أصبحنا غير مؤهلين لرؤية أنهم يمكن أن يكونوا، بدلاً من ذلك، روابطَ في شبكة المجتمع المُحبّ والسلام. ففي العام 1994، أثناء السباق على منصب الحاكم في كاليفورنيا سُئل عضو مجلس الشيوخ توم هايدن عما يفكر فيه حول خصمه، كاثلين براون. فباغت الصحفي بقوله ما هو مؤثر: «إنها ليست خصمي؛ إنها صديقتي. ونحن نتسابق من أجل منصب الحاكم. إنها ليست رياضة» بضع ملاحظات أكثر مثل تلك ويمكننا أن نضع حدّاً للسياسة كما نعرفها، وأن نبدأ بالعودة إلى السياسة كما قُصِد أن تكون – عملية صناعة قرار ديمقراطية، وليست ميدان صراع على السلطة.

وبينما معظمنا ليسوا من مثقفي الدفاع أو السياسيين، فنحن كلنا نساهم بثبات في بيئة عقلية بنصوص فرعية مختلفة من الحب والكراهية التي لدينا مقياس سيطرة معين عليها. فهذا العالم من الفكر والكلام هو مكان هادئ، لكنه حقيقي تماماً، لبناء ثقافة سلام. وهو مفتوح للجميع. وشخصياً، لا أحاول مطلقاً أن أقول عن شيء ما إنه "تنافسي" في حين اقصد أنه جيد، ولا "استهداف" أي أحد حين أقصد أنني أقوم بشيء ما من أجله، ولا أقول مطلقاً "تأثير" بدلاً من أثّر على. ولا أقول حتى إنّ مطعماً معيناً يُقدم باستا (معكرونة) "أموت من أجلها". وعندما يقول لي أحد: «إنّ هذا سيساعد الاقتصاد على النمو، أجيب بهدوء: "أنت تقصد "على التوسّع"، أليس كذلك؟ فوحدها الأشياء الحية تنمو، صحيح؟» أنا أجعل من نفسي بغيضاً جداً لكنني أفعل هذا لأنّ الأفكار والصور والمشاعر التي تخطر ببالي تخلق البيئة الحميمة التي أعيش فيها، وهي تحدد مساهمتي في المناخ العقلي للعالم الذي يحيط بي. فالأمر يستحق. حتى عندما أفكر أقل بكثير مما أتكلم، أحاول أن أكون حذراً بشأن التجريد من الإنسانية ورمي الصور كما أنا بخصوص التحيّز الجنسي.

لقد حققت لنا الناشطات النسويات بعض التقدم في تغيير اللغة المتحيزة الجنس. ويجب أن نتسلم ذلك المقود، وأن نمضي أبعد إلى القضية التي هي محط اهتمام كل واحد منا ككائنات بشرية. فقبل أيام، كنت في مخزن ضخم للمعدات، واقفاً وراء زبون يبدو أنه كان يبحث عن نوع معين من المفصلات. وعندما أخبره الموظف إنه ليس متوفراً لديهم قال بالعنف العادي اليومي: "أووه، أنا أكرهك!". وصدف أني كنت أنظر إلى الموظف، فرأيته يجفل. هذه الأمور ذات أهمية. وعلى المدى الطويل، هي ذات أهمية

أكثر بكثير من المفصلات. ومهما تحدثنا عنها، فإننا تحت السطح نواصل حواراً ثابتاً مع بعضنا البعض، وعن بعضنا البعض، عن علاقاتنا. فعندما نقول: "أكرهك"، بدلاً من "ذلك سيء جداً"، نحن نرسل رسالة ضارة في حين أنه كان بوسعنا بسهولة إرسال رسالة محايدة، وربما شافية. وفوق ذلك، بدلاً من نشر "الغضب" و"الكراهية" و"الخوف"، لماذا لا نحاول نشر اللاغضب والتسامح والانفتاح – يعني، المحبة؟ وبدلاً من السقوط في عادة القسَم، يمكننا أن نقرر الابتسام، والتزام الهدوء، وقول شيء ما ملطِّف. فربما سيساعد هذا الشخص الذي يسمعك، لكنه بالتأكيد سيساعدك على الارتياح أيضاً. ومن ثم ذات يوم قد نستيقظ ونجد أنه بدلاً من الحرب والتوتر والعنف، حصلنا على السلم والفهم أخيراً.

إنّ تأثير كل فكرة أو كلمة فردية ضئيل جداً، نعم؛ لكن حين تُؤخذ معاً، يكون تأثير أفكارنا وصورنا ليس كذلك. وعندما يصبح نوع معين من التفكير والصور عادة، يصبح رؤيةً للعالم. فالأمر يتعلق بما نقول وبالشروط التي نفكر: فبقدر ما يمضي العنف/اللاعنف، يهمّ الأمر بشكل حاسم. وسواء كنا نشير إلى مدينة كـ"هدف" أو كمجتمع ناشط جداً من الكائنات البشرية فإن أهمية ذلك شبيهة بدعوتنا لامرأة في الثلاثين من عمرها بالـ"فتاة" أو بالغاً أسود بالـ"صبي". والفرق الوحيد هو، في الحالة الأخيرة، أننا نعرف من الذي نؤذيه، ولذا حاولنا التوقف.

إنّ عادة الحقيقة أيضاً مُشكَّلة بجهود صغيرة ومكررة وممكن عملها – فقط في هذه الحالة يجب أن تكون جهوداً *واعية* في بادئ الأمر، لأن مجمل بيئة الكلام التي نعيش فيها عوجاء بطريقة خاطئة. وأنا لا أتردد في دعوة مثل هذه الجهود المتواضعة "برنامجاً بناء". فهي مثل دولاب الغزل، غير مُجابِهة، وغير سياسية على ما يبدو. فبالنسبة للحديث، وفي النهاية للتفكير، كما لو أن الحياة كانت مقدسة والعلاقات الإنسانية كانت تهمّ – ذلك سيكون فعالاً جداً. لأنه، بعد كل شيء، هو الحقيقي.

الفصل الثامن

إخماد النار بواسطة الماء

«ربما توضّح لي دراسة مُعمَّقة لماضي الرجل الكثير مما يبدو عصيّاً على التفسير من حاضره المضطرب. وقد تتواجد سُبل خلاص هناك بالفعل، كامنة في التاريخ، غير معلنة، يخفيها تجار الحروب بحرص شديد، تنتظر اكتشافها من جديد كي يقرّ بها بحماس كل رجال الفكر ونسائه»

– فيرا بريتين–

الجسد، العقل، الروح: جيوش السلام

في أوائل الثمانينيات، التقيت بإرنستو كاردينال في بيركلي، وكان آنذاك وزيراً للثقافة في الحكومة الساندينية في نيكاراغوا، ولم يكن نصيراً للاعنف بالتأكيد. كنت متلهفاً لسؤاله عما إذا كانت جماعات "شاهد على السلام Witness for Peace" في بلده قد ساعدت، بشكل ما، على ردع هجمات "الكونترا". وكما تذكرون، هي الجماعات التي تعرّف فيها متطوعون مصادفة، كصديقتي سو سيفرين، على التأثير

الوقائي لتواجد غير مسلح. لكني كنت في الوقت نفسه أشعر بشيء من القلق، لأنني كنت أعرف أنّ اللاعنف ليس من ضمن اهتماماته. وما كان لي أن أشعر بذلك؛ فقد قال لي بحماس كبير: «نحن بحاجة للمزيد من هذه الجماعات وعلى وجه السرعة، فحيثما كانوا يتواجدون لم يكن للعنف من وجود!»

فيما بعد، وبينما كان يتحدث من خلال مترجم إلى مجموعة صغيرة تجمعت كي تستمع إليه في نادي الكلية، كرّر ما أخبرني به لتوه على انفراد: حيثما توجهت هذه الجماعات العالمية الصغيرة لا تكون هناك هجمات، لا يكون هناك عنف. عندها قام مترجمه دون أن يعي ذلك "بتصحيح" بسيط . فمن الواضح أنه لكون المترجم لم يصدّق ما سمعه قال: "... لم يكن للعنف وجود *تقريباً*"، لكن كاردينال تلقّف ذلك في الحال، وضرب بقبضته على الطاولة قائلا: "أنا قلت: لا يكون هناك عنف *على الإطلاق*!" تهلل وجهي فرحاً. لم يكن كاردينال مؤمناً باللاعنف كمبدأ، لكنه كان يتّصف بما يكفي من الشجاعة كي يصدق ما رأى، لا أن "يطبّعه" فيعتبره غير موجوداً. هذا هو كل ما نحتاجه كي نرى أن حدسنا كان صحيحاً: أن تتضمن ذخيرة اللاعنف بالفعل ترياقاً ضد الحرب.

ما لم يكن يعرفه كاردينال – وحتى أنا لم أكن مدركاً إياه تماماً في ذلك الوقت – هو أن فكرة "جيوش السلام"، أي المتطوعين المدربين على اللاعنف عوضاً عن قوة التهديد والقادرين على التدخل في النزاعات الواسعة النطاق، كان قد مضى على وجودها حوالي الخمسين سنة عندما تركت صديقتي سو سيفرين والآخرون بيوتهم الآمنة وأعمالهم في الولايات المتحدة ليقفوا إلى جانب القرويين في جحيم نيكاراغوا "المنخفض الكثافة" في الثمانينيات. لقد تولى غاندي، الذي يبدو أنه خاض صراعاً مع كل مشكلات العالم الحديث، مواجهة السؤال الكبير عما إذا كان بإمكان اللاعنف أن يضع نهاية للحرب، وإن كان ذلك ممكناً، فكيف؟ وحالما بدأ يرى قوة الأسلوب "الجديد" الذي كان يستخدمه في جنوب أفريقيا، بدأ يدرك أن بالإمكان استخدامه ليس فقط في الكفاح الاجتماعي للهنود المحرومين من حق التصويت هناك، أو لأية مجموعات مسحوقة مثلهم، بل ضد "الإمارات والسلطات" التي جرّت الجنس البشري إلى حروب متواترة منذ فجر التاريخ المدون. وكانت ساتياغراها هي الوجه المعارض للحرب؛ ولربما الدواء الشافي من الحرب. لكن كيف يمكن لأسلوب، مهما عظم نجاحه، وُجد كي يقاوم الظلم *ضمن* بلد، أن يُطبَّق *بين* البلدان؟

لا بدّ أنه أحس، وربما منذ الأيام الأولى التي أدرك فيها أن "المقاومة السلبية" كانت تسمية خاطئة لكفاح الهنود، بأن البذرة التي كانوا يزرعونها في أفريقيا ستعطي يوماً ما نبتة قوية بما يكفي لكي تشق طريقها عبر خرسانة نظام الحروب الذي بلغ من العمر مئات السنين، ولكي تزهر في صورة نظام عالمي جديد، خالٍ من الحروب. ولم يهتز هذا الاعتقاد أبداً؛ فحتى عند دنو أجله، عندما وقعت الحرب بين الهند وباكستان المنفصلتين عن بعضهما حديثاً من أجل كشمير، كان يتمسك بدعواه بأنه كان باستطاعة الكشميريين، الذين كانت قضيتهم عادلة، حماية أنفسهم من خلال اللاعنف.

في نفس الوقت، كان غاندي يعرف تماماً أن بنية السلام القائمة على اللاعنف تكمن، حسب قوله، "في رحم المستقبل". وستقع على عاتق الآخرين مسؤولية تحقيق وعد اللاعنف هذا بالذات حتى يثمر. كانت مهمته هي إعادة بناء الهند، أن يُشرف على ولادتها بعيداً عن القبضة البريطانية، وبهذا يكشف لاشرعية وهشاشة الاستعمار، وهو عمل يستغرق عمر الإنسان كله، حتى بمعايير غاندي! لكن لم يكن هناك شك بأنّ "العرض العياني" لقوة ساتياغراها، الذي تم في مسرح الهند كان يعني العالم كله. لقد شدد غاندي مراراً على أنّ ما قد تبدو مشكلة تخصّ الهند – الاستغلال، الجشع، العنف، الكراهية العنصرية – إنما هي مشكلة العالم أجمع[258]، بل وشدّد بوضوح أكثر على أن التقنيات المستخدمة ضد النزاع الطائفي في الهند «رغم ما يبدو من تصور بأنها تنطبق على بقعة من هذا العالم، يُقصَد بها في الحقيقة أن تشمل العالم بأسره»[259]

وبصورة مشابهة، حالما نفهم قوة اللاعنف سنرى أنه ينطبق، مع بعض التعديلات هنا وهناك، على كل أشكال العنف، دون استثناء أعظمها. فكما ذكرت، لم يعد اللاعنف يتوقف عند الحدود القومية، إلا بقدر ما أنّ قانون الجاذبية لا ينطبق إلا على التفاح فحسب. ولم يكن غاندي ميالاً إلى التحفظ في كلامه حول هذه النقطة: «من التجديف القول بأنه لا يمكن ممارسة اللاعنف إلا من قبل الأفراد وليس مطلقاً من قبل الأمم التي تتشكل من أفراد»[260] وقد تكررت كثيراً في لغته المجازية المعبرة عن نضال جنوب أفريقيا كلمات مثل "جيش" و"جندي" – أكثر حتى من كلمة "حاج".

بحلول عام 1913، عندما أحس غاندي بالقدر يدعوه للعودة إلى الوطن لمجابهة الحكم البريطاني في عرينه، كان قد أخذ يتحدث علناً عن "شانتي سينا Shanti Sena"، أو "جيوش السلام"، وهي فرق من المتطوعين المدرَّبين الذين سيجعل حضورهم اللاعنفي ومهاراتهم اللاعنفية الشرطة والحرس الوطني لا لزوم لهم[261]. وستتم هيكلتهم على أساس محلي، فيضعون بذلك حدّاً للاعتماد على القوة الخارجية؛ فالمجتمع الذي لا يستطيع تدبر أمر الاضطرابات فيه لا يمكنه أن يكون حراً أبداً، والأكثر أهمية من ذلك أنهم سيكونون لا عنفيين تماماً، وبذلك ينتهي عصر طويل من الاعتماد على قوة التهديد التي ظلت تفسد، ولأمد طويل، آمالنا من أجل مستقبل أفضل.

---

[258] - Tendulkar, D. G. *Mahatma: The Life of Mohandas Karamchand Gandhi*, Vol. 2. New Delhi: Government of India, Publications Division, 1951, p. 237; second quote from CWMG, Vol. 57, p. 107 (Pyarelal. *The Epic Fast.* Ahmedabad: Navajivan, 1932, p. 133).

[259] - CWMG, Vol.74, p. 194 (Prabhu and Rao. The Mind of Mahatma Gandhi. Ahmedabad: Navajivan. 1967, p. 128).

[260] - CWMG, VOL. 73, PP. 24F.

[261] - Walker, Charles C. *A World Peace Guard: an Unarmed Agency for Peacekeeping*. Hyderabad: Academy of Gandhian Studies, 1981, p. 3.

كان هذا الكتيب الصغير من أول إصدارات فريق حركة السلام.

يجب أن يكون حزب المؤتمر قادراً على توفير جيش لاعنفي من المتطوعين لا يكون تعداده بضعة آلاف بل عشرات الآلاف، والذين سيكونون على مستوى التعامل مع كل حدث يتطلب وجود الشرطة والجيش... وسيكونون مشغولين باستمرار في نشاطات بنّاءة تجعل أعمال الشغب مستحيلة... وينبغي أن يكون جيش كهذا مستعداً لمواجهة أية حالة طارئة، ولكي يهدئ من نوبات غضب العامة يجب أن يخاطر بحياة عدد من أفراده بما يكفي لتحقيق الهدف... ومن المؤكد أنّ تقديم بضع مئات من الشبان والشابات أنفسهم طوعاً لهيجان العامة سيكون في أي يوم هو الأسلوب الأرخص ثمناً والأكثر شجاعة للتعامل مع مثل هذا الجنون من استعراض واستخدام الشرطة والعسكر[262].

يتحدث غاندي هنا عن المكافئ اللاعنفي للشرطة، والعسكر القائمين بعمل الشرطة. إنها مجرد خطوة قصيرة للحلول محل العسكر في موضع استخدامهم الطبيعي، في الحرب. وقد قام بهذه الخطوة في العام 1942، عندما كانت الهند والحكم البريطاني يرتعدان أمام توقع غزو ياباني. ففي الوقت الذي أخذ فيه البريطانيون يقعقعون بسيوفهم (كحركة استعراضية كما تبين، إذ لم تكن لديهم النية للدفاع عن الهند) واندفع الكثير من الهنود أنفسهم للتطوع، فاجأ غاندي الجميع باقتراحه القائل بأن الهند قادرة على الدفاع عن نفسها بـ"جيوش" اللاعنف[263]. والمثير للسخرية، من وجهة نظر المفاهيم الشائعة لـ"القوة"، أنه في حين كان تشرشل يحاول تهيئة روزفلت لانهيار بريطاني، كان غاندي "يهيئ أبناء بلده العزّل ليقاوموا حتى آخر رجل بدل أن يستسلموا، إذا وطأت أقدام اليابانيين التراب الهندي»[264]

لم تتح لغاندي الفرصة أبداً كي يضع رؤيته الجريئة على المحك. فقد وضعه البريطانيون في السجن معظم سنوات الحرب، بل إنّ معظم أعضاء حزبه "المؤتمر" وجدوا أنهم غير مستعدين ليتبعوه إلى هذا الحد. فتاريخياً، كانت الحروب تضعف دوماً صفوف نشطاء السلام. فحين يحدق الخطر في وجه فرد يغدو من الصعب الحفاظ على الإيمان بمستقبل غير مُجرَّب.

ومع ذلك، فإنّ أحد الناس كان قد تبع كلمات غاندي بالحرف. إنّ *"شانتي سينا"* الأشد إثارة، إلى حد بعيد والتي شهدها العالم، قد تم تنظيمها ضمن ما كانت عندئذ المقاطعة الحدودية الشمالية الغربية من قبل مُريد المهاتما المقرّب خان عبد الغفار خان؛ ولم يفعل خان هذا بين هندوسٍ سهلي الانقياد بل بين البَتَن Pathans المعروفين بولعهم بالحروب[265]. وهؤلاء هم نفسهم الذين سوف يتصدون، مع أفغان آخرين، للقوة العسكرية الكاسحة والمتفوقة للاتحاد السوفييتي بعد نصف قرن، ثم، وبشكل مأساوي، يتشظّون إلى فصائل حزبية مسلحة متناحرة. لكن ذلك حدث فيما بعد، عندما نكصوا إلى أساليب أكثر تقليدية في القتال. فقصتنا تتعلق بأيام خلت، تحت قيادة خان الملهمة، عندما أقسم حوالي مائة ألف من مقاتلي البَتَن (البختون، أو البشتون) – وكلهم من المسلمين المتدينين – أن يقاوموا البريطانيين دون أن

---

[262] (فقرة لغاندي)

[263] - [Pyarelal 1956 /ft "p. 709.]

[264] - Tendulkar, op. cit., Vol. 6, p. 75.

[265] - ما يأتي هو استشهاد من الفقرة 10

يحملوا سلاحاً بأيديهم أو عنفاً في قلوبهم، وحفظوا ذلك العهد في ظل استفزازات لا تصدق، ليضيفوا حافزاً لا يمكن قياس ضخامته أو إيقافه باتجاه الحرية.

لقد سمع عبد الغفار خان حديث غاندي للمرة الأولى وهو شاب خلال اجتماع لحزب المؤتمر لعموم الهند في كالكوتا في كانون الأول من العام 1928. وكان قد سمع *عن* غاندي طبعاً، ولا بد أن أثار اهتمامه أن المهاتما كان يقوم، وبطريقة مهيبة، بما ظل هو يفعله من أجل شعبه من خلال النهوض بمستوى القرى والتعليم وتمكين المرأة والابتعاد المستمر عن العنف؛ لكنه لم يكن قد جاء إلى كالكوتا لكي يسمع غاندي. ففي ذلك الوقت، كان شهر العسل بين المسلمين والهندوس، الذي بعث الدفء في القسم الأول من ذلك العقد من السنين، قد أصبح نسياً منسيّاً. فلم يكن هناك الكثير من الحب الضائع بين الطائفتين، وكان خان قد جاء إلى كالكوتا لحضور اجتماع الرابطة الإسلامية فحسب.

لكنّ اجتماع الرابطة كان عاصفاً، وقد عمّه الغضب والاستياء في ذلك العام؛ والواقع أنه سرعان ما انفض عندما شهر أحد المندوبين الغاضبين سكيناً. لذلك، ولحيرته حيال ما سيفعله وهو بعيد هذا البعد عن بلدته، عرج خان على سرادق "المؤتمر". هناك، كما يبدو، كان غاندي يتحدث إلى أحد الموجودين برفقته والذي كان ملحاحاً لا يلين في أسئلته. والغريب أنه بدلاً من أن يثير ذلك غضب غاندي، بدا أنه يشعر بمتعة لا نهاية لها من "صديقه" الغاضب، واستمرّ يتحدث ضاحكاً ضحكات خافتة. شعر خان بالتأثر الشديد. ولكونه هو نفسه زعيماً، ويملك موهبة النظر الثاقب الذي يلمّ بالأشياء التي تبدو صغيرة والتي تكشف قوة اللاعنف، أدرك في الحال ما يراه في سيطرة المهاتما الهادئة على الموقف. وعاد إلى أحد الزعماء المسلمين مقترحاً عليه، بسذاجة نوعاً ما، بأن يستمروا مع شيء من الصبر من جانبهم. قاطعه الزعيم الغاضب قائلا: «إذاً، فقد جاء البَتَن الهمجيون ليعلمونا التسامح!»[266] وهذا بالضبط ما سيفعله خان.

تُفجّر قصة خان ليس أقل من أربع خرافات خطيرة حول اللاعنف، ويفسّر ردّ الزعيم المسلم الرافض الجاف واحدة منها، وهي أنّ *اللاعنف يصلح للأشراف فقط*، أي أنه سلاح الضعفاء. وسيشرح غاندي بأن على المرء أن يكون قادراً على ممارسة العنف قبل أن يتمكن من نبذه. وكان البتَن بالتحديد، الذين تعود تقاليد سلوكياتهم الانتقامية والعنفية إلى قرون لا تحصى، هم الذين سيحذون دون تردد حذو زعيمهم *بادشاه badshah* عندما أنشأ جيشاً من نوع جديد منزوع السلاح. إنهم "خوديه خدماتغار Khudai Khidmatgars"، أي "خدّام الرب". وبعد سنوات، عندما احتار خان كيف يفسر استمرار البَتَن على نهج اللاعنف في حين أن معظم الهندوس قد هجروه، شرح غاندي الأمر له قائلاً: «اللاعنف ليس للجبناء،

[266] - Easwaran, Eknath. *Nonviolent Soldier of Islam: Badshah Khan, a Man to Match His Mountains.* Petaluma: Nilgiri Press, 1999; these two quotes from pp. 107.

إنه للشجعان الجسورين. والبَتَن أكثر شجاعة من الهندوس، وهذا هو سبب تمكن البَتَن من البقاء على اللاعنف[267].

خرافة ثانية تُلاقي قبولاً على نطاق واسع، حسبما صادفنا غالباً، هي أنه لكون اللاعنف أسلوباً ضعيفاً *فيمكن أن يكون ناجحاً في مواجهة مقاومة ضعيفة فقط.* وقد نجح في الهند فقط، كما يردّدون على مسامعنا، لأنّ البريطانيين منصفون؛ (استجمع قواك الآن) «وما كان لينجح ضد النازيين». لكن البريطانيين لم يكونوا منصفين كثيراً تجاه "خدام الرب"؛ فقد لقبوهم بـ"القمصان الحمر"، واستخدموا سيطرتهم على الصحافة في الوطن لكي يلعبوا على وتر الخوف القديم من الشيوعية واستحضار الهالة المقدسة لـ"اللعبة العظيمة" التي لعبتها بريطانيا لأكثر من قرن ضد النفوذ الروسي في "هندو كوش" – موضوع يثير الكثير من السخرية إن أخذنا بعين الاعتبار أن البتَن هم الذين سيقاومون السلطة السوفييتية في أفغانستان لاحقاً، ويكونون بذلك وسيلة الإطاحة بالنظام السوفييتي. وعندما رفض "القمصان الحمر" الإذعان للطرق المتّبعة أطبق البريطانيون الخناق على المقاطعة الحدودية الشمالية الغربية، وشرعوا يعملون على إذلال البَتَن المعتزين بأنفسهم كما هو أسلوب الإمبرياليين في كل مكان، كما لو أنهم لم يكونوا قد سمعوا بأنه يفترض بهم أن يكونوا شعباً متحضراً. لقد هُدِّمت البيوت، وأُتلفت المحاصيل الزراعية، وتعرَّض الناس للضرب، وتمّت تعريتهم من ملابسهم، وجرّهم في مجاري الصرف الصحي، ولأول مرة في تاريخ البشرية يُقصَف المدنيون بالقنابل من الجو (*قبل* قصف طائرات الفاشيين غيرنيكا بعشر سنوات، وهو عمل عادة ما يعتبر اختراقاً غير مسبوق لهذا النوع من الهمجية). لقد اعتبروا البَتَن "نموراً"، وعاملوهم على هذا الأساس.

وفيما يلي وصف شاهد عيان للهجوم على حشد من متظاهري اللاعنف المحتجين على اعتقال خان في بازار كيسا خاني في بيشاور في 23 نيسان 1930. إنه لا يعطي انطباعاً عن شعب جعله إنصافه خصماً ضعيفاً للاعنف:

[267] - Ibid., 195.

«فجأة، اندفعت بسرعة عربتان مدرعتان أو ثلاث من الخلف ودون سابق إنذار وسط تجمع الجماهير. فتعرض العديد من الناس للدهس، بعضهم أصيب بأذى، وقتل بضع منهم في الحال. وتصرف الناس... بضبط شديد للنفس، وهم يرفعون الجرحى والقتلى.»

بالرغم من هذا، ورد في تقرير لجنة التحقيق في حزب المؤتمر:

«... أُعطيت الأوامر للجنود بإطلاق النار. وقُتل العديد من الناس وجرحوا، وتم دفع الجماهير إلى الخلف. وعند الحادية عشرة والنصف تقريباً جرت محاولات من قبل شخص أو اثنين لإقناع الجماهير بالتفرق، والسلطات بسحب الجنود والعربات المدرعة. كانت الجماهير راغبة بالتفرق إن سُمح لهم بسحب القتلى والمصابين، وإذا انسحبت العربات المدرعة. لكنّ السطات، من ناحيتها، أعربت عن تصميمها على عدم سحب العربات المدرعة والجنود؛ فكانت النتيجة هي أنّ الناس لم يتفرقوا، وكانوا مستعدين للتضحية بحياتهم. وعندئذ بدأ إطلاق النار للمرة الثانية واستمر، بصورة متقطعة، لأكثر من ثلاث ساعات...»

ويتابع جين شارب:

«عندما سقط من كان في المقدمة جرحى من جرّاء الطلقات النارية، تقدم من كان في الخلف إلى الأمام كاشفين عن صدورهم ومعرضين أنفسهم للنيران بشكل مكشوف تماماً، إلى حدّ أنّ بعض الأشخاص تلقوا ما بلغ عدده 21 جرحاً ناجماً عن الرصاص في أجسادهم، وثبت كل الناس في مواضعهم دون أن يصيبهم الرعب. وتقدّم فتى صغير من السيخ، ووقف أمام جندي وطلب منه أن يطلق عليه الرصاص، فلم يتردد الجندي بفعل ذلك، وقتله.... استمر هذا الوضع من الساعة 11 حتى 5 مساء.»[268]

ما قيل يكفي. لقد انتصر القمع العاري، في نهاية الأمر، بنصر باهظ الثمن. وقد سجن زعيم "خوديه خدماتغار" مرة تلو الأخرى، وتمّ حلّ منظمته فاختفت من المشهد. وسرعان ما تبعها الحكم البريطاني نفسه. لقد لعب أفراد خوديه خدماتغار دوراً مشهوداً في الكفاح من أجل التحرير، مبرهنين على أن القوة لم تعد تخيف الهند، وأن جهودهم قد نفعت حيث بدت، ربما، أنها لن "تنفع"، مظهرين مرة أخرى أن اللاعنف قادر على التغلب، بأسلوبه الخاص، على المقاومة العنيفة العنيدة.

الخرافة الثالثة، وربما كانت الأكثر أهمية اليوم، هي أنّ: *اللاعنف مناسب للهندوس والبوذيين؛ وهو ليس كذلك بالنسبة للمسلمين.* فكائنة ما كانت الصور النمطية التي لدينا عن "الإرهابيين الإسلاميين"، وعن *الجهاد*، وما إلى ذلك، فإن "دين" النبي" لم يَقُم على العنف. وما من دين على هذا النحو. ففي الإسلام، كما في الأديان العالمية الرئيسية الأخرى، إخلاص جوهري للسلام الروحي الحقيقي مهما اعترى هذا الالتزام، عملياً، من تفاوت خلال التطبيق[269]. بالطبع، حارب "النبي" وأصحابه من أجل

[268] - نفس المرجع الصفحة 122

[269] - Paige, Glenn, and others. Islam and nonviolence. Honolulu: Matsunaga Institute for Peace, University of Hawai'I, 1993; see also Michael Nagler, "Is There a Tradition of Nonviolence in Islam?" in J. Patout Burns, editor, *War and its Discontents: Pacifism and Quietism in the Abrahamic Traditions*. Washington, D.C.:

إيجاد مكان لهم في التاريخ. وبالطبع أيضاً، يؤمن كثير من المسلمين، مثلما هو حال الكثير من المسيحيين واليهود، أنّ عليهم أن يحاربوا لشقّ طريقهم نحو السلام بحدّ السيف. إلا أنّ أولئك الذين يتلون "بسم الله الرحمن الرحيم" لا يمكن أن يؤمنوا بأن "نبيهم" كان بالأساس يُكرِه الآخرين بحدّ السيف، فـ"نبيهم" هو الذي قال: «الأشداء على الناس، يمهلهم الله إلى يوم يعمي أبصارهم»[270] وهنالك حديث هام آخر يفيد بما معناه أنّ "النبي" قال لأصحابه يوماً: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، وعندما سأله أحدهم: «وكيف ننصره ظالماً؟» أجاب: «بأن تمنعه عن الظلم قدر استطاعتك»[271] بعبارة أخرى، لم يستتبع "دين النبي" مجرّد عاطفة بل إدراكاً رفيعاً للاعنف.

وقد كان بادشاه خان مدركاً لذلك تماماً:

«ليس هناك ما يدعو للدهشة في مشاركة مسلم، أو أحد البَتَن مثلي، في العمل على مبدأ اللاعنف. فهو ليس بالمبدأ الجديد. لقد اتبعه النبي قبل أربعة عشر قرناً طيلة مدة وجوده في مكة.... لكننا بقينا إلى الآن ننسى هذا إلى درجة أنه عندما وضعه غاندي أمامنا ظننا أنه يحتضن مبدأ جديداً»[272]

الخرافة رقم أربعة، هي "التجديف" الذي نهتم به بصورة رئيسية هنا: *لا يمكن للاعنف أن يستخدم في الحرب، أو بدلاً عنها*. لقد بلغ تعداد "خوديه خدماتغار" وهي في أوجها، خلال قمع عام 1930، أكثر من ثمانين ألفاً. كانوا مدرَّبين ومُلقّنين وموحدي الزي ومنظمين. وكانوا مطيعين لقائدهم وملتزمين بأوامره، وإن لم يفهموه، حتى الموت، مثلما أظهروا ذلك في بازار كيسا خاني. أي أنهم كانوا جيشاً بكل معنى الكلمة، ما عدا أنهم لم يكونوا مسلحين بأدوات الموت المادية بل، وبحسب فهمهم لذلك، بقوى الحياة الروحية. لقد أظهر "الخُدام" أنه مثلما أنّ بإمكان الناس أن يُدرَّبوا ويُنظَّموا ويُعبأوا بالعزم من أجل الحرب، بإمكانهم أن يدربوا وينظموا ويُعبأوا بالعزم من أجل السلم.

ولادة رؤيا

عندما دعا البريطانيون غاندي إلى مؤتمر المائدة المستديرة في العام 1931، كانوا يدعون أيضاً أفكاره الهدّامة بشأن السلام. خلال زيارته لرومان رولان في سويسرا، في طريق عودته إلى الوطن، تسنَّت لغاندي الفرصة لبثّ تلك الأفكار على الهواء عندما طرح أحد المتشككين قابلية اللاعنف للتطبيق في حالة الدفاع عن الوطن.

Georgetown University Press, 1996, pp. 161-166. There is now an excellent book by mohammed Abu-Nimer, *Nonviolence and Peace Building in Islam.* Gainseville, etc.: University Press of Florida, 2003.

[270] - صحيح البخاري، الجزء الثالث.

[271] - نفس المرجع.

[272] - EASWARAN, OP. CIT. P. 183.

«... بإحداث تيرموبيلاي Thermopylæ في سويسرا ستكونون قد أقمتم جداراً من الرجال والنساء والأطفال الأحياء، داعين الغزاة للمشي فوق جثثكم. قد تقولون إنّ مثل هذا الأمر يتجاوز حدود التجربة والاحتمال البشري، وأنا أقول إنه ليس كذلك. لقد كان ذلك ممكناً تماماً. ففي العام الماضي في غوجارات، تحملت النسوة ضرب عصي الشرطة الغليظة دون أن ترفّ أجفانهن. وفي بيشاور، تحمّل الآلاف وابل الرصاص المنهمر دون أن يلجأوا إلى العنف... ربما تقولون إنّ تصرف الجيش سيكون وحشياً إلى حدّ أن يدوس عليهم. عندئذ سأقول... إنّ الجيش الذي يجرؤ على أن يدوس على جثث الأبرياء من الرجال والنساء لن يكون قادراً على تكرار تلك التجربة.»[273]

في زمننا، رأينا الكثير من "حقول القتل" إلى حدّ أنه قد يبدو إيمان المهاتما ساذجاً. إلا أنّ تلك المجازر، في الواقع، ليست من نوع المعاناة الذي يتحدث عنه. إنه لا يتحدث عن أناس يُساقون رغماً عنهم إلى حتفهم، بل عن أناسٍ يخرجون طوعاً ليواجهوا نهايتهم، عندما تخفق كل الطرق الأخرى. هذه ليس سلبية، بل جَلَد، إنها القدرة على المعاناة الطوعية التي يتحمّلها الإنسان لكي يوقظ الضمير. وفي الحقيقة، هناك دليل على أنه لم يكن على هذا القدر من السذاجة. ففي رواندا، قامت ميليشيات قبلية، بقصد الإبادة الجماعية، بتجميع الأطفال من مدارسهم وأمرتهم بأن يتوزعوا بحسب القبيلة: الهوتو أو التوتسي. عرف الأطفال ما يعنيه ذلك، فرفضوا الأمر. صرخ الجنود في وجوههم، لكن الترهيب لم يؤثر في الأطفال. فتخلى الجنود عن متابعة الأمر وغادروا. فوسط كل تلك المجازر، وعندما اختفَت قيمةُ الحياة تماماً، جعلَتْ قوةُ الإرادة وحدها لدى بعض أطفال المدارس بأن يعانوا من أجل العدالة عصابةَ الجنود المتعطشين للدماء "غير قادرة على تكرار التجربة"؛ أو حتى تنفيذها.

بعد ما يقارب العشر سنوات على خطاب تيرموبيلاي Thermopylæ ، وقد عاد غاندي إلى الهند التي أصابها الهلع من احتمال وقوع غزو ياباني، يتوسّع غاندي في شرح كيف ينفع هذا النوع الجديد الغريب من الدفاع. وإحدى خطاباته جديرة بأن تُورَد بشيء من الإطالة، لأنها تظهر ليس فقط أنه كان لديه إيمان ثابت بإمكانية الدفاع اللاعنفي بل أنه هو الذي أنجز مبادئه الرئيسية بشيء من التفصيل:

«اليابان تدقّ أبوابنا. فما الذي علينا أن نفعله من خلال أسلوب اللاعنف؟ لو كنا بلداً حراً لكان بالإمكان القيام بأشياء دون عنف لمنع اليابانيين من دخول البلد. ففي تلك الحالة، كان يمكن للمقاومين اللاعنفيين أن يمتنعوا عن تقديم أية مساعدة لليابانيين، ولا حتى شربة الماء. لأنه ليس من واجبهم مساعدة أحد على سرقة بلدهم. أما إذا ضلّ ياباني ما طريقه وكاد يموت من العطش وطلب المساعدة بوصفه إنساناً، فمن واجب المقاوم اللاعنفي، الذي لا يعتبر أحداً عدواً له، أن يقدّم الماء له. ولنفترض أنّ

---

[273] - CWMG, Vol. 54, p. 286 (Prabhu and Rao, op. cit., pp. 452f).

تيرموبيلاي هي ذلك المكان الواقع عند ممر جبلي حيث في العام 480 ق.م. صمد جيش إسبارطي صغير بقيادة ليونيداس وحتى آخر رجل أمام جيش فارسي جرار.

اليابانيين سوف يجبرون المقاومين على تقديم الماء لهم، عندها يجب على المقاومين أن يموتوا خلال عملهم المقاوم. من المحتمل أن يبيدوا كل المقاومين لكن الاعتقاد الكامن في مثل هذه المقاومة اللاعنفية هو أن المعتدي، عاجلاً أم آجلاً، سيكلّ ذهنياً، بل وحتى جسدياً، من قتل المقاومين اللاعنفيين. وسوف يشرع في البحث عن حقيقة هذه القوة الجديدة (بالنسبة إليه) التي ترفض التعاون دون التسبب بأذى، وقد يمتنع عن ارتكاب المزيد من المجازر. لكن ربما يجد المقاومون أنّ اليابانيين لا رحمة في قلوبهم على الإطلاق، وأنهم لا يهتمون بعدد الذين يقتلونهم. حينذاك سيكون المقاومون اللاعنفيون قد حققوا الانتصار، لأنهم سيكونون قد فضلوا الفناء على الخضوع.»[274]

لنضع نصب أعيننا أننا نتحدث عن أصعب موقف يمكن أن يوجد، صعوداً إلى نهاية المنعطف عندما تكون كل الظروف معاكسة. إنه غزو صريح لعدو عنيد بحوزته قوة عسكرية كاسحة. بعبارة أخرى، إنه نزاع على درجة متقدمة جداً، وبأكبر مقياس. لكن إذا ألقينا نظرة متفحصة على خطة غاندي لمواجهة مثل هذه الحالة القصوى فإننا لا نرى شيئاً غير مألوف بالنسبة لمبادئ اللاعنف الكلاسيكي. ربما هي تدعو إلى تضحية أعظم لأن الصراع بلغ مرحلة متقدمة بالفعل، إلا أن القوى المحركة هي نفسها: تأثير القوة "الجديدة" المنبِّه للوعي، أسلوب المقاومين اللاعنفيين في حشد تلك القوة عن طريق رفض تطابق إنسانية المعتدي كفرد مع قصده (الخطيئة وليس الخاطئ)، وأخيراً الإعلان المثير عن أن النجاح هو أساساً روحي وطويل المدى وليس منظوراً وعاجلاً. كل هذه علامات بارزة للاعنف، وكل من هذه المبادئ عُرف عنها نجاحها. كل هذا من التاريخ. وكذلك الأمر بالنسبة لإمكانية شجاعة التضحية بالنفس على نطاق واسع، كما أشار غاندي في حديث تيرموبيلاي Thermopylæ قبل عشر سنوات. الأمر الوحيد المختلف هو جرأة الخيال، بصمة غاندي، والجسارة في إعلان مثل هذا البرنامج على الملأ بكل جدية، كما لو كان كل واحد منا قادراً على أكثر مما ندركه بكثير. ومن يدري...

«لو كنا بلداً يتمتع بالحرية لكان بالإمكان القيام بالأمور دون عنف لمنع اليابانيين من الدخول». مرة أخرى هذه نقطة هامة جداً. لو لم تقيد الحكومة أيديهم لاستطاع الهنود البدء بتحضيرات لاعنفية في وقت أبكر بكثير. لو فعلوا ذلك، حسب ادّعاء غاندي، لربما أقاموا متراساً من أجسادهم على الحدود لمنع الغزاة من دخول البلد قبل كل شيء. هل كان ذلك "ليفيد"؟ في غياب تلك الاستعدادات، هل كانت قد منعت فعلاً نوعية الدفاع، التي رسم غاندي خطوطها، الاحتلال الياباني؟ لسوء الحظ، لن نعرف ذلك أبداً. فمن السهل دائما القول بأن "اللاعنف ما كان ليفيد" ما لم نعطه فرصة.[275]

---

[274] - CWMG, Vol. 82, p. 167 (Tendulkar Vol. 6, p. 69).

[275] – لم يمنع نقص الدلائل المتشككين من التأكيد اليوم على هذه الحالة، أكثر مما فعلوه فيما مضى. "وقد غذى غاندي هذا الاعتقاد القائل بأن اللاعنف بوسعه هزم اليابانيين، على الرغم من افتقارهم للموانع الناجمة عن أخلاقيات الشعوب الناطقة بالإنكليزية. *ولحسن حظ الهنود*، لم يجرب هذا الاعتقاد على أرضية الواقع. وفق د.س. وات " D.C Watt, in Alan Bullock & R. B. Woodings, *20th Century Culture*, New York: Harper and Row (1983), p. 256. " كان معظم أعضاء حزب المؤتمر الذي ينتمي إليه غتندي يؤمنون بهذه الخرافة – ونحن متيقنون الآن أنها مجرد خرافة – ذلك الوهم الذي يقول أن السلاح البريطاني كان وحده الحائل بين الهنود وبين اليابانيين.

كان أسلوب غاندي يقضي باستقراء النتائج من نجاحات اللاعنف المعروفة للحالات التي لم تجرَّب فيها بعد. لم يُنبئه شيء عن أن جيوشاً من المواطنين العاديين المجهزين من أجل مقاومة لاعنفية لن تفيد، أو أنها "ستفيد". فكما قلتُ، لقد دعا إلى اللاعنف المنظَّم عندما اندلع القتال بسبب كشمير بعد الاستقلال مباشرة؛ حيث دعا إلى اجتماع موسع للشانتي سينا ليكون في بداية شباط 1948. لكنّ الموت فقط هو الذي أجّل ذلك الاجتماع، إذ إنّ رصاص القاتل أصابه في ذلك المساء قبل أن يذهب. ومع ذلك، لم يمت الحلم بإيجاد بدائل لاعنفية على الطريق المؤدي إلى الاجتماع من أجل الصلاة في "بيرلا هاوس" في 30 كانون الأول 1948.

رؤيا حيّة: دفاع مبني على العنف

الوقت الذي كان فيه المهاتما يضع خططه العظيمة، بدأ أناس آخرون يلاحظون كيف كانت جماهير عفوية وعزَّل من السلاح تشارك هنا وهناك في الاعتراض على آلة الحرب، وهو أمر ربما كان مستمرَّ الحدوث دون توقف، ودون أن يلحظه أحد. لكن نشطاء السلام المتحمسين قاموا بتوثيق ذلك مؤخراً:

«اندلع القتال في الجزائر عام 1962 بين الجيش النظامي في المنفى وقوات المتمردين بهدف السيطرة على البلد. كان هناك ما يزيد على مئة قتيل، حين تدخَّل عمال ونساء وشيوخ وأطفال بين المجموعتين وأوقفوهما مما أدّى إلى التوصل إلى اتفاق.»[276]

«قام مواطنو الفلبين، بمباركة تامة من الكاردينال جيم سين، بحماية قوات الجنرال فيديل راموس من القوات الحكومية التي تفوقها عدداً بشكل كبير، والتي كانت لا تزال موالية للديكتاتور ماركوس. ولم يكن مراقبو حفظ السلام غير منتبهين للمفارقة الكامنة في وجود مدنيين عزل من السلاح يحمون قطاعاً من القوات المسلحة بدلاً من أن يكون الوضع معكوساً. "لا شك أنّ كلاً من [الجنرال إنريل] وراموس... أدركا أنهما والقوات المتمردة كانوا بحماية المساندين العزّل أقوى بكثير من حماية العدد نفسه من المساندين المسلحين.»[277]

«في بكين عام 1968، عندما هبّت رياح "الثورة الثقافية"، فتحت مجموعتان من الطلاب الماويين، كل منهما تدّعي أنها على "المسار الصحيح"، النارَ على بعضهما البعض في جهات مختلفة في الجامعة. فتحرك ما يقارب الخمسين ألفاً من الناس بشكل سلمي وعفوي إلى داخل الجامعة؛ ووقفوا بين المجموعتين وهتفوا بشعارات من مثل، "عودوا إلى صوابكم: لاعنف". توقفت مجموعة عن إطلاق

---

[276] -ما لم تتم الإشارة إلى عكس ذلك فإن هذ الاستشهادات مستقاة من مقالة بعنوان: Nonviolent Interventions" by Alberto L'Abate in *Peace Courier* for March, 1994, p. 2.

[277] - ZUNES, STEPHEN. "UNARMED INSURRECTIONS AGAINST AUTHORITARIAN GOVERNMENTS IN THE THIRD WORLD: A NEW KIND OF REVOLUTION," THIRD WORLD QUARTERLY 15, NO. 3, 1994, P. 417.

الرصاص في الحال؛ استمرت الأخرى بإطلاق الرصاص لتجرح أكثر من سبعمئة شخص، لكنها ألقت سلاحها في اليوم التالي – "غير قادرة على تكرار التجربة".»[278]

«انتهت مظاهرات ساحة تيانامين بمجزرة، لكن لا ينبغي للكارثة الفظيعة "أن تجعلنا ننسى أنه لمرتين على الأقل لم تتمكن القيادة العسكرية من تنفيذ عملية استعادة ساحة تيانامين لأنّ آلافاً من مواطني بكين وقفوا بأجسادهم بين الجيش والطلاب.»[279] (وقد شهد حرم جامعتي نسخة مصغرة من هذا عندما تمركز أعضاء مجموعة صغيرة تدعى "طلاب بيركلي من أجل السلام" بين مبنى كالاهان هول، وهو مركز ROTC، ومجموعة كبيرة من المحتجين الغاضبين المندفعين إلى المكان بالحجارة والقرميد. وقد تم تفادي الأزمة)

«كما رأينا كيف منع آلاف المواطنين العزل من السلاح حدوث مواجهة دامية بين الانقلابيين وقوات الحكومة في موسكو عام 1991»

تشمل كل هذه الحالات فصائل متنافسة ضمن البلد نفسه، وكان الطرف الثالث في هذه الحالات من مواطني ذلك البلد. لكننا ألقينا نظرة على حالة أشبه ما تكون بالحرب: مقاومة "ربيع براغ" للغزو السوفييتي عام 1968 – 1969. وقد ذكرتُ وقتها أنّ هذه المقاومة صمدت لثمانية شهور رغم عدم وجود زعماء لاعنفيين ملهمين أو موجهين للناس حول أسلوب الاستمرار باستراتيجيتهم المختارة، هذا إن كانوا قد عرفوا الاسم الذي يطلقونه عليها.

إننا نطلق عليها اليوم تسمية "دفاع قائم على أساس مدني" (CBD). ونعرف حالات شملت غزواً خارجياً، كما حصل في "ربيع براغ"، وعمليات استيلاء على السلطة، كما في حالة "كاب بوتش" في فايمار ألمانيا عام 1920 التي فشلت فشلاً ذريعاً عندما أجهضت إضرابات العمال محاولة القومي المتعصب فولفغانغ كاب للإطاحة بجمهورية فايمار الوليدة. فمن الناحية المثالية، يمكن القول إنّ CBD "الكلاسيكي" يعمل وفقا لثلاثة مبادئ:

1– لا يمنع رجال المقاومة القوات الغازية جسدياً من دخول أراضيهم، والتي هي غالباً حاجز رمزي باهظ الثمن؛ إنهم أكثر اهتماماً بسلامة مؤسساتهم.[280]

2– الكلّ يشارك في المقاومة – الرجال والنساء والأطفال، والقضية ليست قضية عددية طبعاً، وهي تتجاوز وظيفة التضامن التي لمسناها عندما كنا نبحث حالة "تشارخا" charkha؛ إنها تتعلق بتحملكم مسؤولية دفاعكم بدلاً من إلقاء العمل على عاتق نخبة ما. ففي حالة الدفاع عسكرياً لا يمكنكم تجنب إيجاد نخبة، وهذا ما سيعيب جدياً الديمقراطية التي تحاولون الدفاع عنها.

---

278 – بيجين 1968.

279 – ساحة تين آن مين

[280] يجدر المقارنة بهذا السياق مع ما قاله الفيلسوف اليوناني الكبير هيراقليطوس: "أن على المواطنين أن يُبدوا في الدفاع عن مؤسساتهم، الحماس نفسه الذي يبدونه في الدفاع عن أسوارهم."

3- من الناحية المثالية (مرة أخرى)، يحرص المقاومون بعناية كي لا ينبذوا خصومهم كبشر، في الوقت نفسه الذي لا يتعاونون فيه معهم بوصفهم غزاة. عندما يتوقف ضحاياك المقصودون عن أن تكون صلتهم بك باعتبارهم "نقيباً" أو "رقيباً" – ولا نقول "فاشياً" أو أي وصف آخر – إنما كشخص، ذلك سيذكرك بأنه تحت كل الزخارف، أي أولاً وآخراً، هم بشر، مثلك *أنت*.

دون أدنى شك، كان "ربيع براغ" يدين بشيء ما لحقيقة أنّ للتشيك تاريخاً طويلاً من إجلال اللاعنف. فأولى اضطرابات الحركة البروتستانتية، في ما كان يسمى وقتها بوهيميا، كانت تتسم بنزعة قوية للاعنف يعود أصلها إلى أواخر القرن الرابع عشر، والتي نربط بها أسماء مثل جان هوس وبيتر شيلشيكي (1380–1460). وقد نُشر عمل شيلشيكي الكلاسيكي، "شبكة الإيمان" لأول مرة عام 1521. وأدت حججه المقنعة بأن يسوع كان يقصد ما قاله، وبأن على المسيحيين أن لا (ألاَّ) يحلفوا الأيمان، وبأنّ عليهم قطعاً أن لا (ألاَّ) يعيشوا معتمدين على سيوفهم، إلى تأسيس "الأخويّة التشيكية"، وهي مثال هام على عملية إعادة الاكتشاف الدورية بأنّ يسوع كان لاعنفياً. وسيقدّم هذا الكتاب الخالد في فترة لاحقة دعماً قوياً لتولستوي عندما جاء دوره ليقوم بنفس الاكتشاف. وربما بسبب هذه الخلفية تمكّن التشيك من الاستجابة لوضعهم الرهيب بمزيج رائع من الدعابة والشجاعة – وهي وصفة مثالية للاعنف.

لكن، هناك أوقات على كوكبنا هذا لا يتمكن فيها الناس وحدهم، سواء كانوا مدربين أم غير مدربين، من التصرف في الوقت المناسب لحماية أنفسهم من العنف. قد يكون الصراع غير متكافئ أبداً إلى حد قمع المقاومة قبل أن تبدأ. وليكن حاضراً بذهننا بعض أنظمة أمريكا الوسطى والجنوبية، أو بورما أو كمبوديا. ففي مثل أنظمة كهذه، مجرد أن تجعل وجودك مرئياً أحياناً للملأ يعني أن "تختفي" من الوجود على يد مجموعات خفية شبه عسكرية، لا يتحمل مسؤولية ذلك أحد؛ أو – كما كان الأمر لعقد طويل من السنين في كوسوفو – على يد الشرطة الصربية المدججة بالسلاح، والمصرّح لها من قبل بلغراد لبثّ الرعب في قلوب الأكثرية الألبانية. هناك أوقات يبلغ فيها الصراع حدّاً من الجنون إلى درجة أنه حتى إن لم تكن هناك ضحية واضحة وجانياً فإنّ المذبحة تحدث قبل أن يتمكن، أو يريد، أحد أن يتدخل: في الصومال، رواندا، يوغوسلافيا المفككة. وأحياناً تبلغ الفوضى حدها الأقصى إلى درجة لا تكون فيها حتى "أطراف" واضحة، كما كانت الحال في مدريد خلال الحرب الأهلية الإسبانية، أو في فترة أقرب إلينا، في دول البلقان. نحن هنا بحاجة إلى آلية تحرك مختلفة نوعا ما عن CBD، ولإيجادها دفع أصحاب رؤى متقدمة معاصرون برنامج المهاتما خطوة أبعد.

لقد تجرّؤوا على التخيل، ماذا لو كانت هناك شبكة "فرق استجابة سريعة"، بدلاً من أن تنتمي إلى حكومة دولة أو أخرى ستكون مكونة من متطوعين دوليين ومحليين، وبدلاً من أن يكونوا مسلحين، يتم تجنيدهم وتدريبهم على تنفيذ عمليات تدخُّل لاعنفية؟ وسيكون هؤلاء المتطوعون شجعاناً، وعلى دراية جيدة بالمنطقة التي سيذهبون إليها، وبمبدأ اللاعنف – ويمكن أن تكون تتشكل لديهم مهارة في ذلك. ليس هناك نقص في المادة الخام. يتطوع الناس ومعظمهم، إنما ليسوا فقط، من الشباب، عندما نتحدث عن

الذهاب إلى أماكن خطرة، ويحاولون توسيط عامل سلام في مناطق الأزمات الشديدة. فإذا كانوا مدربين تدريباً أفضل، ويتلقون مساندة أفضل، ومعترف بأهميتهم، ويتم تمويلهم تمويلاً كافياً، أفلا يستطيعون تقديم ذلك "الطريق الثالث" بالذهاب لاعتراض طريق الحرب عندما يصاب "المجتمع الدولي" بالشلل ما بين السلبية والوحشية؟

من السهل التصور أنه سيُقضى عليهم بكل بساطة، وأنهم سيزاحون من الطريق؛ إلا أنه، وكما رأينا في أحيان كثيرة في مسألة النزاعات هذه، من السهل تصور أمور كثيرة غير حقيقية. إذ لم تتم إزاحة النساء في سجن روزينستريب من الطريق، فأنقذن رجالهن. ولم تزح كارين ريد عن الطريق، فقد دخلت مكبلة اليدين ومعصوبة العينين وخرجت حية وبحالة جيدة، ومعها صديقتها مارسيلا علاوة على ذلك. ففي الحالات الثلاث التي ذكرتها، في الفلبين وبكين وموسكو، لم تجرِ إزاحة الذين وقفوا بين الجيوش المتصارعة، أو بين جيش معادي وضحاياه المقصودين جانباً، وما هذه إلا حالات قليلة مدونة.

وبناء على الصدمة المُرحَّب بها الناتجة عن تواجدهم الطوعي، قامت هذه المجموعات بشتى الأمور حسب الموقف. فقد كبحت جماح الإشاعات (مثلما فعل غالباً أعضاء "شانتي سينا" في الهند)، وقدّموا أنفسهم كوسطاء بين الفصائل المتنازعة، ووقفوا متضامنين مع الذين تعرّضوا للتهديد، وساعدوا المصابين وواسوهم، وفي أسوأ حالة وقفوا كحاجز بشري على خط النار بأجسادهم كي تتكلم حيث لا يُصغي أحد لأي شيء آخر.

قد يُقتلون، في أسوأ الحالات، وربما تأتي عندئذ مجموعة أخرى، مثلما أتت في "دهاراسانا" موجة بعد موجة. وإذا كان الأمر كذلك فسيرى العالم أنّ هناك شيئاً آخرَ، غير قهر الآخرين، يستحق أن نموت من أجله. إنّ كلمة "شهيد" تعني "الشاهد". وسيكون الشهداء في أسوأ الحالات، شاهدين أمام العالم على أنّ هناك نوعاً آخر من القوة، ومعنىً آخر للعلاقات الإنسانية. وعلى مسار الزمن والمعاناة سيجد مطلقو الرصاص، خلافاً للعادة، أنهم لا يستطيعون تكرار تجربتهم.

لكنّ هذه هي أسوأ الحالات، وحتى ستكون هي أفضل بكثير من الهوّة التي يبدو أن لا قرار لها والتي يعيش فيها العالم الآن: في كوسوفو، تيمور الشرقية وأتشيه، مولوكاس، شياباس، التيبت، السودان، كولومبيا، الجزائر، أفغانستان، أثيوبيا/إريتريا، رواندا، إسرائيل/فلسطين، أرمينيا، العراق... وكما قال هانز شول، زعيم مؤامرة "الوردة البيضاء" الشاب، قبيل إعدامه: «نهاية برعب أفضل من رعب لا نهاية له.»[281]

ينبغي أن تبدأوا صغاراً. بغياب مثيل لغاندي يُلهم ويُنظم مثل هذا "الجيش" العالمي الانتشار، أخذ عدد من الجماعات الدولية (عددها حوالي العشرين لحظة هذه الكتابة) على عاتقهم مسؤولية مهمات محددة يكمن عملها على نطاق ضيق لحفظ السلام قد تصبح "نقاطاً مضيئة" في هذه الصورة الجديدة

[281] - Scholl, Inge. *The White Rose: Munich 1942-1943*. Ohio: Wesleyan University, 1970, p. 95.

الموسومة. ولماذا ينبغي أن تكون جماعات دولية فحسب؟ أحد أشكال الأعمال التي يمكن أن تقوم بها جماعات صغيرة جداً، أيّاً كان تركيبها، هو بالتأكيد مرافقة العاملين في مجال حقوق الإنسان وآخرين من الذين حياتهم معرضة للخطر. وقد كان هذا العمل فعالاً بصورة ملفتة للنظر. فعندما ووجهتْ "غروبو دي أبويو موتيو GAM"، وهي منظمة جريئة لحقوق الإنسان في غواتيمالا، بالاغتيالات المنظَّمة لقيادتها عام 1985، طلبت من أعضاء "ألوية السلام الدولية PBI" أن يرافقوها. وعندما انتقل أعضاء الفريق إلى شقق ومكاتب أعضاء الإدارة الباقين توقفت أعمال الاغتيالات، حسبما أورد وليام ماهوني[282]. كان لهذا أثره في فتح فضاء الحوار السياسي في غواتيمالا. ويعتقد أنّ أعضاء ألوية السلام الدولية لعبوا دوراً رئيسياً في نقل غواتيمالا من الفوضى المسلحة إلى عملية سلام، وأنا أرى ذلك أيضاً. وكما شاهدنا، كان هذا هو النشاط الذي أتى بكارين ريد إلى السلفادور. يطلق على هذا العمل اسم "مرافقة حمائية"، وهي هنا، واحداً لواحد، غالباً ما يمكن أن نفهم بأفضل آلية إعادة إضفاء صفة اللاعنف الإنسانية. كانت كارين، إذا أردتم، فريق سلام كامل من فرد واحد عندما ألقت بنفسها طوعاً كطرف ثالث بين جنود غواتيمالا *ورفيقتها* مارسيلا رودريغيز. طبعاً لم تكن قوة توسّطها الحمائية جسدية بل أخلاقية، أو إن شئتم، نفسية. وكما قالت باتي موتشنيك، متطوعة ألوية السلام العالمية التي كان لها شرف مرافقة ريغوبرتا مينشو ورفاقها خلال فترة تميزت بالعذاب، في شهادتها:

«... كانت الحماية الجسدية الفعلية التي قدمتها لها عبثية، وبالنسبة لي في تلك اللحظة، مضحكة. لقد كنت معرضة لكل الأخطار، وكذلك كانوا هم.»

لكنهم نجوا جميعاً. وأداروا عجلة السلام لتسير نحو الأمام. إن القوة العسكرية والزي الموحّد والسلطة "تنفع" عن طريق تضخيم القوة الجسدية الضعيفة عند الفرد، وبذلك يفقده، أو يفقدها، قوته الروحية التي لاحدود لها. والمرافقة غير المسلحة تنبذ القوة الجسدية لكي تنتج تأثيراً لا يحمي على المدى القصير فقط بل يستمر في صنع السلام حتى أعماق المستقبل. وسواء كان العمل وفق موازين كبيرة أم صغيرة فإن المبدأ الذي يعمل وفقه هو نفسه، وقد وضحت ذلك بشكل جيد جماعة أخرى من هذه الجماعات، وهي منظمة كويكر للسلام QPS التي كانت تنشط في سريلانكا.

في حين كانت منظمة كويكر للسلام تُظهر استعداداً على رؤية الزاوية الإنسانية لكل فرد خلال الأزمة، فقد استطاعت أن تساعد على تحطيم المفاهيم الخاطئة التي كانت لدى جماعات مختلفة عن

---

[282] - Moser-Puangsuwan, Yeshua and Weber, Thomas. *Nonviolent Intervention Across Borders: A Recurrent Vision*. Honolulu: University of Hawai'i, 2000, p. 138.

تعتبر قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة أكثر عرضة للخطر. على سبيل المثال، قتل 14 جندي هندي وجرح 20 آخرين كانوا يعملون مع الأمم المتحدة في سيناء خلال اشتباك عام 1967: "فحين يتعلق الأمر بالإسرائيليين، يُعتبر عدواً أي فرد يلبس لباساً رسمياً ويواجههم." (Rikhye, Indar Jit, and others, *The Thin Blue Line;* New Haven: Yale University [1974], p. 61).

"أعدائهم" المزعومين. كان هذا الجانب من العمل أساسياً بالنسبة لإيمان منظمة كويكر للسلام بقوة المصالحة.[283]

وبصورة عَرَضية، عندما بدأت منظمة ألوية السلام الدولية عملية المرافقة المحفوفة بالمخاطر تلك لنساء منظمة غروبو دي موتيو اللواتي كن سيلقين حتفهن لولا ذلك، كان "فريق" ألوية السلام الدولية العامل شخصاً واحداً، وهو ألين ريتشارد الذي توجّب (وجب) عليه مغادرة البلد في ذلك الوقت بالذات لكي يجدد تأشيرته.[284]

الحلم الآن هو وضع قدرات فريق ثالث بتصرف العالم. ففي مؤتمر هيغ للسلام صيف عام 1999، اكتشف ناشطان للسلام من أميركا الشمالية، ميل دنكان وديفيد هارتساو بعضهما بعضاً. وظلا يعملان ليلاً ونهاراً من أجل رؤيا مستقبلية لـ"جيش" سلام قوامه المتطوعين اللاعنفيين دون أن يعرفوا بعضهم بعضاً لسنين. وإلى لحظة هذه الكتابة، بعد بضع سنين فقط من ذلك الاجتماع التاريخي، اكتسبت "قوة السلام اللاعنفي" مدّاً عالمياً واسعاً من الحماس: حملة جائزة نوبل، منتدى الأمم المتحدة للألفية، رجال أعمال متفهّمين للمنظمة، رئيس دولة عابر، ومئات من المتطوعين انضموا في حين كان يجاهد أصحاب الرؤية المنهكين من العمل لتحقيقها على أرض الواقع.

لقد أتاح هذا ثلاثة مستويات من الفرص لكم، يا من ترون قوة هذه الرؤيا وتريدون تقديم يد المساعدة:

1- ساندوا أية منظمة مشاركة في عمليات التدخل اللاعنفي كطرف ثالث بين المتنازعين بالوقت أو المال أو بكليهما (التفاصيل موجودة في نهاية هذا الكتاب).

2- غيّروا سلوكياتكم أنتم، بالعقلية واللغة لخلق اللاعنف وفرضه في بيئتكم الخاصة فوراً، وكونوا جزءاً من رسالة اللاعنف العالمية.

3- إن كنت بعمر يزيد على الخامسة وعشرين، وتعتقد أنّ لديك ميلاً لذلك، فاذهب وشارك في مهمة خطرة، لا يُوجَّه لك الشكر من أجلها، وقد تكون التجربة مصدراً للرضا الأعمق لك في حياتك.

يقف الفريق الثالث خارج عقلية "معنا أو ضدنا" ليساعد على تبديد ذلك الاستقطاب المفرط في بساطته. وقد بيَّن منسق فريق سلام فرنسي القضية على الشكل التالي:

«حتى بالنسبة لأجنبي آتٍ من مكان بعيد جداً، يستطيع كل منا أن يتصرف بحيث نوجه ونفعّل قليلاً من إنسانيتنا وتضامننا نحن. وحتى إذا لم يضع المتطوعون أنفسهم حاجزاً بين المتحاربين فإن

[283] - Mahoney, L. and Eguren L. *Unarmed Bodyguards: International Accompaniment for the Protection of Human Rights*. West Hartford, CN: Kumarian, 1997, p. 216.

[284] - Mahoney, L. and Eguren L. *Unarmed Bodyguards: International Accompaniment for the Protection of Human Rights*. West Hartford, CN: Kumarian, 1997, p. 216.

عملهم يساهم في... *لجم منطق الحرب والكراهية* في قلوب الناس. وبقدر ما يفعل ذلك، بقدر ما يكون عملاً لاعنفياً»[285]

رؤيا قيد التنفيذ

لقد حدث الأسوأ. كان جندي الكونترا يقود قروياً من نيكاراغوا تحت تهديد السلاح، مقيداً إلى الخلف، بعيداً عندما ركض فجأة صحفي أميركي، وآلة التصوير تلتقط الصورة، صارخاً: "حدث دولي!"، فنجا ذلك القروي. وتقدّم عدد من شرطة سريلانكا بملابس مدنية نحو نساء محتجات وهم يلوحون بهراواتهم، عندما وقف رجل مدني أمامهم ورفع آلة تصويره إلى الأعلى. أنزل رجال الشرطة هراواتهم وانصرفوا مبتعدين[286]. وكانت مجموعة من جنود جيش الدفاع الإسرائيلي الغاضبين يهددون مجموعة صغيرة من الفلسطينيين في الخليل؛ إلا أنه وقف بينهم ثلاثة أعضاء من فريق صناع السلام المسيحيين (CPT)، أحدهم هي مارج أرجيليان من شيكاغو، والتي تقدّمت أمام جندي وقالت له: "في كل مرة تسدد فيها بندقيتك سأسدد أنا آلة التصوير التي معي". وعندما فعلت ذلك "ارتخت قبضة الجندي وتلاشى الغضب."[287]

ليست الحوادث السابقة سوى عينات لما يحدث ويأتي إلي في مكتبي على هيئة رسائل إخبارية أو رسائل إلكترونية. ومثلما نطق غاندي بصوت "الملايين الصامتة" في الهند المستعمرة، يُسلّط المتطوعون الدوليون أضواء المودّة على الذين يعانون في العتمة. إنهم يفتحون عيون عالم لم يعرف الكثير عن تلك المعاناة.

ويوجد بالطبع نوع آخر من الأمثلة. فخلال جدال ينبئ بالكثير، في مدينة الخليل أيضاً، تعرّض عضو "فريق صناع السلام المسيحيين"، كليف كيندي، لمعاملة خشنة من قبل مستوطن غاضب جداً وهو يحاول حماية فلسطيني يتعرض للضرب على يد الجنود. سأل المستوطنَ وهو يمسك يده: "لا أعتقد أننا سبق والتقينا. ما اسمك؟" قال المستوطن: "اسمي كراهية، وأنا أكرهك." ونحّى كليف عن الرصيف. وقد ظلّ أعضاء من فريق صناع السلام المسيحيين في الخليل مدة طويلة نسبياً وقد ضعفت قيمة الصدمة المفيدة من كونهم شهوداً من طرف ثالث بفعل هؤلاء المستوطنين الذين أعماهم التعصب الأيديولوجي. كانت التهديدات بالقتل الموجهة للفريق جدية لدرجة أن قام أفراد من FBI بزيارة لهم في مكتبهم في شيكاغو. ومع ذلك، حتى في هذه الحالة (وهو نمط ليس كثير التكرار نسبياً، حتى في الخليل)، قدمت

---

[285]- Le Meut, Christian. Interview in *Non_Violence Actualité* (February, 1994), p. 10.(ترجمة الكاتب وتعليقه)

[286] - Peace Brigades International. Report: Sri Lanka Seminar, 1992 (unpublished). Available from Bob Siedle-Khan, PBI, 59 E. Van Buren St. #1400, Chicago IL 60605 (312) 362-1732.

[287] - Argelyan, Marge. "Walking the Talk of Nonviolent Intervention," *Signs of the Times* (CPT newsletter) VI, no. 1, 1996, p. 2.

المرآة بعض النفع. فقد أجبرت المستوطن على أن يواجه، أو يعيّن على الأقل ، الشر الكامن فيه. ليس بإمكان أحد أن يكرر فعل ذلك إلى ما لا نهاية دون أن يجعل في نهاية الأمر نفسه، كما قال غاندي، غير قادر على تكرار تلك التجربة. فمهما بلغت حدة الغضب، ومهما أعمى التعصب، فسوف تعكس مرآة اللاعنف وميض إنسانية راقدة وتعيدها إلى الكاره ثانية. أنت لا تستطيع التأكد من تخلي ذلك الشخص عن تلك الحالة في ذلك الوقت وذلك المكان، كما يظهر لنا مثال "السيد كراهية". يريد الملتزم بالعمل من أجل اللاعنف خوض تلك المجازفة. هي، أو هو، راغبة في انتظار الخير الأكيد الذي ستحدثها شهادتها، أو شهادته، للحدث.

مثلما يمكن لأية مراقِبة باحة مدرسية أن تبيّن لكم، لا بدّ وأنّ منع الشجارات كان جزءاً من الحياة منذ ما قبل التاريخ المدوّن. ولا بدّ أن يكون التدخل اللاعنفي، دون تسميته، قد ساعد على منع المجتمعات من تدمير أنفسها بسلوكياتها الذاتية العنيفة قبل أن نصبح بشراً بوقت طويل – فأدلة "دي فال" وآخرين تجعل هذا الاستنتاج لا مفر منه. يقال إنّ البوذا حال دون وقوع حرب بين ممالك متخاصمة بهذه الطريقة. وفي سلالة تشو، قبل المسيح بأربعة قرون، جعل الفيلسوف مو تسو من عاداته السفر إلى ممالك بعيدة كلما لاح تهديد باندلاع الحرب بينها واضعاً فلسفته عن "المحبة العالمية والمصلحة المتبادلة" على المحكّ. لذا ليس هنالك من جديد بخصوص محاولة الأفراد والجماعات إيقاف الحروب بالتدخل بين الأطراف المتنازعة (وهناك مجموعات من حركات السلم الصغيرة التي ظهرت أيام مناهضة كل ما هو نووي أسمت نفسها "مشروع مو تسو"). فالجديد اليوم هو محاولة فعل ذلك بشكل منهجي، على نطاق عالمي. وليس الهدف هنا منع هذه الحرب أو تلك فحسب بل التوصل، آخر الأمر، إلى منع وقوع الحروب بالأساس، بتقديم بديل لاعنفي لذلك النظام بأكمله.

"على وجه التقريب"

للتدخل اللاعنفي، إن تمكنا من بناء كيانه إلى حدّ أن يلفت أنظار العالم، منافع ضخمة تتفوق على الطرق المعروفة والتقليدية لحلّ النزاعات الكبيرة. فما هي تلك الطرق التقليدية؟ إنها اثنتان: عليك إما أن تكرّ وإما أن تفرّ، إما أن تهدّد وإما أن تتجاهل التهديد. ولا يخدعنك النقاش من أجل الاختيار ما بين العقوبات والقنابل مثلما خُدع الكثيرون في حالة العراق عام 1990. من وجهة نظر اللاعنف كان هذا "خياراً" بين قوة تهديد وقوة تهديد. لقد قتلت العقوبات التي فرضت على العراق أكثر من 1.2 مليون إنسان، غالبيتهم من الأطفال، وغالبية هؤلاء لم يكونوا قد ولدوا بعد عندما قام رئيسهم بتحركه المشؤوم إلى داخل الكويت. إنه ليس بديلاً إنسانياً. وكما كرّر غاندي القول كثيراً: «لا أبالي كثيراً إن أنت قتلت رجلاً بالرصاص أم جوعته حتى مات موتاً بطيئاً»؛ فمن زاوية معينة، الموت بالرصاص أفضل: إنه يحدث ضجيجاً أكثر.

قد يبقي خيار عدم التدخل أيدينا نظيفة لكنّ له عواقب قذرة على المستوى الإنساني، حتى على أنفسنا. وكما قال الأسقف توتو عن البوسنة: "تتأثر إنسانيتنا بشدة" عندما نتجاهل مثل هذه المعاناة.

لا يمكنك أن تراقب الناس وهم يتصرفون بطريقة وضيعة مجرّدة من الصفات الإنسانية ولا تتأثر فعلياً. وما لم نعترف بأنّ لنا طبيعة إنسانية مشتركة فسنكون كلنا خاسرين... إننا نتأثر تأثراً عميقاً جداً، حتى عندما لا نلاحظ ساعتها ما يحدث لنا فعلاً.[288]

ما يحدث لنا حقاً هو أننا نعيش كذبة. عندما نتجاهل معاناة الآخرين فإننا نقول لهم: "إنها قسوة، لكننا لسنا أنتم." هذا بكل بساطة غير صحيح. لقد شدّد كل معلم للحكمة يستحق هذه التسمية على عكس ذلك تماماً، أي على أننا كلنا شركاء في سعادة بعضنا بعضاً. لهذا صنف غاندي، رغم أنّ ذلك يبدو أحياناً حكماً قاسياً، السلبية (والجبن) في مثل هذه الحالات باعتبارها شكلاً من أشكال العنف. وبلغة القوى التي تحرك مصير البشر، هذا ليس خياراً على الإطلاق.

من جهة أخرى، ينطوي حفظ السلام عبر استخدام الأسلحة على مشكلات كثيرة، حتى لو كنا نقصد بذلك عمل أصحاب "القبعات الزرق" – قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة وفقاً لتفويض البند السابع من ميثاق الأمم المتحدة، ولا ننسى السابقة الأشد خطورة بقصف الدول القوية عسكرياً لحكام مستبدين مختارين كي يخضعوا صاغرين كرهاً. (صديق شاب عملت معه من ألبان كوسوفو تعرض للتعذيب داخل سجن صربي بعد "تحرير" كوسوفو، ولاشك أنّ ذلك جزئياً كان انتقاماً من "تحرير" كوسوفو عن طريق قصف الناتو. لذلك قد أكون معذوراً لشعوري بشيء من المرارة تجاه هذا النوع من العمليات). وفي حين أنها تجري نتيجة لأفضل ما يمكن من الدوافع فإن عمليات الأمم المتحدة لحفظ السلام، من وجهة نظر اللاعنف، مثل حقيبة تحوي أشياء متنوعة. فهي محاولة لبلوغ غايات إيجابية عبر وسائل مؤذية – صنع السلام عبر أسلحة الحرب. فحمل الأسلحة مع عدم استخدامها (عموماً، يفترض بقوات الأمم المتحدة أن ترد على إطلاق النار فقط عندما تتعرض لهجوم) هو مفهوم الشخص العنيف عن اللاعنف. إنّ اللاعنف الحقيقي، كما رأيناه، ليس فقط الإحجام عن التهديد باستخدام القوة بل بالاعتماد على جاذبية الدمج – ليس بعدم استخدام كل القوى الموجودة بل بمدّ الأيدي للآخر.

ربما يكون هناك مجال لحفظ السلام بالسلاح في حالات معينة، ولكن عندما تتنافر الوسائل مع الغايات فلا يمكننا أبداً أن نتوقع أكثر من حلول ترقيعية – حالة "عمل" دون عمل. وبسبب هذا التناقض الضمني، وبالتأكيد ليس بسبب أي نقص في شجاعة الرجال والدول المشاركة أو إرادتهم، يُظهر تاريخ عمليات الأمم المتحدة لحفظ السلام عدداً متواضعاً من النجاحات لكن لم تكن هناك قوة سلام كافية لتلبية الطلب من أجل عمليات التدخل التي تزايدت بشكل مفاجئ ضمن حالات اشتعال النزاعات العرقية بعد الحرب الباردة. ويمكن التباهي بعمليات قليلة مثل "مشروع إعادة التوطين في قبرص" الذي كما يبدو قد

[288] - Speech by Bishop Tutu on January 2, 1993, on National Public Radio; cf. Robert Siegel, editor, *The NPR interviews*, 1994. Boston: Houghton Mifflin, 1994, p. 213.

وضع الجزيرة على طريق السلام. إلا أنه عندما تم استدعاء قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة باعتبارها *الـ*أسلوب [بأل التعريف] المناسب للتحرك إلى الأمام نحو السلام ككل، بدأت المشاريع تواجه انهياراً مخزياً.

كان لي صديق في الصومال يحاول باستماتة الحفاظ على دار للأيتام تشتد الحاجة إليه خلال الفوضى التي خلقها أمراء الحرب المتنازعون في تلك المنطقة. (صباح أحد الأيام، وبعمل ذي دلالة، تعرّض مجمّع الأمم المتحدة لهجوم بالرشاشات، فخرج جيم الذي كان يقوم بوساطة وهو يهز قبضته قائلا: "كيف، بحق الجحيم، يفترض بشخص أن يقوم بوساطة مع كل هذا الذي يجري!") أسرَّ لي جيم بأنه في تلك الأيام كانت قوافل الشاحنات المحملة بالغذاء التي تحرسها وحدات الأمم المتحدة ستخرج متجهة نحو مخيمات اللاجئين، وإذ بها تصطدم بزمرة من المقاتلين بثيابهم المهلهلة بعيداً في الصحراء. يطلق قطاع الطرق أولئك بعض الرصاصات في الهواء، فتضع مجموعة الحراسة التابعة للأمم المتحدة أسلحتها مستسلمة في الحال. يقفز المقاتلون، وهم غالباً ما يكونون فتياناً في سن السابعة عشرة، إلى داخل الشاحنات ويقومون بقيادتها باستهتار بعيداً بكل ما فيها من أسلحة وطعام وكل شيء. كان جنود الأمم المتحدة شجعاناً جداً؛ كانوا مدرّبين جيداً ولديهم أحدث المعدات. ما الخطأ الذي كان يحدث إذاً؟ حيثما نخطئ عادة في العالم الحديث: في الصورة الكبيرة – الفهم الأساسي لديناميات العنف والجانب المضاد له، الوعي بأن المتضادات هي في آخر الأمر متضادات – لا تخلق الأسلحة سلاماً. ليست القضية نقص في الشجاعة لدى أصحاب القبعات الزرق؛ القضية هي، مثلما هو حال شخصية إدوارد عند شكسبير، أنهم لم يكن باستطاعتهم أن يكونوا شجعاناً حيث يجب أن يكونوا شرفاء.

كان خليل عتوت، وهو من منظمة صيادلة بلا حدود، يقيِّم احتياجات اللاجئين الطبية في مدرسة سانت أندريه في كيغالي، رواندا، مصحوباً بمصور فرنسي. فأحاطت ميليشيات الهوتو بالمدرسة وبدأت تطلق الرصاص عبر النوافذ والجدران لتوقع إصابات خطيرة بعدد من البالغين والأطفال في المدرسة، وكذلك أُصيب المصور. وقد قتل بعضهم. كان مراقبو الأمم المتحدة في آليات خارج المدرسة، إما غير مسلحين أو مسلحين بالمسدسات، ولم يكونوا قادرين على تقديم المساعدة.[289]

من *كان* بإمكانه تقديم المساعدة؟ إنه فريق سلام مدجج بالسلاح... بسلاح قوة الروح. كان بإمكانهم الوقوف أمام الميليشيات وتلقي المعاناة بأنفسهم؛ كانت هناك فرصة قوية بأن لا تستمر الميليشيات بالتجربة طويلاً.

---

[289] - للحصول على تقرير جيد (لا علاقة له بتحليلي للاعنف) يتحدث عن الأمم المتحدة وعن محاولات أخرى للحصول على تدخل عسكري من أجل غايات إنسانية.، الرجاء العودة إلى

Thomas G. Weiss, *Military-Civilian Interactions: Intervening in Humanitarian Crises*, New York: Rowan and Littlefield, 1999

من رسالة كتبتها إيليز بولدينغ "لزملائها المهتمين بالخدمات الدولية اللاعنفية" في 10 حزيران 1994.

لقد قلتُ بأنّ المتطوعين الدوليين، الذين حاولوا أن يقدموا بعض المساعدة في البوسنة العام 1992، قد جرى تطويعهم على عجل، دون تدريب في حقيقة الأمر. لكنّ ذلك لا يعني عدم تمتعهم بمواهب مميزة. وقد نجحت مجموعة منهم بالوصول إلى أطراف سارايفو المحاصرة في حافلات قديمة. وكان يمتد أمامهم "شارع القناصة"، والذي كان يعني دخوله الموت لأيّ أحد شاء القناصة الصربيون قنصه. عرضت قوة السلام التابعة للأمم المتحدة في المنطقة – UNPROFOR، عليهم الحماية: فبإمكانهم أن يضعوا عربة مدرّعة أو دبابة في مقدمة طابورهم ومؤخرته، وإرشادهم إلى الطريق إلى داخل المدينة. وبعد مشاورات مختصرة رفض المتطوعون؛ فكما أوضحوا، سيفسد هذا النوع من "الحماية" كل ما أتوا من أجله. فدخلوا إلى سارايفو وحدهم، ولم تطلق عليهم رصاصة. عندما تتلاقى الأهداف مع الوسائل، يحدث ما يتجاوز في حجمه حجمهما.

جو لويا كاتب جيد أمضى مدة في سجن جنوب كاليفورنيا بسبب السطو على مصرف. (آمل أن لا ينتهي الأمر بنا كلنا نحن الكتاب على هذا الشكل). وبعد إطلاق سراحه، وعندما وجهت تهمة تعذيب سجين من هاييتي اسمه أبنر لويما إلى شرطيين في مدينة نيويورك، تمكّن لويا من إلقاء بعض الأضواء على هذا العمل العنيف الذي أصاب المدينة والأمة بالصدمة لوحشيته. وقد ألحّ لويا في القول: لا تكثروا اللوم على هذين الشرطيين كما لو أنهما وحدهما الملومان، أو على نيويورك خاصة. إنه نظام السجون ذاته الذي يتحمل المسؤولية فيغير طبيعة الناس، بل حتى يجعلهم قساة ساديين أحياناً. كتب يقول: "رأيت الكثير من ضباط السجون الجدد يأتون إلى السجن شباباً بوجوه نضرة متحمسين وفيهم شيء من المثالية أحياناً". لكن مع مرور الزمن "بدأوا كلهم يشبهوننا... يستخدمون الألفاظ البذيئة، يتبخترون كرجال العصابات، والمثير للسخرية... (أنهم كلهم) كانوا يتبنون مواقفنا المليئة بالعجرفة تجاه "الأشخاص الطيبين". المؤسف، حسب لويا، هو "أن ذلك لم يحدث بالاتجاه المعاكس. إذ لم يبدأ السجناء يتشبهون بالشباب ذوي الوجوه النضرة الذين أتوا حديثا لتطبيق القانون".[290] [لويا 1997]

كان لويا يَلمَح المبدأ الهام القائل بأنه عندما يقوم نظام على قوة التهديد فلا يمكنه إلا أن يقزّم البشر الذين يتحركون ضمن دائرته ليصبحوا مخلوقات قوة تهديد. لقد صُدمتُ لدى قراءتي هذا التعليق بتطابقه مع ملاحظة الدكتور عزيز النافذة والبصيرة في رواية إي إم فورستر عن الإمبراطورية البريطانية "*طريق الهند* *A Passage to India* ": «ليست لديهم فرصة هنا... يأتون وهم ينوون أن يكونوا رجالاً مهذبين، ويقال لهم إنّ ذلك لن ينجح... أنا أُمهل أيّ بريطاني سنتين»[291]

إنّ نظام السجون، والنظام الاستعماري، ونظام الحروب – نموذج التفكير والعمل هذا بكامله، وكل المؤسسات – كلها قائمة على قوة التهديد. والجواب هو ليس فقط بالتخلص من تلك الأنظمة، مع شدة ميلنا لذلك، لأنه إلى حدّ ما يؤدي الأول والثالث على الأقل وظائف ضرورية بحيث لا يمكن لمجتمع

[290] - JOE S. "HOW COPS ARE TURNED," *CLEVELAND PLAIN DEALER*, AUGUST 26, 1997.
[291]- Forster, E. M. *A Passage to India*. New York: Harcourt, Brace and Co., 1952, p. 11.

معاصر أن يستمر بدونهما، وليس من المحتمل أن يحدث ذلك لفترة من الزمن مستقبلاً. إلا أنه وبحسب معرفتنا اليوم لهذه الأنظمة هي مجرد قنوات لتمرير قوة التهديد، لقد تمّت إقامتها في زمن كان ذلك هو النوع الوحيد من القوة الذي يعرفه معظمنا. الجواب هو في إعادة تنظيم هذه الأنظمة كي تؤدي عملها كقنوات لنوع آخر من القوة.

في *"جيش السلام عند غاندي: الشانتي سينا وعملية حفظ السلام دون سلاح"*، أحد أوائل الكتب التي وضعت حول فرق السلام، يقتبس توماس فيبر من "شانتي سينيك هندي"، أو متطوع في جيش السلام، خدم في قبرص: «في حين كانت الإلفة عائقاً بالنسبة لجيش قائم على العنف، فإنها عامل أساسي لدى جيش لاعنفي فعال.»[292] وهذا معاكس تماماً لما لاحظه جو لويا وإي. إم. فورستر. إنّ الإلفة في نظام التهديد كارثة. كادت الحرب العالمية الأولى أن تتوقف لدى قدوم أول عيد ميلاد عندما أعلن جنود "العدو"، الذين كانوا قد علقوا في الخنادق على مسافات قريبة يمكن أن يرسل فيها الطرفان المتعاديان التحيات لبعضهما، هدنة خاصة بهم، وانطلقوا بين الجهتين داخل المنطقة العازلة يتبادلون القصص والصور الفوتوغرافية لحبيباتهم في الوطن. كان على الضباط الذين أصيبوا بالرعب من كلا الجانبين أن يهدِّدوا الرجال بعقوبات قاسية لكي يستأنفوا الحرب. وأقتبس مما كتبه الصحفي كريس هيدجز الذي شاهد حروباً لا يتذكر عددها لكثرتها: «إن استخدام العنف بحد ذاته يُفسد الذين ينفذونه.»[293]

لدى إحالة الملازم ماكس بلومان إلى المحكمة العسكرية بعد تقديمه استقالته من مهامه خلال الحرب العالمية الأولى، أوضح للقاضي أنه «لا يمكن للفوضى أن تُنجب نظاماً؛ فاقتراف الشر وتوقُّع حصاد الخير حماقة واضحة»[294]

ربما يجادلون بأن هناك وظيفتين شرعيتين لنظام الحروب العالمي الحالي: التدخل، عند وقوع حرب عنيفة أو غير متكافئة في مكان ما من العالم، والدفاع. ما رأيناه الآن هو أنه يمكن التعامل مع كلتا الحالتين من خلال فرق السلام. سيحمينا ذلك من تناقض استخدام وسيلة طالحة من أجل غاية صالحة. «يرسّخ العمل اللاعنفي، من خلال التوقع ضمن عملية التغيير ذاتها، القيم التي سيؤدي بنا إليها أخيراً. وبالتالي من العبث بذر السلام من خلال وسيلة الحرب، أو محاولة البناء من خلال الهدم»[295] لدى إدراكه هذا، حدد جوهان غالتنغ اللاعنف فعلياً على أنه «صنع السلام بوسائل سلمية»

ولكون اللاعنف يعامل الناس باهتمام واحترام، فلا يجرّدهم من إنسانيتهم أبداً، فإنّ صنع السلام عن طريقه ينجح حتى عندما "يخفق"، في حين أن "صنع السلام" باستخدام السلاح يخفق في تقريبنا إلى عالم أكثر سلاماً، حتى عندما "ينجح". فكروا في العبارة الرومانية بمفارقتها: «إذا أردتم السلام، فاستعدوا

---

[292] - Weber, Thomas. *Gandhi's Peace Army: the Shanti Sena and Unarmed Peacekeeping*. Syracuse: Syracuse University Press, 1996, p. 133.

[293]- CHRIS HEDGES, "WHAT I READ AT WAR," *HARVARD MAGAZINE* (JULY-AUGUST, 2000) P. 61.

[294] - *Housman's Peace Diary* for 1998, Stony Creek, Conn.: New Society Publishers.

[295] - Esquivel, Adolfo Perez. *Christ in a Poncho: Testimonials of the Nonviolent Struggles in Latin America*. New York: Orbis Books, 1984, p. 127.

للحرب». لقد رأينا مدى نجاح هذا في دينامية الحركة المتصاعدة دوماً في الحرب الباردة، مثلما هي الحال في كل سباقات التسلح منذ ذلك الوقت أو قبله. إذاً، ما الذي يجب على البلد أو الجماعة المعرضَيْن للتهديد عمله؟ حسناً، إذا استطاع شعب أن يجهّز نفسه للقيام بعصيان مصحوب بإظهار التآخي حسبما كان تصور غاندي للهند، وحسبما قام به المواطنون التشيك إلى حدّ ما في براغ، فلن يشكل ذلك تهديداً، كائناً ما كان، لسلامة المجتمعات الأخرى. سيكون قادراً على إعداد دفاع قوي دون أدنى استفزاز للمعتدي. فاللاعنف لا يهدد أحداً إلا الحكام المستبدين، وفقط إن كانوا يدركون ما يمكنه فعله.

تحدثنا في الفصل الثالث عن شهادة "سو سيفيرين" التي عثرت مصادفة، مع متطوعين آخرين من منظمة "شاهد على السلام"، على قوة المرافقة الحمائية في العام 1982، وكيف وجدت أنّ المكافأة النفسية على ما فعلته "مسبّبة للإدمان". ولم تكن الوحيدة، فقد ذهبت راندي بوند إلى مدينة الخليل مع مجموعة صغيرة قامت على تنظيمها "فرق سلام ميتشيغن"، وكتبت تقول: «كنا مجموعة صغيرة من الناس العاديين نقوم بأمور غير عادية في جزء جريح من عالمنا. كان علينا أن نتوسع بأنفسنا وقدراتنا من أجل القيام بهذه الأمور. تلك هي الطريقة الوحيدة لكي نكبر»[296]. بالمقابل، استمرت حرب فيتنام في قتل الأميركيين بعد مغادرة آخر طائرة مروحية لسايغون بوقت طويل. كانت تقتل بالضغط النفسي المبرح الناشئ عن القيام بأشياء فظيعة بالناس دونما سبب مُقنِع، كما بدا بصورة متزايدة واضحاً. فقد عاد أحد أصدقائي من المحاربين القدماء دون أية إصابة جسدية لكنه ظل بعد ذلك لسنوات يدخل في نوبات تعرق بارد ورعب في كل مرة كان يسمع فيها صوت طائرة مروحية. وقد استغرق ذلك حوالي سنة إلى أن تعلم تلاوة ترنيمة مع التأمل لشفاء نفسه، ولم يكن كثيرون محظوظين مثله. كانت حالات الضغط النفسي لما بعد الإصابة بالأذية واسعة الانتشار إلى درجة أنه كان يعتقد في فترة من الفترات أن عدد المحاربين القدماء في فيتنام ممن أقدموا على الانتحار بعد العودة إلى الوطن "بسلام" أكبر من عدد الذين قتلوا في معارك فيتنام نفسها. ومع ذلك فإنّ أحد رجال المارينز، والذي خدم في الصومال للقيام بمهمة إغاثة من المجاعة في العام 1992، قال للصحافة: «كان هذا أكثر الأعمال مدعاة للرضا الداخلي مما قمت به في أي وقت من الأوقات»، مردداً ما كان يقوله الفاعلون اللاعنفيون في أغلب الأحيان، مثل مارج أرجيليان التي سمعناها تقول في الخليل: «إن لهذه التجربة من الكمال أكثر من أي عمل قمت به». البشر هم بشر؛ فنوع العمل الذي تزجهم فيه، نوع الطاقة التي تعرضهم لها، يحدد، إلى حد كبير ما، سيؤولون إليه.

اجعلوا المحبة *تحل محل* الحرب: الرؤيا تتحقق

[296] - from the *Michigan Peace Team Bulletin* 2 (1998), p. 8.

لم يكن موضوع هذا النقاش هو أن فرق السلام قادرة على إنهاء الحرب. كان الموضوع هو أن اللاعنف قادر على إنهاء الحرب. لقد تفكّرنا الآن بشأن المستويات الثلاثة للتغيير الذي ينبغي أن يحصل – في التفكير، في الكلام، وفي العمل – من أجل التأثير الخلاق لقوة الروح التي ينبغي للناس العاديين أن يطبقوها في سبيل تحقيق نظام حكم السلام. وكما هي الحال مع كل ديناميات التغيير الرئيسية، يمكن أن تظهر "نقطة ترجيح" يكون عندها الضغط باتجاه التغيير السلمي كافياً لترجيح الكفة، ويكون بإمكاننا أن نبني ما لا يمكن التفكير فيه الآن بالنسبة لنا – عالماً خالياً من الحرب[297]. ولا أحد يعلم بالضبط ما هو ذلك الحكم، أو أين هي مواضع الترجيح، إنما يبدو جليّاً وجود ما أسماه غاندي "قانون التقدم" حيث تتراكم النجاحات فوق نجاحات سبقتها. ومن الواضح أنّ كمية الطاقة التي نحتاجها للبدء بتغييرات لمباشرة العملية ستكون مرتفعة جداً؛ لكن فيما بعد، وعندما يكون هناك زخم واضح، يمكن للقليل أن يفعل الكثير. كل التغييرات الكبيرة هي على هذا المنوال؛ تبدأ كل التغييرات الحقيقية وهي تبدو غير مألوفة لتصبح عند نقطة معينة هي المعيار.

سوف تلعب فرق السلام دوراً خاصاً في تحقيق هذه الرؤيا، لعدة أسباب. إنّ فرق السلام، إلى جانب "الدفاع القائم على أساس مدني"، هي نوعية اللاعنف الذي يمكننا استخدامه لوقف حرب ما حتى بعد أن تبدأ. نستطيع استخدامها في الحالات الطارئة القصوى التي تجتاح أجزاء مختلفة من الكرة الأرضية، أو في الحالات الطارئة البطيئة كالنزاعات ذات "الشدة المنخفضة" التي نشبت في أنحاء أميركا الوسطى، حيث ولدت عمليات المرافقة الحمائية. ونستطيع استخدامها في النزاعات داخل المدن في أنحاء العالم الصناعي، والتي ستكون أقرب للتصور الذي كان في ذهن غاندي عنها. فإذا كنا نستطيع أن نُظهر أنّ اللاعنف قادر على أن يفيد في النزاع الحاد فسنكون قد أظهرنا أنه يستطيع أن ينفع في أي مكان.

سيبدأ التدخل اللاعنفي الناجح في تغيير "أساس" الأمن العالمي، ليظهر أنّ اللاعنف، وليس العنف، هو الحصن الأساسي الذي يُعتمد عليه من أجل السلام والدفاع الدوليين. وهذا ما سيهز أركان نظام الحروب كما لم يهتز من قبل خلال كل هذه القرون المضطربة: وكان هذا بالضبط هو أمل أكثر من ألف متطوع ممن تدفقوا إلى المكاتب المؤقتة الخاصة لـ"بذور السلام" و"فرق سلام البلقان" في إيطاليا وألمانيا وهولندا والولايات المتحدة، وكل الأمكنة الأخرى خلال الشتاء المتجهم لعام 1991 ، عندما نسي البشر في البوسنة أنهم بشر.

ما كان لهم أن يلاقوا النجاح ذلك الشتاء في موستار أو سراييفو أو توزلا، إلا أن هذه الجهود، مثل كل التجارب حتى الآن، استمرت رغم «النقص المزمن في الموارد... وعدم كفاية البنية التحتية، وسوء الاتصالات، وفرص التدريب المحدودة»، دون أن نذكر البرود شبه الكامل لوسائل الإعلام

[297]- Tipping Point: Cf. the book of that title by Malcolm Gladwell, New York: Little Brown, 2000.

الجماهيرية, و«الفهم الشعبي الضعيف لديناميات وتاريخ مظاهر العمل اللاعنفي هذا»[298]. تخيلوا فقط ما كان يمكن عمله بوجود الموارد الكافية، والبنية التحتية الجيدة، والاتصالات، مع المساندة الشعبية، مع وسائل تحذير إعلامية حرة. تخيلوا كيف كانت ستكون الصورة لو لم يكن هنالك بضعة آلاف، وإنما "مئات آلاف" المتطوعين المدربين جيداً والمزودين بما يحتاجونه بشكل لائق، والمتميزين كما يجب.

لقد أظهرت انتصارات ومآسي يوغوسلافيا السابقة لحركة فريق السلام أن المتطوعين بحاجة إلى تدريب دقيق قبل أن يدخلوا إلى مواضع الأزمات الحادة.

ويحتاج المتطوعون أيضاً إلى الدعم، وهذا ما يحلّ في المقام الأول. لقد أحصى الجيش الأميركي أن هنالك خمسة وعشرين فرداً من غير المقاتلين يعملون ضمن شبكة المساندة مقابل كل جندي؛ وبنفس الطريقة ستوفر مأسسة السلام فرصاً للمساندين من ذوي المواهب المختلفة والكثيرة. ستكون *تلك* المساندة أقل في طبيعتها من أن تكون مالية (أقل بكثير مالياً)؛ وسيكون من اللازم أن تضم شيئاً لا تضمنه الحرب التقليدية: سوف تحتاج إلى ما يسمى "تأويل". فالعالم بأجمعه يعرف (أو يعتقد أنه يعرف) كيف يعمل العنف، لكنه لا يعرف كيف يعمل اللاعنف. حتى النجاح المثير لفريق سلام لاعنفي ربما يتم تجاهله أو يساء التعامل معه من قبل الصحافة إلى حدٍّ لا يكون له فيه تأثيره التعليمي. فلا فائدة من تقديم "عرض بصري" إن لم يكن هناك من ينظر إليه، وقد رأينا أمثلة مؤسفة على هذا، من حالات فردية (جون بلاك) إلى *الانتفاضة* وكوسوفو. ربما اكتنف منطقَ الحرب خللٌ عميق لكنه شائع بصورة مروعة، وبسيط إلى درجة تبعث على الشلل؛ إنه يأتي مباشرة مما نرغب في الاعتقاد بأننا نعرفه عن الطبيعة البشرية: بأن الناس منفصلون عن بعضهم البعض ويستجيبون للقوة فقط. ليس هكذا هي الحال مع منطق السلام. فالكتّاب الجيدون والمتحدثون والفنانون – كل أصناف صنّاع الثقافة وناقليها، الأكاديميون والناس العاديون الذين يتحدثون إلى جيرانهم – لدينا عمل خلاق لدرجة السمو وُجد خصيصاً من أجلنا. نحن اليوم ننقل إلى بعضنا البعض أخبار الحرب التي لا تنتهي والمثيرة للاشمئزاز: يمكننا الآن أن نتعلم تبادل أخبار السلام.

حتى المرافقة الحمائية، وهي عادة نوع من التدخل في حالة إثر حالة، كانت لها صدى واسع بالفعل، كما رأينا لدى تكوين "الفضاء السياسي" في أماكن مثل غواتيمالا، حيث تحولت عملية إرهاب محض إلى واحد من حوارات الإنكار. لقد تحدى فريق هاييتيٌّ مؤلف من أربعة وستين فرداً شكَّله اتحاد ألوية السلام الدولية ميليشيا "FRAPH" ستة أشهر، منقذاً أرواحاً بشرية لا حصر لها من الموت. فكما رأينا، في لحظة مخيفة معينة في غواتيمالا، كان تواجد ألوية السلام الدولية بصورة "فريق" قوامه فرد واحد. فاللاعنف يمكن أن يطبق، إن حتمت الضرورة، من دون أعداد كبيرة من الأفراد. المسألة هي أنه لا يمكن فهمه ومأسسته دون توافر أعداد كبيرة.

---

[298] - Moser-Puangsuwan and Weber, op. cit., p. 320.

استقر رأي عالم السلوكيات وتشكل الشخصية كونراد لورينز – وهو ليس بالمنظِّر الكبير لكنه عالم متميز – بعد أبحاث علمية واسعة، بأن الحرب لم تبرمجها الطبيعة. «لقد أصبحت الحرب الحديثة مؤسسة، و... لكونها مؤسسة فبالإمكان إلغاؤها.»[299] وما أقوله هنا هو العكس، والمكوِّن العملي المفقود: *يمكن مأسسة السلام*. فعندما يحدث ذلك، لن تكون الحرب سوى ذكرى سيئة.

تغيير الصورة العظيمة

كل ما نعرفه عن تبدلات النموذج – إذ إننا عن هذا نتحدث – يخبرنا أنّ هذا النوع من التغيير الهائل لا يُفهم جيداً لكنه ممكن بكل تأكيد. وهو يتركنا في عالم لا يمكن التكهن به فيما يتعلق بزمن وكيفية حدوث مثل هذا التبدل بالضبط. ونحن لا نعرف إلا القليل عن كيفية إمكان توجيهه وتسهيل حدوثه. لكن يبدو من المؤكد أن هذا التبدل بالذات يحتاج إلى توجيه واعٍ أكثر مما حصل في أزمنة مضت. وهذا ناتج جزئياً عن أن الوضع العالمي الذي نواجهه الآن شديد التعقيد، وإلى حد ما عن السرعة التي يتوجب على البشرية أن تستعيد فيها صحتها العقلية. فلم يبق هنالك الكثير لإنقاذه إن انتظرنا حدوث هذه العملية من تلقاء نفسها.

ومن أجل فهم التغيير المطلوب علينا أن نفكر بنوع من التبدل يختلف قليلاً عن تلك التغييرات التي بنى توماس كون عليها كتابه "بنية الثورات العلمية"، الذي جعل عبارة "تبدل النموذج" تعبيراً مألوفاً. علينا أن نفكر بالتبدل الذي لا يُصدَّق للوعي الذي أيقظته معاناة المناصرين الأوائل وما تلاه من عمل شاق "لآباء (وأمهات) الكنيسة، الذين أوجدوا عالماً للفكر تتركز فيه قداسة الفرد والله الواحد. ذلك التبدل العظيم أتى، أيضاً، من موجة إيمان عميقة هائلة وتطلّبت الكثير من التفكير المتأني لتوضيح كيف يعمل النظام الجديد. وبغياب التدخل الإلهي، علينا أن نعمل بطرق كثيرة من أجل هذا "التحول العظيم"، حسبما يُدعى اليوم.

لذا من المفيد تذكر الأمرين الكبيرين اللذين يجعلان مثل هذا التغيير الهائل ممكناً. الأمر الأول هو أن السلام هو الدافع الأعمق في كياننا الإنساني. ففي أعماق تكويننا – الذي نعترف بأغواره السحيقة – «ما من إنسان لا يتوق قلبه إلى البهجة والسلام.»[300] ربما تبدو المظاهر قاتمة جداً، وبالتأكيد هي الآن بالذات قاتمة جداً؛ لكنها تبقى مجرد مظاهر.

... فكروا بالرجال المنهمكين بالحرب. ما يريدونه هو الانتصار، مما يعني أن معاركهم ليست إلا جسوراً إلى المجد والسلام. إن مجمل قضية النصر هو إركاع الخصوم – وما أن يحدث ذلك حتى يتبعه السلام. فالسلام، إذاً، هو الغاية من شن الحرب؛.... لنلاحظ أنّه من الممكن أن تكون هناك حياة دون

[299] - Lorenz, Konrad. *On Aggression*. Marjorie Kerr Wilson, translator. New York: Harcourt, Brace & World, Inc., 1966, p. 284.
[300] - Walsh, Gerald G., and others. *St. Augustine, City of God*. New York: Image, 1958, pp. 451, 457.

ألم، لكن لا ألم دون حياة من نوع ما. وبالطريقة نفسها، يمكن أن يكون هناك سلام دون أي نوع من أنواع الحروب، لكن ليست هناك حرب لا تفترض نوعاً ما من السلام.

حتى أولئك الذين يشنون الحروب يفعلون ذلك كي يصلوا إلى نوع من "السلام" ضمن حدود فهمهم، حسب قول أوغستين. وهذه الحدود هي تلك التي نستطيع دائماً دفعها إلى الوراء لتوسيعها بفعل الثقافة والتعليم. «السلام هو مطلب، لا بل جوع كل روح»[301] نعم، إن التخلص من الحروب مهمة هائلة؛ لكنها المهمة الذي نعمل جميعاً من أجلها، ولا يمكننا الركون إلى الراحة إلى أن تُنجَز. وفي الحقيقة، كما بينت شيري أندرسون وبول راي مؤخراً، يبحث خمسون مليون أمريكي عن طريق لصنع هذا التغيير، وهو طريق لا شيء يشير إليه على البوصلة السياسية النموذجية، والسبب الوحيد الذي يجعلهم لا يُسمِعون أصواتهم هو أنهم أساساً لا يعرفون بعضهم بعضاً.»[302] والوضع نفسه تقريباً موجود في دول أخرى: فالعالم ينتظر تبدلاً تتجمع مكوناته من تحت الخطاب العام وما وراءه.

الحقيقة المشجعة الثانية هي أنه في حين تمّ اختبار أشياء كثيرة ضمن طرق تعاملنا المتفرقة مع هذا الواجب العظيم، هناك شيء واحد لم يُجرب. فلم يجرِ وضع قوة الروح موضع العمل بصورة منهجية لخلق ظروف ومؤسسات للسلام المستديم. لذلك، وكما اعتاد نورمان كزنز أن يقول: «ليس هناك من يعرف ما يكفي لكي يكون متشائماً». فقبل القرن العشرين، لم تكن لدينا أبداً الوسيلة لتطبيق اللاعنف على السلام العالمي بصورة منهجية – أو أننا لم نكن نعرف بوجودها لدينا. لقد عاش غاندي ومات كي يرينا أنها موجودة لدينا؛ نساء غوجارات اللواتي يثني عليهن، بَتَن الحدود الشمالية الغربية – لقد عاشت جماعات وأفراد وماتت لكي يظهروا لنا فائدة هذه القوة. هذا هو الوقت المناسب لنتعلم الدرس منهم. دعوني أُصرّح بما أعتقد أننا تعلمّناه من عملهم ومعاناتهم: *ليست المهمة هي وقف الحرب بقدر ما هي بدء العمل اللاعنفي.*

لم يتوصّل علماء شيكاغو إلى معرفتها، إلا أن الصورة الواضحة التي فتشوا عنها في ذلك اليوم من العام 1946 كانت قد بدأت بالانبثاق في الحال.

---

[301] - SWAMI. *RAMDAS SPEAKS*, VOL. III. BHARATIYA VIDYA BHAVAN, 1957, P. 43.

[302] - Paul H. Ray and Sherry R. Anderson. The Cultural Creatives. New York: Three Rivers Press, 2000.

الفصل التاسع

نحو ميتافيزيقيا الرأفة

"من الواضح أن قانون منع قتل الحيوانات يستند على خرافة لا معنى لها أو على شفقة أنثوية أكثر منه على منطق سليم" – سبينوزا

"الرأفة هي تطرف هذا العصر" – قداسة الدالاي لاما

تعتبر ملاحم هوميروس أول وأعظم شعر في الحضارة الغربية. وقد نُظِر إليها غالباً كشعر عن الحرب, لكن هناك جانب مهمل يتعلق بفهمها العميق للحرب, وهو على وجه التحديد ما أسماه وِلفرِد أون Wilfred Owen "تعاسة الحرب" وما يفعله عنفها بالنساء وبالعائلة. في الواقع, إن ما وصفه هوميروس في كلا القصيدتين هو طبيعة المجتمع الذي نحصل عليه إن كان نوع السلام الوحيد الذي نعرفه هو تلك الراحة المضطربة وسط خرائب صراع متقطع. وهذا سطر واحد من تلك القصة التي رواها الإله أپولو في نهاية كتاب الإلياذة, الكتاب 24 (الذي يسميه العلماء: النهاية), السطر 54. [راجع النص الإغريقي: ص 257]

"انظر إنه يعتدي على الأرض الصامتة بانفعاله."[303]

إنه أخيل, البطل شبه الإله الذي يجسد الحرب ويمثلها. وهو يرتكب إهانة خطيرة بسحله جثة عدوه هكتور المعلق بطرف عربته حول المخيم, ويحاول أپولو إقناعَ الآلهة بالتدخل لوقف الإساءة. مختتماً بهذا شعره عن الصيد. في الحياة، كان هكتور محارباً يدافع عن وطنه طروادة. فقتل صديق أخيل؛ ولكن نتيجة للموت، اعتقد الإغريقُ أنه لم يعد ينتمي إلى مدينته أو إلى أخيل الذي قتله بالمقابل, إنما بات ينتمي إلى الأرض. لأنه ومهما كان هكتور في حياته, فإنه بات ينتمي بعد موته إلى دورة الطبيعة. وبوسع أخيل أن ينتزع حياة هكتور – فهذا هو قانون المحارب – لكن ليس بوسعه انتزاعَ روحِه وعقله. وكل ما يفعله أخيل اليوم برفضه التخلي عن جثة هكتور للأرض يتجاوز ذلك القانون. إنه انتهاك – أو بتعبير آخر عنف (في اليونانية المبكرة كلمة hypris تحمل المعنيين نفسهما).

[303] - في السطر 22 يقول الشاعر نفسه: إن "أخيل كان يذل هكتور العظيم بغضبه" مقاربًا بهذا ما بين الجسد والتراب، وما يرافقهما من انعكاسات رمزية، ودامجًا صوته مع أصوات الآلهة.

وبالضبط قبل القصيدة 54,تحدث أپولو عن العنف بطريقة متطورة كما سنرى في هذا السطر المؤثر:

"لأن أخيل بفعله هذا لا بدّ إلا أن يخسر."

فهو, بتدنيسه جثة عدوة الصريع, وبانتهاكه نتيجة لذلك لقانون الحرب السائد, سيدمّر نظاماً قيماً جداً يعتمد هو نفسه عليه لكي يعطيَ حياته وشرفه معنىً. مرة أخرى التناقضات الكامنة للعنف. لأنه عندما تصلُ اللعبة إلى هذا الحد – من يستطيع وقفَها؟ – ولا يفوز أحد.

ورغم هذا فإن "الأرض الصامتة" صورة ضاربة لها الصدى نفسه في الشعر الڤيدي الهندي القديم، كما في منقول هوميروس (فالاثنان متصلان رغم الفرق بينهما) ومازال صداها موجوداً إلى يومنا هذا.

و"الأرض الصامتة" هي دروبادي Draupadi الذي أُهين في محكمة كوروس لأنه أرسل مهاباراتا العظيم إلى الحرب؛ إنها سيتا ("المتجعدة") التي اختطفها أرخيدمون في ملحمة رامايانا, والإمرأة الطروادية في مسرحيات يوربيدس الكلاسيكية, حيث لا شيء ولا أحد بوسعه جعل صوتها مسموعاً في الشدائد, لأنه كل ما هو عرضة للخطر. لقد قتل أخيلُ العديد, واستوعب قانونُ المحارب ذلك. لكن ما يقتله أخيل الآن هو الرحمة. وما من ثقافة بوسعها أن تستوعب ذلك وتتعايش معه. لذلك، أود في هذا المقطع التحدث عن الرحمة لأستدعيَ من خلالها وأربط بها مفهوم يستطيع أن يساعدنا على الفهم وعلى الشعور.

من بوسعه أن يسمع صراخَ الأرض[304]؟ لقد كان أپولو يحمي بطريقة سحرية جثة هكتور (ومن خلالها مكانة أخيل) من الأذى بينما كان البطل يسحل عبثاً جثة عدوه الصريع حول معسكره. وهو الآن يقنع باقي الآلهة الأخرى للتدخل لأن ما لا يقل عن كامل منظومة القيم، وبالتالي كامل منظومة الكون أضحت معرضة للخطر. وما يثير الاهتمام هو أنه كانت هناك خطة لسرقة جثة هكتور, لكن الآلهة لم تتابعها .لأن هذا بلا جدوى، فما يحتاجه النظام هو تغيير قلب البطل. وعلى الرغم من أن هوميروس لم يتحدث بصراحة عن الحياة الداخلية كما نفعل, لكنه أخبرنا بوضوح عندما رفض الآلهة سرقة جثة هكتور بأن التغيير يجب أن يكون في داخل أخيل وبإرادته.

وتأتي الإلهة ثيتيس– والدة أخيل– فوراً لتقنعه بمنطق أمومي جداً أن يعيد جثة هكتور إلى عائلته لإجراء مراسم الدفن اللائقة, ولكن هذا لم يعد ضرورياً لأن البطل كان قد تغير. وكان المشهد العظيم الذي تلا هو ذلك المشهد الذي جمع بين أخيل وپريام والد هكتور, حين استجمع الرجل العجوز شجاعته ليقبل تلك اليد القاتلة التي انتزعت حياة ابنه، هي الذروة الخانقة، لصلح تم انتزاعه بصعوبة، ما جعل القصيدة تبدو وكأنها بدأت بالهبوط.

---

[304] - هو العنوان الفرعي للنسخة الألمانية لسري إيكناته إيسوران أي *العالم الرؤوف*. Berkeley, California: Nilgiri Press, 1989.

إن قدر أخيل يتحدث إلينا جميعاً. لأننا، نحن أيضاً، لم نعد نرى الرحمة – ولأننا مثله تماماً نستطيع أن نفتح أعيننا من جديد. فعبقرية هوميروس الغائب وتراثه، ربما الأفكار والصور الآتية ستساعدنا على ذلك.

في أوائل شهر أيار 1998 وقف عدة أعضاء من المحتجين على العقوبات الدولية على العراق إلى جانب سرير مصطفى، وهو واحد مما لا يقل عن عشرات الأطفال الذين ينازعون في جناح محتشد وقذر من المشفى الرئيسي في مدينة البصرة، المرفأ الجنوبي للعراق. أما والدة مصطفى الطويلة، والنحيفة والجميلة جداً فقد كانت تجلس متربعة على الفراش بجانبه وتبعد عنه الذباب، وقد شرح لنا الطبيب بأن الطفل بقي في المشفى طيلة الأيام العشرين الماضية وهو يعاني الآن من فقدان جسمه للماء، والإسهال، بالإضافة إلى فشل كلوي حاد وضمور عقلي شامل. وبسبب نقص المعدات والأدوية التي تمكن من تشخيص حالة مصطفى وعلاجه لم يكن بوسع الأطباء إلا أن يقفوا عاجزين ومحبطين بينما كان وضع الطفل يتدهور. وكانت العينان الواسعتان، الجادتان والمضيئتان لوالدته إيما النوري التي في الخامسة والثلاثين من عمرها تتابعنا كلما كنا نتوقف قربها. وقد بدت مستغربة حين طلبنا منها أن تخبرنا القليل عن نفسها. ثم أخبرتنا أنها تعيش في منطقة قروية شمال البصرة وأن لديها طفلين في المنزل تشتاق إليهم الآن كثيراً. وقد طلبنا من الطبيب إبلاغها بأننا آسفون جداً وأننا سنخبر الناس في أميركا بقصتها وسنبذل جهدنا لإنهاء العقوبات الدولية. أما هي فقد هزت برأسها وابتسمت. ثم نوهنا بأن الناس في الولايات المتحدة يحتفلون في هذا اليوم بعيد الأم وسألناها إن كان لديها رسالة للأمهات في دولتنا. فتملكتها الحيوية فجأة وأجابت بأن لديها رسالتين: "أولاً، أخبرهم على لسان امرأة عراقية أن هؤلاء هم أطفالنا وأننا نحبهم كثيراً" ثم أكملَت وهي تمسد وجه مصطفى "اطلب منهم رجاءً أن يحاولن مساعدتنا لحمايتهم والاعتناء بهم. أما فيما يتعلق بالنساء الأميركيات فأنا أريدهن أن يشعرن ما أشعر أنا به"[305].

وكلمة الرحمة تعني حرفياً (التعاطف مع المعاناة) هي بالتأكيد تؤلم. لكننا حين نعاني مع الأخر نكبر وحين نغلق قلوبنا تجاههم نموت من الداخل. والكلمة التي تعني الرحمة بالعبرية rehamim وهي جمع rehem (رحم). وأن تكون رحيماً مع شخص هو أن تكون معه إلى حد قليل – أو ليس قليلاً جداً – كما تكون كل أم مع طفلها.

[305] - E-mail of May 24,1998 entitled, "To Feel What Ima Feels," by Kathy Kelly of the Voices in the Wilderness, and reproduced with her permission.

لنعد هذه التبصرات إلى سياقنا التاريخي. فاللوحة التي نراها الآن قد رسمت على يد جوزيف ورايت من دربي JOSEPH WRIGHT OF derby عام 1768, أي بعد 46 سنة من تلك التي علمنا إسحق نيوتن فيها أن المادة تتألف من كتلة من الجزيئات المتحركة والتي لا يمكن اختراقها. ما يعني بعبارة أخرى, مع بدايات المذهب المادي العصري وبداية انقطاعه الفاصل مع المفاهيم التقليدية القديمة حين كان الجنس البشري على علاقة عضوية مع الأرض الحية.

فالبالغ الذي نراه في الصورة هو عالم رحالة, أو إن أردتم, هو رحالة مبشر بالدين الجديد، يعرض مضخة خوائية (مفرغة للهواء) لجمهور مستغرق. فهو يضخ الهواء خارج القفص الزجاجي، ولجعل تلك الحقيقة مرئية يضع عصفوراً داخل القفص. وبمشاهدة العصفور يلهث طالباً النفس, بمعنى آخر، هم يستطيعون أن يبينوا أنه لم يبقى المزيد من الهواء داخل القفص، فيتأثروا بما تستطيع التكنولوجيا فعله. ولكن ما هي التأثيرات الأخرى التي نتلقاها نحن؟ إن الاهتمام الواقعي والحقيقي في اللوحة هو الأطفال. وبالنسبة لهم هذا ليس من عجائب العلم. لأنهم لسذاجتهم لا يتبعون الشرح حول الضخ والهواء، لأنهم يعتقدون أن هناك رجلاً يقتل عصفوراً صغيراً فحسب. فالقصة الحقيقية للوحة تكمن في التناقض بين المحاضر اللامع الذي يسيطر على الجمهور المفتون به، ككاهن أكبر للتكنولوجيا، وبين كرب الأطفال – ولأنهم في الواقع أطفال, فإن البالغون يتجاهلونهم وحسب. وإيذاؤنا للطبيعة لا يعني نقصاً في الإنذارات. والمأساة الحقيقية هي أننا نتجاهل أولئك الذين ما زالوا يدركون ما نحن نفعله. ففي الإلياذة، سخر هكتور وزوجته أندروماك من طفلهم الصغير أستياناكس Astyanax، الذي أرعبته الخوذة الحربية لوالده، وبعد هذه السخرية بفترة قصيرة قتل أخيل هكتور الذي كان لابساً هذه الخوذة الفخمة، وبعد ذلك بفترة قصيرة قام اليونانيون المنتصرون برمي أستياناكس Astyanax من فوق أسوار المدينة كي لا يكبر وينتقم لوالده. فمن هو الذي يجب أن يُسخر منه؟ ومن هو الذي كانت رؤيته هي الأكثر واقعية؟

فلوبير Flaubert الذي شاهد "تجربة على العصفور في قلب مضخة الهواء" عام 1856، دوَّن في يومياته *"يا أيتها الفتاة الصغيرة التي تبكي. ساحرة بسذاجتها وعمق تفكيرها"*[306] لأنها هذه السذاجة (إذا أردتم أن تُسمُّوا كذلك إدراك الطفل المباشر للحياة سذاجة) هي عمق التفكير بحد ذاته.

[306] - From the Metropolitan Museum exhibit catalogue, 6 September - 2 December, 1990, p. 58.

ونحن نقف اليوم على النهاية الأخرى للقوس الذي بدأ حين رسم رايت Wright بحماس شارحاً المضخة الخوائية وقوة تحكم الإنسان بالطبيعة. وقد تطورت العلوم والتكنولوجيا إلى حد لم يعد بوسع أكثر الجمهور العقلاني المندفع في القرن الثامن عشر تخيله. ونحن الآن نقف، أو لنقل يجب علينا أن نقف، مذهولين من النتائج. فما فعلناه بالبيئة وبنية حياة الإنسان داخل تلك البيئة الحية لم يكن ممكناً تخيله في 1768. وهذا على عكس ما نتصور لم يفهمه سبينوزا. حيث يجب أن تتملكنا الشفقة الأنثوية وأن نفهم أنها تتوافق ولا تتعارض مع المنطق السليم. ما يعني أنه لم يعد بوسعنا بعد الآن أن نتجنب الاستجابات المباشرة والبسيطة للأطفال.

وحالة الأطفال اليوم تجعل لندن في رواية ديكنز تبدو كالجنة. فخلال عشر سنوات، ما بين 95 –1985، مات مليونا طفل في الحرب وحوالي نصف مليون منهم مات قتلاً. وفي مكان ما، هناك حوالي أربع إلى خمس ملايين أُجبروا على الإقامة في مخيمات للاجئين حول العالم، واثنا عشر مليوناً تُركوا مشردين، ومئتا مليون كانوا أطفالاً عاملين. وفي الولايات المتحدة الأمريكية هناك ستة ملايين طفل تحت سن الست سنوات (أي طفل من أربع أطفال في هذا العمر) يعيشون تحت خط الفقر. وازدادت جرائم الأحداث 50% في السنوات بين 1994–1989 (رغم أنها في الوقت الحالي تشارك في تخفيض جرائم العنف). وقد قامت المحكمة العليا في لوس أنجلوس بتبرئة شارل مكوي الإبن .Charles W. McCoy Jr منوهة أنه "حين يحاكم أحد الأحداث, فإن نصف الحالات تتم دون وجود الأهل"[307]. والعقوبات الاقتصادية التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق تسببت بمقتل مليون طفل عراقي.

لذلك فإننا حين نرى أخيل يجر جثة هكتور وراء عربته بالطريقة نفسها التي كان يجر بها الجنود الأمريكيون جثة جندي فيتنامي وراء عربتهم في الصورة الشائنة، وبالطريقة نفسها التي جر فيها أعضاء الـ ك.ك.ك. الثلاث شاباً أسود حتى الموت عام 1998، نتبين أن البطل فقد كل إحساس بالشفقة في جنون المعركة. لقد فقد ما أسماه الإغريق eleos وaidos أي الشفقة والاحترام، وأصبح أشبه إلى الأسد منه إلى الإنسان، وقادراً على التهام أعدائه كالحيوان المتوحش، لكن حين تأتيه والدته برسالة من الآلهة يعود إلى أحاسيسه. وإن كنا ما زلنا نعتقد بأن هوميروس هو شاعر حرب، فإننا سنفاجأ حين نحاول تفسير تغييراً في القلب كهذا – وشفاءاً في القلب كهذا – كذروة ملحمة مدت عقائد حرب الحضارة الغربية لأكثر من ألفي عام. لكن هذا لا يفتقد للواقعية، فقد شاهدنا العديد من الرجوعات إلى الوضع السوي في الصفحات السابقة. لا شيء غير واقعي في العلاقة المتوترة بين الشفقة وبين الوحشية لدى الشخص نفسه، وهذا هو الوضع الذي نجد فيه أنفسنا.

"أرض بكماء" أو بشرية صماء؟

[307]- These statistics respectively from “Every Fifth Child,” in Bread for the World newsletter, 4:2 (March, 1992) and the Op-ed page of the San Francisco Chronicle for March 28,

لقد أصاب هوميروس حين صور صراخ البشر لحاجتهم إلى التعاطف من خلال وصف مقاتل يعتدي على الأرض الصامتة غير واع للألم الذي لا تستطيع أن تسمعه إلا الآلهة. وهذا ما يجعلني أفكر بسطر ساحر كان إما مثلاً روسياً أو كبيت شعر ويقول أن "كل رصاصة تجد هدفاً لها في قلب أم".

واسترجاع وعي اللاعنف هو إلى حد بعيد جوهر رؤية هذا الترابط. اقترح أحد تلاميذي مؤخراً، وبينما كنا مجتمعين لتعريف العنف "إن آذيتَ أي شئ فأنت تؤذي الصورة بكاملها". كالأرض على سبيل المثال. ويجب اليوم أن نرى هذا بوضوح أكبر، حين تقذف القنابل المدمرة والصواريخ بوحشية على أعدائنا من دون أن ننوه للكيماويات والجسيمات السامة، ما يجعل هوميروس كالنبي حين يصور إحساسه بهذا الربط في وقت كان فيه المقاتلون يتحاربون وجهاً لوجه، وبالسيوف والرماح. وكانت رؤيته هي نبؤة الشاعر العميقة التي توضح بأن العنف هو عنف "يخرب الصورة بالكامل" الذي بوسع الآلهة (أو في لغتنا كشفنا الواعي والعالي) فقط الإحساس به. لقد كان هوميروس عبقرياً لكنه كان يملك أيضاً ميزة تفوق بها علينا. فقد آمن هوميروس بنظرة عالمية (وأحياناً أتمنى لو كان ما زال بوسعنا أن نؤمن) تقول بأن الأرض كائن حي.

ولدى الإغريق أيضاً أسطورة تتحدث عن آغاميمنون Agamemnon الذي كان عليه أن يضحي بابنته في سبيل الالتحاق بأم المعارك في طروادة. ومعنى هذه الإسطورة غير مغلوط: لأن هناك تعارضاً أبدياً بين القتال في الحرب وبين العائلة (التي تؤمن الحماية التقليدية للرجال والنساء). فإما الواحدة وإما الأخرى, لأنه، ووراء كل التعقيدات، فإن الحرب والعائلة تستندان أساساً إلى قيم مختلفة: كالدمار أو الحماية، والنصر أو التربية. أمّا في عصرنا هذا، حين تظهر الأمهات في نشرات الأخبار وهنّ بزي قتال رسمي تاركات أطفالهن في أميركا ليذهبن ويفجرن أطفال أمهات أخريات في العراق أو في مكان آخر، فما الذي سيوقظنا؟

من التناقض الظاهري إلى المثال

في صيف عام 1938م، تصدَّر نيلز بور (صاحب نظرية الكّم) اجتماعاً دولياً للفيزيائين في كوبنهاكن. وكان بور معوفاً للعامة بفضل نظريته المشهورة عن التكامل، التي تصف المحدودية البنيوية لاستيعاب البشر للعالم الخارجي، ما يعني أنه لكي نَصِف أي شيء بشكل كامل فإننا بحاجة دوماً إلى ما لا يقل عن نموذجين تشاركيين محددين, كالجسيم والموجة. فالشيء الذي نريد أن نعرفه (وليكن فوتون أو الكترون أو أيّ وجود كمي والذي يعني بالنتيجة أي شيء) ليس جسيماً ولا موجةً، إنما سيظهر كهذه أو كتلك اعتماداً على كيفية ملاحظتنا له. وبمناسبة هذا الاجتماع الدولي البارز طبق فكرته الشهيرة على الأشياء الأكبر نسبياً من الإلكترون.

ونحن بوسعنا القول محقين أن مختلف الحضارات الإنسانية تكمل بعضها بعضاً. وفعلاً فإن كل حضارة تمثل توازناً منتاغماً للأعراف التقليدية كوسائل تستطيع بواسطتها الإمكانات المستترة للحياة البشرية الكشف عن نفسها بطريقة تبين فيها مظاهر جديدة من حيث غناها اللامحدود وتنوعها.[308]

أمام هذا الاقتراح المذهل، وكما أشار ريتشارد رودس بإيجاز (انسحب الوفد الألماني من الاجتماع محتجاً) لأنهم بالنهاية كانوا نازيين أولاً وعلماء ثانياً. وهم لم يكونوا فقط يستمعون لفيزياء يهودية (فوالدة بور كانت في الواقع يهودية)، لكنهم أيضاً كانوا يستمعون إلى نظرة عالمية معادية بكل معنى الكلمة للقيم النازية، ولتحدّ لكامل لمفهومهم حول الإنسان والقيمة الإنسانية. فـ"الاستبداد" وفق التعريف الشهير لحنة أرندت Hannah Arendt "لا يسعى لفرض قيم استبدادية على الجماعة بل لفرض نظام تكون فيه الجماعة غير ضرورية"[309]. وفكرة بور بأن كل مجتمع وعرق وحتى كل شخص لديه (أو لديها) دور في نظام الأشياء وبأننا نحتاج إلى بعضنا البعض إن أراد أيّ منا استيفاء حقه، تعبر عن كره مرير لكل أشكال الفاشية. لهذا فإنها ستكون ربما نظرة عالمية تدعم مستقبل قائم على الإحساس.

ولأن النازية تعبر عن منطق العنف المدفوع من حيث النتيجة إلى حده الأقصى، فإنه بوسعنا أن نرى فيها عدة أمور تتفق إلى حد كبير مع قرار استخدام الإكراه الوحشي لتحصيل ما تريد، وعلى الرغم من أن الارتباط بينهما قد لا يكون واضحاً للوهلة الأولى. فإن أول هذه لأمور – وربما أول شيء يجب أن نأخذه بعين الاعتبار فيما يتعلق بأية رؤية عالمية– هو تصورها للإنسان. وقد كان هتلر عديم الإحساس بهذه الناحية. حيث يقال أنه في إحدى المرات شرح لصحفي أمريكي: "هل تعرف بأن لكل إنسان سعره وستفاجأ إن عرفت كم هو بخس هذا السعر." فالعنف مرتبط بأحط صورة للكائن الإنسان بينما اللاعنف يعبر عن حالته الأسمى. وهذا أحد الأسباب الذي يجعل العنف يفرقنا عنه بينما يستجيب اللاعنف مباشرةً للانسجام الغامض الموجود بيننا, والذي هو الفخار الخفي لكل منّا. وهذه أحدى الأسباب التي تجعل موقف اللاعنف يقودنا إلى أعمال تمنح إحساساً بالمعنى بينما تمنح حياة العنف في أحسن حالاتها مجرد إشباع سطحي وزائل. ومن ألمانيا اليوم، حيث قام العديد من الشباب بمبادرة لتجاوز ميراث النازية، تلقيت مؤخراً نشرة جميلة تصف *اللاعنف* من جهة و*تخيل شخصي* من جهة الأسفل[310]، ربط بديهي وصحيح.

لقد أخذتنا كلمات بور إلى بصيرة جوهرية. كل متخصص بالأحياء يعرف بأن جوهر الحياة متنوع. ولكن النازيين اعتقدوا أن الحياة مجرد تسلسل نهائي كأن يكون هناك عرق واحد ونظام واحد و

---

[308] - Rhodes, Richard. The Making of the Atomic Bomb. New York: Simon & Schuster: Touchstone, 1988, p. 243.

[309] - Arendt, Hannah. The Origins of Totalitarianism. London: Allen and Unwin, 1967, p. 457.

[310] – ما يترجم بـ Gewaltfreiheit أي "التحرر من العنف". فالألمانية هي واحدة من اللغات القليلة حيث لكلمة "لاعنف" ترجمة إيجابية، أو Selbstdarstellung. هذا ما ورد في نشرة 1994 لمشروع تربوي محلي للعمل من أجل السلام Fränkisches Bildungswerk für Friedensarbeit e.V.

بالنتيجة شخص واحد يكون هو فقط الشرعي والنظيف أو أي كان، أما الآخرون فيكونون "إما معنا أو ضدنا" وهذا يتناسب مع طريقة الدرب الوحيد الذي يتم فرضه بالإكراه إذا لزم الأمر. بإمكاننا أن نسمي هذه الرؤية العالمية بمقولة "الاختلاف من خلال التشابه".

ولسوء الحظ كان ظهورها عالمياً. لذلك فإن الترياق المباشر للفاشية على هذا المستوى هو الفكرة المختلفة تماماً، والتي أسماها هيغل Hegel "الوحدة في التنوع". وكإطار مرجعي، فإن الوحدة في التنوع طريقة لمعرفة القيمة المميزة لكل حياة من خلال فهم ارتباطها بالحياة بالكامل. لاحظ مصطلح بور "بوسع الإمكانات الخفية للحياة الإنسانية أن تكتشف نفسها"[311]. وهذا هو بالتحديد تعريف اللاعنف الذي قدمه شاب اسكتلندي يدعى جون غالتونغ بعد عدة سنوات كـ"تحقق للإنسان" وبالعكس، سيعرف غالتونغ العنف كتسوية للحاجات البشرية من الممكن تجنبها, أي كشيء يمنع هذا التحقق[312]. وبهذه الروح تحدث الدالاي لاما على هامش مؤتمر حقوق الإنسان الذي عقدته المنظمات غير الحكومية والأمم المتحدة عام 1993 حيث قال: "إذا كنا محرومين من استخدام إمكانياتنا الخلاقة فنحن مجردون من استخدام واحدة من السمات الرئيسية للإنسان." وأضاف: "غالباً ما يكون الأفراد الأكثر موهبة وإتقاناً وإبداعاً في مجتمعنا ضحايا انتهاكات حقوق الإنسان. وبالتالي فإن تطور المجتمع من الناحية السياسية والاجتماعية والحضارية يصبح معاقاً بسبب انتهاك هذه الحقوق"[313].

لذلك هناك ارتباط بين الحنو (أو الرحمة) التي هي القوة الجامعة للأسرة والمجتمع والأرض معاً، وبين المفهوم أو الرؤية التي تقول بأن كل حياة ثمينة في تنوعها ووحدتها. لقد كان بور يحاول على ما يبدو تعقب امتداد التنوع البيولوجي، الذي نفهمه نسبياً بشكل جيد، إلى التنوع الحضاري والفردي الذي لا نفهمه. لأن الوحدة في التنوع، إذا صح التعبير، هي لاهوت الرحمة.

هناك الآن أكثر من ستة مليارات إنسان يشكلون الأسرة البشرية، وهم في تزايد. ولكن هذا لا يهمّ. فمن منظور الوحدة في التنوع، كل شخص منهم لا يقدر بثمن. وما إعادة عقوبة الإعدام في الولايات المتحدة والقتل الرحيم والمادية والانتهاكات البشعة لحقوق الإنسان وتدهور الأسرة والأنظمة الداعمة لتنشئة الطفل، إلاّ طرائق تعرض هذا الداخل للخطر. ونحن محكومون بتكرار هذا الخطأ طالما أنه لا يوجد أي خيار آخر لضبط الفوضى سوى العنف، أي عن طريق العنف. لكن حياة الرجل أو المرأة في اللاعنف مقدسة، أي لا تقدر بثمن، ولا يمكن اعتبار المجموع الكلي لكل الحياة أكثر أهميةً من حياة فرد معين، لأنه من هذا المنظور، فاللانهاية تساوي اللانهاية.

---

[311] - وفق تعبير بور.

[312] - Galtung, Johan. “Violence, Peace, and Peace Research,” Journal of Peace Research, No. 3, (1959) pp. 167-191. Cp. Aldous Huxley, Means and Ends (London, 1937) p. 1: “the free development of each will lead to the free development of all.”

[313] - Speech at Non-Governmental Organizations, United Nations World Conference on Human Rights, Vienna Austria, 15 June, 1993 (available at www.tibet.com/DL/vienna.html).

وفق المنطق شمولي فإن "موت شخص هي مأساة، بينما موت مليون هي مجرد قضية إحصائية"[314] أو كما قال رونالد ريغان: "إن شاهدت شجرة واحدة من شجر الخشب الأحمر، فكأنك شاهدتها كلها." لكن منطق اللاعنف لا يفعل بهذه الطريقة، إنما عوضاً عن ذلك هو يقول أن "كلاً بمفرده شيء حسن، والكل شيء حسن جداً." فإلهنا خلق كل الأشياء حسنة جداً[315]. ما يعني بالنسبة للاعنف أن موت مليون شخص هو مليون مأساة، حتى وإن لم تكن مخيلتنا قادرة على استيعاب ضخامتها. وأيضاً فإن مليون وفاة ليست أسوأ من وفاة شخص واحد: لأنه لا شيء أسوأ من وفاة إنسان. وهذا ما تعنيه قدسية الحياة.

ولدى غاندي كهندوسي تقليدي, أساس ميتافيزيقي متين يدعم هذا المبدأ وقد أحب أن يقتبس لتوضيح الأمر مثلَ حكمة تقليدي *yatha pinde, tatha brahmande* والذي يعني: "كما مع الشظية، كذلك مع الكل." أي بمعنى آخر, العالم الكبير متضمن في العالم الصغير. لأن كل ما يعيش "هناك" يعيش "هنا"، أي كما يقول الفلاسفة بالقوة.

وهذه ليست الطريقة التي نرى فيها الأشياء عادة. ولكن من قال أننا عندما نتجول من خلال منطق الشراء والبيع لوعينا الطبيعي فإننا نرى الأشياء كما هي فعلاً؟ فعلماء فيزياء الكم والصوفيون ومنقولات العالم الدينية وكل من يعتقد بقدسية الشخص – ويرصدون ما يشتبهون أنه في قلب كلّ منّا أكثر اللحظات تعبيراً – يعودون دائماً إلى هذه الرؤية. فهذه الرؤية دفعت جورج أورويل، على سبيل المثال، لأن يتفكر بينما كان يشاهد حركات هندوسي يافع يشرف على تنفيذ الحكم على أشخاص محكومين بالإعدام أن "حياة واحدة أقل, (تعني) عالم واحد أقل"[316]. هذا ما دفع المواطنين الصالحين إلى الاعتصام عندما تقرر الولاية بأن لها الحق بوضع حد للحياة وما يجعلهم يقولون بأن عقوبة الإعدام هي "القضية الأخلاقية الأهم في وقتنا الراهن" لأنه وكما قال مراسل مجلة *بؤرة عقوبة الإعدام*: بما أن الحياة ثمينة إلى حدٍّ يجعلنا لا نتجرأ على انتزاعها تحت أي ظرف، ومهما كان هذا يبدو غير عملي فإن التحدي هو العكس من ذلك تماماً، أن نجعل القيمة العليا لكل حياة أساس حياتنا العملية.

أما فيما يتعلق بأجسامنا، ولما كان جزء صغير، يكاد لا يذكر، من حمضنا النووي DNA هو المستخدم بينما يبقى ما تبقى كامناً، فإن هذا يعني قياساً أنه يوجد في وعينا ما يكفي من المعلومات لتجديد العالم. وكل ما نحتاجه هو أن يفتت الشخص الواعي لقدراته المنظومة الاستعمارية ويمحو الخرافة القائلة إنه "من الطبيعي أن يخضع الأضعف أمام الأقوى."[317]

---

[314] - تنسب هذه العبارة أحيانًا لغوبلز وأحيانًا لستالين، انظر: Soloman, Norman. "Wizards of Media Oz: Behind the Curtain of Mainstream News," E-mail to (www.labridge.com/change-links/GOODGRIEF.html)

[315] - St. Augustine, Confessions vii.12, (my translation). The embedded quote is of course Genesis I.31.

[316] - Orwell, George. A Hanging, in Ian Angus and Sonya Orwell, editors, The Collected Essays, Journalism and Letters of George Orwell, London: Secker and Warburg, 1968, p. 46.

[317] - Respectively, Mishnah Sanhedrin IV, 5 and Koran 5.35.

ذات يوم من العام 1943 تم تهريب سبعة آلاف ومئتي شخص، أي عملياً كل اليهود الدانماركيين، إلى خارج الدانمارك على الرغم من وجود الاحتلال. لقد تم تهريبهم بواسطة أسطول مؤلف من عناصر مختلفة من زوارق صيد وأي شيء يمكن أن يطفو، فرمي وقذف وسط البحر الهائج، لكنه وصل إلى السويد عند الصباح على الرغم من احتشاده ومع حمولته التي أصابها دوار البحر. ليجدوا حين اعتقد الجميع أنهم أصبحوا آمنين أن ملك السويد كان خائفاً من منحهم اللجوء. فقد كان خائفاً من الوجود النازي. وربما كان خائفاً من أن يعرِّض هذا اللجوءُ الحيادي السويدَ للخطر.

لكن، عندما قام عالم فيزياء دنماركي كان يختبئ في أوبسالا بإرسال كلمة إلى الملك يقول له فيها أنه إذا لم يقبل اللاجئين فإنه سيقوم بتسليم نفسه للنازيين، رضخ الملك على الفور وقبل باللاجئين. وسواءً كان تحركه (أي الملك) سببه سياسة نفعية أو رحمة تيقظت فلقد استجاب بشكل ممتاز لساتياغراها الفرد التي تحدث عنها بور.

وحدة القلب: في مجتمع التنوع

لأننا إن تخلينا عن قدسية الحياة, التي نؤكد عليها في العالم الغربي من أجل للتلاؤم مع حالات الانتحار المساعدة والإجهاض، و من أجل إزالة هذا الوهم المريح والقائل بأن إعدام (المجرمين) يجعل بقية المجتمع آمناً، نكون قد تخلينا عن مبدأ حضارتنا.

بالتأكيد تبدو فكرة الوحدة في التنوع متناقضة بعض الشيء. حيث كتب الرابي (الحاخام) أبراهام اسحق كوك "أنه بمقدار ما نتعمق في دراسة الخواص الفردية للروح البشرية... يصبح المرء أكثر حيرة بسبب الخلافات العظيمة بين الشخصيات... لكنه، و *بالضبط من خلال هذا الاختلاف نراها تتحد جميعها لتحقيق هدف واحد*, هو المساهمة في كمال العالم, كل شخص بحسب موهبته".[318] (تأكيدي) واللاعنف يعطينا طريقة بسيطة لحل هذه المفارقة. فالوحدة التي نتحدث عنها هي *وحدة القلب* وهي تحت السطح. بينما التنوع الذي نتحدث عنه موجود على السطح, كتنوع للخصائص الخارجية. إن غاندي لم يكن يريد أبداً من المسلمين أن يتخلوا عن دينهم أو من البراهمة أن يتوقفوا عن التدريس أو أداء الطقوس وأن يعتمدوا على دولاب الغزل لكسب قوتهم, إنما أراد من الجميع أن يكفوا عن الشعور بالفوقية أو الدونية تجاه بعضهم البعض. فالبراهميون سيبقوا براهميين والمسيحيون سيصبحون مسيحيين أفضل، وكل شخص سيوافق على رخاء الآخر. وكما شهدنا فقد اخترع مصطلح وحدة القلب ليعبر عن ذلك.

فوحدة القلب تساعد على الفهم بأننا واحد من حيث وعينا الكامن الذي لا يمكن تقسيمه. في الممارسة العملية، أنا أصبح على اتصال مع الواحد عندما أريدكم بأن تحققوا الملاءة وهذا يعني بالطريقة التي بوسعكم تحقيق ذلك. وهذه ليست بالضرورة بالطريقة التي أحققها أنا. لأن المبدأ القائل أنه بوسعنا

[318] - This comment of His Holiness's is also from 1993, and may be found at www.tibet.com/DL/vienna.html.

ومن واجبنا جميعاً تحقيق الملاءة هو مبدأ إيمان أساسي في عالم ساتياغراها؛ ولدينا طرائق مختلفة ومتساوية لتحقيق ذلك. وبهذه الطريقة فإن الوحدة في الطموح (بمعنى في القلب) تدعم التنوع الظاهر لصفاتنا وفرديتنا. وفعلاً ليس بوسعك الحصول على إحداها من دون الأخرى. فالوحدة هي البصمة، لأنها تحقيق حياتنا الداخلية، تماماً كما التنوع هو الصفات الطبيعية لحياتنا الخارجية.

على أرض الواقع، لقد أراد غاندي من الهندوس، باسم المحبة، منع أشقائهم المسلمين من ذبح البقرة. كما أراد أن يأخذ البراهميون بعض الوقت للقيام (بصنع الخبز) طوعاً. لكن قبول جميع الآخرين لا يعني قبول كل شيء. على نحو مماثل، وبينما يزداد العالم صغراً، تزداد فرص أن تعلم من بعضنا البعض ولكن أهمية أن نقلد بعضنا البعض لا تزداد. لأن محاولة فرض (الوحدة) شكلاً (هي في الحقيقة تماثل) تبين أنها تتطلب بعض الهيمنة و/أو التبعية، والإعتقاد بهذا النوع من الوحدة هو الذي أخرج الفاشيين عندما وصف بور الأمر على حقيقته.

في محاولة لتمييع نداء الدالاي لاما (إلى المجتمع الدولي) من أجل المساعدة في تأمين الحقوق الأساسية لشعبه الأسير، قام النظام الصيني ساخراً بلعب ورقة غالباً ما لعبها بشكل جيد وبصدق (بمعنى) أن هذا النوع من "التدخل" هو لفرض القيم الغربية على الشعوب غير الغربية. وقد أظهر قداسته الخلل في تلك الحجج من خلال استخدامه الجيد للمبادئ البوذية.

فجميع البشر، وبغض النظر عن خلفيتهم التاريخية أو الثقافية يعانون عندما يتعرضون للترهيب والسجن أو التعذيب... ويجب ألا يكون هناك اختلاف في وجهات النظر بهذا الشأن... وعلى التنوع الغني للثقافات والأديان أن يساعد في تعزيز حقوق الإنسان الأساسية لدى كل المجتمعات.

جميعنا بحاجة لأن نخدم, جميعنا نحتاج إلى ما التي أشار إليه أوغوسطينوس لأن نكون متحدين مع بعضنا البعض – وهما مجالان لا يعيرهما مجتمعنا الحديث أي اهتمام. جميعنا، وفي كل أنحاء العالم، بحاجة للاحترام , بمعنى الحصول على كلا الكرامة الإنسانية وما نحترمه على حد تعبير دوستويفسكي. واللاعنف يؤمن بشكل كامل كلا هذين البعدين. في ثورة الفلبين الشهيرة 1983–1986 (قوة الشعب) صاغ الناشطون مصطلحاً آخر للاعنف، الذي هو ربما الأفضل على الاطلاق: "تقديم الكرامة".

لا يمكن أن يكون هناك إلاَّ مايكل ناغلَر Michael nagler واحد (لحسن الحظ، كما قد يعتقد البعض) وبينما هناك أشياء محددة ستجعلني سعيداً كفرد (كفرصة تعليم اللاعنف والسعي لزيادة الغابات غير ملوثة) إن رغبتي في السعادة هي نفسها (ولها نفس شرعية) رغبة كل شخص لا بل كل مخلوق. والعنف ينفي كل من هذا التميز الظاهر وتلك الهوية التضمنة. بينما اللاعنف يؤكد عليها. لذلك فإن اللاعنف الفعال (هو دعوة لكل منا) لأن يستخدمهما معاً في سعيه من أجل مجتمع محب.

وبما أن العالم اليوم متشنج إلى حد بعيد بسبب الأحقاد العرقية الحقيقية والكاذبة وبعداوات أخرى. فإنه لم يعد بوسع الناس أن يتذكروا بأنهم يشتركون من حيث الوحدة الضمنية رغم اختلافاتهم السطحية،

لذلك نراهم يرون فقط الاختلافات التي قد تأخذ لاحقاً حجماً رهيباً. فيقعون ضحايا ما أسماه أيبل أيبسفيلد Eibl-Eibesfeldet، العالِم في دراسة سلوك الحيوان، "النوعية الكاذبة"، وهي الخدعة التي تقول أن الآخر ينتمي إلى نوعية أخرى، أي أنهم ليسوا بشراً.[319] فهم اليوم (مجرمون) وطبعاً (إرهابيون) كما كانوا البارحة (شيوعيين) ومن يعلم ما الذي سيكونون لاحقاً.

وهذا ما يساعدنا اللاعنف على تذكره. لأنه وكما قال لي صديق ناشط مؤخراً: اللاعنف "يؤنسن عدوك ويجعل عدوك يؤنسنك". خذ أي صراع سواء في الشرق الأوسط أو في البلقان أو في أفريقيا أو أميركا، فإننا لن نرى أبداً ذلك الكره المفرط الذي يتدفق حول العالم ما لم تكن رؤيتنا العالمية العامة متجردة من إنسانيتها. طبعاً، ستبقى هناك مشاكل كالخلافات حول حقوق الماء والاستحقاقات الاجتماعية، ولكنها ستبقى مجرد مشاكل. وأنت لا تكره المشاكل إنما تسعى لحلها.

وهكذا فإن الفكرة التي تصور العالم كالآلة وبأنه مصنوع من جسيمات منفصلة ونيوتنية صلبة (صلبة إلى حد أنه لا يمكن تفتيتها)[320] لديها نتائج سيئة كما تنبأ جوزيف رايت Joseph Wright. لقد كانت فكرة جديدة عندما صورت (التجربة) ولا تزال جديدة نسبياً بمعنى أنها بدلت أسطورة عاشتها الإنسانية قرون غير معدودة. لكنه بهذا الإدراك اعتقد العديد (ويبدو أنني اعتقدت بهذا أيضاً) أن ما نحتاج أن نفعله هو أن نعيد تلك الأسطورة إلى الحياة، وهذا لن يكون سهلاً. ولأني أمضيت الكثير من الوقت خلال مهنتي المبكرة في دراسة الأسطورة، فأنا أعلم أن رايت Wright مع كل ما حصل من تغييرات، كان توضيحياً؛ فالأسطورة نفسها قد تضعضعت كطريقة تشكل فهمنا للعالم. لأنه وكما قال غالباً صديقي فيليس هارمان Whillis Harman: "لقد أصبح العلم وسيبقى نظام المعرفة الرئيسي الذي تقوم عليه حضارتنا".

لكن هذه ليست مشكلةً بالنسبة للاعنف. فغاندي نفسه قدم اللاعنف بانتظام وعلى نحو ملائم كعلم من حيث معانيه النظرية والعملية، بمعنى أنه يمكن أن يمارس بانتظام وأن يفسر عن طريق قوانين منطق البشري. وعلم اللاعنف، حين يتطور وينتشر، إنما سيدعم مجدداً الأسطورة كنموذج عالمي متفق عليه يقول، أنه توجد حياة ويوجد وعي بوسعه أن يوحد بين الخلق ككل. والنتيجة كما وثقتها دراسة كارولين مرشانت توثيقاً جيداً، إن ما وجد لكان أن أسلافنا بحماستهم للتصنيع، أصبحوا لا يصدقون أن الأرض حية فوصموا هذا المفهوم بالبدائي والروحاني والخرافي. ونحن اليوم في أشد الحاجة لإعادة إيقاظ إدراكنا الفطري بأن الحياة مقدسة. وهذا سيساعد الناس العلميين من أمثالنا أن يعوا بأنه خلف كل التنوع الذي نراه توجد وحدة لا نراها.

---

[319] - حيث جاء: "إن عبارات مثل حقوق وواجبات، تبدو هنا غير دقيقة. لأن لها معنى مقارب من الشرعية. ولها في الوقت نفسه معاني أخرى تشمل كل الحيز الأخلاقي، وهي أعمق بكثير... من الصعب الحديث عن حقوق الحيوان، كما نتحدث عن حقوق الإنسان. لكن، إنكار أية حقوق هو في الوقت نفسه غير مقبول. يجب استبدال الكلمة بالكامل. Midgley, Mary. Evolution as a Religion. London: Methuen, 1985, p. 157; cf. 153:

[320] – نص لنيوتن ورايت.

إن هذه الرسالة وقوتها عالميتان. أثناء فترة الإضطرابات الرهيبة منذ عدة سنوات، في ولاية غاندي جاغارات، أغارت عصابة إجرامية هندوسية على قرية ريفية. وكان كل رجال القرية تقريباً خارجاً في الحقول. على أية حال تصرفت النساء بسرعة وأخذن جيرانهم المسلمين لتخبئتهم من العصابة. ولأنهم يعيشون غالباً في أكواخ ذات غرفة واحدة، فإنهن خبأنهم في زاوية puja، تحت المذبح الذي في منازلهن. واقتحمت العصابة الإجرامية منزلاً بعد الآخر صارخةً: "أنتم تخفون المسلمين هنا." فأجابت النسوة بهدوء: "نعم." فصرخت العصابة: "سندخل ونحضرهم." فأجابت النسوة واحدة تلو الأخرى: "اقتلوني أولاً، عندها فقط بوسعكم الدخول." وكان كل مسلم في القرية في مأمن في ذلك اليوم.

من هم هؤلاء النسوة؟ نحن بحاجة لشجاعتهن وفطرتهن ورؤيتهم. نحن بحاجة لإيمانهن. فمن هن؟ إنهن كل واحد فينا، وقد وضع في وسط حدة الحياة الحادة حيث تتقاطع الثقافة ولكن اللاتي مازلن يملكن بقايا رؤية إنسانية نحن بأمس الحاجة إليها. لأننا نشعر جميعنا اليوم بمثل هذه الحاجة الملحة، وهناك كل إمكانية لأن نعيد بناء ثقافتنا كي تدعمنا حين نواجه فرصنا لنحرك ذلك النوع من الإيمان والشجاعة. إذا نجحنا (ونحن لا نطلب أقل من ذلك) فإنه يجب أن نكون فخورين بمساهمتنا في الخروج من مثل هذا الزمان المصقع للروح البشرية.

خاتمة

إن كنت تحسب نفسك جديراً بالسلام، فسوف تعيش مبتهجاً في كل الأوقات. إبحث عن الفهم، وليس الذهب. إكسب السلام، وليس المُلْك. – القديس إسحق السوري –

"إنها أزمنة مثيرة"، كتبت فاندانا شيفا في كتابها *الحصاد المسروق: السطو على الموارد الغذائية العالمية*.

... ليس مُحتّماً أن الشركات ستتحكّم بحياتنا وتحكم العالم. فلدينا إمكانية حقيقية لتشكيل مستقبلنا الخاص. وعلينا واجب إيكولوجي واجتماعي للضمان بأن الغذاء الذي نقتات عليه ليس حصاداً مسروقاً...

لدينا الفرصة للعمل من أجل حرية وانعتاق كل الأنواع الإحيائية وكل البشر. فشيء بسيط وأساسي مثل الغذاء أصبح موقعاً لهذا التحرر المتنوع والمتعدد الذي لدى كل منا فرصة للمشاركة فيه – لا يهم من نكون، ولا يهم أين نكون[321].

الأمثلة التي تثير الدكتورة شيفا، وقد كانت من الفيزيائيين الهنود الرواد قبل أن تصبح واحدة من المفكرين والنشطاء العالميين في مجال البيئة، هي قضايا المقاومة الجريئة من قبل الهنود العاديين، القائمة أساساً في القرية، وبوعي غاندوي في الغالب، لقرصنة مصادر الغذاء في الأرض من قبل الشركات العابرة للقارات. فما يبرر حماسها هو العديد من الأمور المتعلقة بهذا الكفاح.

لنتذكر أن حملتين رئيسيتين من حملات غاندي كانتا حول سلع أساسية في الحياة: الكساء والملح. فمن السرقة عبر "خصخصة" الملح (وهي حقاً تسليع)، الذي هو سلعة حياتية في الهند، انتقلت قوى عالمية مشابهة الآن إلى بذور الأرض. فبتسويق بذور "منتهية الصلاحية" لا يمكن لها أن تعيد الإنتاج، وبتصنيع اتفاقيات تجارة عالمية تجبر المزارعين على شراء هذه البذور، تأمل شركات مثل مونسانتو أن تجعل المزارعين في العالم معتمدين على نُظمهم الشَركيّة (المتعلقة بالشركات) بالقدر نفسه الذي كانوا عليه في ظل الأنظمة الاستعمارية في الأيام الخوالي. ومرة أخرى، خانتنا مهارتنا التكنولوجية. فالطمع يصل إلى نواة الحياة ذاتها. لكن "بذرة الساتياغراها" تُولَد.

حين يُدفَع الناس من العوز إلى الإملاق، لا يجدون مفرّاً من القتال. لكن كم يؤدي هذا إلى فروقات. فقد قتل أعضاء الجيش الجمهوري الإيرلندي في كفاحهم أكثر بستة أضعاف من الناس مما قتلوا من الجيش البريطاني وقوات الشرطة معاً. كما أن أكثر من نصف أعضائه الذين لاقوا حتفهم في الصراع قُتلوا على يد أعضاء المنظمة نفسها. هذا هو قانون العنف، وهو قانون، كما يقول الإيرلندي جون هيوم،

[321] - Shiva, Vandana. *Stolen Harvest: the Hijacking of the Global Food Supply.* Cambridge, Mass.: South End Press, 2000, p. 4.

قانون "لا وظيفي"[322]. وقد تشعّبت مقاومة السرقات الشَرِكية للطبيعة إلى طرق شتى، حيث اتخذت الكفاحات الإيكولوجية بعداً عنفياً، كما في المساعي المبكرة لـ"الأرض أولاً Earth First "، أو لاعنفياً، كما في حركة شيبكو Chipco المشهورة في شمال الهند. وثمة سبب آخر لحماس الدكتورة شيفا لحركات المقاومة هذه وهو أن هذه الحركات ملتزمة باللاعنف، كما أنها لم تُصحِّ القاعدة الشعبية فحسب، بل كسبت أيضاً الكثير من الاعتراف والتقدير الرسمي. وقد افتتحت منظمة اليونسكو الألفية بـ"برنامج ثقافة السلام" الطموح، حيث أعلنت الهيئة الأصل العقد الألفي الأول أنه "عقد تعليم ثقافة السلام واللاعنف". وكان هناك على الدوام كفاح مثمر، لكن نادراً ما كافحوا بطريقة جيدة على نحو متكافئ. وإذا كانت هذه الأزمنة مثيرة، فمردُّ ذلك إلى الطريقة الجديدة، الطريقة المتّسقة مع الهدف، والتي تحرز تقدماً.

مؤخراً، انتقلت صديقة لي، وهي مساعدة طبيب وذات مهارة عالية، إلى كاليفورنيا لاستلام موقعاً يتطلب عناية ودقة في عيادة طبية صغيرة. لكن بعد فترة قصيرة من التحاقها بالعمل، "استُملِكت" العيادة من قبل شركة رعاية صحية. وفي غضون أسابيع، تم فصل جميع الممرضات. وأصبحت هيئة المساعدين مجرد "موظفين"، ليسوا أطباء أو ممرضات، وبدأ المدراء الجدد بإصدار الأوامر والتوجيهات البيرقراطية إليهم التي سقطت مثل مقصلة بينهم وبين مرضاهم، كما أن معظم الأصدقاء الذين خدموا لسنوات أحسوا أن عملهم مضجر ويحط من القدر. أما "لي" فتشبّثت بالعمل، حتى الآن، يحدوها الأمل بأن يعود كبير الأطباء عندما يتعافى من النوبة القلبية التي أصابته. هذا هو الطب الشَرِكي. والصحافة الشركية ليست أحسن حالاً. ولا التعليم الشركي. فأنا لم أعد في نظر إدارة جامعتي أستاذاً، عضواً في كلية مميزة، بل "مستخدَم". وكما أشار إيفان إيليتش ذات مرة في مقالة مذهلة أُعيد طبعها مراراً بأن العنف يساوم التنوّع دائماً.[323]

لا يتمالك شخص عقلاني نفسه عن التساؤل: لماذا نحاول نحن البشر خلق عالم مُجرَّد من الإنسانية على هذه الشاكلة؟ فدافع الغرب باتجاه التمركز، الملائم تماماً للطمع والعنف، لا يمكن أن يدوم. ويوماً ما، سوف ينبغي على النظام العالمي الشركي أن يسلك طريق الإمبراطورية العالمية، الكنيسة العالمية، والفَدْرَلة العالمية. وقد يكون حماس الدكتورة شيفا ناجم عن تبصّرها بفجر ذلك اليوم. فكما تقول في أغلب الأحيان: "أعتقد أن الحركة أقوى من أن تُدرَك، وأن النظام الشركي أكثر هشاشة مما نتصور".

قبل فترة قصيرة من وفاته، حضر إي. إف. شوماخر، مؤلف *الصغير هو الجميل*، إلى بيركلي، فاستضفته لإجراء حديث مع طلابي. كانت ملاحظته الأولى وهو يحدّق حوله بقاعة الدروس الكئيبة الواقعة تحت مستوى الأرض: "انظر كم هو مقدار الإزعاج الذي نالنا للابتعاد عن الضوء والهواء حيث يمكننا صرف الكثير من الأموال لتجهيزها ثانية". لماذا نبذل الكثير من الجهد لبناء أشياء لا نرغب أن

---

[322]- Hume, John. *A New Ireland: Politics, Peace and Reconciliation.* Boulder, CO: Roberts Rinehart, 1996, pp. 113f.

[323] - Illich, Ivan. "The Delinking of Peace and Development," *Alternatives* VII:4 (1981), 409-416.4. Wright, Quincy. *A Study of War*. Chicago: University of Chicago Press, 1965, p. 1043.

تكون لدينا؟ لا أمتلك جواباً على هذا السؤال، لكنني أعرف حقاً أمراً واحداً: أننا لسنا ملزمين بتبييض عالم الحياة والتنوع بالقدر الذي نعتقد أننا عليه، وهذا ما يمنحنا الأمل بأن لجالوت الشركي جبهة هشة. آسف، له قلب رقيق يمكن لقوة داوود الحديث اللاعنفية استمالته.

حكمة محلية

بدأت حركة شيبكو في السبعينات عندما ساعد سندرلال باهوغونا، وهو مناضل غاندوي، على حشد القرويين في إقليم أوتاركهاند في هيمالايا المنخفضة لمقاومة تحفيز الحكومة على إزالة الأحراج مما ترك الغابات محرومة من الأشجار المحلية، وجرد القرويين ليس من سبل عيشهم فحسب بل غالباً من حياتهم نفسها بسبب الفيضانات الكارثية عندما كان يقفون بلا حول أمامها، حيث لم تعد الأشجار قائمة هناك لكي تحجز المياه وتُثبّت التربة. وإلى مدى بالغ الأهمية، استعاد القرويون، وأغلبهم من النساء، السيطرة على أراضيهم، وانتشرت رسالتهم إلى ما هو أبعد من منحدرات غارهوال لكي تكون أملاً للحركات البيئية اللاعنفية في كل مكان. لقد قلتُ أن حركة شيبكو بدأت في السبعينات، لكن بوسعك أيضاً القول أنها تعود إلى قرون. وفي الحقيقة، نُفخِت فيها الحياة فقط في الستينات بشرارة غاندوية: فقد ضحّى نساء ورجال بأنفسهم بشكل جماعي، وبنجاح، عندما جاء مهراجا جودهبور من أجل الشجر في العام 1731. وتجددت في 27 آذار العام 1973، عندما تذكر شخص ما في اجتماع قرية، ومن المحتمل أنه رجل عجوز، قطعة مهمة من حكمة شعبية: "عندما يهاجم نمر طفلاً، تتصدّى الأم للهجوم بجسدها هي".[324]

ليس مصادفة أن يكون لحركة شيبكو جذور متأصّلة. فنحن كنا أقل عنفاً عندما كنا أكثر وعياً بإنسانية الآخر، وبالحياة من حولنا. ومن المميز جداً في التحول العالمي في الوعي أن شيفا تلمح إلى أنه ليس فقط في الكفاحات البيئية لكن أجزاء أخرى من من أجل مستقبل لاعنفي هي حكمة مُعاد اكتشافها والتي جعلتنا النزعة الصناعية ننساها. وهذا حقيقي بشكل بيّن في المجال المُسمّى عدالة جنائية. فلدى العديد من الثقافات الكثير من المفاهيم المحددة عن المصالحة في الموضع الصحيح قبل أن تتغلب عليها الحداثة المُجرِّدة للإنسانية، وتنشد إعادة التأكيد عليها ضد الغطاء الصناعي. وهو ما يحدث من كندا إلى نيوزيلاندا، من برنامج المصالحة بين المعتدي والضحية (VORP) إلى لقاءات مؤتمر مجموعة العائلة (FRG) التي تدمج النظرات المجدّدة الحديثة مع النظرات الماورية Maori لإحداث تخفيض ملحوظ في الانتكاسية الإجرامية في أوساط الشباب[325]. لقد كتب طالب لاهوت ميثودي (منهجي) من كينيا: "ذُكّرتُ بطريقتي التقليدية في التعامل مع الجريمة، المُشار إليها فعلياً بـ"الكسر". فالشيوخ أدركوا بأن

---

[324] - Weber, Thomas. *Hugging the Trees: the Story of the Chipko Movement.* New Delhi: Penguin, 1989, pp. 92f; following quote from pp. 40f.

[325] - For more on this and other 'culturally appropriate' aspects of the new justice paradigm, consult the site www.restorativejustice.org.

من أجل المزيد حول هذا الموضوع وبعض الجوانب "الثقافية المناسبة" لهذا المفهوم الجديد للعدالة الرجاء مراجعة الموقع المذكور أعلاه:

العقاب الذي يؤدي إلى مرارة كان ذا نتيجة عكسية في شفاء شخص "مكسور". وكان يُفتَرض بالعدالة أن تكون من أجل الحفاظ على الحياة، وليس تدميرها... وكان العقاب يُفرض دوماً بهدف تحسين حياة الشخص في المجتمع".[326]

وأقرب إلى الوطن، اكتشف روبرت يازي، رئيس محكمة أمة نافاجو، مثل العديد من مواطنيه، بعد التخرج من أوبرلين وكلية القانون في نيومكسيكو أن البديل لنظام العدالة المثير للسخط الذي يعتمد على التراتبية والقوة ويهدف إلى العقاب (وينتج عزلة) يكمن عند عتبته. فكثير مما يقوله حول مفاهيم نافاجو يتردد صداه فيما نحن تابعناه من خلال هذا الكتاب.

تتعلق مفاهيم نافاجو للعدالة بالعلاج لأن الكثير من المبادئ هي نفسها... فعلاج نافاجو يعمل من خلال عمليتين: الأولى، يُبعد أو يزيل سبب المرض؛ والثانية، يعيد الشخص إلى علاقاته السليمة في التضامن مع محيطه ومع نفسه.

عدالة نافاجو... تفضل الطرق التي تستخدم التضامن لإعادة العلاقات الجيدة بين الناس. والأكثر أهمية أنها تعيد العلاقات الجيدة بالنفس.[327]

بالطبع، هذه القدرة الشفائية لا يمكن أبداً أن تفقد كلياً، حتى في المجتمعات الصناعية. ففي جورجيا، في وقت مبكر من التسعينات، قتل شابان أبيضان شاباً أسود، وساعد مركز قانون الفاقة الجنوبي على تقديمهما للعدالة. وكانت والدة الشاب القتيل هناك في قاعة المحكمة عندما حُوكم القاتلان وأدينا. فوقف أحد الشابين على المنصة ونظر إليها وقال منتحباً: "آمل فقط أنك في يوم ما ستكونين قادرة على الغفران لي". فقالت الأم: "بُني، لقد غفرت لك في الحال".

كتب القديس إسحق السوري: "تمسّك بالطيبة، وليس العدالة. إلجأ إلى الرأفة، وليس الحماس، فيما يتعلق بالشر".[328]

علينا ألا نصور الماضي بطريقة رومانتيكية. فالكثير من آليات تجنب النزاع التي تطورت في المجتمعات ما قبل الصناعية لا يمكن الاشتغال بها في مجتمعاتنا المعقدة، والبعض منها التي عملت بشكل جيد لقرون غير معدودة انهارت عندما واجهت الحداثة (فشعب سيماي في ماليزيا، على سبيل المثال، أصبح أكثر عنفاً من سكان السهول الماليزيين عندما اكتُسِحوا في الحرب الباردة). لكن كان من الحماقة تجاهل جواهر الحكمة التقليدية التي يمكن أنها ما زالت موجودة في العالم. وبوسعنا التنقيب عنها من أجل إغناء حلّ النزاع، والسلام، والعدالة الجنائية، والألعاب الرياضية (كان في الكثير من الثقافات رياضات لاتنافسية)، والبيئة، وكل جوانب الحياة التي أتلفها العزل..

---

[326]- Karembu L. Ringera, quoted in the Fall 2003 Progress Report of the African Great Lakes Initiative (*Friends Peace Teams*), p. 1.

[327] - Yazzie, Robert Hon. ""Life Comes From It": Navajo Justice Concepts," *New Mexico Law Review* 24, 1994; this and following quote from pp.180f & 186.

[328] - Yazzie, Robert Hon. ""Life Comes From It": Navajo Justice Concepts," *New Mexico Law Review* 24, 1994; this and following quote from pp.180f & 186.

تقول فاندانا شيفا أنه بوسعنا المساعدة في المنعطف العظيم نحو مستقبل لاعنفي، "لا يهم من نكون، ولا يهم أين نكون". وأنا أود الاستنتاج بالاستشهاد بثلاثة مبادئ يمكن أن تساعدنا على فعل ذلك.

1) عندما كتب وليام جيمس مقالته الكلاسيكية حول "المكافئ الأخلاقي للحرب" في العام 1911، كان يمتلك بالتأكيد جزءاً من الفكرة الصائبة، وهي أن الطريقة الوحيدة لإلغاء حتمية الحرب هي إعطاء الشباب بديلاً يتخلصون فيه من طاقتهم اللامستقرة. لكن ماذا هو؟

إذا كان هناك الآن – وهي فكرتي – بدلاً من تجنيد عسكري تجنيد لكل السكان الشباب لتشكيل... جزء من الجيش المجنّد ضد الطبيعة... وسيكونون قد دفعوا ضريبة دم، وقاموا بدورهم في الصراع الإنساني الممعن في القدم ضد الطبيعة، وسيطأون الأرض بأقدامهم بفخر أكبر.[329]

من الرصانة إدراك كيف أن نصف قرن من الكفاح "الممعن في القدم" ضد الطبيعة تحول إلى أن يكون مقاربة خاطئة بشكل مريع. ما الذي كان يمكن أن يجنّب جيمس ذلك الخطأ؟ لو كان على دراية بأن اللاعنف قانون ينسج عبر كل علاقة. فكما تقول حكمة هندية: "إذا لم نرَ الله إجمالاً، فلن نراه على الإطلاق". لا لاستبدال حرب على الطبيعة بحرب على البشر، ولا لاستبدال العنف التلفزيوني بعنف حقيقي إذا أردنا أن نعرف سلاماً حقيقياً. فالعديد العديد من المجموعات والمنظمات التقطوا صدى واحداً للاعنف من هنا أو هناك، لكن ليس الكثير منهم أدرك هذه الكونية. إحدى هذه المنظمات تُدعى، بشكل ملائم، شبكة الكساء المستمرة. أنا أحب حقاً تلك الصورة، فهي تذكرني بفكرة بيبينسكي حول "نسج المقاتلين، ضحايا العنف أولاً، بالعودة إلى النسيج الاجتماعي"،[330] وبدعوة ستيوارت كوان إلى "العمل العظيم في إعادة نسج الاقتصاد الإنساني، عملية إثر عملية، ومُنتَجاً إثر مُنتج، وصناعة إثر صناعة، في عودة إلى اقتصاد الأرض".[331]

المبدأ الأول: خلق أخلاق لاعنفية مستديمة نحو الحياة برمتها وممارسة لاعنفية بشأن كل مشكلة تهدد الحياة.

(2) تذكّر أن الوسائل والنهايات واحدة غير قابلة للانقسام. وما يزال هذا غائباً عن فهمنا. فإتلاف الأشجار، أو قصف العيادات، أو إلحاق الإهانات بالباحثين، أو العرض المتباهي للصور المرعبة للحيوانات المخبرية التي تتعذب – تلك الوسائل تنشر السم الذي هم عازمون على هزيمته. إنها الملاحظة التي بدأنا بها هذا الكتاب، حيث ينبغي علينا ألاَّ نكون ضد هذا النوع أو ذاك من العنف، بل ضد العنف ذاته.

(3) ثالثاً، تذكر أن اللاعنف هو علم. ففي العصر الحديث الذي نعيش فيه، شئنا أم أبينا، لن نفلح في القيام باللاعنف على حَدَبة (مع أننا سنكون أبعد عن العنف حينها). إننا بحاجة إلى منطق

---

[329]- James, William S. *The Moral Equivalent of War*, in *Memories and Studies*. New York: Longmans, Green & Co, 1911, pp. 290f.

[330] – (بيبينسكي)

[331] - Cowan, Stuart. “A Design Revolution,” *Yes!*, summer, 1998, p. 30.

مرغِم يضيء لنا الدرب من جهة، ويكشف لنا المخاطر الكامنة من جهة ثانية. تصوّر لو أننا اعتقدنا، على سبيل المثال، أن الحكاية الرمزية عن تلك الأم المتسامحة في جورجيا كانت تعني أنه ينبغي علينا ترك كل أولئك الذين انتهكوا حرمة الحياة يسرحون ويمرحون. لا على الإطلاق. إننا نسامح من كل قلوبنا (أو نناضل من أجل ذلك المثال)، لكن عندما يخرج عنف الآخرين عن السيطرة فإنه عليهم – وعلينا – أن نبتعد عن طريق الأذى. أجل، سامح، من أجلك أنت إذا لم يكن من أجل أحد آخر. نعم، استعمل التسامح من أجل إعادة الأنسنة والمصالحة. لكن لا تضع الناس في طريق الأذى قبل أن يكونوا قد نالوا الفرصة لاستعادة سلامتهم العقلية. وقبل كل شيء، تذكر أن لاعنفنا لن يكون كاملاً ما لم نثابر على سؤال أنفسنا: ما سبب هذه المشكلة؟ وأين تكمن الارتباطات غير المرئية؟ وما الذي بوسعنا عمله لمنع حدوث مثل هذا الرعب ثانية؟.

يعيش پول وآني كما يمكن أن نعيش نحن جميعاً. عندما أمضيتُ يومين في مزرعتهما في وسط ميتشغان – يومين بلا طعام جاهز من المخازن أو وسائل إعلام – تعلّمتُ الكثير عن الزراعة المدعومة تجمّعياً. فالمزرعة التجمّعية، التي كانت تُدار منذ عقد من الزمن أو أكثر، ليست مجرد عملية عائلية، ولا عملاً ربحياً (مع أن أحوال پول وآني حسنة، ضمن نطاق احتياجاتهما المعقولة). فكلاهما متأمّل ملتزم، وبتأسيسهما المزرعة التجمّعية خلقا مؤسسة مهمة بقدر ما هي متواضعة لما تمثّله من عالم اقتصادي موازٍ يناسب أصحاب الجيوب المثقوبة في كافة أنحاء العالم. ففي المزارع، وفي التجمّعات، وفي الأماكن النباتية المحددة، وأحياناً في المناطق المحصورة في براري مدينة كبيرة، يبتعد الناس عن اقتصاد المال وقيمه، بطريقة تشابه ما قمنا به في الستينات، لكن بخبرة عملية أكبر بكثير. وقد يبدو پول وآني شعبيّين عندما يحلبان الأبقار، لكنهما أيضاً يجوبان العالم لإلقاء المحاضرات حول علم الديناميكا الحيوية الجديد/القديم.

يتعمّق اللاعنف في المزرعة التجمّعية. وتوضح آني: "هناك ممارسة كاملة لإعادة إحياء الأرض التي نعيش عليها. ففي الوقت الذي تحصل فيه على قوتك، تتغذى الأرض أيضاً، وبطريقة ليست أقل". وهذا يتجاوز "المستدام"، وقد حدث لي: وأكثر إلهاماً من تلك الكلمة المستخدمة كثيراً. فمساعدتي لپول وآني في إطعام بقراتهما الأربعة، وإرواء عطشها، وحلبها، والتحدث معها (لقد عملتُ في حلب الأبقار بشكل جيد، من أجل فتى بروكلين)، تأثّرتُ بعمقٍ بعلاقتهما مع الحيوانات. ولاحقاً، كان صديقي ستيف يتفكّر: "ليس لدينا فكرة عمّا خسرناه. فالتفرقة العنصرية ليست فقط في جنوب أفريقيا، وليست متعلقة بالبشر فحسب". فبتغييب الحيوانات عن شوارعنا وعن أنظارنا، ونفيهم إلى حدائق الحيوانات وحلبات السيرك، نحن نخسر، وهم يخسرون، وحتى الاقتصاد يخسر. أما العنف فيربح. وكما قال الفيلسوف: "بالنسبة لمن يحجم عن [إيذاء] كل نابض بالحياة... سيكون أكثر حذراً بكثير لكي لا يجرح أولئك الذين

من نوعه الخاص. لكن الذي يحصر العدالة بالإنسان لوحده يكون على استعداد، مثل من يكون في مكان ضيق، لنبذ الظلم.[332]

ما زرته في هذين اليومين كان زراعة لاعنفية. وكما صاغت آني ذلك: "نحن لا نكره الحشرات التي تمتص عصارات النباتات، ولا الجراثيم، ولا حتى الجرذان". لكن مرة أخرى، هذا لا يعني ترك الجرذان تعبث في المكان. فقد حدث ذات مرة أن أكلَت القوارضُ الملساء حبوب الأبقار وخضارهم الخاصة، لكن عندما بدؤوا بالهرولة بعيداً عن عائلاتهم لملاقاة الأطفال الزائرين ("أوه، أنظري ماما، كم هو مثير للاهتمام هذا السنجاب")، كان يجب على پول وآني فعل شيء ما. وقد قاما بذلك، لكن بلا كراهية. لقد استخدما سمّاً مرة، في حالة طوارئ (الأطفال، مع ذلك)، ومن ثم جرّبا علاجاً قديماً غير مرجّح، حيث جمعا مكوّنات تبدو لي أكثر شبهاً بساحرات ماكبث منها إلى العلم (يدعوها مزارعو الديناميكا الحيوية "عامل تشجيع")، ونجحت. لم يعد هناك جرذ على مدى النظر. وقالت آني متنبئة: "حتى لو كان في مزرعتنا غَوْفَرات (حيوانات ثديية من رتبة القوارض)، لن نكرهها".

إنها حقاً أزمنة مثيرة.

[332] - Taylor, Thomas, translator. *Porphyry on abstinence from animal food.* New York: Barnes and Noble, 1965, p. 140.